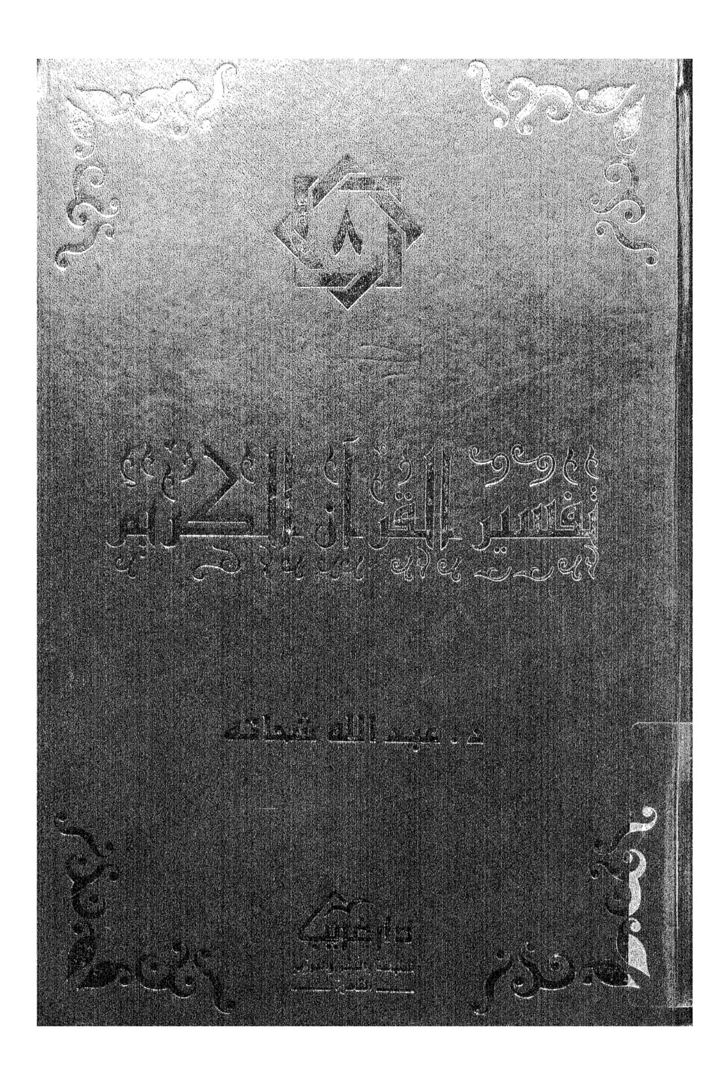

٨
تفسير القرآن الكريم
د. عبد الله شحاته
دار غريب

إهـــــــداء 2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته





تفسير سورة الإسراء

١ - بين يدى السورة

(أ) وحدة الرسالات :

سورة الإسراء فى جملتها تدور حول الرسول والرسالة فتبدأ بالحديث عن الإسراء بدايته ونهايته وغايته، وهذا هو العنوان الذى تندرج تحته موضوعات السورة وكلها موضوعات لها أوجه مناسبة بالرسول محمد ﷺ .

فقد تحدثت عن بنى إسرائيل بمناسبة الحديث عن الإسراء إلى بيت المقدس ، وكان اليهود يعيرون النبى بأنه لم يذهب إلى بيت المقدس مع أن الرسل السابقين قد ذهبت إليه وولدت حوله وهبط عليهم الوحى فى معبده، ويعيرونه بأنه ليس من سلسلة الأنبياء ، فقد اختص الله إبراهيم بأن جعله أبا للأنبياء والمرسلين وجعل الرسالة كلها فى عقبه بيد أن جميع المرسلين كانوا من نسل ولده إسحاق ، ثم يعقوب الملقب بإسرائيل وقد أنجب يعقوب اثنى عشر سبطا لقبوا بالأسباط[1] ، وكان من نسلهم جميع أنبياء بنى إسرائيل .

أما النبى محمد ﷺ فكان وحده من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وقد جعل الله الإسراء إلى بيت المقدس؛ ليكون بمثابة (تدشين) لنبوته ثم جعله يصلى إماما بالأنبياء ؛ ليكون هذا اعترافا بأنه أهل للرسالة ، وتشير بعض الآيات فى القرآن إلى هذا المعنى[2] .

وصلاة النبى بالأنبياء تشير إلى وحدة الرسالات والنبوات وأنها جميعا من عند الله وأن الأنبياء والمرسلين أرسلوا من أجل هداية الناس ودعوتهم إلى التوحيد وإرشادهم إلى الفضائل وتحذيرهم من الرذائل، فالغاية من الرسالة واحدة والهدف واحد وإن اختلفت الوسائل باختلاف الشعوب وطبائعها، فمن الأنبياء من حارب رذائل معينة انتشرت بين قومه كتطفيف الكيل الذى جاء به شعيب ، والمثلية الجنسية التى حاربها لوط ، ولكن الأنبياء فى الأساس العام دعاة إلى توحيد الله وهداة إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، ولذلك تلتقى الديانات على فكرة التوحيد وحسن السلوك ، وفى سورة الأعراف نجد آيات متلاحقة تتحدث عن رسالة كل نبى وتتشابه جميعها فى أنها تبدأ أولا بالدعوة إلى توحيد الله . قال تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (الأعراف: ٥٩) .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (الأعراف: ٦٥) .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (الأعراف: ٧٣) .

فالرسالات متحدة فى الأساس العام وهو التوحيد .

ومتخصصة فى الفروع التى تعالجها والمشاكل التى تقدم حلولها وبعبارة أخرى : الغاية واحدة والوسيلة مختلفة .

وقد ذكر السيد رشيد رضا فى تفسير المنار(٣) : أن تعدد الرسل يشبه دولة أو جمهورية لها رئيس يحكمها بقانون عام ، وللرئيس نواب عنه يحكمون المحافظات ، فكل محافظ يتفق مع الآخر فى الأساس العام للحكم ويختلف عنه باختلاف طبيعة الأقاليم فلمحافظة السويس أو البحر الأحمر أو الوادى الجديد مثلا تشريعات خاصة بها ، ولكنها تلتقى مع بقية المحافظات فى احترام الأساس العام للحكم وتنفيذ دستور الدولة وطاعة رئيسها .

وكذلك الرسل ، الإله الذى أرسلهم إله واحد لا شريك له والدعوة التى أرسلوا بها دعوة واحدة فى روحها وهدفها . ولكن الوسيلة لتهذيب السلوك تختلف من نبى لآخر ومن شعب لآخر .

ونجد نصوص القرآن والسنة تؤكد هذا المعنى وتؤيده . فالقرآن يقول : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...

ولذلك نجد المسلم يؤمن بالرسالات كلها وبالرسل والكتب الصحيحة التى أنزلها الله: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . (البقرة: ١٣٦).

وفى الصحيحين(٤) يقول النبى ﷺ : « إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يقولون لو وضعت هذه اللبنة فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم الرسل » .

ويروى البخارى: أن النبى ﷺ قال : « الأنبياء أخوات لعلات(٥) أمهاتهم شتى ودينهم واحد »(٦).

وأبناء العلات هم أبناء الضرائر يكون أبوهم رجلا واحدا وأمهاتهم متعددات ، فكذلك الرسل ربهم الذى أرسلهم إله واحد ورسالاتهم متعددة بتعدد بلادهم .

وقريب من ذلك قوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

وفى هذه الوحدة رد على اليهود الذين ادعوا أنهم شعب الله المختار وأن الرسالة لا تكون إلا فيهم وأنهم أبناء الله وأن من عداهم لا يصح أن يكون رسولا .

فالله هو الذى خلق الخلق وهو يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، والرسالة منّة إلهية يعطيها الله من يشاء من عباده .

بل إن الرسل أنفسهم فضل الله بعضهم على بعض فجعل منهم أولى العزم ، الذين تحملوا البلاء أكثر من غيرهم .

قال تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . (البقرة: ٢٥٣).

وقال سبحانه : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ . (الأحقاف: ٣٥) .

وأولو العزم من الرسل خمسة هم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .

وسموا بأولى العزم لتحملهم من البلاء والجهاد والكفاح أكثر مما تحمله سواهم ، ومن قواعد الإيمان أن تؤمن بالله ربا وخالقا ، وأن تؤمن بأن الله أرسل رسلا لهداية الناس : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ (النساء : ١٦٥) .

وهؤلاء الرسل كثرة كثيرة فى تاريخ البشرية الطويل ، وهم علامات مضيئة وشارات ترشد البشرية، ولا يعلم عددهم إلا الله ، قال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (غافر: ٧٨).

وقد ورد ذكر كثير من الرسل فى القرآن الكريم ، قال تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ . (الأنعام: ٨٣–٨٦) .

(ب) بين موسى ومحمد :

كان موسى رسول بنى إسرائيل وصاحب التوراة والألواح وصاحب الشريعة التى أرسل على أساسها عيسى ، فلم يأت عيسى بشرع جديد ، بل كان فى دعوته تابعا لتعاليم التوراة وغاية فكرته أن صاح صيحات متتابعة يدعوهم فيها إلى صدق الإيمان والإخلاص ويبعدهم عن حب المادة ويسمو بهم إلى الروحانية الخالصة.

ولذلك يقول عيسى: ما جئت لأنقض الناموس بل لأجدده ، وقال القرآن على لسان الجن : إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ . (الأحقاف: ٣٠) .

وفى البخارى يقول ورقة بن نوفل للنبى: هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى[٧] .

فموسى صاحب دين ينتظم القوانين المدنية والشرائع الدينية ، أما عيسى فجاء بفكرة إصلاحية روحية فقط . وقد عادت الكنيسة فى الغرب إلى هذه الحدود الدينية وحدها . أما شريعة اليهود فهى شريعة متكاملة ولا ينافسها إلا الإسلام لأنه هو الدين الوحيد الذى يناظر اليهودية فى اشتماله على منهج ونظام مدنى ودينى . وقد استقبل الأنبياء والمرسلون رسول الله ليلة الإسراء ورحبوا به وقال له كل نبى : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح وهذا دليل على أن الأنبياء والمرسلين إخوة فى المهمة التى كلفوا بها والدعوة التى وقفوا حياتهم من أجلها .

استقبل النبى فى السماء الأولى آدم ، وفى الثانية يحيى وعيسى ، وفى الثالثة يوسف ، وفى الرابعة إدريس، وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى ، وفى السابعة إبراهيم ، وقد بكى موسى عند وداع النبى له ، فسأله النبى: ما يبكيك يا موسى؟ قال : أبكى لأن غلاما بعث من بعدى سيدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتى . وهو بكاء الغبطة لا بكاء الحسد ، ولعل موسى قد تذكر أنه طلب رؤية الله فلم يجب إلى ذلك قال تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ... (الأعراف: ١٤٢، ١٤٣) .

ثم إن موسى رأى النبى فى ليلة الإسراء ، يؤخذ ليلا ويركب البراق وجبريل فى الركاب ويصلى إماما بالأنبياء ويصعد فى السماوات العلا ويرى من فضل الله ما يرى وتحوطه عناية الله وفضل الله ويرى الجنة ونعيمها ويرى الملأ الأعلى يخصونه بالسلام والتحية . وتلك كلها خصائص اختص الله بها محمدا عليه السلام .

وحين فرض الله على النبى خمسين صلاة رجع إلى الهبوط ، فمر بموسى فى السماء السادسة ، فقال له: ماذا أعطاك ربك؟ ، قال : خمسين صلاة ، فقال له موسى : ارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى جاهدت بنى إسرائيل قبلك . وعاد النبى إلى ربه ، فسأله التخفيف ، فحط عنه عشر صلوات ، فلما رجع إلى موسى ، قال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، وتكررت توصية موسى للنبى مرارا حتى أصبحت خمس صلوات ، ثم قال الله له : يا محمد ، هى خمس فى العمل ، وخمسون فى الثواب، والحسنة بعشر أمثالها ، لايبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد . وقد عاد النبى إلى موسى فقال له: ماذا أعطاك ربك . قال النبى: خمس صلوات ، فقال له موسى : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فقال النبى: سألت ربى حتى استحييت ولكنى أرضى وأسلم .

ومن هذا الحديث نعرف ما بين الأنبياء من صلات ووشائج ونلمس رحمة موسى بالأمة المحمدية . وقد نقل إلى النبى خبرته فى جهاد بنى إسرائيل . ولذلك قال عليه السلام : « كان موسى خيرهم لى حين رجعت عليه » . وفى رواية : « فمررت بموسى ، ونعم الصاحب كان لكم » .

وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعا ، فهى رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وتربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

٢- تعريف بسورة الإسراء

هى سورة مكية نزلت فى السنة الحادية عشرة للبعثة قبل الهجرة بسنة . وتسمى سورة الإسراء نظرا لذكر الإسراء فى صدرها ، كما تسمى سورة بنى إسرائيل للحديث عنهم وعن إفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم على هذا الفساد .

وعدد آياتها ١١١ آية وهى مكية اتفاقا إلا الآيات: ٢٦، ٣٢، ٥٧، ومن آية ٧٣، إلى آية ٨٠ فمدنية، وقد نزلت بعد القصص ، فهى من أواخر ما نزل بمكة وقد تميزت آياتها بالطول النسبى وبسط الفكرة والدعوة إلى الآداب ومكارم الأخلاق على حين تجد الآيات المكية التى نزلت فى أوائل البعثة تتميز بقصر الفواصل، ومراعاة السجع ، والدعوة إلى التوحيد ، وسوق الأدلة على الإيمان بالله ، والآيات المدنية تتميز بالطول، وبيان أحكام التشريع ، ونظام العبادات، والمعاملات ، فسورة الإسراء اشتملت على خصائص السورة المكية، ومن ناحية أخرى ظهر فيها صفات من خصائص السور المدنية ؛ لأنها من أواخر العهد المكى فهى ممهدة للعهد المدنى ، حيث استقرت الدعوة فى المدينة ونزل القرآن يرسم سياسة المسلمين الداخلية والخارجية ويبين للمؤمنين نظام الحرب والسلم وأدب المعاملة وفن الحديث وطريقة الدعوة ومنهاج الحياة . وقد ذكر العلماء أن من واجبات المفسر أن يعرف مكى القرآن ومدنيه وما يشبه المدنى وهو مكى وما يشبه المكى وهو مدنى[٨]، وأن يعرف تاريخ النزول وأسباب النزول وما نزل من القرآن أولا وما نزل تاليا وما نزل مفردا وما نزل مشيعا بالملائكة .. فإن هذه المعرفة تعطينا ضوءا كاشفا يوضح أهداف السورة ومقصد الآيات وأسرار التشريع ، فهى دراسة للجو المحيط بالنص ولا غنى لمن أراد دراسة نص من النصوص عن معرفة قائله والبيئة الاجتماعية التى نشأ فيها والعوامل والظروف التى أحاطت بهذا النص .

ونحن حين ندرس القرآن نحيط بدراسة مماثلة للنص وما حوله ، ثم نحتاج إلى صفة أخرى هى صدق النية وعمق النظرة وإخلاص القلب وسلامة الفطرة حتى نستكشف هدى القرآن وسمو تعاليمه ؛ لأنها

تظهر واضحة أمام المؤمنين ، وتخفى عن عيون الجاحدين قال تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا . (الإسراء: ٤٥، ٤٦) .

٣- أهداف السورة

بدأت سورة الإسراء بقوله تعالى : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

وهذا هو مطلع السورة أو عنوانها الذى يحشد موضوعات السورة ، إن السورة فى مجملها تتحدث عن النبى وعن القرآن الذى نزل عليه وموقف المشركين من هذا القرآن . وفى خلال هذا الحديث تستطرد إلى ذكر بنى إسرائيل والحديث عن ماضيهم وإفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم كأنها تتوعد كل مكذب ومفسد بالعقاب العادل وفى هذا تهديد لكفار مكة ، ولكل خارج على نطاق الإيمان وشريعة العدل والنظام الإلهى (انظر الآيات: ١-٢٢) .

كما تحدثت السورة عن قضية التوحيد لتقيم عليها البناء الاجتماعى كله وآداب العمل والسلوك، فأمرت بالإحسان إلى الوالدين ، وبإيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ونهت عن التبذير والقتل والزنا وتطفيف الكيل وأكل مال اليتيم ، والكبر والبطر . (الآيات: ٢٣-٣٩) .

وقد أمرت المسلمين بجملة من الآداب فى أسلوب رائع حكيم يدعو الناس إلى التمسك بها ويؤيد أن القرآن كتاب تربية أخلاقية وسلوكية . وأن هذه التربية هى التى صاغت المجتمع الإسلامى المحمدى صياغة جديدة مهذبة .

وبذلك كانت معجزة القرآن أنه غدا روحا جديدة يسرى فى أوصال المجتمع العربى والإسلامى فيهدم حطام الجاهلية وأوثانها ، ويقيم على أشلائها دولة جديدة تؤمن بالله ورسوله وتهتدى بكتابه الذى أنزله نورا وهدى . فترى المسلم إما عابدا فى مسجده أو ساعيا على رزقه أو مجاهدا فى سبيل إعلاء كلمة الله . وجمعت المسلمين تحت راية جديدة عمادها الإخلاص وأساسها الحب لله ولدينه وقوتها فى تماسك المسلمين وأخوتهم وترابطهم وتساندهم ، فصلة الرحم والعطف على الفقير والبعد عن الكبر والشح والظلم كلها آداب سلوكية جعلت من المؤمنين خير أمة أخرجت للناس .

(وفى الآيات: ٣٩-٥٨) تحدثت السورة عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله وعن البعث واستبعادهم لوقوعه وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمرت المؤمنين أن يقولوا قولا آخر ويتكلموا بالتى هى أحسن .

(وفى الآيات ٥٩-٧٢) بينت السورة لماذا كانت معجزة محمد معجزة عقلية خالدة ولم تكن معجزة مادية محدودة ، فقد كذب الأولون بالخوارق فحق عليهم الهلاك اتباعا لسنة الله ، كما تناولت الحديث عن الإسراء وحكمته ، وأن الله جعله فتنة وامتحانا للناس ليتميز المؤمنون ، وينكشف المنافقون ، ويجىء فى هذا السياق طرف من قصة إبليس وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم. يجىء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذى يبدو من المشركين ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله وتذكيرهم بنعمة الله عليهم فى تكريم الإنسان وتفضيله على جميع المخلوقات وتسخير جميع الكون له حتى يفكر بعقله ويؤمن بقلبه فمن اهتدى أخذ كتابه بيمينه يوم القيامة ومن عمى عن الحق فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

وفى الآيات ٧٣-٨٨ تستعرض السورة كيد المشركين للرسول ومحاولتهم فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة ، ثم تأمر النبى أن يمضى فى طريقه يقرأ القرآن ويؤدى الصلاة ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ، وتذكر رسالة القرآن بأنها شفاء لأمراض الجاهلية ورحمة بالجماعة الإسلامية .

وفى الآيات ٨٨-١١١ ختام السورة ، ويستمر فيها الحديث عن القرآن وإعجازه على حين يطلب كفار مكة خوارق مادية ويطلبون نزول الملائكة ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا أو أن يرقى هو فى السماء ثم يأتيهم بكتاب مادى معه يقرءونه .. إلى آخر هذه المقترحات التى يمليها العنت والمكابرة لا طلب الهدى والاقتناع ، ويرد الله على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة .

فالرسول بشر يوحى إليه وليس إلها يتحكم فى مظاهر الكون ، وقد سبق أن أعطى الله موسى معجزات مادية فكذب بها فرعون وجحد نبوة موسى فكانت العاقبة أن أغرق الله فرعون ومن معه من المكذبين .

إن طريقة القرآن هى طريقة الدعوة الهادفة المتأنية وقد نزل مفرقا ليقرأه الرسول على قومه فى هدوء وتؤدة وليجيب على أسئلة السائلين وليكون كتاب الحياة يحياها مع المؤمنين يعلمهم دينهم ويرد عنهم دعاوى أعدائهم ويلفت أنظارهم إلى الكون وما فيه حتى يعبدوا الله ويسجدوا له

عن خشوع ويقين وتختم السورة بحمد الله وتنزيهه عن الولد والشريك فى الملك كما بُدِئَت بتنزيه الله وتسبيحه . وإذا أردنا إيجازا أكثر أمكننا أن نرجع أهداف سورة الإسراء إلى الأمور الآتية :

١- معجزة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس : آية ١ .

٢- تاريخ بنى إسرائيل وإفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم : الآيات ٢-٨.

٣- جملة من الآداب يجب على المسلمين أن يتحلوا بها حتى تظل رابطتهم قوية متماسكة ، وحتى لا يصيبهم ما أصاب اليهود عندما أفسدوا فى الأرض: ٢٣-٢٩ .

٤- بيان أن كل ما فى السماوات والأرض مسبح لله : آية ٤٤ .

٥- الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه : الآيات ٥٠ -٥٥ .

٦- الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام آية : ٤٦.

٧- الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد ﷺ : آية : ٤٦.

٨- قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك الآيات : ٦١-٦٥ .

٩- تعدد بعض نعم الله : الآيات ٦٦-٧٢ .

١٠- طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم وإلحافهم فى ذلك : الآيات ٧٣-٧٧ .

١١- أمر النبى ﷺ بإقامة الصلاة والتهجد فى الليل : ٧٨-٨٧ .

١٢- بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله : الآيات : ٨٨-١٠٠.

١٣-قصة موسى مع فرعون: ١٠١-١٠٥ .

١٤- الحكمة فى إنزال القرآن منجما : الآيات ١٠٦-١١٠ .

١٥- تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين : الآية ١١١.

٤- من أسرار الإعجاز فى السورة

أهداف السورة تؤيد أنها سورة مكية نزلت تثبت العقيدة وترسم أدب السلوك وتذكر تاريخ اليهود. ثم تناقش المشركين فى آلهتهم ، وفى تعنتهم وكفرهم ، وتذكر طرفا من قصة آدم وإبليس وقصة موسى وفرعون لتوضح عقوبة المتكبرين ومثوبة المؤمنين . وفى أثناء السورة حديث عن القرآن وإعجازه ، وعجز البشر عن الإتيان بمثله ، وتعديد نعم الله على خلقه لتستميل الناس إلى الإيمان بالله وتقيم الحجة على أعداء الدين .

ومما لا شك فيه أن تصورنا لموقف الإسلام فى مكة قبل الهجرة يعيننا كثيرًا على فهم السورة ويوضح أن القرآن كان كتاب الحياة ، صور موقف المشركين وعقيدتهم وتعنتهم ، وذكر طرفا مما أصاب الأولين علهم يتعظون أو يعتبرون ، قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه: ١١٣) .

إنك تحس من خلال النص بنبضات حية تصور عنت المشركين وضلال عقيدتهم وتبرز أسلوب الدعوة الجديد الذى يملك الحجة على قضية الألوهية ويسوق الأدلة على قضيته من سجلات التاريخ ومن واقع الكون ومشاهده ، ومن التحدى بالقرآن وتأكيد عجزهم عن الإتيان بمثله .

والقرآن من خلال حديثه ينتقل من فن إلى فن ، ومن وصف للإسراء إلى تاريخ لليهود إلى رد على دعوى المشركين إلى قصص لآدم وإبليس وفرعون وموسى .

ويربط القرآن بين هذه الأفكار المتناثرة برباط قوى متين يؤكد أنه كتاب الله ، ولو كان من صنع بشر لتلمس طرقا للانتقال فكل كاتب تجد فى كتابته أثرا للقوة فى مكان ، ثم تفتر قوته فى مكان آخر ، قال تعالى : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا . (النساء: ٨٢) ، وقد تعرضت علوم السابقين للنقض والتعديل ، ولم يبق كتاب فى تاريخ البشرية سلم من النقض والعيب إلا هذا الكتاب .

وفى سورة الإسراء : آية ٨٨ يقول الله عز وجل : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾

المفردات :

سبحان : اسم فعل لتسبيح الله[٩] وتنزيهه ، فمعنى سبحان الله: أسبح الله سبحانه والمقصود التقديس والتنزيه عن السوء فى الذات والصفات والأفعال والأسماء والأحكام أى ما أبعد الذى له هذه الصفات عن جميع النقائص .

أسرى : سار فى الليل[١٠] ومعنى أسرى به صيره ساريا .

ليلا : أى فى جزء من الليل ، أو فى ساعات منه[١١] .

من المسجد الحرام : أى : ابتداء الإسراء المسجد الحرام وسمى حراما ؛ لتحريم القتل والعدوان فيه ، حتى لو وجد فيه قاتل أبيه حرم عليه قتله داخل المسجد لقوله تعالى: وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا .

إلى المسجد الأقصى : هو بيت المقدس وسمى الأقصى ؛ لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام .

الذى باركنا حوله : بارك الله حوله بركات مادية ومعنوية وأحاطه ببركات الدنيا والدين ، فجعل حوله الأشجار والثمار وجعله متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحى ومسرى محمد ﷺ.

لنريه من آياتنا : فيها بيان لحكمة الإسراء ، وقد رأى النبى من آيات الله ودلائل قدرته الكثير ورأى صورا وأشكالا جسمت فيها المعانى بصورة ملموسة محسوسة .

كما رأى الملائكة تعبد الله على أشكال شتى منها القائم ، والراكع ، والساجد ، ورأى الأنبياء والمرسلين ، ورأى الجنة والنار .

وكان لدى النبى من الصفاء والنقاء والطهر ما جعله أهلا لأن يرى آيات الله فى هذا الكون وأن يتفتح قلبه الشريف ليحيط بأسرار الكون ونظمه وليرى العالم العلوى وملائكة السماء ، وهناك فرض الله عليه الصلاة تحية خالدة لهذا اللقاء الكريم .

إنه هو السميع البصير: السميع بدعاء محمد، البصير بما أصابه من أذى المشركين وهو يسمع ويرى ما لطف ودق وخفى عن الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار.

التفسير:

١- سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ.

تحدثت الآية عن الإسراء فى إعجاز وبيان يملكهما مالك القدرة الخارقة التى شملت هذا الكون بما فيه، فاشتملت الآية على تنزيه الله أن يكون له صاحبة أو ولد وبينت أن الإسراء بعبد من عبيد الله اختاره واصطفاه، وأن العبودية كلما تحقق مضمونها من الخضوع والخشوع والإخلاص لله سما صاحبها وزاد قدره وكان الإسراء من أول بيت وضع للناس، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث كانت الرسل تتعبد وحيث اعترفت له الأنبياء بالرسالة، وحيث صعد من هذا المكان الطاهر إلى السماوات العلا إلى سدرة المنتهى إلى جنة المأوى، ولم يتحول بصره يمينا ولا شمالا ولا تجاوز الطريق المرسوم، بل كان فى سمت النبيين وأمانة الصديقين وسمو المرسلين.

١ – المعراج:

المعراج والمصعد والمرقى كلها بمعنى واحد تدل على الصعود والارتقاء ومعراج الرسول هو صعوده إلى السماوات العلا، حيث لقى من فضل الله الكثير ورأى من آيات ربه الكبرى.

وكان الإسراء والمعراج فى ليلة واحدة، الإسراء رحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج رحلة سماوية إلى الملإ الأعلى. وقد تحدثت سورة النجم عن المعراج فى قوله تعالى: وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ. (النجم: ١-١٨).

٢- تاريخ الإسراء:

وقع الإسراء فى السنة الحادية عشرة للبعثة، قبل الهجرة بسنة[١٢] أو قبلها بسنة وشهرين.

وكان المشركون قد أمعنوا فى إيذاء النبى وبالغوا فى تعذيب المسلمين، حتى اضطروهم للهجرة إلى الحبشة مرتين، ولما يئس النبى من أهل مكة ذهب إلى الطائف وبها قبائل ثقيف فدعاهم للإسلام ورغبهم

فى الإيمان ، وكان يأمل أن يجيبوه إلى دعوته ، ولكنهم ردوه أسوأ رد وأرصدوا له الغلمان يرجمونه بالحجارة، حتى دميت قدماه الشريفتان ، وقد أغمى على النبى من شدة الإيذاء[١٣] ، فلما أفاق وجد نفسه مكذبا فى قومه مضطهدا فى مكة معذبا فى الطائف وحيدا غريبا ، فمد يده إلى الله سبحانه قائلا :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يارب العالمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى عدو يتجهمنى أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى. عافيتك هى أوسع لى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » .

وقد جاءه جبريل وقال : يا محمد هذا ملك الجبال ، وإن الله أمره أن يطيعك فى قومك بسبب ما فعلوه بك ، فإن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين (جبلين بمكة) ، فعل ، فقال له النبى : لا تفعل إنى لأرجو أن يخرج من ظهورهم من يعبد الله . اللهم اهد قومى فهم لا يعلمون .

فقال جبريل للنبى : صدق من سماك الرءوف الرحيم .

وعاد النبى إلى مكة حزينا كئيبا ولم يستطع دخولها إلا فى جوار المطعم بن عدى .

٣- ما قبل الإسراء :

كانت الفترة التى سبقت الإسراء من أقسى الفترات على النبى والمؤمنين ، وكان الامتحان قاسيا ، يواجه المؤمنين كل يوم بفتنة ومحنة ويستنصر المؤمنون رسول الله قائلين : ألا تدعو الله لنا ، ألا تستنزل غضبه على عدونا ، فيجيبهم بأن طريق الدعوة طريق وعر وصعب ، وأن على المؤمن أن يتحمل البلاء فى ذات الله ، ويصيح فيهم : « والله لقد كان يؤتى بالرجل فيمن قبلكم فيشق بالمنشار من مفرق رأسه إلى قدميه فما يصده ذلك عن دينه ، والذى نفس محمد بيده ليتمن الله ذلك الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

كان فضل الله على المؤمنين فى هذه الفترة المؤلمة ؛ أن أعطى نبيه معجزة إلهية كبرى ؛ ليرى عوالم أخرى وليصعد إلى السماء ؛ وليرى من فضل الله ونعمه الكثير ثم يعود بالصلاة صلة بين المؤمنين وربهم فهى العون للمؤمن فى رحلة الحياة وهى الملجأ والملاذ إلى الله وهى فترة المناجاة والمناداة فيها تسمو الروح وتطهر النفس ويناجى العبد إلها سميعا بصيرا مجيبا .

٤- الإسراء فى ضوء العلم :

وردت قصة الإسراء والمعراج فى كتب السنة الصحاح وسرت بين الأمة سريانا مستفيضا ووعتها بطون الكتب وتحدث بها الرواة حتى نقلها من أعاظم الرجال خمسة وأربعون صحابيا بطرق شتى وأخذها جيل عن جيل فى تواتر وإجماع .

والأمر فى جملته خاضع لقدرة الله التى لا تقف أمامها حدود وهو معجزة لرسول الله . والمعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة تصديقا له فى دعواه ، وليس فيما كشفه العلم من قوانين الجذب العام ونظام الأفلاك ومسابح النجوم وعناصر الكواكب ونواميس الحركة وطبقات الهواء وتحديد الحركات ومعايير السرعة – ليس فى ذلك كله وما يتصل به – ما يقف أمام الإسراء والمعراج .

فقد ثبت أن نجم المشترى يجرى بسرعة ثلاثين ألف ميل فى الساعة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الإنسان . والمشترى أكبر من أرضنا بألف وأربعمائة مرة . وأن الله الذى جعل هذا الجسم الكثيف الهائل يقطع الأبعاد الشاسعة فى لحظات لا يبعد عليه أن يسرى بنبيه من مكة إلى بيت المقدس على مقتضى ناموس لا نعرفه ، وإن كان الوجود يشتمل عليه ، ما دام العلم قد أثبت سرعة عجيبة لأجرام كثيفة .

وإننا نشهد كل يوم كشفا عن ناموس ، وإبطالا لناموس ، حتى لقد صرح بعض علماء الغرب بأن أخوف ما نخافه أن ما نفاخر به اليوم من العلوم يصبح بعد مائة سنة باطلا منسوخا .

ويؤثر لرئيس مجمع ترقى العلوم بجامعة كمبردج سنة ١٨٥٤م أن كنه المادة غير معروف ، وأن منتهى علمها مبتدأ جهلها .

ونحن إذا طوينا القرون القهقرى فرجعنا إلى ما قبل اليوم منذ قرنين اثنين ، أفكنا نحسب موجات الأثير وعدسات التليفزيون والتلستار تنقل صوت الإنسان وصورته إلى الأبعاد الشاسعة والأقطار النائية؟

إن الإنسان قد أخذه العجب العجاب عند اختراع الطائرة العادية ، ثم الطائرة النفاثة والأطباق الطائرة، والأقمار الصناعية .

وكان وصول الإنسان إلى القمر أخيرا خبرا مذهلا أخذ على الناس فى كل أصقاع الدنيا لبهم واستولى على اهتمامهم ، وذلك كله مما يقرب فى ذهن الإنسان سهولة الإسراء والمعراج خاصة وأنهما يقعان فى دائرة القدرة الإلهية التى يخضع لها كل شىء فى عالم السماوات والأرض والهواء والفضاء ، قال تعالى : وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:٦٧) .

٥- أحاديث الإسراء:

هذه جملة من الأحاديث النبوية الشريفة ترسم صورة الإسراء وتحكى قصته ومشاهداته بروايات متعددة:

(أ)

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت بالبراق ، وهو دابة بيضاء ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته ، فسار بى ، حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة فى الحلقة التى يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن، فقال جبريل : أصبت الفطرة ، قال : ثم عرج بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت؟ قال جبريل: قيل ومن معك ؟ قال: محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل: ومن معك؟ قال: محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا بابنى الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بى، ودعوا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل . فقيل له: من أنت ؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن . فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل . فقيل له: من أنت ؟ قال: جبريل . فقيل : ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير. يقول الله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم : ٥٧) .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل . فقيل له: من أنت ؟ قال: جبريل . فقيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : قد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون ، فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل . فقيل له: من أنت ؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك؟ قال: محمد ، فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة : فاستفتح جبريل . فقيل له: من أنت ؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهبت إلى سدرة المنتهى: فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها ، قال : فأوحى الله إلى ما أوحى ، وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى . قال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قال : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربى ، فقلت : أى رب خفف عن أمتى ؛ فحط عنى خمسا .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فقال : ما فعلت . فقلت: حط عنى خمسا . فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

قال: فلم أزل أرجع بين ربى ، وبين موسى ، ويحط عنى خمسا خمسا ، حتى قال: يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته . فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : لقد رجعت إلى ربى حتى استحيت » (رواه مسلم بهذا السياق)[١٤] .

قال البيهقى: وفى هذا السياق: أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس .

ويقول ابن كثير عن ذلك : وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية .

وقبل أن نبدأ أحاديث أخرى نذكر أنه :

ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء ، والمتكلمين ، إلى أن الإسراء والمعراج:

وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة ،

بجسد النبى ﷺ وروحه ،

بعد البعثة .

ولقد توارد على ذلك – كما يقول الإمام ابن حجر – ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغى العدول عن ذلك إذ ليس فى العقل ما يحيله[١٥] ، حتى يحتاج إلى تأويل .

ولو كان مناما ، أو بالروح فقط لما كذب رسول الله ﷺ مكذب ، لجواز وقوع مثل ذلك وأبعد منه لآحاد الناس : إن الناس فى الرؤيا يرون أنهم سافروا وأبعدوا ، وجاءوا وعقدوا العقود ورأوا نتائج عقودهم وثمار جهودهم ، فلو كنا بصدد رؤيا لما ارتاب فى صدق الصادق الصدوق صلوات الله وسلامه عليه إنسان.

ولما أشفقت السيدة أم هانئ رضى الله عنها على رسول الله ﷺ ، لما أخبرها الخبر ، وقال: إنه سيحدث الناس به ، فأرادت منه أن يعدل عن ذلك قائلة : إنهم سيكذبونك ، فلم يستجب صلوات الله وسلامه عليه لنصيحتها ، لأن الحق ينبغى أن يذاع ، وأذاعه ﷺ بين الناس . وحدث ما حدث مما سنذكر بعضه فيما بعد إن شاء الله .

(ب)

وفى حديث عند الطبرانى والبزار ، أنه عليه الصلاة والسلام: مر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان فقال لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

ثم أتى قوما ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء.

فقال: ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم ، على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع .

فقال: ما هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم نيئ فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج .

فقال: ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل: هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتى رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هذا الرجل من أمتك، تكون عليه أمانات الناس ، لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

قال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هؤلاء خطباء الفتنة .

قال: ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

قال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة ، وريح مسك وسمع صوتا .

فقال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هذا صوت الجنة ، تقول : رب آتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى وإستبرقى ، وحريرى وسندسى، وعبقريى، ولؤلؤى ، ومرجانى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى، ومواكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى، وخمرى ، فأتنى بما وعدتنى .

قال: لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ، ولم يشرك بى شيئا، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل على كفيته ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين.

قالت: فقد رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال: هذا صوت جهنم ، تقول: رب آتني بما وعدتني فقد كثرت سلاسلي، وأغلالي، وسعيري، وحميمي، وضريعي، وغساقي، وعذابي، وقد بعد قعري، واشتد حري، فأتني بما وعدتني.

قال: لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

(ج)

وفي حديث أبي سعيد: أنه رأى أَخْوِنَةً عليها لحم طيب ليس عليها أحد. وأخرى عليها لحم نتن ، عليها ناس يأكلون .

قال جبريل : هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام .

وفيه : أنه مر بقوم بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خر ، وأن جبريل قال له: هم أكلة الربا.

وأنه مر بقوم مشافرهم كالإبل يلتقمون جمرا فيخرج من أسافلهم ، وأن جبريل قال له هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما .

وأنه مر بقوم يقطع من جنوبهم اللحم ، فيطعمون وأنهم الغمازون اللمازون .

وأنه مر بنساء تعلقن بِثُدِيِّهِنَّ ، وأنهن الزواني .

وفيه : حتى أتيت بيت المقدس أوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيها ، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منا ركعتين .

في رواية أنس عن مسلم: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام، بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن .

فقال جبريل: اخترت الفطرة . أي : اخترت اللبن الذي عليه بنيت الخلقة .

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا: الإسلام والاستقامة .

وفي رواية ابن مسعود: ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين: ما بين قائم ، وراكع وساجد .

ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة ، فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل فقدمنى فصليت بهم.

(هـ)

وأخرج البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ. (الإسراء: ٦٠) ، قال: هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ، ليلة أسرى به[١٦] .

وأخرج الطبرى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس أنه يقول: « إن محمدا ﷺ ، رأى ربه مرتين: مرة ببصره ، ومرة بفؤاده » .

وأخرج أيضا عن ابن عباس قال:

نظر محمد إلى ربه ، قال عكرمة: فقلت له: نظر محمد إلى ربه ؟

قال: نعم جعل الكلام لموسى ، والخلة لإبراهيم ، والنظر لمحمد ﷺ .

وأخرجه البيهقى فى (كتاب الرؤيا) بلفظ:

إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمدا بالرؤيا .

وأخرجه بلفظ :

أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ ؟

وأخرج أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « رأيت ربى عز وجل » .

(و)

وأخرج أحمد والنسائى والبزار والطبرانى والبيهقى ، وابن مردويه بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :

ولما أسرى بى مرت بى رائحة طيبة ، فقلت: ما هذه الرائحة ؟

قالوا : ماشطة بنت فرعون وأولادها ، سقط مشطها منها فقالت: بسم الله .

فقالت ابنة فرعون: أبى ؟

قالت: ربى هو ربك ورب أبيك .

قالت: أولك رب غير أبى ؟

قالت: نعم .

فدعاها فقال: ألك رب غيرى ؟

قالت: نعم ، ربى وربك الله .

فأمر ببقرة من نحاس ، فأحميت ، ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم ، فقال:

قعى يا أُمَّهْ ولا تقاعسى فإنك على الحق .

قال: وتكلم أربعة ، وهم صغار ، هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم .

(ز)

وأخرج الترمذى – وحسنه – وابن مردويه . من طريق عبد الرحمن ، عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ: لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى ، فقال: يا محمد أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(ح)

وأخرج أحمد وأبو داود من طريق عبد الرحمن بن جبير عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظافر من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم .

وأخرج ابن مردويه ، من طريق قتادة وسليمان التيمى وثمامة ، وعلى بن زيد ، عن أنس أن النبى ﷺ قال: « ليلة أسرى بى مررت بناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت عادت ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ ، قال : هؤلاء خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون » .

وأخرج ابن ماجة والحكيم الترمذى (فى نوادر الأصول) وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة ، الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » .

فقلت لجبريل : ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟

قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة .

وأخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى رجلا يسبح فى نهر ويلقم الحجارة ، فسألت : من هذا ؟ فقيل لى: هذا آكل الربا .

(ط)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما – فيما رواه الإمام أحمد – قال: قال رسول الله ﷺ : « لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة ، فظعت أمرى ، وعرفت أن الناس مكذبى .

قال: فمر عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إلى فقال له أبو جهل كالمستهزئ : هل كان من شيء؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم .

قال: ما هو ؟

قال: إنه أسرى بى الليلة .

قال: إلى أين ؟

قال: إلى بيت المقدس .

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال: نعم ..

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه .

قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم .

فانطلق أبو جهل فقال: هيا يا معشر بنى لؤى .

قال : فانتفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتنى .

فقال رسول الله ﷺ : إنى أسرى بى الليلة .

قالوا: إلى أين ؟

قال: إلى بيت المقدس ..

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال: نعم .

فإذا بالقوم بين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب .

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ - وفى القوم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد .

فقال رسول الله ﷺ : فذهبت أنعت ، فمازلت أنعت حتى التبس على بعض النعت ، قال: فجىء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقيل ، فنعته وأنا أنظر إليه .

قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب .

وعن الحسن: أنه فى يوم الحديث عن الإسراء : ارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.

فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه ؟

فقالوا: لا ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس .

قال أبو بكر: لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال: نعم .

قال : يا نبى الله فصفه لى ، فإنى قد جئته ؟

قال الحسن: فقال رسول الله ﷺ : فرفع لى حتى نظرت إليه . فجعل رسول الله ﷺ يصف لأبى بكر ويقول أبو بكر: صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، وكلما وصف له منه شيئا ، قال صدقت أشهد أنك رسول الله قال: حتى انتهى .

قال رسول الله ﷺ : وأنت يا أبا بكر: «الصديق» فيومئذ سماه « الصديق » .

هذا هو الموجز لما ترويه السنة مؤيدة للقرآن عن هذا النبإ الجليل ، ولقد حاول ابن إسحاق أن يبين الحكمة فى هذا الحادث فقدم – حسبما يروى ابن هشام – لحديث الإسراء بكلمة نفيسة يقول فيها :

وكان فى مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء ؛ ليريه من آياته الكبرى ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

٦- الشعر والإسراء :

يقول الإمام البوصيرى فى «همزيته» :

فطوى الأرض سائرا والسموا	ت العلا فوقها له إسراء
فصف الليلة التى كان للمختا	ر فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسين	وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى	دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث شكرا	إذ أتته من ربه النعماء
وتحدى فارتاب كل مريب	أوَ يبقى مع السيول الغثاء

ويقول شوقى فى قصيدته التى عارض فيها الإمام البوصيرى :

يتساءلون وأنت أطهر هيكل	بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرًا وكلاهما	نور وروحانية وبهاء
فضل عليك لذى الجلال ومِنة	والله يفعل ما يرى ويشاء
تغشى الغيوب من العوالم كلما	طويت سماء قلدتك سماء
فى كل منطقة حواشى نورها	نون وأنت النقطة الزهراء
أنت الجمال بها وأنت المجتلى	والكف والمرآة والحسناء

الله هيأ من حظيرة قدسه	نزلا لذاتك لم يجزه علاء
العرش تحتك سدة وقوائم	ومناكب الروح الأمين وطاء
والرسل دون العرش لم يؤذن لهم	حاشا لغيرك موعد ولقاء

٧- فلسفة الإسراء :

عنى الفلاسفة والمتصوفون الإسلاميون بتلمس حكمة الإسراء ، وكان الصوفية يجدون فيها دليلا عمليا على أهمية العناية بالنفس الإنسانية ، وأن الروح سر من أسرار الله فى الإنسان ، إذا تطهرت من سيطرة المادة وزاد تعلقها بالحق والخير ، فإنها تسمو إلى الملإ الأعلى ، بل إن الروح إذا عظمت العناية بها صارت أقوى من الجسد وتلاشت مادية الجسم أمام سمو الروح وانطلاقها .

ويذكرون أن الرياح أجسام لطيفة فقط ، وليست روحية مع أنها تزعزع الأشجار الباسقة وتقتلع الأوتاد العاتية وتفتت الصخور الجاثمة .

والكهرباء -وهى من اللطافة بحيث ترى آثارها ولا ترى حقيقتها - تحول خواص الأجسام إلى أضدادها وتبعث اليوم فى الدنيا حياة جديدة ، فهى تحمل الأثقال وتقلقل الجبال وترسل الصواعق فتنشر الضوء وتؤجج النيران ، وهذا يعطينا دليلا على مدى ما للأجسام اللطيفة من سلطان على المادة .

فالإسراء بالنبى ليلا وصعوده إلى السماوات العلا أثر من آثار تزكية النفس وتطهيرها ، بل إن مروره فى السماوات على الملائكة يمكن أن يدل على منازل الأنبياء ، وتكون السماء إشارة إلى كل ما علاك ومنازل الأنبياء فى السماوات حسب درجاتهم وجهادهم ، ويكون لرسول الله منزلة أعلى ، تجاوزت فى روحانيتها آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى فى الثانية ، ويوسف فى الثالثة ، وإدريس فى الرابعة ، وهارون فى الخامسة ، وموسى فى السادسة ، وإبراهيم فى سمائه السابعة .

تجاوز رسول الله ﷺ كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى وإلى شجرة النهاية ، ثم إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبى مرسل إلى قاب قوسين أو أدنى[١٧] .

٨- تصوير المعنى:

إذا كانت التوجيهات السابقة ، إنما كانت لتدلنا على مقام رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، فنزداد بذلك تقديرًا وحبا واتباعا ، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبإ الإسراء والمعراج: هذه الرمزيات الأخلاقية التى تربط ربطا محكما بين الدين والأخلاق .

والواقع أن الأخلاق فى جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطا لا ينفصل ، منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم، وعنه تصدر ؛ لأنها جزء من الدين الإسلامى لا يتجزأ ، مصدرها هو مصدره : إلهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى ، يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين ، فالضمير يربى ويكون ، وتربيته وتكوينه هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة إنما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

فالمصلحة العامة إذًا كأساس للأخلاق إنما هى : أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية أو إلى اللذة ، أو إلى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوروبى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد .

أما وارد الشرق الإسلامى ، أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام الإلهى ، فإن مقياس الأخلاق فيه : إنما هو المبادئ الدينية ، إنما هو آيات القرآن ، وإنما هو الفضائل التى أوحاها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى مبين وتحدث عنها نبأ الإسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة مؤثرة وبينتها السنة النبوية الشريفة ، وركزها القرآن والسنة على أسس من الإيمان قوية ثابتة ، إنها فى رحلة الإسراء والمعراج تكون منهج حياة مؤسسة على الإيمان بالله ورسوله[١٨] .

٩- آراء العلماء فى الإسراء :

لعله أصبح واضحا أن الإسراء هو الانتقال بالنبى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

وأن المعراج هو العروج به إلى السماوات العلا .

ولعل سائلا يسأل ، هل كان الإسراء بالروح والجسد أم بالروح وحدها ويمكن أن نوضح الجواب بما يأتى:

١- أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لا مناما ولهم على ذلك أدلة :

(أ) أنه لو كان مناما ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ، ولما قالت أم هانئ: لا تحدث الناس فيكذبوك، ولما فضل أبو بكر بالصديق ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لقد

رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، (لم أعرفها حق المعرفة) . فكربت كربا ما كربت مثله قط . فرفعه الله لى أنظر إليه ، فما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به «الحديث»[١٩] .

(ب) أن التسبيح والتعجب – فى قوله : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ – إنما يكون فى الأمور العظام ، ولو كان ذلك مناما لم يكن فيه كبير شأن ، ولم يكن مستعظما .

(ج) أن قوله : بِعَبْدِهِۦ يدل على مجموع الروح والجسد .

(د) أن ابن عباس قال فى قوله : وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ؛ هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسيّة ، ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائدا :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلبا كان جما بلابله

(هـ) أن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، قال تعالى : غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ . وجاء فيه أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى الشام فى مقدار لمح البصر ، كما قال تعالى : قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى النبى بالأولى .

٢– ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :

(أ) أن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن سرى رسول الله ﷺ قال: « كان رؤيا من الله صادقة »، وقد ضعف هذا ؛ بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره فى مثل هذا ، أو أن هذا رأى لمعاوية لا سند له .

(ب) أن بعض آل أبى بكر قال: كانت عائشة تقول : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ، ولكن أسرى بروحه، ونقدوا هذا ؛ بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الله ﷺ .

(ج) أن الحسن قال : فى قوله : وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ... الآية ، أنها رؤيا منام رآها ، والرؤيا تختص بالنوم .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ ، أن حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ولا معنى

لقول من قال : أسرى بروحه دون جسده ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلا على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذى أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ؛ إذ لم يكن منكرا عندهم ، ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل – وبعد فإن الله إنما أخبر فى كتابه: أنه أسرى بعبده ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره – إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها : البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد . ا هـ .

والخلاصة :

أن الذى عليه المعول عند جمهرة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله يصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين وعرج به إلى السماء وعاد منها ثم ركب البراق وعاد إلى مكة قبل الفجر .

١٠– عظة وذكرى :

إننا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين ؛ لنستخلص منهما أمورا هى غاية فى العظة والاعتبار:

١– أن هاتين الرحلتين : الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ؛ ليمحص الله المؤمنين ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه مرض ؛ فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة والانضواء تحت لوائه ، وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام وتكاليف شاقة من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى ذلك الحين شرقا وغربا .

٢– أن الله أطلع رسوله على ما فى هذا الكون أرضية وسماوية من العظمة والجلال ؛ ليكون ذلك درسا عمليا؛ لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر ، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم أو يسبح فى أرجاء المعمورة أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء ؛ فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التى لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ .

٣– أن ما يجد كل يوم من ضروب المخترعات والتوصل بها إلى طى المسافات بوسائل الطائرات والنفاثات والأقمار الصناعية ، جعلنا نعتقد أن ما جاء فى وصف هاتين الرحلتين – من الأمور الميسورة التى ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

٤- أن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملإ الأعلى ؛ لتخلخل الهواء واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة فى عالم الحس ، وأن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها وإبداء الرأى فيها وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

٥- أن ما جاء فى الحديث من أن الرسول ﷺ صلى إماما بالأنبياء فى عالم السماوات ؛ ليرشد إلى أن محمدًا ﷺ جاء بشريعة ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأتمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه وصاروا مؤتمين به.

٦- أن فى هذا مغزى جديرا بطويل التأمل والتفكر وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووئام فى الملكوت الأعلى - بالقرب من ربهم الذى أرسلهم - أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلما لا حربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس كما هو متبع فى القوانين الوضعية ، فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير منها .

★ ★ ★

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

المفردات :

الكتاب : التوراة .

وجعلناه هدى لبنى إسرائيل : جعلنا التوراة مصدر هداية لهم تخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

ألا تتخذوا : أن : مفسرة معناها : أى : لا تتخذوا ، كقولك : كتبت إليه : أن افعل كذا ، أو زائدة والقول مضمر تقديره قلنا لهم : لا تتخذوا .

من دونى وكيلا : أى : معبودا تكلون إليه أموركم ؛ لأنه تعالى أنزل على كل نبى أرسله أن يعبده وحده لا شريك له .

ذرية من حملنا مع نوح : نصب على الاختصاص أو النداء وفيه تهييج وتنبيه على المنة والإنعام عليهم فى إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح فى السفينة وإيماء إلى علة النهى ، كأنه قيل : لا تشركوا ، فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد وأنتم ضعفاء محتاجون إلى لطفه ، وفي التعبير بالذرية الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء مناسبة تامة لما ذكر .

إنه كان عبدا شكورا : أى : لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينبغى ، قال مقاتل: وكان من شكره أنه كان يذكر الله عز وجل حين يأكل و يشرب ، ويحمده على كل نعمه، ويذكر الله حين يقوم أو يقعد أو يلبس ثوبا جديدا ، أو ينام أو يستيقظ ، ويذكر الله جل ثناؤه بكل خطوة وبكل عمل يعمله ؛ فسماه الله عبدا شكورا .

التفسير :

٢، ٣- وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا .

المعنى الإجمالى :

ذكر الله : إسراء محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وبمناسبة الحديث عن بيت المقدس ذكر ما أنعم الله به على بنى إسرائيل ؛ فقد أعطاهم التوراة فيها هدى ونور .

وأمرهم أن يخلصوا له العبادة وأن يفوضوا له الأمور ، وأن يتوكلوا عليه وحده ، ولا يتخذوا وكيلا سواه، فهذا هو الهدى وهذا هو الإيمان .

ثم ذكرهم بنعمة الله عليهم فى الماضى ؛ استمالة لهم وتهييجا لإيمانهم ؛ فهم من ذرية نوح الذين نجاهم الله فى السفينة ؛ لإيمانهم وأغرق من عداهم من الكافرين ، وخاطبهم الله بهذا النسب ؛ ليذكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين ، مع نوح العبد الشكور ، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق .

تنبيهات :

١- لما ذكر الله تعالى فى الآية الأولى : إكرامه محمدا ﷺ بالإسراء ذكر فى هذه الآية : أنه أكرم موسى قبله بالتوراة وجعلها مصدر هداية .

٢- قال الله عن محمد أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ وقال عن نوح إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ، وبذلك تلتقى وحدة الرسالات ووحدة الرسل فى مقام العبودية الحقة لله .

قال ابن القيم فى (طريق الهجرتين):

أكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، ولهذا كان من دعائه ﷺ : « اللهم ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك » . اهـ .

وكلما زاد العبد ذلا لربه وإمعانا فى عبادته والالتجاء إليه ، زاد عزة ورفعة بالإيمان والاعتماد على الله، وفى الحديث : « احفظ الله ؛ يحفظك ، احفظ الله ؛ تجده تجاهك ، وإذا سألت ؛ فاسأل الله، وإذا استعنت؛

فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .. جفت الأقلام وطويت الصحف».

٣- قال تعالى عن نوح: إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا . وورد : أن نوحا كان يشكر الله على كل حال ويروى من شكره: أنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى . وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى، ولو شاء أظمأنى ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ، ولو شاء أعرانى ، وإذا قضى حاجته ، قال: الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية .

وورد فى كتب السنة : أن النبى محمدا ﷺ كان يذكر الله عند كل نعمة ويتعجب من فضل الله عند كل مشهد أو منظر مثير ، فورد أنه كان يذكر الله عند الصباح إذا أسفر ، وعند المساء إذا أقبل ، ويذكر الله إذا تقدم للطعام ، وإذا شبع وإذا اكتسى ، وإذا نام وإذا استيقظ ، وإذا سافر وإذا عاد من السفر ، وهذا دليل على الأخوة النفسية للأنبياء فهم عبيد مخلصون لله ، وهم شاكرون لأنعم الله .

٤- حفلت كتب السنة بهدى النبى محمد ﷺ فى يومه وليلته ، ومن دعائه عن الأكل : «اللهم ، بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار باسم الله» وعند أكل الفاكهة «اللهم ، اجعلها نعمة دائمة تصلنا بها إلى نعمة الجنة» وإذا أتم الأكل قال : «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين . وإذا لبس ثوبا قال: «الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس» أو قال : «الحمد لله الذى كسانى هذا من غير حول منى ولا قوة» . وكان إذا خرج من بيت الخلاء يقول : «غفرانك ، الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى على ما ينفعنى» .

ويكاد دعاء نوح ومحمد أن يكونا متقاربين فى الاعتراف لله بفضله وشكره على نعمه ، صحيح أن الأسلوب مختلف ، ولكن الفكرة والمعنى متقاربان .

٥- وكان النبى إذا أراد النوم قال: « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت روحى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها فيما تحفظ به عبادك الصالحين »[٢٠] .

وكان إذا أرق من الليل يقول : « اللهم غارت النجوم ، ونامت العيون وبقيت أنت يا حى يا قيوم ، أرح ليلى وأنم عينى »[٢١] .

وكان إذا استيقظ يقول: « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »[٢٢] .

وإذا رأى الصباح يقول: «أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور»[٢٣].

وإذا خرج للسفر يقول: « اللهم، لك انتشرت ولك سرت وبك آمنت وعليك توكلت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت »[٢٤] .

وإذا عاد من السفر يقول: « تائبون آيبون حامدون لربنا شاكرون »[٢٥] .

وكلها أدعية تحقق معنى العبودية لله والشكر له ، فكما أن نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا ، فإن محمدا ﷺ كان عبدا شكورا ، والأنبياء إخوة فى طريق الدعوة إلى الله .

★ ★ ★

فساد بنى إسرائيل فى الأرض

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

المفردات :

قضينا : أعلمنا بالوحى .

الكتاب : التوراة .

لتعلن : لتستكبرن عن طاعة الله .

الوعد : الموعود به ، وهو العقاب ، أى : فإذا جاء وعد عقاب أولاهما .

البأس والبأساء والبؤس : الشدة والمكروه ، إلا أن البأس والبأساء كثر استعمالهما فى النكاية بالعدو ، والبؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب .

جاسوا : ترددوا للغارة .

خـــلال الـــديـــار: أوسطها وفرجها.

الـــكـــرة: الدولة والغلبة.

نـــفـــيـــرا: النفير والنافر؛ من ينفر مع الرجل من قومه وأهل بيته.

تـــتـــبـــيـــرا: [٢٦] مصدر تبر تتبيرا، والتتبير: الإهلاك، وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن جبير وكل شيء كسرته وفتّته فقد تبرته، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه وظفروا به تدميرا شديدا[٢٧].

التفسير:

٤- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

أوحينا إلى بنى إسرائيل فيما أنزلناه فى التوراة على موسى، فأعلمهم به: لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين، ولتستعلن على الناس استعلاء عظيما؛ يؤدى بكم إلى الخسران والدمار.

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض: تحريفهم للتوراة، وتركهم العمل بما فيها من أحكام، وقتلهم الأنبياء، واعتداؤهم على الذين يأمرون بالقسط من الناس، وشيوع الفواحش والرذائل فيهم.

٥- ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود؛ سلطنا عليكم؛ لمؤاخذتكم بجنايتكم عبادا لنا أصحاب قوة وبطش شديد فى الحروب، وهم: سنحاريب ملك الموصل وجنوده، أو بختنصر البابلى، أو جالوت أو غيرهم.

وقد أوغل الغزاة فى بلاد اليهود وترددوا بين الدور والمساكن للقتل والسلب والنهب وقتلوا علماءهم وكبراءهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وسبوا منهم عددا كثيرا، وكان ذلك وعدا مفعولا نافذا لا مرد له.

٦- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

ثم أعدنا لكم – يا بنى إسرائيل – الدولة والغلبة على الذين قهروكم وأذلوكم حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو فغزوتم البابليين أو قهرتم أعداءكم واستنقذتم الأسرى والأموال ورجع الملك إليكم وكثرت أموالكم بعد أن نهبت، وأولادكم بعد أن سبيت وصرتم أكثر عددا وأعظم قوة مما كنتم من قبل وذلك بفضل طاعته تعالى والرجوع إليه.

٧- إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... الآية .

أى : إن أحسنتم فأطعتم الله ولزمتم أمره أحسنتم لأنفسكم ؛ لأنكم تنفعونها بذلك فى دنياها وآخرتها. فقد جعل الله الجزاء الحق من جنس العمل ووعد المؤمنين العاملين بالنصر والتأييد ، كما وعد المفسدين بالعقاب والتأديب .

تلك قاعدة لا تتغير فى الدنيا وفى الآخرة ، وهى تجعل عمل الإنسان كله له بكل ثماره ونتائجه ، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج وبه تتكيف ، وتجعل الإنسان مسئولا عن نفسه إن شاء أحسن إليها وإن شاء أساء لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء .

فإذا تقررت هذه القاعدة ، مضى السياق يكلم النبوءة الصادقة .

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا .

لقد فهم اليهود من السياق : أن اليهود أفسدوا مرتين فسلط الله عليهم فى المرة الأولى من انتقم منهم، ثم أعاد لليهود دولتهم وملكهم ولم يذكر هنا ما صنع اليهود بعد أن رد الله لهم الكرة على أعدائهم اكتفاء بما علم من طبعهم أنهم كلما استعلوا فى الأرض بغوا وأفسدوا ، وبما ذكره القرآن من قبل : لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ، ثم أثبت ما يسلطه الله عليهم فى المرة الآخرة فقال :

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ [٢٨] لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ .

أى: فإذا جاء وقت عقوبتكم – يا بنى إسرائيل – على المرة الآخرة من مرتى إفسادكم فى الأرض بعثنا أعداءكم ؛ ليجعلوا آثار المساءة بادية فى وجوهكم بما يرتكبونه معكم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو ما يجبهون به وجوهكم من مساءة وإذلال. ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها: وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ. قاهرين فاتحين مذلين لكم ، كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؛ وليهلكوا ما ادخرتموه تتبيرا شديدا فلا يبقون منه شيئا .

وهى صورة للدمار الشامل الكامل الذى يطغى على شىء والذى لا يبقى على شىء .

قال الإمام الرازى :

وإنما عزا – سبحانه – الإساءة إلى الوجوه ؛ لأن آثار الأحوال النفسية الحاصلة فى القلب ، إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح فى القلب ظهرت النضرة والإشراق والأسفار فى الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب ؛ ظهر الكلوح والغبرة والسواد فى الوجه ، فلهذا السبب عزيت الإساءة إلى الوجوه فى هذه الآية ، ونظير هذا المعنى فى القرآن كثير ، ومنه قوله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ [٢٩] . (الملك: ٢٧) . ا هـ.

٨- عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ .

يعقب القرآن على النبوة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقا للرحمة إن أفدتم منه عبرة وتبتم عن المعاصى وعلمتم أن سنة الله لا تتخلف وأن عدالة الله نافذة فى رحمة التائبين ، وعقاب المفسدين .

وقد حقق لهم وعده فكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة وجعل منهم الملوك والأنبياء .

وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا .

أى : وإن عدتم لمعصيتى وخلاف أمرى وقتل رسلى ؛ عدنا عليكم بالقتل والسلب والإذلال .

وقد عادوا إلى الإفساد وكذبوا رسول الله محمدا ﷺ ، وهموا بقتله ونقضوا عهودهم معه ، فسلطه الله عليهم ؛ فأجلى عن المدينة بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وقتل بنى قريظة ، وفتح خيبر ، وفرض الجزية على من بقى من اليهود فى بلاد العرب فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ولا ملك لهم ولا سلطان .

وقد تكرر رجوعهم للفساد فى عهود التاريخ ؛ فسلط الله عليهم فى كل مرة من يسومهم سوء العذاب حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر» .

ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد فى صورة (إسرائيل) التى أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ؛ تصديقا لوعد الله القاطع ، ووفاقا لسنته التى لا تتخلف .

وتختم الآيات ببيان مصير الكافرين فى الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة .

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا .

تحصرهم فلا يند عنها حد . وعن الحسن : بساطا كما يبسط الحصير المنسوج .

١ - فى أعقاب التفسير

خلاصة الآيات ما يأتى :

١ – أخبر الله : أن بنى إسرائيل سيفسدون فى الأرض مرتين ، وهذا الفساد معناه : طغيان وعدوان منهم على عباد الله وخروجهم على الطريق القويم .

٢ – أخبر الله عنهم : أنهم لما طغوا وبغوا ؛ سلط الله عليهم من ينتقم منهم .

٣ – بعد الانتقام الأول عادوا إلى طريق الجادة فانتصروا على أعدائهم ، لكنهم لم يلبثوا أن عادوا للفساد فحق عليهم وعيد الله .

٤- سلط الله عليهم فى المرة الثانية من أذلهم ، وهدم هيكلهم ، وهدم المسجد الأقصى ، وقضى عليهم وعلى ملكهم.

٥- ذكر الله : أنه يشملهم برحمته إذا تابوا إليه ، فإن عادوا للفساد ؛ عاد الله عليهم بالعقاب .

٦- كثر عدد اليهود بعد الإفساد الأول والثانى وعقوبتهما ، وأعزهم الله بعد الذل وأعطاهم المال والجاه.

٧- أرسل الله محمدا نبيا رسولا يعرفون صفته فى التوراة ، ولكنهم كذبوه وغدروا به ؛ فسلط الله عليهم المسلمين ؛ فحاصروهم وقاتلوهم ، وفرضوا عليهم الجزية ، ثم أخرجوهم من بلاد العرب .

٨- استمرت حياة اليهود بين مد وجزر فكلما أرخى الله لهم الحبل ومُتِّعوا بالنعمة ؛ أسرفوا فى استغلال النعمة وفى الفساد ؛ فسلط الله عليهم من ينتقم منهم .

٩- كان آخر إفساد لهم سيطرتهم على فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وابتلاع مساحات من البلاد العربية فى سنة ١٩٦٧.

١٠- الأمل فى الله أن يهيئ لهم من ينتقم منهم وأن يتكاتف العرب والمسلمون ؛ ليثأروا لأنفسهم ولدينهم وأوطانهم .

٢- من هم القوم الذين سلطهم الله على اليهود

تاريخ اليهود الطويل حافل بالعدوان وسفك الدماء وقد سلط الله عليهم أعداءهم مرارا وتكرارا فإفسادهم مرتين مراد به : كرتين أى : المرة تلو المرة بدليل قوله تعالى بعد ذلك : وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ، وقد عاد اليهود للفساد ، وكلما عادوا ؛ عاد لهم الانتقام .

قال ابن كثير :

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟

فعن ابن عباس وقتادة : أنه جالوت الجزرى وجنوده ، سلط عليهم أولا ثم أديلوا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت . ولهذا قال : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ .

وعن سعيد بن جبير : أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده وعنه أيضا وعن غيره : أنه بختنصر ملك بابل.

ثم قال : وقد وردت فى هذا آثار إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها ؛ لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن فى غنية عنها ولله الحمد .

وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله . ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم.

وقد أخبر الله عنهم : أنهم لما طغوا وبغوا ؛ سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم ؛ جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء[٣٠] اهـ .

وتفسير الآيات غنى عن تحديد أشخاص المسلطين على اليهود وتاريخ هذا التسلط ، فالقرآن كتاب هداية يذكر من القصة التاريخية الجانب الذى يحقق العظة والعبرة ولا يهتم بإيراد القصة كاملة . وإنما يلقى الضوء على فترات معينة فى تاريخ البشرية ؛ لتحقيق العظة والاعتبار . قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف: ١١١) .

فالقرآن قد أبهم أسماء وبلادًا ؛ لأنه لم ير فائدة كبيرة تتعلق بذكرها ولو علم الله فى ذلك فائدة لذكرها . وحين أبهم الأشخاص المسلطين على اليهود صار من واجب المؤمن أن يعرف أن هناك أشخاصا انتقموا من اليهود فى تاريخهم ، وإذا أراد تحديد هؤلاء الأشخاص ؛ لجأ إلى التاريخ الصحيح لا ليحكمه فى معنى القرآن وإنما ليستأنس به ولتكون معرفة جانبية لا تحكم على التفسير ، فمعنى الآيات واضح بدون إقحام الإسرائيليات التى أدخلها اليهود للكيد والدس وتلقفها عنهم المفسرون ؛ ليشبعوا فضول الناس فى معرفة الأشخاص المبهمين ، وقد أمرنا ألا نصدق بنى إسرائيل ولا نكذبهم ؛ فما روى عنهم لا يخلوا عن واحد من ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يعلم صحته عن طريق القرآن أو السنة أو شاهد من الشرع ، وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثانى : ما يعلم كذبه ؛ بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا أو يكون مخالفا لما يقرره العقل وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : وهو المسكوت عنه فلا هو من قبيل الأول ، ولا هو من قبيل الثانى ، وهذا القسم نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه .

وقد ذهب ابن كثير إلى جواز رواية القسم الثالث للاستشهاد به لا للتفسير ، وخالفه فى ذلك المحقق أحمد شاكر[٣١] .

٣- أشهر أقوال المفسرين فى من سلطه الله على بنى إسرائيل

(أ) ورد فى الطبرى : أن أول الفساد كان قتل زكريا ؛ فبعث الله عليهم ملك النبط (وكان يدعى: صحابين)[٣٢] فانتصر عليهم ، ثم رد الله الكرة لليهود على أعدائهم . ا هـ .

وهذا الرأى مردود ؛ فلم يحفظ التاريخ أن بنى إسرائيل غزوا النبط أو أصابوا منهم[٣٣] .

(ب) وأخرج ابن عساكر فى تاريخه : عن على بن أبى طالب قال: الإفساد الأول : قتل زكريا ، والثانى : قتل يحيى[٣٤].

وهو مردود ؛ بأن بين قتل الاثنين فترة قصيرة لا تسمح لهم برد الكرة وتحقيق النصر .

(ج) أخرج ابن جرير قال: أما المرة الأولى ، فسلط الله عليهم جالوت حتى بعث طالوت ومعه داود ، فانتصرا على جالوت وأسسوا مملكة داود سنة ١٠٩٥ ق. م[٣٥] .

ثم بعث الله عليهم فى المرة الثانية بختنصر البابلى المجوسى فغزاهم ثلاث مرات : الأولى : سنة ٦٠٦ ق . م ، والثانية : سنة ٥٩٩ ق. م ، والثالثة : سنة ٥٨٨ ق. م.

وفى المرة الثالثة : أكثر فيهم القتل ، وأخذ الأحياء أسرى ودمر أورشليم تماما[٣٦] .

(د) ذهب جمهور المفسرين : إلى أن المسلط عليهم فى المرة الأولى هو بختنصر البابلى ، وقد غزاهم فى سنة ٦٠٦ ، ٥٩٩ ، ٥٨٨ ق . م .

ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ ق. م فعادوا لبلادهم ، وأعادوا بناء هيكلهم .

والمسلط عليهم فى المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠ م .

وقد كان إذلاله لهم أشد وأنكى حتى بلغ عدد القتلى منهم مليون قتيل ، وبلغ عدد الأسرى مائة ألف أسير[٣٧] .

وبعد انتصار تيطس الرومانى عليهم ؛ تفرقوا فى البلاد ، وأصبح تاريخهم ملحقا بتاريخ الممالك التى نزلوا فيها[٣٨] .

ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا فى العصر الحديث بعد أن ظلت فلسطين فى يد العرب المسلمين ١٣٠٠ سنة من الفتح العربى سنة ٦٣٦م (سنة ١٥هـ) إلى سنة ١٩٤٨م (سنة ١٣٦٦ هـ) . باستثناء ٨٠ سنة هى فترة الحرب الصليبية (١٠٩٩م – ١١٨٧م) حين سقط بيت المقدس فى يد الغزاة ، ثم استرده

العرب المسلمون على يد صلاح الدين الأيوبى فى يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ - ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م . ودخل خطيب المسلمين بيت المقدس ، وحمد الله حمدا كثيرا على رجوعه إليهم . وظل فى يد المسلمين إلى أن استولى عليه اليهود فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ .

٤- ملاحظات

١- لم يصح عن الرسول ﷺ حديث فى بيان المراد بالعباد الذين سلطوا على بنى إسرائيل .

٢- الإفساد قد تكرر من بنى إسرائيل والمرتين هما أظهر مرتين .

٣- الرجوع إلى التاريخ الصحيح هو الذى يفيدنا فى الموضوع .

٤- اختلفت أنظار المؤرخين والمفسرين فيمن سلط على اليهود بحسب الاجتهاد الشخصى لكل مؤرخ أو مفسر .

٥- مقصود الآيات : هو بيان سنة من سنن الله فى الأمم حال صلاحها وفسادها ، وهذه السنة ماضية فى الأمم دون تبديل أو تحويل .

٦- لا يتوقف فهم المعنى على تحديد أشخاص بعينهم سلطوا على اليهود ، بل المقصود : أنهم كلما أكثروا من المعاصى ؛ سلط الله عليهم أقواما آخرين قتلوهم وأذلوهم .

★ ★ ★

ملاحق عن اليهود

الملحق الأول :

تاريخ اليهود فى فلسطين

الفترة التى استقر فيها حكم اليهود فى فلسطين لا تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن ، وكل ما تركوه بفلسطين آثار حائط لهيكلهم ظلوا ينوحون عليه قرونا عديدة ؛ حتى سمى حائط المبكى .

والفترة الذهبية لحكمهم بدأت بتأسيس مملكة داود سنة ١٠٩٥ ق. م .

واستمر ملك داود ٤٠ سنة جاء من بعده ابنه سليمان فحكم ٤٠ سنة أخرى انتهت بوفاته سنة ٩٧٥ق. م .

ثم خلفه ابنه رحبعام الذى انقسمت مملكة اليهود فى زمنه إلى قسمين : مملكة إسرائيل فى الشمال «السامرة» ، ومملكة يهوذا فى الجنوب «أورشليم» .

ودامت مملكة الشمال نحو ٢٥٠ سنة وانتهت سنة ٧٢١ ق . م ، حينما غزاها سرجون ملك آشور واستولى على السامرة (نابلس الآن) وقضى نهائيا على تلك المملكة .

وأما مملكة يهوذا فقد عاشت أكثر من أختها إسرائيل حتى غزاها بختنصر سنة ٦٠٦ق. م غزوات متعددة انتهت بتهديم أسوار المدينة ، وإحراق الهيكل ، وسبى الشعب إلى الأسر فى بابل .

ثم أعيد اليهود من السبى سنة ٥٣٦ ق. م على يد قورش الذى تولى ملك فارس وغدت يهوذا ولاية من ولايات الفرس حتى سنة ٣٣٢ق. م ، حيث انتقلت إلى ملك الإسكندر المقدونى بعد أن هزم الفرس ودخل سورية وفلسطين .

وفى سنة ٧٠ م تقدم القائد الرومانى (تيطس) ودمر أورشليم وهيكلها وذبح اليهود فيها وأسر كثيرا من شعبها ، وذاق اليهود على يد تيطس الذل والهوان .

وتعددت ثورات اليهود على الرومان كما تكرر بطش الرومان بهم وقهرهم ، وفى سنة ١٣٥م قتل الرومان من اليهود ٥٨٠ ألفا ، ودمروا أورشليم ، وأنشئوا مكانها مدينة جديدة سميت : إيلياء .

فتاريخ اليهود حافل بالثورات وسفك الدماء . وأهم استقرار لهم كان فى عهد داود وسليمان ١٠٩٥-٩٧٥ق . م .

وقد غزاهم بختنصر ثلاث مرات وقتلهم وسباهم إلى بابل فى الفترة من سنة ٦٠٦ إلى سنة ٥٠٨ ق.م (وسمى ذلك : بخراب أورشليم الأول) . وفى سنة ٥٣٦ ق. م أنقذهم قورش الفارسى من السبى وسمح لهم بالعودة إلى أورشيلم ، كما صرح لهم بإعادة بناء الهيكل سنة ٤١٥ ق. م .

وفى سنة ٧٠م هاجمهم تيطس الرومانى وقتلهم ودمر هيكلهم .

وفى سنة ١٣٥م هاجمهم القائد الرومانى يوليوس سيفروس فاحتل أورشليم وهدمها وبنى مكانها إيلياء وأسدل الستار على تاريخ اليود القديم فى فلسطين .

ثم جاءت هيلانة أم الملك قسطنطين الرومانى البيزنطى ، وبَنَتْ كنيسة القيامة سنة ٤٢٦م ، ثم بُنِيَتْ كنيسة العذراء سنة ٥٣٠م .

وفى سنة ٦٣٦م (١٥ هـ) فتح العرب المسلمون بيت المقدس وما حوله من بلاد فلسطين وظلت فلسطين عربية إسلامية حتى سنة ١٩٤٨ (١٣٦٦هـ) .

ومن ذلك الحين بدأ الغزو اليهودى المنظم لفلسطين ثم كان مشروع تقسيم فلسطين ، وتوسع اليهود

الأليم فى سنة ١٩٦٧ ، حيث ضموا إلى فلسطين أجزاء من البلاد العربية ، ولا تزال الحرب سجالا بين العرب وبينهم (والله غالب على أمره) .

وقد تنبأ النبى الكريم بهذا العدوان اليهودى الغادر ووعد أمته بالنصر . فقد روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ ، قال: « لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ؛ فيختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول الحجر : يا عبد الله ، هذا يهودى ورائى فاقتله »[٣٩] .



الملحق الثانى :

نكبات اليهود

إليك لمحات من العقوبات التى أصابت اليهود جزاء وفاقا ؛ لجشعهم ونهبهم ورغبتهم فى امتصاص دماء الشعوب :

١- فى بريطانيا لقى اليهود فى بعض العهود ألوانا من التعذيب وصنوفا من القتل والتشريد .

حدث ذلك فى عهد الملك هنرى الثالث الذى أصدر أمره سنة ١٢٣٠ م بأن يدفع اليهود إلى الخزينة البريطانية ثلث أموالهم المنقولة .

وتكررت عقوباتهم فى عهد إدوارد الأول سنة ١٢٧٣ م .

٢- وفى فرنسا تكررت المأساة فى عهد لويس التاسع ، وفيليب الجميل ، وعلى يد نابليون فى القرن التاسع عشر .

٣- وفى إيطاليا حاربهم البابوات حربا شعواء وأطلقوا عليهم اسم: الشعب المكروه ، وأغروا بهم الشعب ؛ فأعمل فيهم القتل والتشريد . وفى سنة ١٥٤٠ ، قتل منهم الآلاف وطرد من بقى حيا خارج إيطاليا .

٤- وفى أسبانيا ذاق اليهود أقسى العقوبات على يد محاكم التفتيش ولم يظفروا بالراحة إلا أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا .

٥- وفى روسيا أوقع الروس بهم المذابح كما حدث فى سنة ١٨٨١، ١٨٨٢. وفى سنة ١٩٠٢ م عمت المذابح ضدهم حتى قتل منهم ١١ ألفا .

٦- وفى ألمانيا تعرضوا لعقوبات قاسية آخرها ما لقوه على يد هتلر من سنة ١٩٣٣ م إلى سنة ١٩٤٥[٤٠].

٧ - وقد تعرضوا لانتقام المسلمين فى غزوات : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، وفتح خيبر ؛ حيث حاصرهم المسلمون وقتلوهم وأجلوهم من ديارهم .

وهكذا يحق قوله تعالى : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (الأعراف : ١٦٧) .

★ ★ ★

الملحق الثالث :

من هدى السنة فى الموضوع

يرى بعض المفسرين : أن الآيات السابقة تحمل بشارة من الله بالنصر على اليهود فى العصر الحديث، ونحن لا نمنع أن تحتمل الآيات هذا المعنى بشرط أن نعمل العمل الملائم للنصر ، فقد جعل الله الأسباب مرتبطة بالنتائج . وقال سبحانه: وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا، فكلما عاد اليهود للإفساد ؛ سلط الله عليهم القتل والانتقام.

قال الأستاذ نديم الجسر[41] :

روى مسلم : عن ابن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ : « لتقاتلن اليهود ، فلتقتلنهم ، حتى يقول الحجر: يا مسلم ، هذا يهودى اقتله » .

وفى رواية : « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر : يا مسلم، هذا يهودى ورائى فاقتله».

وفى رواية : «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر والشجر ؛ فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله».

البشرى من هذا الحديث

(أ) إن الحديث يصرح : بأن المقتلة مع اليهود ستكون فى المستقبل ، بل رواية « لا تقوم الساعة حتى ... » تفيد : أن المقتلة ستكون فى المستقبل البعيد .

(ب) المفهوم من ظاهر وصف المقتلة أنها ستكون عظيمة وضارية .

(ج) فى رواية : «تقاتلكم اليهود....» أنهم هم الذين يبدءون المسلمين بالقتال ، وهذا يقتضى أن تكون لهم دولة وشوكة تشجعهم على البدء بالقتال .

(د) لا يخفى أن يهود الحجاز والجزيرة العربية لم يكن لهم كيان دولى قائم بذاته قبل الإسلام ، وأما بعده فلم يعد لهم شوكة ، بل لم يعد لهم وجود يظن معه أنهم يقاتلون المسلمين .

(هـ) ولا يمكن أن يعنى الحديث : قتالا مع شراذم اليهود الضعفاء من أهل الذمة ، فالمسلمون مأمورون بحمايتهم ، وليس قتلهم مما يستحق أن يبشر به الرسول المسلمين .

(و) أما فى خارج الحجاز والجزيرة ، فاليهود بعد التشتيت الثانى الذى حصل لهم على يد (تيطس) الرومانى لم يعد لهم كيان دولى أو تجمع أو تكتل مستقل فى أى قطر من أقطار الأرض .

وهذه الأحاديث لا يمكن فى العقل تصور اختراعها ؛ إذ لم يوجد من الدواعى والأسباب ما يبرر اختلاقها ، فلم يكن هناك لليهود دولة تحتك بالمسلمين فى مواقع شديدة حتى يمكن تصور اختراع مثل هذه الأحاديث ، بل كانوا شعبا ذليلا مشتتا لا شوكة له ولا دولة ، ولا ذكر له عند المسلمين ، ولا يخطر ببالهم التخوف منه .

إذن فكيف يتحقق صدق هذا الحديث ؟

لقد ظل الجواب على هذا السؤال مستورا وراء الغيب أربعة عشر قرنا ، حتى ظهرت دولة إسرائيل الحديثة التى لم يخطر على البال ولا بالخيال ظهورها فى حياة الإمامين الراويين للأحاديث تلك: (البخارى ومسلم) فى القرن التاسع عشر الميلادى وأين ظهرت ؟ أين ؟

فى قلب البلاد العربية والإسلامية ، أى : حيث أصبح حصول الاحتكاك مع اليهود معقولا ، بل فى صميم الأرض المقدسة عند المسلمين ، حيث أصبح وقوع القتال محتما ، وعلى مقربة من الكعبة بيت الله ، ومقربة من يثرب مدينة الرسول ، التى لليهود فيها ذكريات كلها أحقاد ، أى : حيث أصبح القعود عن القتال خروجا عن الإسلام ، وهكذا تحقق صدق الحديث النبوى المعجزة فى حصول القتال ، ولابد أن يتحقق صدقه عن نتيجة القتال إن شاء الله ، والأيام بيننا .

أيها المسلمون فى الأرض .. كل الأرض ، إنى على يقين من أن هذه البشارة النبوية سوف تتحقق فى يوم من الأيام قريب .. أو بعيد ، وعسى أن يكون قريبا بتعاون هذا الجيل الحاضر من حكام المسلمين وتناصرهم ، حتى لا تتكرر لعنة الله والتاريخ التى سجلها الشاعر الأندلسى ، على المتنابذين والمتخاذلين فى النصرة بقوله :

يا راتعين وراء البحر من سعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

هل جاءكم نبأ من أرض أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

★ ★ ★

الملحق الرابع :

رأى جديد

للأستاذ عبد الحميد جودة السحار ، فى كتابه (وعد الله وإسرائيل) ، رأى خلاصته :

أن وعد الله لإسرائيل بأن يفسدوا فى الأرض مرتين ، قد تحقق أولهما أيام بختنصر حيث عاقبهم الله على يديه عقابا أليما وشتتهم وأزال ملكهم ، ثم رجعوا لملكهم على يد « قورش » ولم يحدث منهم فساد منتشر عنيف فى أيام بختنصر ، كما حدث فى فلسطين الآن ، وفى الأراضى المحتلة بعد حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأن الله تعالى من أجل إفسادهم هذا سيسلط عليهم العرب والمسلمين ، ويمكنهم من رقابهم ؛ حتى يستردوا ما نهبوه ويستعيدوا أرضهم ومقدساتهم ، ويصمون اليهود بالخزى والهوان .

يقول السحار:

لقد نشبت الحرب بين إسرائيل والعرب ، وقد تحصنت إسرائيل بحصون أمريكا وإنجلترا ، فاليهود على مر التاريخ لا يحاربون إلا من وراء حصون ، واتضحت المؤامرة الجديدة التى دبرتها (أمريكا) لإذلال العرب الذين أبوا أن يدوروا فى فلك أمريكا ، وأن يطأطئوا الرءوس لمطامعها .

وأصيب العرب بنكسة (وما أكثر النكسات التى نزلت بهم!!!) ، وظن أنها كارثة وإذا بها بداية انتفاضة، وإذا بها تحفز لوثبة ، وانتابنى حزن عميق ، فعدت إلى كتاب الله ألتمس فيه السلوى ، وقرأت أول سورة الإسراء ، إلى نهاية الآيات المتحدثة عن بنى إسرائيل .

وتوقفت أفكر فى تلك الآيات ، وأسترجع ما وعته ذاكرتى من تاريخ بنى إسرائيل فوجدت أن بنى إسرائيل قد أخرجوا من القدس أيام بختنصر ملك العراق قبل الميلاد بخمسمائة سنة ، وأن (قورش) مؤسس الإمبراطورية الساسانية فى فارس هو الذى أعادهم إلى بيت المقدس ، وأنهم ظلوا بالقدس إلى أن جاء (تراجان) القائد الرومانى وهدم هيكل سليمان ، وقد فرح المسيحيون بذلك ؛ لأن السيد المسيح كان قد تنبأ بزوال الهيكل ومنذ ذلك الوقت صار اليهود مشتتين فى الأرض ، ولم تقم لهم قائمة ، ولم يكن لهم ملك فى القدس .

جاس بختنصر خلال فلسطين ، وحمل اليهود سبايا إلى بابل ، ودخلوا المسجد أول مرة بعد ذلك فى أيام (قورش) وطردوا من القدس فى أيام الرومان ، بعد أن أفسدوا فى الأرض ، وتحقق وعد أولاهما ، ورحت أنقب فى تاريخ بنى إسرائيل ؛ بحثا عن دخولهم مرة ثانية ، فلم أجد غير هذه المرة التى دخلوا فيها بيت المقدس بعد العدوان الثلاثى الجديد ، عدوان إسرائيل وأمريكا وإنجلترا على العرب ، وقد اطمأنت نفسى إلى أن ذلك هو الذى قصده الله سبحانه وتعالى بقوله : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا .

إن أمريكا قد أغدقت الأموال على إسرائيل ، وأمدتهم بمتطوعين ودبابات وطيارات ، وسخرت لهم القمر الصناعى؛ ليصور لهم مواقع العرب ومطاراتهم ، وسيرت سفينة التجسس «ليبرتى»؛ لتكون لهم خير عون على تنفيذ المؤامرة ، فصارت إسرائيل بذلك أكثر عدة وعتادًا وأكثر نفيرا ؛ ليدخلوا بيت المقدس ويصل إفسادهم فى الأرض قمته ؛ ليجىء وعد الآخرة ، وعد المرة الثانية ، المرة التى يدخل فيها العرب فلسطين ، ويطردون منها بنى إسرائيل ، ويهلكونهم هلاكا ؛ جزاء وفاقا على علوهم فى الفساد .

وبعد أن أبدى الأستاذ السحار عدم ارتياحه لما قاله المفسرون فى هذه الآيات وما فسروا به مرتى الإفساد عاد يقول :

ولما لم أجد أيا من التفسيرات التى قرأتها تتفق مع الحقائق التاريخية الثابتة ، فقد عدت مرة أخرى أقلب صفحات التاريخ ، فوجدت أن اليهود قد عادوا مرة واحدة فى تاريخهم الطويل إلى القدس بعد أن حملهم بختنصر ملك العراق أسرى إلى بابل ، وكانت تلك العودة أيام (قورش) مؤسس الأسرة الساسانية الفارسية ، وقد ظلوا بها إلى أن طردهم الرومان ، واستمروا مشردين فى الأرض ، ولم يدخلوا بيت المقدس مرة ثانية، إلا بعد العدوان الثلاثى الأخير ، فإنهم فى عدوان ١٩٥٦ لم يدخلوا المسجد الأقصى .

إن الآيات الكريمة لا يمكن أن تفسر إلا بعودة بنى إسرائيل إلى القدس ، ثم طردهم منها ؛ ليكون فى ذلك إذلال لهم وإمعان فى الهوان ، وقد عادوا إليها هذه المرة ، فأصبح على العرب أن يجمعوا صفوفهم على قلب رجل واحد ، وأن يوحدوا قبلتهم ، وأن يطهروا نفوسهم ، وأن ينصروا الله ؛ ليكونوا أهلا للنصر الكبير الذى وعدهم به ربهم فى كتابه الكريم .

هذا رأيى ، فإن كنت قد وفقت فمن عند الله ، وإن كان التوفيق قد جانبنى فحسبى أننى اجتهدت على قدر علمى وليغفر الله لى . اهـ .

أقول: إنه مجرد رأى وأمل قابل للنظر والبحث والاجتهاد والمناقشة ، وقد ذهب مذهبه الأستاذان : عبد الكريم الخطيب فى صحيفة الأخبار الجمعة ١٠/١/١٩٦٩ ، وعبد الرحيم فودة ، وإن كان الأستاذ الباقورى أشار فى أخبار ٣١/١/١٩٦٩ ، أن المؤمن يستقى العبرة من كتاب الله ولا يحمل الآيات على أمر قطعى ، وهى محتملة وخاصة لو فهم البعض من هذا التفاؤل والتأويل أن الله ضمن النصر لنا دون جهاد منا وإعداد واستعداد ، فهذا عين التواكل والمعصية والمخالفة لكتاب الله ، ونحن أحوج ما نكون إلى العمل كل العمل[٤٢].

وأقول : إذا اجتمع الأمل مع الأخذ بالأسباب ، كان الخير محققا ، والله يقول : قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . فأمر بالقتال وعلق عليه تعذيب الأعداء بأيدى المؤمنين، وهو القائل مع هذا : وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

★ ★ ★

الملحق الخامس :

مقتطفات عن اليهود

عرف اليهود بالقسوة البالغة واضطهادهم لغيرهم متى ملكوا المقدرة الظاهرة أو الخفية لذلك . وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش .

قال أحد الكتاب المعاصرين : «إن مذبحة دير ياسين كانت أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود ؛ فقد قتلوا ٢٥٠ إنسانا فى قرية صغيرة ومثلوا بأجسادهم وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام أعينهم» [٤٣] .

وتكرر ذلك فى حيفا ويافا وكفر قاسم وكثير من مدن فلسطين .

ويقول المؤرخ اليهودى يوسيفوس : «لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمله بنو إسرائيل من الكوارث والآلام على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم» [٤٤] .

ومن تصريحات اليهود المعاصرين :

«إن اليوم الذى سيعاد فيه بناء الهيكل أضحى قريبا جدا وسأكرس بقية حياتى لبناء هيكل عظيم مكان المسجد الأقصى» .

(ألفرد موند) الزعيم اليهودى الإنجليزى .

«أهداف الصهيونية هى إبادة العرب جميعا» .

(الدكتور ايدوا) رئيس اللجنة الصهيونية .

«لقد استولينا على القدس ونحن فى طريقنا إلى يثرب» .

(موشى ديان) وزير الحربية فى إسرائيل .

«وطنكم يا إسرائيل من الفرات إلى النيل ومن البحر الأبيض إلى البحر الأحمر» .

(مبدأ صهيونى) :

«الصهيونى هو اليهودى الذى يدفع ليهودى آخر نفقات هجرته إلى فلسطين» [٤٥] .

★ ★ ★

الملحق السادس :

توضيح لما رود فى القرآن بشأن تعظيم اليهود وتفضيلهم

فى القرآن بعض آيات فيها تنويه ببنى إسرائيل وإيذان برعاية الله لهم ، وتفضيلهم على العالمين ، وكتابته لهم الأرض المقدسة ، وتوريثه إياهم مشارق الأرض ومغاربها التى بارك الله فيها ، وإيجاب الجنوح إلى السلم معهم إذا جنحوا إليها .

ومع أن القرآن به آيات كثيرة تنسخ كل ذلك فإن اليهود يستغلون تلك الآيات لخداع المسلمين وإقامة الحجة عليهم من قرآنهم ؛ ليجعلوهم يسيغون ما كان منهم من عدوان وبغى وظلم واغتصاب ، وما يدعون إليه من الصلح على أساس الأمر الواقع الذى يؤيده القرآن بزعمهم .

ولذلك صار من واجب علماء المسلمين ونبهائهم توضيح المسائل ووضعها فى نصابها الحق ؛ لتنوير عامة المسلمين وتحذيرهم من خداع اليهود وتضليلهم ، وفيما يلى شىء من ذلك :

أولاً : فى القرآن هذه الآيات :

١ – يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . (البقرة : ٤٧) .

٢ – وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ . (السجدة : ٢٣ ، ٢٤) .

٣ – وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ . (غافر : ٥٣ ، ٥٤) .

٤ – وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ . (الدخان : ٣٠ – ٣٣) .

٥ – وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . (الجاثية : ١٦) .

وقبل كل شىء نقول : إن المفسرين متفقون على أن ما ورد فى الآيات من تنويه وتفضيل هو مؤقت بالظروف التى منحوها فيه وليس على التأبيد ، ولقد حكت آيات كثيرة جدا بغيهم وعدوانهم وعصيانهم وتكذيبهم للأنبياء وقتلهم إياهم وتحريف كتب الله وارتكاسهم فى الكفر والشرك وعبادة العجل وأكلهم السحت وعدم تناهيهم عن المنكر ، ومخالفتهم لشرائع الله واحتيالهم لها ، ومكابرتهم فى الحق ، وصدهم عن سبيل الله وسعيهم بالفساد فى الأرض ، وخيانتهم لعهودهم وأماناتهم ، واستحلالهم أموال الغير ،

وتآمرهم على الإسلام والمسلمين مع الأعداء ، وفى القرآن آيات كثيرة تقرر أن الله عاقبهم على سوء سلوكهم وأخلاقهم وانحرافهم الدينى والاجتماعى فضرب عليهم الشتات والذلة والمسكنة وصب عليهم غضبه ولعنته وجعل منهم القردة والخنازير ، وآلى على نفسه أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم من سوء العذاب وأذن لرسوله أن ينكل بهم ويطهر الأرض المقدسة من رجسهم .

وهذه أرقام وسور الآيات المذكورة :

البقرة : (٥٩ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٠) .

آل عمران : (٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٨١)

النساء : (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦) .

المائدة : (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢).

الأعراف : (١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩) .

الأحزاب : (٢٦ ، ٢٧) .

الحشر : (٤) .

الصف : (٥) .

الجمعة : (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) .

بحيث يكون فى هذه الآيات الكثيرة إيذان ربانى بنسخ تلك الآيات وإلغاء تلك الميزات للانحرافات الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى ارتكسوا وظلوا مرتكسين فيها .

ولقد ذكرت آية السجدة (٢٤) : أن الله منحهم ما منحهم ؛ لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون . أى : أن ذلك كله رهنا بصبرهم وحسن يقينهم فيزول بزوال ذلك . وهو ما قررته الآيات . وقد جاء تقرير ذلك فى آيات عدة كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ – وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ... (البقرة : ٨٨) .

٢ – ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . (آل عمران : ١١٢).

٣ – أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا . (النساء : ٥١ ، ٥٢) .

٤ – وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ . (المائدة ١٢، ١٣) .

وثانيًا :

١ – فى سورة المائدة هذه الآيات :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ. (المائدة : ٢٠ ، ٢١) .

٢ – وفى سورة الأعراف هذه الآية :

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ . (الأعراف : ١٣٧).

ولقد جاء بعد آيتى المائدة آيات تحكى موقف اللجاج والتمرد والهلع الذى وقفه بنو إسرائيل من أمر الله ورسوله ، وإيجاب التيه الذى أوجبه الله عليهم وعدم السماح لهم بدخول الأرض بسبب فسقهم وهى هذه:

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ . (المائدة : ٢٢ – ٢٦) .

وهكذا يصح أن يقال : إن الأمر من وجهة النظر الربانية القرآنية قد وقف عند هذا الحد وانتهى مدى حكاية قول موسى : إن الله كتب لهم الأرض المقدسة .

ويلحظ أن آية سورة الأعراف قد تضمنت تعليلا لما كان من حكمة الله تعالى بإعلانه أنه أورثهم مشارق الأرض ومغاربها التى بارك فيها وهو صبرهم واستقامتهم . ولقد انحرفوا انحرافات دينية وأخلاقية خطيرة ونقضوا بذلك التعليل الربانى فلم يعد لهم حق التمسك بالآية القرآنية والاحتجاج بها فضلا عن الآيات الكثيرة التى أوردنا أرقامها وسورها التى تضمنت لعنة الله عليهم وغضبه وإيذانه بتشتيتهم فى الأرض وتسليط من يسومهم سوء العذاب عليهم إلى يوم القيامة وكتابته الذلة والمسكنة عليهم .

وإذا كان التاريخ سجل دخولهم الأرض المقدسة بالعنف والقوة والدم ، وإقامتهم فيها وقيام دولة لهم أثناء ذلك فيها ردحا من الزمن ، فإن ذلك لا يصح أن يؤخذ على أنه أكسبهم حقا شرعيا أبديا من وجهة النظر القرآنية ولا من وجهة نظر الواقع . فمن وجهة النظر القرآنية : أن ذلك الوعد الربانى كان مرهونا بصفات زالت عنهم فانتسخ الوعد بزوالها . ومن وجهة نظر الواقع : أنهم تشردوا وتشتتوا عنها منذ ألفى سنة وحل محلهم أقوام ظلوا فيها ثم اصطبغت بصبغة الإسلام والعروبة الخالدة فغدت بلاد الإسلام والعروبة وظلت كذلك فى طوال ألف وأربعمائة عام ولم ينقطع ذلك إلا فترة قصيرة فى زمن الحروب الصليبية فحارب المسلمون والعرب حربا شديدة ومديدة حتى طهروها من الغزاة وعادت صبغتها الإسلامية العربية إليها .

ومن الجدير بالذكر : أن الإصحاح (٢٦) من سفر الأحبار أحد أسفار اليهود المقدسة أنذرهم إنذارا شديدا رهيبا بالنكبات والضربات والشتات وتسلط الأقوياء عليهم وإذلالهم وتدميرهم إذا هم انحرفوا عن وصايا الله وشرائعه ، وقد سجلت أسفارهم العديدة مثل : أسفار القضاة ، وصموئيل ، والملوك ، وأخبار الأيام، وحزقيال ، ودانيال ، وأشعيا ، وأرميا ؛ انحرافهم عن وصايا الله وشرائعه انحرافا خطيرا ؛ ففقدوا ذلك من وجهة نظر أسفارهم أيضًا [٤٦] .

ثالثًا :

إن عدوان اليهود مستمر لا ينقطع وآخر ذلك عدوانهم فى يونيو ١٩٦٧ الذى وقع ولا يزال مستمرا على أشد وأقسى وأنكى ما يكون ولم يكن بينها وبين المسلمين والعرب سابق عداء قبل تفكيرهم فى غزو فلسطين وإنشاء دولة لهم فيها على أنقاض العرب والمسلمين ، بل كان المسلمون والعرب فى ظل السلطان الإسلامى يمنحون من كان فى ظله منهم الحرية والأمن والطمأنينة فى حين كانوا وظلوا معرضين للاضطهاد والمصادرة فى جميع البلاد الأخرى التى كانوا يقيمون فيها .

وعلى المسلمين واجب إعداد كل قوة يستطيعونها والاستعداد بكل وسيلة لمقاتلتهم وتضييق الخناق عليهم بدون كلل ولا فتور كما أمر الله ، إلى أن يقوضوا كيانهم ويطهروا أرض العرب من رجسهم وتعود إلى السلطان الإسلامى العربى كما كانت ، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾. (المجادلة : ٢١) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

تمهيد :

تحدث الله عن الأنبياء والرسل . ثم قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ويبشر الصالحين بالأجر والثواب العظيم وينذر الكافرين بالعذاب الأليم .

التفسير :

٩ـ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ...

فاقت هداية القرآن كل هداية ؛ فقد كان دليل الإصلاح ومصباح الإرشاد وسبيل الحكمة وآية الله الناطقة.

ففى مجال العقيدة : دعا إلى التوحيد ووضح عظمته وقدرته ودعا إلى نبذ الأصنام والأنداد .

وفى مجال العبادة : شرع العبادات ؛ ليربط المؤمن بربه عن طريق أداء الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج .

وفى مجال التشريع : شرع للناس ما يلزمهم وما يحتاجون إليه فى سلوكهم وحرم عليهم ما يضرهم ويودى بمجتمعهم ، وبين للناس الطريقة المثلى فى علاقات بعضهم ببعض : أفرادا ، وأزواجا ، وحكومات، وشعوبا ، ودولا ، وأجناسا .

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .

أى : للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدها أو للملة أو للطريقة .

قال الزمخشرى :

وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف لما فى إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه .

وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . أى : يبشر المخلصين فى إيمانهم ، وهم الذين يعملون الصالحات كلها ويجتنبون السيئات ، أن لهم فى الدنيا والآخرة ثوابا وافرا .

١٠ – وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ...

أى : بالبعث والجزاء على الأعمال.

أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

أى : عقابا موجعا ؛ جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر واجتراح الآثام .

وتلك هى قاعدة القرآن الأصلية فى العمل والجزاء . فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه ؛ فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثانى مقطوع لا ركيزة له وبهما معا تسير الحياة التى هى أقوم وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

★ ★ ★

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

التفسير :

١١– وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ... الآية .

والمعنى : ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر حين الغضب فيقول : اللهم ، أهلكنى . اللهم، العنى، كدعائه ربه بالخير بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة ولو استجيب له فى دعائه بذلك كما يستجاب له فى هذا ؛ لهلك ولكن الله بفضله ومنته لا يستجيب دعاءه ، كما قال : وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ . (يونس : ١١) .

وفى الحديث «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ؛ أن توافقوا من الله ساعة يستجيب فيها» .

وفى تفسير مقاتل ، والنيسابورى ، وابن كثير ، وجمع من المفسرين .

أن الإنسان فى الآية هو النضر بن الحارث ، دعا قائلا : ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) . فأجاب الله دعاءه وضربت رقبته صبرا ، وكان بعض الكافرين يقول للنبى : ائتنا بعذاب الله ، وآخرون يقولون : متى هذا الوعد ؟ جهلا منهم واعتقادا أن محمدا ﷺ كاذب .

وقد يكون المعنى فى الآية : أن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشىء يعتقد أن فيه خيره مع أن ذلك قد يكون سبب بلائه وشره ؛ لجهله بحاله ، وإنما يقدم على ذلك العمل ؛ لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور

غير متفحص لحقائقها وأسرارها . ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ ، يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره، وقيل : أراد بهذا الإنسان : آدم وذلك أنه لما انتهى الروح إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى فذهب ؛ لينهض فلم يقدر[٤٧] .

★ ★ ★

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

التفسير :

١٢- وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ...

أى : جعلناهما بهيئاتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر علامتين تدلان على أن لهما خالقا حكيما ويشيان بدقة الناموس الذى لا يصيبه الخلل مرة واحدة ولا يدركه التعطل مرة واحدة ولا ينى يعمل دائبا بالليل والنهار .

فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱلَّيْلِ . أى : بجعلها مظلمة فكأن الليل ممحو إذا قيس إلى ضوء النهار .

قال مجاهد : جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلما لا يستبين فيه شىء كما لا يستبين ما فى اللوح الممحو.

وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً. أى: وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ؛ لتمييز الأشياء المحسوسة وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء الذى يكشف كل شىء فيه للأبصار .

لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ . أى : فعلنا ذلك ؛ لتطلبوا فى النهار رزقا منه سبحانه بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار .

وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ السِّنِينَ . أى : ولتعلموا بمحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة عدد السنين التى تتوقف عليها مصالحكم الدنيوية .

وَٱلْحِسَابَ . أى : الحساب المتعلق بما فى ضمن السنين من الأشهر والليالى والأيام أو الحساب الجارى فى المعاملات كالبيوع والاجارات وفى العبادات ، أى : لتعرفوا مضى الآجال المضروبة لذلك ؛ إذ لولاه لما علم أحد حسبان الوقات ولتعطلت الأمور .

قال السيوطى فى الإكليل :

هذه الآية أصل فى علم المواقيت والهيئة والتاريخ وفى الآية لف ونشر غير مرتب .

فابتغاء الفضل يكون فى النهار ، وعلم الحساب والمواعيد يكون من أظلام الليل ، والمخالفة بينه وبين النهار .

وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً . أى : مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم بيناه فى القرآن بيانا بليغا لا التباس معه ، كقوله تعالى: **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** . (النحل : ٨٩) . فظهر كونه هاديا للتى هى أقوم ظهورا بينا .

وقيل : معنى **وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً** أى : أبدعنا نظامه فى دقة متناهية فليس شىء وليس أمر فى هذا الوجود متروكا للمصادفة والجزاف. ودقة الناموس الذى يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل وهى عليه شاهد ودليل.

وآيات القرآن متعاقبة على تأكيد هذا المعنى وبيان دقة النظام فى الليل والنهار وسير الشمس والقمر، وقد أورد الحافظ ابن كثير عددا كبيرا من آيات القرآن ؛ لتأكيد هذا المعنى وتأييده ، منها قوله تعالى: **وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** . (يس : ٣٧ – ٤٠) .

وقال تعالى : **فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ** . (الأنعام : ٩٦).

★ ★ ★

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

المفردات :

طــائــره : أى : عمله ، سمى به ؛ إما لأنه طار إليه من عش الغيب ، وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا: طائر الله لا طائرك أى : قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائرك الذى تتشاءم به

وتتيمن ؛ إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه : زجرا فإن مر بهم من اليسار إلى اليمين ؛ تيمنوا به وسموه : سانحا ، وإن مر من اليمين إلى اليسار ؛ تشاءموا منه وسموه: بارحا.

كـتـابـا : هو صحيفة عمله .

منشـورا : أى : غير مطوى .

حسـيبـا : أى حاسبا ، أى : عادا يعد عليه أعماله .

التفسير :

١٣ - وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ...

أى : ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيرا وشرا ، بحيث لا يفارقه أبدا بل يلزمه لزوم الطوق فى العنق لا ينفك عنه بحال .

قال أحد المفسرين : وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أى : ما يقسم له من العمل وهو كناية عما يعمله ، وإلزامه له فى عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته على طريقة القرآن فى تجسيم المعانى وإبرازها فى صورة حسية ، فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه .

وقال أبو عبيدة : الطائر عند العرب : الحظ ، ويقال له : البخت ، فالطائر ما وقع للشخص فى الأزل مما هو نصيبه من العقل والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كأنه طائر يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب [٤٨] اهـ .

وإنما أضيف الطائر إلى العنق ولم يضف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ؛ لأن العنق هو موضع السمات الثابتة وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين .

وقال الفخر الرازى : إن قوله : فِى عُنُقِهِۦ كناية عن اللزوم كما يقال : (جعلت هذا فى عنقك) أى : قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ومنه يقال : (فلان يقلد فلانا) أى : يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه.

وَنُخْرِجُ لَهُۥ . أى : نظهر له ، يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ . أى : البعث للجزاء على الأعمال ويقال له : ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . أى : شهيدًا بما عملت .

قال القاشانى : كِتَـٰبًا ، هيكلا مصورًا يصور أعماله ، يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ؛ لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة، لا مطويا كما كان عند كونها فيه بالقوة .

١٤- ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ ...

أى : اقرأه قراءة المأمور المتمثل لأمر آمر مطاع يأمر بالقراءة . أو تأمره القوى الملكوتية سواء كان قارئا أو غير قارئ ؛ لأن الأعمال هناك ممثلة بهيئاتها وصورها . يعرفها كل أحد . لا على سبيل الكتابة بالحروف ؛ فلا يعرفها الأمى .

كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ، لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازما إياها ، نصب عينها ، مفصلا لا يمكنها الإنكار (٤٩) .

والتعبير القرآنى بإخراج كتاب الإنسان منشورا يوم القيامة يصور عمله مكشوفا لا يملك إخفاءه أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى فى صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثرا فى النفس وأشد تأثيرا فى الحس ، وإذا الخيال البشرى ، يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب فى فزع طائر من اليوم العصيب الذى تتكشف فيه الخبايا والأسرار ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب .

١٥- مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ .

قال أبو السعود :

من اهتدى بهداية القرآن وعمل بما فى تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه ؛ فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى ، وَمَن ضَلَّ . أى : عن الطريقة التى يهديه إليها ؛ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . أى : وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشر الضلال ، فقوله : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ. مؤكد لما قبله للاهتمام به .

قال أبو السعود :

أى : لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ . اهـ .

وفى الآية تقرير لمبدإ التبعة الفردية التى تربط كل إنسان بنفسه وتجعله مسئولا عن عمله ، إن اهتدى فلنفسه وإن ضل فعليها . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد إنما يسأل كل عن عمله ويجزى كل بعمله ولا يسأل حميم حميما .

إن الله سبحانه لا يحاسب الناس جملة بالقائمة إنما يحاسبهم فردا فردا كل على عمله وفى حدود واجبه ، ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الإصلاح غاية جهده ، فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء

فى الجماعة التى يعيش فيها فإنما هو محاسب على إحسانه ، كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح .

على هذا نرى الإسلام ينكر أشد الإنكار فكرة بيع صكوك الغفران القائمة على أن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين ؛ ليباع منها لغيرهم ، تلك الفكرة تناقض أصولا مشهورة ونصوصا صريحة فى القرآن ، والآيات المناهضة لفكرة بيع التوبة وكنوز الصالحين كثيرة فى القرآن ، منها :

قوله تعالى : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . (المدثر : ٣٨) .

وقوله سبحانه : لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ . (البقرة : ٢٨٦) .

والآية التى نفسرها : مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... إلى غير ذلك من الشواهد التى تؤيد أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

كذلك لا غرابة فى أن ينكر الإسلام الاعتراف بالذنب لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب ؛ إذ أساس الإسلام أن الله وحده يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً .

أى : وما صح وما استقام منا أن نعذب قوما قبل أن نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ؛ إقامة للحجة وقطعًا للعذر ، والعذاب أعم من الدنيوى لقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ . (طه : ١٣٤) .

وقال تعالى : كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ . (الملك : ٨ ، ٩) .

إلى نحو ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يدخل أحدا النار ، إلا بعد إرسال الرسل إليه .

قال قتادة : إن الله لا يعذب أحدا حتى يتقدم إليه بخبر أو بينة ولا يعذب أحدا بذنبه .

وخلاصة ذلك : أن سنتنا المبنية على الحكم العالية ألا نعذب أحدا أى نوع من العذاب الدنيوى أو الأخروى على فعل شىء أو تركه ؛ إلا إذا أرسلنا إليه رسولا يهدى إلى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويبلغ الدعوة .

قال الإمام الغزالى : الناس بعد بعثة الرسول ﷺ أصناف ثلاثة :

(أ) من لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا وأولئك مقطوع لهم بالجنة .

(ب) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه ، وما كان عليه ﷺ من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا ؛ وأولئك مقطوع لهم بالنار .

(جـ) من بلغتهم دعوته ﷺ وسمعوا به ولكن كما يسمع أحدنا الدجالين وحاشا قدره الشريف عن ذلك وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم فى الإيمان به .

يريد الغزالى بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارا مكذوبة وعن دينه أخبارا لا تنطبق على حقيقته كما يفعل رجال الكنائس فى تشويه أخبار الرسول بأنه مزواج مطلاق وأنه كان متهالكا فى حب النساء ، وأن دينه دين وثنية ؛ لأنه كان يسجد للكعبة وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه لبيت المقدس ، وأن القرآن كثير المتناقضات كثير التكرار للقصص وفيه كذب ، إلى نحو أولئك مما يقولون وهم لا يقولون إلا ترهات وأباطيل .

فالشرط عند الغزالى أن تبلغ الإنسان الرسالة على نحو يحرك فيه داعية القبول . فلو لم تبلغه الرسالة أو بلغته بصورة مشوهة فليس من حكمة الله أن يعذبه لقوله سبحانه : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً .

قال صاحب الكشاف : معناها : ما يصح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوما إلا بعد أن نبعث إليهم رسولا فيلزمهم الحجة .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير :

١٦- وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا .

المترفون فى كل أمة هم : طبقة الكبراء المتجبرين الذين يجدون المال والخدم والراحة فينعمون بالدعة ؛ حتى تترهل نفوسهم وتأسن فترتع فى المجانة والفسق ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، التى لا تعيش الشعوب إلا بها ولها ، وتلغ فى الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم؛ عاثوا فى الأرض فسادا ، ونشروا الفاحشة وأشاعوها ومن ثم تتحلل الأمة وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها .

والإسلام يفرق بين الغنى والترف ، فإذا كنا فى مجتمعنا نعمل من أجل «الكفاية» فنحن نحارب «الترف» فى نفس الوقت .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسننا لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته ، فالقانون الذى يمكن أن نخرج به من آيات متعددة من كتاب الله هو ارتباط الترف بالإفساد ، وهؤلاء المترفون من أشد من يقاوم الحق والتغيير فى المجتمع . ويقول الله تعالى هذا فى قاعدة شاملة فى القرآن : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ . (سبأ : ٣٤) .

ولقد ذكر الله : الترف فى ثمانية مواضع من كتابه الكريم ليس فيها واحد فى مجال المدح أو الإطراء، وإنما ترتبط بالظلم والفسق والإفساد فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

والآية التى نشرحها تقرر : سنة من سنن الله فى هذا الوجود وهى : أن الله تعالى إذا قدر لقرية أنها هالكة ؛ لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ؛ سلط الله هؤلاء المترفين ، ففسقوا فيها فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت وفقدت لباسها الحربى والتمسك بدينها ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الهلاك والدمار ، وهى المسئولة عما يحل بها ؛ لأنها لم تضرب على أيدى المترفين ولم تصلح من نظامها الذى يسمح بوجود المترفين .

فوجود المترفين ذاته ؛ هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ؛ ما استحقت الهلاك وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

ووجود المترفين دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت فى طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا ، وهى التى تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة .

فالإرادة هنا ليس معناها : أن الله يريد إهلاك قوم ابتداء فيتوسل إليه بأن يأمرهم فيفسقون فيهلكهم، فإن إرادة ضرر الغير ابتداء من غير استحقاق الاضرار – كالاضرار كذلك – مما ينزه عنه تعالى لمنافاته للحكمة ، كما أن الأمر ليس أمرا بالفسق ؛ لأن الله لا يأمر بالفسق ولا يأمر بالفحشاء .

فالإرادة هنا فى الآية ليست إرادة للتوجيه القهرى الذى ينشئ السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب ، الأمر الذى لا مفر منه ؛ لأن السنة جرت به ، والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهى الفسق .

وجميع علماء الكلام متفقون على أن أفعال العباد الاختيارية صادرة بمجموع الإرادتين والقدرتين بإرادة العبد وقدرته تسببا وكسبا ، وبإرادة الله وقدرته خلقا وإيجادا وتقديرا . وأن سُنَّة الله فى خلقه جرت

بربط تعلق إرادته وقدرته بفعل العبد على إرادة العبد وقدرته ، كما اتفقوا على أن تعلق إرادة الله وقدرته تابع لعلمه الذى لا يتخلف . فما علم أنه يكون تتعلق به إرادته وقدرته تعالى بكونه وإيجاده وإلا لانقلب العلم جهلا وهو محال عليه تعالى .

فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا . والتدمير : الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء فالآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم لصدور الفسق عنهم جميعا فإن غير المترف يتبعه عادة . وقيل : هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال سبحانه : وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً (الأنفال : ٢٥) وصح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبى ﷺ دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ! وحلق بأصبعيه الإبهام والتى تليها» . قالت زينب: قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : «نعم ، إذا كثر الخبيث» فتبعة الجماعة تظهر فى ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التى لا مفر منها ، وعدم الضرب على أيدى المترفين فيها كى لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا .

هذه السنة قد مضت فى الأولين من بعد نوح قرنا بعد قرن كلما فشت الذنوب فى أمة انتهت بها إلى ذلك المصير .

★ ★ ★

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

القـــرون : القوم المقترنون فى زمان واحد . والقرن : ثمانون سنة أو مائة سنة ، أو مائة وعشرون سنة.

مـن بـعـد نـوح : أى : من بعد زمن نوح ؛ لأن نوحا أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . وذكر نوح عليه السلام رمز إلى ذكر قومه .

التفسير :

١٧- وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ...

كان القرآن يقص عليهم أمر الطوفان الذى أهلك العصاة من قوم نوح وأمر الريح التى أهلكت عادا حين عصوا أخاهم هودا وأمر الصيحة التى أهلكت ثمود حين عصوا أخاهم صالحا ، ويقص عليهم ما جرى على قوم لوط حين أمطرتهم السماء حجارة مسمومة ، وما جرى على أهل مدين حين أهلكتهم الرجفة لما عصوا موسى .

كان يخوفهم أن يلم بهم مثل ما ألم بهذه الأمم من ألوان العذاب فى الدنيا إلى ما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب المقيم وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ ... وكفى ربك خبيرا بصيرا بذنوب عباده ، أى : يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها .

★ ★ ★

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير :

١٨- مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ... الآية .

إن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبئ عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كَانَ ههنا مع الاقتصار على مطلق الإرادة فى قسيمه الآتى وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ .. فإن الله يعجل له حظه فى الدنيا حين يشاء . وتقييد المعجل له بما ذكر من المشيئة والإرادة ؛ لبيان أن الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين لا تقتضى وصول كل طالب إلى مرامه ، ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه .

ثم جعلنا له فى الآخرة مكان ما عجلنا له فى الدنيا ؛ جهنم وما فيها من أصناف العذاب يَصْلَىٰهَا . يدخلها أو يقاسى حرها . مَذْمُومًا ، بما ارتكب . مَّدْحُورًا ، بما انتهى إليه من عذاب ومطرودا من رحمة الله .

فالذين لا يتطلعون إلى أعلى من الأرض التى يعيشون فيها فإنهم يتلطخون بدنسها ورجسها ويستمتعون فيها كالأنعام ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات ، ويرتكبون فى سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدى بهم إلى جهنم .

★ ★ ★

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير :

١٩- وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا .

ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ، وسعى لها سعيها أى : السعى اللائق بها فيؤدى تكاليفها وينهض بتبعاتها ، وفائدة اللام فى قوله : لَهَا اعتبار النية والإخلاص ، وهو مؤمن إيمانا صحيحا

لا يشوبه شيء قادح فيه . وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لإرادة الآخرة والسعى لها ، فلا تنفع إرادة ولا سعى بدونه ، وفى الحقيقة هى الناشئ عنه إرادة الآخرة ، والسعى للنجاة فيها وحصول الثواب .

والسعى للآخرة لا يحرم المرء أن يأخذ بقسط من المتاع فى الحياة الدنيا ، بل الإسلام يحض المرء على هذا المتاع ويكلفه إياه تكليفا ؛ كيلا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها ، لقد خلق الله طيبات الحياة ؛ ليستمتع بها الناس ، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض ، ذلك على أن تكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة فلا ينحرفون عن طريقها ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها .

وإذا كان الذى يريد العاجلة ينتهى إلى جهنم مذموما مدحورا فالذى يريد الآخرة ويسعى لها سعيا وهو مؤمن ينتهى إليها مشكورا يتلقى التكريم فى الملإ الأعلى جزاء السعى الكريم لهدف كريم .

وإن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهى الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله الذى خلقه فسواه وأودع روحه ذلك السر الذى ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه .

هذان اللونان من الحياة : لون الحياة الحيوانية أو الطفولة الإنسانية ، ولون الحياة المثالية ، قديمان فى تاريخ الإنسانية قدم الإنسانية نفسها والخصومة بينهما قديمة منذ وجودهما وتعارضهما . ورسالات الأديان السماوية فى غايتها وجوهرها تدفع الإنسان إلى الحياة المثالية أو حياة الرشد الإنسانى على حين انقسمت فلسفة الإنسان منذ القدم أيضا إلى اتجاهين يدفع كل اتجاه منهما إلى لون من هذين اللونين ، فمدرسة الماديين تدفع إلى الفرع الحيوانى ، ومدرسة المثاليين أو المدرسة الإنسانية تدفع إلى حياة الأهداف البعيدة وراء حفظ البقاء الفردى والنوعى .

والإسلام كصورة كاملة وواضحة للدين السماوى يخاصم الوجودية المادية خصومة عنيفة ؛ إذ ينظر للإنسان على أنه الرشيد وصاحب التأهيل للقيادة فى هذه الحياة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. (الأنعام : ١٦٥) فليس هدفه فى الحياة توفير المنافع الخاصة المتصلة بالجانب الحيوانى فيه بل هدفه أبعد من ذلك كثيرًا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. (الأنعام : ١٦٢) هدفه أن يكون مؤمنا بالله وسالكا طريق هدايته الذى خطته الرسالة السماوية .

★ ★ ★

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

نمد : نزيد مرة بعد مرة .

التفسير :

٢٠ – كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ... الآية .

كلا الفريقين ، من يطلب الدنيا فيعطاها ومن يطلب الآخرة فيلقاها نمد بالعطايا العاجلة من عطاء ربك الواسع وفضله السابغ ، وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه ، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء ، فالثراء والغنى ليس آية على رضاء الله فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب . فالله يرزق فى الدنيا مريدى العاجلة الكافرين ، ومريدى الآخرة المؤمنين ، ويمد الجميع بالرزق ، فهو لا يمنعه عن كافر لكفره ولا عن عاص لعصيانه ، بل يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر.

★ ★ ★

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير :

٢١ – ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً .

التفاوت بين الناس فى الدنيا ملحوظ بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم . فمن وضيع ورفيع ، ومالك ومملوك ، وموسر وصعلوك ، وعالم وجاهل ... إلخ . وإذا كان هذا التفاوت فى متاع الحياة الدنيا القليل الهزيل فكيف التفاوت بينهم فى الآخرة التى لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ، لا شك أن التفاوت الحق والتفاضل الضخم هو هناك فى الآخرة ؛ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، لا فى زخارف الدنيا ومتاعها الزائل .

★ ★ ★

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

التفسير :

٢٢– لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً .

والخطاب للنبى ﷺ ، ولكنه فى الحقيقة عام للمكلفين ويحسن أن يقال : إن الخطاب للإنسان كأنه قيل : يا أيها الإنسان ، لا تجعل ، أو القول مضمر . أى : قل لكل مكلف : لا تجعل . والأمر عام فى حقيقته ولكنه وجه إلى المفرد ؛ ليحس كل فرد أنه أمر خاص به صادر إلى شخصه ، فالاعتقاد مسألة شخصية مسئول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التى تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن يَقْعُدَ مَذْمُومًا ؛ بالفعلة الذميمة التى أقدم عليها ، مَّخْذُولاً لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه . ولفظ : فَتَقْعُدَ يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد ، ويلقى ظل الضعف ، فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزا فإن السعى إنما يتأتى بالقيام والعجز عنه يلزمه أن يبقى قاعدا عن الطلب .

وخلاصة المعنى : لا تجعل أيها الإنسان مع الله شريكا فى عبادته فتصير مذموما على الشرك مخذولا من الله ، يكلك إلى ذلك الشريك ولا ينصرك . قال تعالى : وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِ . (آل عمران: ١٦٠).



مكارم الأخلاق فى سورة الإسراء

اشتملت الآيات من ٢٣ إلى ٣٩ على جملة من الوصايا والآداب التى تسهم فى تربية الأفراد وتماسك المجتمع وترابطه وذكر ابن عباس : أن هذه الوصايا هى خلاصة ما ورد فى التوراة ومجمل هذه الوصايا ما يأتى :

١ – عبادة الله وحده — الآية ٢٣

٢ – بر الوالدين — الآيات ٢٣ – ٢٥

٣ – صلة الرحم — الآية ٢٦

٤ – العطف على المسكين وابن السبيل — الآية ٢٦

٥ – النهى عن البخل والتبذير — الآيات ٢٧ – ٢٩

٦ – النهى عن قتل الأولاد — الآية ٣١

٧ – النهى عن الزنا الآية ٣٢

٨ – النهى عن قتل النفس الآية ٣٣

٩ – النهى عن أكل مال اليتيم الآية ٣٤

١٠ – الأمر بالوفاء بالعهد الآية ٣٤

١١ – الأمر بالوفاء بالكيل والميزان الآية ٣٥

١٢ – الأمر بالتثبيت فى القول الآية ٣٦

١٣ – النهى عن الخيلاء والكبر الآية ٣٩

١٤ – النهى عن الشرك بالله الآية ٣٩

وإليك نص هذه الآيات ثم تفسيرها .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

قضى : أى : حكم وأمر.

أف : اسم صوت ينبئ عن التضجر والتألم ، يقال : لا تقل لفلان : أف ، أى : لا تتعرض له بنوع من الأذى والمكروه .

النهر : الزجر بغلظة .

كريما : أى : جميلا لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شىء يشرف فى جنسه يقال : إنه كريم .

الآية مفتاح لمكارم الأخلاق

تصدرت هذه الآية جملة من الوصايا والأوامر والنواهى التى تتعلق بآداب السلوك فى واقع الحياة .

وهى : الأمر بعبادة الله وحده والتزام أوامره واجتناب نواهيه ومن هذه الأوامر :

بر الوالدين ، وصلة الرحم ، والعطف على المسكين وابن السبيل فى غير إسراف ولا تبذير ، وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل ، ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ،

والتثبيت فى القول ، والنهى عن الخيلاء والكبر . وتنتهى الأوامر بالتحذير من الشرك ، فهذه الأوامر كلها محصورة بين الأمر بطاعة الله ، والنهى عن الإشراك به ، والتزام الفضائل التى دعا إليها ، والبعد عن الرذائل التى حذر منها ومما يساعد الإنسان على هذا السلوك المهذب عقيدته الصادقة التى تقوم على الإيمان بالله واتباع شريعته وهديه تلك الشريعة التى يقوم عليها بناء الحياة وسعادة المجتمع .

التفسير :

٢٣- وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ(٥٠) وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا .

أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نفرده بالعبادة وأن نخصه بالتوحيد وهذا معنى **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** أى : لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك فأنت نعم المولى ونعم المعين .

ثم أمرنا الله بالإحسان إلى الوالدين وبالغ فى هذه الوصية وكررها فى القرآن الكريم ؛ لأن الوالدين أصل حياة الإنسان فالله هو الخالق الموجد المسبب . والوالدان هما السبب المباشر لوجود الإنسان وقد تحملا فى سبيل رعايته وتربيته وتهذيبه كل صعب وذلول .

فوجب أن يكافأ الإحسان بالإحسان وأن ترد التحية بأحسن منها خصوصا عند العجز والشيخوخة ، فذلك هو التضامن الاجتماعى والتكافل الإسلامى الذى يحفظ للأسرة تماسكها وترابطها .

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى الموطن الخشن

وقد يسأل سائل : لم تكررت وصية الله للأبناء بأن يبروا آباءهم ولم تتكرر وصيته للآباء بأن يبروا أبناءهم؟

والجواب سهل ميسور ؛ ذلك أن الغريزة والفطرة تدفع الوالدين إلى رعاية الأولاد والتضحية بكل شىء فى سبيلهم وكما تمتص النبتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء فى البيضة فإذا هى قشر ، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - أن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان .

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون إلى الأمام ، إلى الزوجات والذرية .. وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى التوصية بالأبناء ، إنما يحتاج الأبناء إلى تذكيرهم بحق الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

وهنا يجىء الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعبادة الله.

ثم تأخذ الآيات فى تأكيد هذا المعنى وتحريك عاطفة الحنان والرحمة فى صدر الأبناء نحو الآباء فتقول : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا . (الإسراء : ٢٣) والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ، وكلمة عِندَكَ تصور معنى الالتجاء والاحتماء فى حالة الكبر والضعف .

أى : إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز وصارا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله ؛ وجب عليك أن تشفق عليهما ، وأن تعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور الآتية :

(أ) ألا تتأفف من شىء تراه من أحدهما أو منهما حتى لو كنت تقضى لهما جميع الأمور التى كانا يقضيانها لك وأنت صغير فاستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال ، ولا تقل لهما إذا أضجرك ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنتهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه ، وفى الأثر : لو علم الله أدنى من أف لقالها .

(ب) وَلَا تَنْهَرْهُمَا ولا تنغص عليهما بكلام تزجرهما به بغلظة بل استعمل الرفق واللين والأدب وتحمل منهما؛ لأن لهما عقلية وتفكيرا وآراء تناسب ضعفهما ، قال تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

وقد يكون أحدهما جائرا أو ظالما أو مخالفا لك فى الرأى فحاول أن تنفذ له أمره ولو كان على خلاف رأيك ما لم يكن إثما أو ذنبا ؛ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

(جـ) وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . أى : قولا حسنًا رقيقا فإن الإنسان فى هذه السن الكبيرة كالمريض يحتاج إلى البسمة الجميلة والكلمة الطيبة التى تشرح صدره وتشعره بأنه صاحب الجميل السابق والفضل المتقدم فالأب فى كبره ينتظر من ابنه العرفان والثناء ، فهذا العرفان يشيع فيه السرور والرضا ويقنعه أنه ليس عالة ولا ثقلا بل هو يسترد معروفا سابقا ويجنى ثمرة غرسها بيديه الكريمتين .

أما إذا قابلته بالعقوق والجحود ؛ فإنه يأسى على ما قدم لك من رعاية حانية فى عمرك الطويل كما قال الشاعر العربى يعدد نعمه على ولده وقد عقه فى كبره :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا	تعل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرقت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل

★ ★ ★

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير :

٢٤- وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ...

خفض الجناح يراد به : التواضع والتذلل [٥١] . من الرحمة : أى : من فرط رحمتك بهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما إليك .

وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا .

أى : رب تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك ، كما تعطفا علىّ فى صغرى ، فرحمانى وربيانى صغيرا . حتى استقللت بنفسى واستغنيت عنهما .

قال الزمخشرى : أى : لا تكتف برحمتك بهما بل ادع الله أن يرحمهما برحمته الواسعة ، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما بك فى صغرك وتربيتهما لك [٥٢] .

وكلما كرر الإنسان قراءة هذه الآية ؛ استشعر جمال التعبير القرآنى وتلطفه فى الوصول إلى حنايا النفس البشرية ، وروعته فى تصوير الرحمة تصويرا رقيقا لطيفا حتى لكأنها الذل الذى لا يرفع عينا ولا يرفض أمرا وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام ، **وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا** فهى الذكرى الحانية ، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان ، وهما اليوم فى مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان . وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ورعاية الله أشمل . وجنات الله أرحب ، وهو أقدر على جزائهما بما بذل من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء .

والخلاصة : أن الله سبحانه قد بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر منها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعها بالإحسان إليهما ، ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من التضجر ، ثم أمر بالذل والخضوع للوالدين وبالدعاء لهما والترحم عليهما ؛ فهى خمسة أمور مرتبة كالآتى :

١ – الإحسان إلى الوالدين .

٢ – عدم التأفف والتضجر وعدم إيذائهما بالقول أو بالفعل .

٣ – التلطف فى الخطاب والتأدب فيه ، مثل ذلك ألا ينادى أحدهما باسمه مجردا ولا يرفع صوته عليه بل يقول : يا أبى ويا أمى ولا يتكبر من أن يقبل يدهما ويبالغ فى خدمتهما واحترامهما .

٤ – خفض الجناح ولين الجانب كما يفعل الطائر الذليل ، لا خوفا ولا رياء ولكن رحمة ورأفة بالسن الكبيرة والشيخوخة المتداعبة .

٥ – الدعاء لله أن يرحمهما وأن يشملهما بعطفه ورضاه فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

الأواب : الذى ديدنه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه ، قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير .

التفسير :

٢٥– رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ...

أى : بما فى ضمائركم من الإخلاص وعدمه فى كل الطاعات .

إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ قاصدين الصلاح والبر إلى الوالدين دون العقوق ثم بدرت منكم بادرة فى حقهما فأنبتم إلى الله واستغفرتم منها .

فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا . أى : التوابين الرجاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم فإنه يغفر لهم ما اكتسبوا؛

وفى هذا وعد لمن أضمر البر بهم ووعيد لمن تهاون بحقوقهم وعمل على عقوقهم .

والآية كأنها ترد على تساؤل فى النفس فإذا قال قائل : كيف يقوم بحقهما وقد تبدر بوادر .

فأجابت الآية بأن الأمر كله لله الذى يعلم النوايا ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال .

فإذا كان الابن بارا ثم بدرت بادرة أو هفا هفوة بدون قصد الإساءة وأعقب ذلك بالندم والاستغفار؛ فإن الله يغفر له ذنبه . ويجوز – كما قال الزمخشرى – أن يكون هذا عاما لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج تحته الجانى على أبويه التائب من جنايته ؛ لأن الآية وردت فى أعقاب الوصية بالوالدين .

الآثار فى الوصية بالوالدين

وردت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ووصايا السلف الصالح تؤكد حق الوالدين وتأمر الأبناء برعايتهما والإحسان إليهما وتَحمُّل أخطائهما والبر بهما والتلطف فى القول معهما ، فهذا نوع من رد الجميل ومن مقابلة الحسنة بمثلها .

(أ) قال ﷺ :

«عفوا ؛ تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم ؛ تبركم أبناؤكم» [٥٣] .

«بر أمك وأباك وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك» [٥٤] .

وروى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال :

«رغم أنف رجل ؛ ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل ؛ دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له ، ورغم أنف رجل ؛ أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة» [٥٥] .

(ب) وقد أمر الدين بإكرام الوالدين فى حياتهما وبعد وفاتهما وذلك بزيارة قبرهما والتصدق عليهما وصلة الرحم من أقاربهما وتنفيذ وصيتهما وفعل كل خير عنهما كالحج والصدقة وأداء دين عليهما ، إلى غير ذلك من الأمور الخيرة وأفعال البر والمعروف .

سأل رجل النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شىء بعد موتهما أبرهما به . قال: «نعم خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما» [٥٦] .

(جـ) وقد وصى الدين بالأم وكرر الوصية بها وجعل برها مقدما على بر الأب ، قال تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ. (لقمان : ١٤) وروى الشيخان : أن رسول الله ﷺ سئل : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك [٥٧] .

(د) رعاية الأب للولد :

وصى الدين الأب أن يرعى ولده وأن يقوم على تربيته وتهذيبه ؛ فالولد أمانة وقد أمرنا بحفظ الأمانة ورعايتها .

قال تعالى : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (طه : ١٣٢) .

وقال سبحانه : قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا (التحريم : ٦) .

وقال ﷺ : «اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم حتى فى التمرة والكلمة الطيبة» [٥٨] .

وقيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريك .

وقال ﷺ : «الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ، ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال : أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بك من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة» [٥٩] .

ورأى الأقرع بن حابس النبى ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال عليه السلام : «إن من لا يرحم لا يرحم» [٦٠] .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ، ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ؛ يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك [٦١] .

★ ★ ★

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ ﴾

تمهيد :

لما ذكر تعالى بر الوالدين أتبع ذلك بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ثم بين حق الفقراء والمساكين الأجانب وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ والأمر للوجوب عند أبى حنيفة فعنده يجب على الموسر مواساة أقاربه إذا كانوا محارم كالأخ والأخت وعند غيره للندب فلا يجب عند غيره إلا نفقة الأصول والفروع دون غيرهما من الأقارب [٦٢] .

وقد تكررت وصية القرآن بصلة الرحم والعطف على الأقارب فقال سبحانه : وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ... (الرعد : ٢١) .

فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ . (محمد : ٢٢) .

وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : «أنا الرحمن وهذه الرحم فمن وصلها ؛ وصلته ومن قطعها؛ قطعته» [٦٣] .

التفسير :

٢٦- وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ...

يفيد : أن للقريب حقا فى مال قريبه كما أن صلة الرحم سبب فى سعة الرزق وكثرة العدد والبركة والنماء ففى الحديث الشريف «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله ؛ فليصل رحمه» [٦٤] .

وقال عليه السلام : الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان» [٦٥] .

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له ؛ عملا بقوله تعالى : لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ (آل عمران : ٩٢) . قال : يا رسول الله ، هو فى سبيل الله وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام : «وجب أجرك على الله فاقسمه فى أقاربك» [٦٦] وإيتاء ذى القربى حقه يكون بالصدقة وصلة الرحم وحسن المعاشرة والإنفاق عليه .

وَٱلْمِسْكِينَ أى : الفقير من الأباعد ، فالصدقة على المسكين القريب صدقة وصلة رحم ، وعلى المسكين البعيد صدقة فقط .

وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ أى : المسافر الذى انقطع به الطريق فيجب إعانته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده.

وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا أى : بوجه من الوجوه بالإنفاق فى محرم أو مكروه أو على من لا يستحق .

وفى الكشاف :

كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر [٦٧] عليها وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها ، فأمر الله بالنفقة فى وجوهها مما يقرب منه ويزلف .

والتبذير هو إنفاق المال فى وجوه الملذات والشهوات فهو تبذير النعمة وتوجيهها فى غير الوجه السليم أما إنفاق المال فى الخير والبر ومساعدة المحتاجين . فهو نعمة محمودة ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف فى المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبى قبيس (جبل بمكة) وقال : لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين ، وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقيل له : لا خير فى الإسراف فقال : لا إسراف فى الخير.

وروى أحمد عن أنس بن مالك : أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : «تخرج الزكاة من مالك إن كان فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك وتعرف حق الجار والمسكين» .

فقال : يا رسول الله ، أقلل لى ، قال : فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ، فقال : حسبى يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : «نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدلها» .

وقال ابن مسعود : التبذير : الإنفاق فى غير حق .

وعن على كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير وما تصدقت؛ فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة ؛ فذلك حظ الشيطان .

٢٧- إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ...

أى : أمثالهم فى كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغى ، أو هم قرناء الشياطين فى النار على سبيل الوعيد والعرب تقول لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم : هو أخوهم أى : إن المفرقين أموالهم فى معاصى الله المنفقيها فى غير طاعته ؛ قرناء الشياطين فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (الزخرف : ٣٦) . وقال : ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ (الصافات :٢٢) . أى : قرناءهم من الشياطين .

وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا . أى : مبالغا فى كفران نعمته تعالى لا يؤدى حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرين لا يؤدون حق النعمة ، بل ينفقون أموالهم فى معصية الرحمان ويسلكون بها سبل الشيطان .

قال الكرخى : وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفرا لنعمة الله ؛ لأنه موافق للشيطان فى الصفة والفعل .

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها فى التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ؛ ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

★ ★ ★

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير :

٢٨- وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا .

أى : وإن أعرضت عن ذوى القربى وابن السبيل حياء من الرد لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه فلا تؤيسهم وقل لهم قولا لينا سهلا وعدهم وعدا جميلا ، قال الحسن : أمر أن يقول لهم : نعم وكرامة، وليس عندنا اليوم شىء فإن يأتنا نعرف حقكم ، وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟

قال السيوطى فى الإكليل : فى هذه الآية الأمر بالقول اللين عند عدم وجود ما يعطى منه ، وفسره ابن زيد بالدعاء ، والحسن وابن عباس بالعدة .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

المغلولة : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق .

تبسطها : أى : تتوسع فى الإنفاق .

المحسور : المنقطع عن السير إعياء وكلالا .

يقدر : أى : يقتر.

التفسير :

٢٩- وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ...

نهانا الله عن البخل والشح كما نهانا عن الإسراف والتبذير وأمرنا بالتوسط فى النفقة كما قال عز شأنه فى آية أخرى : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (الفرقان : ٦٧) .

والتوازن هو القاعدة الكبرى فى النهج الإسلامى ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير ، فيرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كل البسط لا تمسك

شيئا ويرسم نهاية البخل والإسراف قعدة كقعدة الملوم المحسور . والحسير [٦٨] : هى الدابة التى تعجز عن السير فتقف ضعفا وعجزا فكذلك البخيل حسره بخله فيقف ، وكذلك المسرف ينتهى به سرفه إلى وقفة الحسير ملوما فى الحالتين على البخل وعلى السرف وخير الأمور الوسط [٦٩] .

وجعل ابن كثير قوله تعالى : فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا من باب اللف والنشر المرتب قال : أى : فتقعد إن بخلت ، ملوما يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ؛ قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير الممنوع من المسير وهو مأخوذ من الكلال والإعياء كما قال : فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (الملك : ٣ ، ٤) . أى : كليل عن أن يرى عيبا .

وقد ذهب ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم إلى أن المراد بالآية : النهى عن البخل والإسراف .

الآثار فى الموضوع :

ورد فى كتب السنة الصحاح : ذم البخل والشح والتحذير منهما ، فمن ذلك ما ورد فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم ، أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم ، أعط ممسكا تلفا» .

وروى مسلم عن أبى هريرة مرفوعا : «ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا أنفق إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله» ، وفى الحديث «إياكم والشح ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم ؛ أمرهم بالبخل ؛ فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة ؛ فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ؛ ففجروا» .

كما ورد فى كتب السنن : الأمر بالاقتصاد فى النفقة والاعتدال والتوسط . روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ما عال من اقتصد» وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال : قال ﷺ: «الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة» وروى عن أنس مرفوعا: «التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل، والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين» . وقيل : حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف.

٣٠- إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ...

أى : يوسعه ويضيقه حسب مشيئته وحكمته . إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . أى : خبيرا ببواطنهم بصيرا بظواهرهم ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ويأمر بالقصد والاعتدال ، وينهى عن البخل والإسراف ، وهو الخبير البصير بالأقوام فى جميع الأحوال .

وقال ابن كثير : خَبِيرًا بَصِيرًا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر كما جاء فى الحديث : «إن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه» . وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجا، والفقر عقوبة عياذا بالله من هذا وهذا، ا هـ .

وقصارى القول : إنكم إذا علمتم أن شأنه تعالى البسط والقبض وأمعنتم النظر فى ذلك ؛ وجدتم أن من سنته تعالى الاقتصاد فاقتصدوا واستنوا بسنته .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

الإمـــلاق : الفقر ، قال الشاعر :

وإنى على الإملاق يا قوم ماجد	أعـد لأضيـافى الشواء المضهبا

الخـــطء : كالإثم لفظا ومعنى .

التفسير :

٣١- وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ...

أى : لا تئدوا بناتكم خوف الفقر فنحن نرزقهم لا أنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات لعجزهن عن الكسب وقدرة البنين عليه بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفر الأكفاء عن الرغبة فيهن فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء وفى ذلك عار أيما عار عليهم .

والخلاصة : أن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال : إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا أى : إن قتلهم كان إثما فظيعا ؛ لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود ، وفى الصحيحين : عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب

أعظم ؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو الذى خلقك» ، قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تقتل ولدك ؛ خشية أن يطعم معك» قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تزانى حليلة جارك» .

ونقف هنا لحظة أمام مثل من دقائق التعبير القرآنى العجيبة ، ففى هذا الموضع قدم رزق الأبناء على رزق الآباء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ . وفى سورة الأنعام قدم رزق الآباء على رزق الأبناء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. وذلك بسبب اختلاف آخر فى مدلول النصين . فهذا النص ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. والنص الآخر : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ هنا قتل الأولاد خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم رزق الأولاد ، وفى الأنعام قتلهم بسبب فقر الآباء فعلا . فقدم رزق الآباء فكان التقديم والتأخير وفق مقتضى الدلالات التعبيرية هنا وهناك .

وقد لا يتصور إنسان أن يجرؤ والد على قتل ولده ، ولكن انحراف العقيدة وفسادها ينشئ هذه الآثار الضارة فى حياة المجتمع .

لقد كانت مفاهيم الجاهلية تقوم على أساس تعظيم الغنى لذاته وتحقير الفقير لذاته ، وكان الصعاليك يفتخرون بالغارة والسلب والنهب ؛ ليصبحوا أثرياء محترمين ، ومن ذلك قول عروة ابن الورد لزوجته :

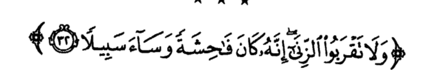
ذرينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليهم ... وأن أضحى له نسب شهير
وينسى فى الندى وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ويلفى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
عظيم ذنبه والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

فلما جاء الإسلام قام على أساس العقيدة السليمة من الإيمان بالله ربا وخالقا ورازقا ، ومن احترام إنسانية الإنسان وتحريم قتله وفى الحديث : «الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيان الله» كما قوم الإسلام المفاهيم الخاطئة ؛ فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة وأنهم عند الله سواء يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

وإن المجد والفخار لا يكون بالغنى ولا بالأثاث والرياش والمتاع وإنما يكون بعمل نافع وخدمة إنسانية وإصلاح للمجتمع ، وفى الأثر : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ؛ إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .

والخلاصة : أن قتل الأولاد كان من آثار انحراف العقيدة ، وأن سلامة العقيدة له أثره العملى فى واقع الجماعة الإنسانية ، وأن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة ، وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش فى معزل عن الحياة.

★ ★ ★



التفسير :

٣٢- وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا .

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ، أى : لا تقتربوا منه ولا من مقدماته ، كاللمسة والقبلة والنظرة والغمزة والفاحشة : الفعلة الظاهرة القبح ، وَسَآءَ سَبِيلًا : قال الطبرى : ساء طريق الزنا طريقا ؛ لأنه طريق أهل معصية الله والمخالفين أمره ؛ فأسوئ به طريقا يورد صاحبه نار جهنم !

من مفاسد الزنا :

١ - اختلاط الأنساب واشتباهها، واذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية أمنه أم من غيره ؛ لا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده وذلك مما يوجب إضاعة النسل وانتشار الفساد .

٢ - فتح باب النزاع والاضطراب بين الناس ؛ دفاعا عن العرض فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل : (فتش عن المرأة) .

٣ - أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهامه وأن تكون راعية للأولاد وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس .

ونلاحظ أن الله تعالى ذكر النهى عن الزنا بعد النهى عن قتل الأولاد ،، وقبل النهى عن قتل النفس ، وعلة ذلك أن الزنا فى حد ذاته قتل من نواحى شتى : أنه قتل ابتداء ؛ لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها، يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق قبل مولده أو بعد مولده ، فإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء .. وهو قتل فى صورة أخرى قتل للجماعة التى يفشوا فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء وتذهب الثقة في العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهى إلى ما يشبه الموت بين الجماعات ، وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ويجعل الأسرة تبعة لا داعى لها ، والأسرة هى المحضن الصالح للتربية

وهى الجو الملائم لتنشئة الأطفال ورعايتهم وتعذيب غرائزهم ورعاية نموهم النفسى والبدنى والاجتماعى، وقد كتب أحد علماء التربية الأجانب كتابا بعنوان: (أطفال بلا أسر)، ذكر فيه: أنه لاحظ البون الشاسع بين الأطفال التى تنشأ فى الملاجئ والمؤسسات، والأطفال التى تنشأ فى أسرة طبيعية، فأطفال المؤسسات عندهم بطء فى الاستجابة للمناغاة والمناداة وبصعوبة بالغة يمكن أن تنتزع من أحدهم ابتسامة، أما الطفل الطبيعى فهو طبيعى فى انفعاله ومناغاته ومناجاته، وذلك له أثره فى النمو النفسى والتكامل الاجتماعى لشخصية الطفل فى مستقبل حياته.

وإذا رجعنا إلى تاريخ البشرية الطويل رأينا أنه ما من أمة من الأمم فشت فيها الفاحشة؛ إلا صارت إلى انحلال وهزيمة، وقد يغتر بعضنا بأن أوربا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما، ولكن آثار هذا الانحلال فى الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها، أما فى الأمم الغنية كالولايات المتحدة، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب، واتساع موارده، كالشاب الذى يسرف فى شهواته فلا يظهر أثر الإسراف فى بنيته وهو شاب ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار السن كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده.

والقرآن يحذر من مقاربة الزنا. وهى مبالغة فى التحرز؛ لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لايكون هناك ضمان.

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة؛ توقيا للوقوع فيه، يكره الاختلاط فى غير ضرورة، ويحرم الخلوة، وينهى عن التبرج بالزينة، ويحض على الزواج لمن استطاع، ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع. ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالاة فى المهور، وينفى الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج؛ ليحصنوا أنفسهم، ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع، وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان ... إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردى والانحلال.

روى الإمام أحمد عن أبى أمامة: أن فتى شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، ائذن لى بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه [٧٠]. فقال: «ادنه». فدنا منه قريبا فقال: «اجلس» فجلس، فقال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبة لابنتك؟» قال: لا والله يارسول الله جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال:

لا والله جعلنى الله فداك . قال : «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» . قال : فوضع يده عليه وقال : «اللهم ، اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه» قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء [٧١] .

وفى الحديث «مامن ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له» [٧٢].

وفى صحيح البخارى يقول النبى ﷺ : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لامحالة، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما اللمس ، والرجلان تزنيان وزناهما الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » [٧٣] .

الزنا الموجب للحد

عرف الفقهاء الزنا بأنه : وطء الرجل المرأة فى القبل حراما كالميل فى المكحلة ، أو القلم فى الدواة.

وجاء فى كتاب الاختيار ما يأتى :

يثبت الزنا بالبينة والإقرار ، والبينة أن يشهد أربعة على رجل أو امرأة بالزنا فإذا شهدوا يسألهم القاضى عن ماهيته وكيفيته ومكانه وزمانه والمزنى بها فإذا بينوا ذلك ، وذكروا أنها محرمة عليه من كل وجه وشهدوا به كالميل فى المكحلة والقلم فى الدواة وعدلوا فى السر والعلانية ؛ حكم القاضى عليه بالحد:

وحد الزانى إذا كان محصنا [٧٤] الرجم بالحجارة حتى يموت و يخرج إلى أرض فضاء فإن كان ثبت بالبينة يبتدئ بالشهود ، ثم الإمام ، ثم الناس فإذا امتنع الشهود أو بعضهم ؛ لا يرجم . وإذا ثبت بالإقرار ابتدأ الإمام ، ثم الناس .

وإن لم يكن محصنا فحده الجلد مائة جلدة يضرب بسوط لا ثمرة [٧٥] له ضربا متوسطا يفرقه على أعضائه إلا رأسه ووجهه وفرجه ، ويجرد عن ثيابه إلا الإزار ، ولا تجرد المرأة إلا عن الفرو والحشو [٧٦] .

والأصل فى عقوبة الزنا ماورد من تقديرها بمائة جلدة فى الآية الثانية والثالثة من سورة النور ، حيث يقول سبحانه : ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (النور : ٢ ، ٣) .

ونلاحظ أن الخوارج وبعض الشيعة وبعض المعتزلة يرون أن لا عقوبة فى الزنا غير الجلد مائة جلدة للمتزوج وغير المتزوج [٧٧] .

وقد ورد فى التوراة : أن عقوبة الزانى المحصن الرجم ، جاء فى سفر التثنية «وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل بالمدينة فاضجع معها ؛ فأخرجوهما كليهما من المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فينتزع الشر من المدينة» .

والخلاصة :

١ - أن جلد الزناة يثبت بالنصوص الصريحة التى لا شبهة فيها .

٢ - أن دين الفضيلة يحارب الرذيلة بعقوبة قاسية رادعة ؛ لأن رذيلة الزنا تدفع إليها شهوة جامحة فلابد أن تكون عقوبتها شديدة .

٣ - أن الإنسان الشهوانى الذى يذوق عسيلة الرذيلة ويستطيبها يجب أن يعاقب بما يكون أشد إيلاما لجسمه، كما أحس جسمه باللذة فيجب أن يوزع الجلد على جميع هذا الجسم ؛ ليكون الجزاء من جنس العمل .

أضرار الزنا

تحدث الأطباء عن أضرار الزنا من الناحية الصحية فذكروا أنه سبب لكثير من الأمراض والأوبئة وهذا مصداق قوله ﷺ : « ما ظهرت الفاحشة فى قوم يتعامل بها علانية ؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فيمن قبلهم » . والطاعون : كل وباء فتاك ينخر فى عظام الإنسان كما ينخر السوس فى مادة الخشب .

الزهرى

يقول الدكتور أحمد وصفى فى كتابه (القرآن والطب) :

« الزهرى : ثالث مرض فى العالم يتسبب فى إزهاق النفوس وتضييع الأرواح وينتشر فى العالم انتشار فاحشة الزنا ، والإصابة به فى لندن وحدها حوالى ١٠٪ وفى عاصمة فرنسا ١٥٪ من سكانها ولا يقل عدد المصابين به فى القطر المصرى ، عن المليونين .

هذا المرض يعدى بمجرد اللمس عن طريق الزنا أو بمجرد تقبيل المصاب لغيره أو ملامسته وتسببه جرثومة خاصة تسمى (الأسبيروشيت باليدا) وينقل الزهرى بالوراثة إلى نسل المصابين به .

ويفتك الزهرى بمخ الزانى فتكا ذريعا فتلتهب سحاياه خاصة جزء (الأم الجنون) وتصاب كذلك أوعيته الدموية التى تضيق حتى ينتهى الأمر بإفسادها .

السيلان

والسيلان : من الأمراض الفتاكة التى تسببها كذلك هذه الفاحشة ، ويسبب الداء جرثومة خاصة تسمى: بالجونوككس ، وهو كثير فى مدن العالم .

وهو مرض فتاك يترك المصاب به فى حالة من الألم والمرض ، مما يعطل حركتة ويشل تفكيره ويجعله عضوا أشل فى المجتمع .

إصابة المرأة :

ولقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء ؛ لابد أن تصاب به هى الأخرى ؛ لاستعدادها لقبول العدوى ، ولقابلية جهازها التناسلى لاستقبال جراثيمه المرضية ، فتفتك به ، وتعطل وظيفته ، إذا لم تفقدها تماما .

إصابة الرجل :

ويصيب السيلان الرجل إصابات بالغة إذ تلتهب عنده كذلك فتحة البول ويشتد احمرارها ، وتصاب حوافيها بالورم ، فتنقلب على نفسها ، وقد تتآكل أطرافها ، ثم يمتد الورم فى عضو التناسل فيعوق التبول ويشعر المصاب بالآلام المبرحة أثناءه .

وتصاب البروستاتا كذلك بالسيلان إصابة شديدة فتلتهب ويزداد حجمها ، ولعل إصابة الحويصلات المنوية من أشد الإصابات وعن طريقها ينتقل المرض إلى الطرف الآخر .

أمراض أخرى

وهناك أمراض أخرى لا يستهان بها يصاب بها الزناة ، منها : القرحة الرخوة ، وجرب التناسل ، وسنط التناسل ، وقمل العانة ، وغير ذلك من الأوبئة الفتاكة التى تنتقل بالعدوى بين الزناة الملوثين [٧٨] .

ولعل فيما نقلت مثلا لبعض ما عناه تعالى فى قوله عن الزنا : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء : ٣٢).

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

السلطان : التسلط والاستيلاء .

لا يسرف : أى : لا يتجاوز الحد المشروع فيه .

التفسير :

٣٣ – وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ...

أى : لا تقتلوا النفوس التى حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق .

لقد كرم الله الإنسان ؛ فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ، وسخر له ما فى الكون وفضله على كثير من خلقه ، وحرم الله قتل الإنسان لأن الإنسان ؛ بنيان الله ، أحكم الله بناءه وأودع فيه الروح ووهبه الحياة وحرم إزهاق روح الإنسان والعدوان على حياته ، وجعل القتل من الكبائر بل هو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله .

وقد تكرر التحذير من الزنا فى القرآن أكثر من التحذير من القتل ؛ لأن الأول تدفع إليه الشهوة والرغبة ، فتكرر التحذير منه ، أما الإقدام على القتل فلا يوجد إلا لأسباب خاصة ، وقد أباح الدين القتل فى ثلاثة مواضع :

١ – القصاص : أى : قتل النفس بالنفس .

٢ – الزانى المحصن ، فعقابه الرجم .

٣ – المرتد الذى ترك دين الإسلام ورجع عنه .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله عليه وسلم قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لاإله الا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة » [٧٩] .

فالإسلام شرع القصاص وجعله حياة للأمة والأفراد فقال سبحانه : وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ... (البقرة : ١٧٩) ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه إذا قتل عدوه أو خصمه سيقتل بسبب ذلك ؛ كف عن هذا الاعتداء .

ولأن ولى المقتول إذا علم أنه سيؤخذ له بالثأر وستتكفل الدولة بالقصاص : هدأت نفسه وسكنت ثورته ؛ وإلا لاندفع أولياء المقتول فى قتال القاتل وأهله فى ثورة غضبهم ، والقصاص حياة ، لأن كل فرد يأمن على شخصه ويطمئن إلى عدالة القصاص فينطلق إلى عمله وإنتاجه فإذا الأمة كلها فى حياة .

وأما الثيب الزانى ؛ فلأنه جحد بنعمة الله ، وترك زوجته الحلال وانطلق يفسد فى الأرض وينتهك؛ الأعراض ويعرض النسل للقتل والضياع فاستحق القتل .

وأما المرتد فإنه يقتل ؛ لأنه اختار الإسلام برغبته ودخل فى جسم الجماعة المسلمة واطلع على أسرارها فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها ولو بقى خارجها من أول الأمر ما أكرهه أحد على الإسلام ، بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب ،وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين ، وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين فى العقيدة .

والحديث النبوى بتمامه تفسير لقوله تعالى : **إِلاَّ بِالحَقِّ** ، فقد حدد الحالات الثلاث التى يكون فيها القتل بالحق أى : بالعدل .

قال النيسابورى فى تفسيره : ثم إنه دلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله : **إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ** ... الآية . (المائدة :٣٣) .

وقد أبدى الفقهاء أسبابا أخرى منها : أن تارك الصلاة يقتل عند الشافعى دون أبى حنيفة وكذا اللائط، ومنها : الساحر إذا قال : قتلت فلانا بسحرى ، وجوز بعضهم قتل من يمنع الزكاة .

والذين منعوا القتل فى هذه الصور قالوا : الأصل حرمة القتل كما بيناه فلا يترك هذا الدليل إلا لمعارض أقوى لا أقل من المساوى وهو النص المتواتر [٨٠] .

وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا أى : ومن قتل بغير حق يوجب قتله ، جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه وإما الدية لقوله تعالى : **كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى** ... الآية (البقرة : ١٧٨) . ولقولة عليه السلام يوم الفتح : «من قتل قتيلا فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية» [٨١] .

فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ . أى : فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد كما كان يقع في الثأر الجاهلى الذى يؤخذ فيه الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل ، ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل والولى مسلط على دمه بلا مثلة والرسول قد نهى عنها .

إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا . أى : إن الله نصر الولى بأن أوجب له القصاص وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ماوراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك ، وقد يكون المعنى : أن المقتول ظلما منصور فى الدنيا بإيجاب القود له على قاتله ، وفى الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله [٨٢] .

وهذه الآية أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل ؛ لأنها مكية [٨٣] .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

اليتيم : اسم يطلق على من فقد والده صغيرا ويظل الاسم يطلق عليه بعد بلوغه وكان صلى الله عليه وسلم يسمى : يتيم أبى طالب ، واليتامى : جمع يتيم ذكرا كان أم أنثى ، أما الأيتام فجمع للذكران فقط .

التى هى أحسن: أى : الطريق التى هى أحسن .

العهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده .

التفسير :

٣٤ – وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .

أى : لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق وهى طريق حفظه وتثميره بما يزيد فيه ؛ حتى تستحكم قوة عقله وشبابه وإذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لا يخالطون اليتامى فى طعام ولا غيره فأنزل الله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ... (البقرة : ٢٢٠) . فكانت لهم فيها رخصة فى المخالطة إذا كان الولى صادق النية فى مخالطة اليتيم لمواساته وتعويضه عن أبيه ورعاية ماله وتثميره .

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة النساء : وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ... (النساء : ٦) .

ومدلولها : أنه يجب على الولى أن يختبر اليتيم بالتدريب العملى بعد التدريب النظرى فتطلب منه أن يمسك حساب البيت أو يشترى لوازم الأسرة فإذا بلغ الحلم وآنست فيه الرشد وحسن التصرف ؛ سلمت إليه ماله وقد نهى القرآن عن أكل مال اليتيم ، كما نهى عن تبديده والإنفاق منه بالإسراف والتبذير قبل أن يكبر اليتيم ويسترد ماله .

والوصى على اليتيم له أن يأخذ من مال اليتيم بمقدار ما يبذل له من رعاية وتثمير فإن كان الوصى غنيا ؛ فلا يأخذ شيئًا من مال اليتيم وإن كان فقيرا ؛ أخذ ما يكفيه بالمعروف ؛ إذ كان الوصى يقوم برعاية المال كان يكون محاسبا أو وكيلا أو راعيا فبقدر ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم .

ولعلنا شاهدنا أن أحسن ما فسر القرآن هو القرآن وإن تناولنا للآية فى موضوع اليتامى يحتم علينا أن نحيط بأهداف القرآن الكلية فى معالجته للموضوع ، والنظر إلى الفكرة ككل وإلى ما يقصده القرآن كجسم كامل لا يصح بتر أجزائه .

فإذا ضمت الآيات التى تحدثت عن اليتامى فى القرآن مثل الواردة فى صدر سورة النساء [٨٤] وغيرها من السور خرجنا بحقيقة ظاهرة ، وهى أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر كمحمد بل هو كلام الله الخبير بالنفوس فهو ينهى عن أكل مال اليتيم ويأمر بمخالطته بالتى هى أحسن ويرد ماله إليه عند بلوغه سن الرشد كما يتوعد آكل مال اليتيم بالعذاب والسعير ويخوفه من صورة رهيبة ، هى أنه من المحتمل أن يترك أولاده صغارا ويتمنى ألا يتعرضوا للإذلال والامتهان والحرمان فليرفق بمن تحت يده من اليتامى وليحسن معاملتهم .

تفنيد فرية :

يقول بعض الغربيين ومن سار فى طريقهم : إن التشريع الإسلامى قد أخذ عن التشريع الرومانى وهذه دعوى باطلة لما يأتى :

١ - التشريع الرومانى مأخوذ عن الألواح الاثنى عشر والتشريع الرومانى فى سوريا وما جاورها نظر إلى العرف السائد فدونه وكان يرجع إليه كقانون وأحيانا كان يقضى القضاء بمقتضى العرف بدون قانون ، فكيف يؤخذ من تدوين عرف لشريعة نزلت كاملة شاملة .

٢ - علماء الغرب أنفسهم يعترفون بانفراد القرآن الكريم بالحديث عن اليتيم وإفاضته القول فى الوصية به، فالقانون الرومانى كان يهدف إلى أن يأخذ الوصى نصيب الأسد ، بينما القانون الإسلامى على النقيض من ذلك كله توصية باليتيم وتحذير من أكل ماله بشتى الطرق ولم يجعل للوصى الحق فى أخذ شىء من المال إلا أن كان فقيرا فليأكل بالمعروف .

وقد شدد الإسلام فى أمره بحفظ مال اليتيم ، وأمر برعايته وتثمير ماله ، وحرم أكل ماله ظلما وعدوانا، وذلك لأن اليتيم ضعيف عن الذود عنه ، والجماعة الإسلامية مكلفة برعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدافع عنه ، وهذه حجة أخرى على المستشرقين إذ يقولون : إن القرآن لم يعن بالصغار فكل تعاليمه موجهة إلى الرجال .

وقد تحدث أبو حامد الغزالى فى كتابه : (إحياء علوم الدين) عن تربية الأطفال وتعويدهم العادات الحسنة وأمرهم بالصلاة ومكارم الأخلاق وتحبيب الإيمان إليهم وغير ذلك مما يعد نموذجا رفيعا لأساليب التربية فى الإسلام .

ومما نلاحظه على الأوامر والنواهى الواردة فى هذه السورة أن الأمور التى يكلف كل فرد بصفته الفردية جاء الأمر أو النهى فيها بصيغة المفرد ، أما الأمور التي تناط بالجماعة فقد جاء الأمر أو النهى فيها بصيغة الجمع .

ففى الإحسان إلى الوالدين وإيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل وعدم التبذير والتوسط فى الإنفاق بين البخل والإسراف ، وفى التثبت من الحق والنهى عن الخيلاء والكبر كان الأمر أو النهى بصيغة المفرد لما لها من صيغة فردية ، وفى النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا وعن قتل النفس ، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان كان الأمر أو النهى بصيغة الجمع لما لها من صفة جماعية .

ومن ثم جاء النهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن فى صيغة الجمع ؛ لتكون الجماعة كلها مسئولة عن اليتيم وماله ، وهذا يبرر عناية القرآن باليتيم والضعيف ومسئولية الجماعة الإسلامية عن هؤلاء وأمثالهم .

فالمسلمون أشبه بالجسد الواحد أو بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

ولأن رعاية اليتيم عهد على الجماعة أُلحِق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقا فقال سبحانه : وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ العهْدَ كَانَ مَسْئُولاً.

أى : أوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها .

قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل في ذلك ما بين العبد وربه ، وما بين العباد بعضهم وبعض . والوفاء به : القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

إِنَّ العهْدَ كَانَ مَسْئُولاً. يسأل الله جل جلاله عن الوفاء بالعهد ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد ؛ لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن وفى الحديث النبوى سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس ، عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة ، عهد الحاكم وعهد المحكوم ، وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأوا بعيدا فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام .

★ ★ ★

﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

وأوفوا الكيل : أتموه .

القسطاس المستقيم : الميزان السوى .

تأويلا : مآلا .

التفسير :

٣٥– وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ...

أى : أتموه إذا كلتم لغيركم ولا تبخسوه .

وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ . أى : بالميزان السوى بلا اعوجاج ولا خديعة ذَٰلِكَ خَيْرٌ أى : لكم فى معاشكم لإقبال المشترين عليكم ولانتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أى : عاقبة ومآلا ، إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة ؛ أقبلت عليهم الدنيا وجمعوا بين الثروة والغنى وبين مرضاه الله وطاعته .

روى ابن كثير فى تفسيره : أن النبى ﷺ قال : «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به ؛ إلا مخافة الله ؛ إلا أبدله الله به فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك» .

وقد شدد القرآن فى التحذير من تطفيف الكيل وتوعد فاعله بالعذاب الشديد فقال تعالى : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ . (المطففين : ١ – ٣) .

وذكر النبى ﷺ : «أن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من عدل فى الكيل والتزم الأمانة وابتعد عن الغش» [٨٥] كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم «أن التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» [٨٦] ؛ لأن الشيطان يأتى له من ناحية الكيل والبيع والغش وإغلاء الأسعار .

ونظرا لأن الناس جميعا محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ؛ فقد بالغ الشارع فى النهى عن الغش في البيع والشراء وحذر منه وتوعد فاعله بأشد العقاب ؛ سعيا فى إبقاء الأموال لأربابها . قال ﷺ : «من غشنا فليس منا» [٨٧] .

ثم إن الطمع فى الكيل والوزن قذارة وصغار فى النفس ، وغش وخيانة فى التعامل تزعزع بهما الثقة ويتبعهما الكساد ، وتقل بهما البركة فى محيط الجماعة فيرتد هذا على الأفراد ، وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف [٨٨] وهو كسب ظاهرى ووقتى ؛ لأن الكساد فى الجماعة يعود على الأفراد بعد حين .

وهذه حقيقة أدركها بعيدو النظر فى عالم التجارة فاتبعوها ، ولم يكن الدافع الأخلاقى أو الحافز الدينى هو الباعث عليها ، بل مجرد إدراكها فى واقع السوق بالتجربة العملية .

والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة ومن يلتزمه اعتقادا ، أن هذا يحقق أهداف ذلك ، ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع فى نشاطه العملى إلى آفاق أعلى من الأض ، وأوسع فى تصور الحياة وتذوقها وهكذا يحقق الإسلام دائما أهداف الحياة العملية وهو ماض فى طريقه إلى أفاقه الوضيئة وآماده البعيدة ومجالاته الرحيبة .



﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

المفردات :

ولا تقف : أى : لا تتبع من قولك : قفوت فلانا أى : اتبعت أثره ومنه قافية الشعر ؛ لأنها تقفو كل بيت ، والقبيلة المشهورة بالقافة ؛ لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس ويستدلون بها على أحوالهم فى النسب .

التفسير :

٣٦- وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ...

والمراد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، أو يعمل بما لا علم به ، وهذه قضية كلية ولكن المفسرين حملوها على صور مخصوصة .

(أ) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأت عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك .

(ب) قال قتادة : لا تقل : سمعت ولم تسمع ، ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم .

(جـ) وقيل : المراد : النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال تعالى : ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ . (الحجرات : ١٢) .

وفى الحديث «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» وفى سنن أبى داود : (بئس مطية الرجل زعموا).

(د) وقيل : المراد : نهى المشركين عن تقليد أسلافهم فى الإلهيات والنبوات والتحليل والتحريم ؛ اتباعا للهوى وتقليدا للآباء بدون تثبت من صوابه أو خطئه كما قال تعالى : ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ . (النجم : ٢٣) .

﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ (الأنعام : ١٤٨) .

(هـ) وقيل : القفو هو : البهت وهو فى معنى الغيبة ؛ لأنه قول يقال فى قفاه أى : خلف ظهره ، ومن ورائه . ومنه الحديث «من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله فى ردغة [٨٩] الخبال حتى يأتى بالمخرج» .

(و) أراد النهى عن القذف ورمى المحصنين والمحصنات بالأكاذيب وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها فى الهجاء [٩٠] .

قال الطبرى :

وأولى الآراء فى ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : لا تقل للناس وفيهم مالا علم لك به فترميهم بالباطل وتشهد عليهم بغير الحق فذلك هو القفو ، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب ؛ لأن ذلك هو الغالب من استعمال العرب القفو فيه ، وأما قوله : ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ . فإن معناه : أن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها من أنه سمع أو أبصر أو علم ، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق . اهـ .

وقريب من ذلك قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ . (النور : ٢٤)

وقد وردت الآثار من القرآن والسنة تحث المؤمن على التثبت فى أقواله وأحكامه واستقرائه ؛ حتى يكون قوله صادقا وحكمه سليما ورأيه صوابا .

قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ . (الحجرات : ١٢) .

وقال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ ... (الحجرات : ٦) .

وفى الحديث : «أن أفرى الفرى[٩١] أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا» [٩٢] .

وفى الصحيح : «من تحلم [٩٣] حلما ؛ كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل» [٩٤] .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ ﴾

المفردات :

المرح : الفخر والكبر .

لن تخرق الأرض : لن تقطع الأرض ولن تجعل فيها خرقا وثقبا باختيالك وشدة وطأتك .

لن تبلغ الجبال طولا[٩٥] : أى : بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك .

التفسير :

٣٧ – وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ... الآية

قال النيسابورى : بين الله ضعف الآدمى بأنه فى حال انخفاضه لا يقدر على خرق الأرض وفى حال ارتفاعه لا يقدر على الوصول إلى رءوس الجبال فلا يليق به أن يتكبر[٩٦] .

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده ؛ تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان أو جمال . ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله ؛ لطامن من كبريائه وخفف من خيلائه . ومشى على الأرض هونا لا تيها ولا مرحا .

والقرآن هنا يجبه المتطاول المختال المرح ، بضعفه وعجزه وضآلته فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل ، لا يبلغ شيئا من الأجسام الضخمة التى خلقها الله ، إنما هو قوى بقوة الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذى نفخه الله فيه ؛ ليتصل به ويراقبه ولا ينساه .

ذلك التطامن والتواضع الذى يدعو إليه القرآن بذم المرح والخيلاء أدب مع الله ، وأدب مع الناس ، أدب نفسى وأدب اجتماعى .

ومن ترك هذا الأدب إلى العجب والخيلاء ؛ عامله الله بنقيض قصده ؛ فجعله صغيرا عند الناس ، صغيرا عند الله .

وفى الأثر يقول الله عز وجل : «يا داود ، من تواضع لى هكذا ، رفعته هكذا ، ومن تكبر على هكذا وضعته هكذا » .

وما أشبه المتكبر بالرجل فوق النخلة العالية أو الجبل المرتفع يرى الناس صغارا ، وهم يرونه صغيرا.

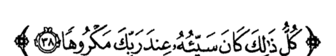
وكان من دعاء السابقين : اللهم ، اجعلنى عند نفسى صغيرا وعند الناس كبيرا .

وفى الصحيح : «بينما رجل يمشى فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» [٩٧] .

وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وفى الحديث : (من تواضع لله ؛ رفعه الله فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر ؛ وضعه الله فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير) [٩٨] .

★ ★ ★



التفسير :

٣٨- كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

أى : كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهى ، وهى الخمس والعشرون [٩٩] السالفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها - من الجعل مع الله إلها آخر ، وعبادة غيره ، من التأفف من الوالدين والبخل والتبذير وقتل الأولاد خشية الإملاق والزنا وقتل النفس وأكل مال اليتيم ، وتطفيف الكيل والميزان واتهام الناس بالزور والبهتان والتكبر والخيلاء ؛ مكروها عند ربك أى : مبغوضا عنده لا يرضى عنه .

أما من قرأ سيئة أى : فاحشة فمعناه عنده : كل هذا الذى نهينا عنه ، من قوله : وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ . إلى هنا فهو سيئة مؤاخذة عليها مكروها عند الله لا يحبه ولا يرضاه .

وأما من قرأ سيئه على الإضافة فمعناه عنده كل هذا الذى ذكرناه من قوله : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ . إلى هنا فسيئه أى : فقبيحه مكروه عند الله فيكون هذا تلخيصا وتذكيرا بمرجع الأمر والنهى وهو كراهية الله للسيئ من تلك الأمور ، وقد سكت عن الحسن المأمور به ؛ لأن النهى عن الشىء هو الغالب فيها [١٠٠] .

قال المهايمى : أما الشرك فلإخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك ،وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه ، المخصوص بذى الكمال المطلق فهو معنى الشرك ، وأما العقوق فلأنه كفران نعمة الأبوين فى التربية أحوج ما يكون المرء إليها ، ومنع الحقوق بالبخل تفريط ، والتبذير والبسط إفراط وهما مذمومان ، والذميم مكروه .

والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها ، والزنا وإتلاف مال اليتيم فى معناه ، ونقص العهد مخل بنظام العالم وكذا اقتفاء مالا يعلم . والتكبر من خواص الحق وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحد من خواصه شيئا) [١٠١] .

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا (٣٩) ﴾

المفردات :

الحكمة : هى القرآن ، أو الحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، فالتوحيد رأس الحكمة النظرية ، ومكارم الأخلاق هى الحكمة العملية .

المدحور : المبعد من رحمة الله .

التفسير :

٣٩ – ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ ...

أى : هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسراره ومن الحكم فى تشريعه . أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا : لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ . . الآيات .

فهذه خمس عشرة آية قد اشتملت على خمس وعشرين تكليفا جمعت أصول مكارم الأخلاق ، وأساس الفضائل .

وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا .

لقد بدأ هذه المجموعة من الآيات الأمر بالتوحيد وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ . ثم جاء الختام محذرا من الشرك ، داعيا إلى التوحيد فعقيدة التوحيد هى الأساس فى امتثال الأوامر والنواهى وهى رأس الحكمة وهى مبدأ الأمر ومنتهاه .

مَلُومٗا تلوم نفسك أى : واقعا فى اللوم **مَّدۡحُورًا** مبعدا مطرودا من رحمة الله .

ملاحظة :

بدأ هذه المجموعة من الآيات (٢٢ – ٣٩) بقوله تعالى :

لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا . (٢٢) ، وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا (٢٣).

فذكرت عاقبة الشرك فى الدنيا وهى أن يقعد المشرك مذموما مخذولا أى : واقعا فى الذم والخذلان والهزيمة .

ثم ذكرت خاتمة الآيات عاقبة المشرك فى الآخرة وهى أن يلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (آية ٣٩) .

أى : ملوما من جهة نفسه ، ومن جهة غيره ومبعدا من رحمة الله . وبين البداية والخاتمة ، دعوة إلى مكارم الأخلاق وتحذير من الكبائر والرذائل ، والخطاب هنا إما موجه إلى الإنسان عامة ، أو إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من باب قولهم : (إياك أعنى واسمعى ياجارة) .

هدانا الله إلى حكمة القرآن ووفقنا إلى الهدى ومكارم الأخلاق وأمدنا بالنصر والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير .



أخلاق القرآن

إن هذه المبادئ والوصايا التى ذكرت فى سورة الإسراء فى أسلوب حكيم أخاذ تعتبر دستورا أخلاقيا للجماعة الإسلامية بل هى شعار إنسانى للإنسانية الفاضلة .

وقد كان التمسك بهذه الأخلاق سببا فى تماسك الأمة الإسلامية وترابطها وعاملا من عوامل رقيها وانتصارها ، وأحرى بالمسلمين اليوم أن يتمسكوا بهدى القرآن وأخلاق القرآن ؛ ليعود إليهم مجدهم وعزهم بعد أن تعود إليهم أخلاقهم وشيمهم .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن أخلاق النبى ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن .

وإن عناية القرآن بالتربية والفضيلة فاقت كل عناية ، وكان القرآن مأدبة الله أقبل عليها المسلمون فنفذوا أوامر القرآن ، وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ؛ فصاروا قرآنا متحركا ، وجاء فى وصفهم على لسان مارية القبطية التي كتبت للمقوقس تقول له :

(إن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد ، وهم النور الجديد . ونبيهم أطهر من السحابة البيضاء فى اليوم الصائف . وإذا رفعوا السيف رفعوه بقانون ، واذا وضعوا السيف وضعوه بقانون يفتحون البلاد بأخلاقهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم . وإذا جاء وقت الصلاة ؛ غسلوا أطرافهم ووقفوا فى محرابهم يناجون إلها سميعا مجيبا) .

وإن رسالات الأنبياء كلها كانت دعوات هادفة لإرساء معالم الفضيلة والدعوة إلى الأخلاق السامية والسلوك المستقيم قال ﷺ : «إنما بعثت لأتتم مكارم الأخلاق» [١٠٢] .

ويبين الدين : أن أحب الرجال إلى الله هو السهل الهين الذى يألف ويؤلف وأبغض الرجال إلى الله هو الرجل الجحظرى الغليظ القلب الذى لا يألف ولا يؤلف ، قال ﷺ : «إن أحبكم إلى وأقربكم منى منازل يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى منازل يوم القيامة : الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قلنا : يا رسول الله ، هؤلاء الثرثارون المتشدقون ، فمن هم المتفيهقون ؟ قال : «المتكبرون» [١٠٣].

إن أخلاق الإسلام هى أخلاق الفطرة السليمة والنفس المستقيمة ؛ رغبة فى الخير ؛ ومعونة للمحتاج، ورحمة بالضعيف ، وعمل إنسانى من أجل الجماعة ، وكف الضر والإيذاء عن الناس .

وقد جاء فى الحديث :

«المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر السوء واجتنبه» .

وقال رجل : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا وأقلل فيه لعلى أعيه ؛ فقال له النبى ﷺ :

«قل آمنت بالله ثم استقم» .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت : ٣٠ - ٣٢)

ولما أتى النبى ﷺ بسبايا طىء ، وقفت من بينهم (سفانة) بنت حاتم الطائى ، وقالت : يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فعلت ؛ فإن أبى كان سيد قومه ؛ يفك العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ، ويحمى الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبا ، أنا بنت حاتم الطائى ؛ فقال محمد عليه السلام : «يا جارية هذه صفات المؤمنين فلو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها ؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق !» ثم قال : «ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنيا افتقر ، وعالما ضاع بين جهال» وأكرم قومها من أجلها ؛ تحية لها ، فأطلقهم من أسارهم فاستأذنته فى الدعاء له فأذن لها ، فقالت :

«أصاب الله ببرك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سببا فى ردها عليه» .

وذهبت سفانة إلى أخيها عدى بن حاتم فقالت له : يا أخى ، ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله (تأتيه مقيدا) فإنى رأيت هديا ورأيا ، سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالا أعجبتنى : رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ، إنه لنبى فللسابق إليه فضله .

فأصغى عدى إلى رأى أخته ، وقدم على رسول الله ﷺ مسلما ومعه أخته مسلمة أيضا .

إن قوة الإسلام الذاتية هى التى جمعت المسلمين ووحدت كلمتهم ودفعتهم ينشرون دين الله فى المشارق والمغارب ، وصدق الله العظيم : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . (الإسراء : ٩) .

* * *

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

المفردات :

الإصفاء بالشىء : جعله خالصًا له .

صرفنا : بينا وكررنا هذا المعنى بوجوه كثيرة .

ليذكروا : ليتدبروا ويتعظوا .

النفور : البعد من الشىء .

ابتغاء الشىء : طلبه .

السبيل : الطريق .

تسبح له : تنزهه عن النقائص وتقدسه .

تفقهون : تفهمون .

المعنى الإجمالى :

بعد أن نبه سبحانه إلى خطإ من أثبتوا له شريكا ، واتخذوا له ندا ونظيرا أتبع ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من سفاهتهم أن جعلوا البنين لأنفسهم ، وأعطوا لله البنات مع علمهم بأن الله موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، ثم أتبع ذلك ببيان : أنه قد كرر هذا المعنى فى القرآن على وجوه كثيرة ؛ ليعتبروا ويتدبروا ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وبعدا عنه .

قل يا محمد لهم : لو كان مع الله آلهة كما يزعمون ؛ لطلبوا إلى ذى العرش سبيلا ؛ للتقرب إليه ، تقدس الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له وتقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن وما من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ؛ لإخلالكم بالنظر الصحيح أنه كان حليما حين لم يعاجلكم بالعقوبة، غفورا لمن تاب منكم .

التفسير :

٤٠ - أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ...

أى : أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد . وهو خطاب للمشركين الذين قالوا : الملائكة بنات الله . والهمزة للاستفهام الإنكارى .

قال الزمخشرى فى الكشاف : والمعنىَ :

أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه ، واتخذ أدونهم وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم بل تئدونهن وتقتلونهن ، فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم «فإن العبيد لا يؤثرون بالأجود والأصفى والسادة بالأدنى والأردأ» [١٠٤] .

وخلاصة ذلك : أنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ثم ادعوا : أنهن بنات الله ثم عبدوهن ، فأخطئوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيمًا ، ومن ثم قال :

إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ، عظيمًا فى شناعته وبشاعته ، عظيما فى ضخامة الافتراء فيه ، عظيما فى خروجه عن التصور والتصديق .

٤١ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا .

أى : كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبينا فيه : من كل مثل ؛ **لِيَذَّكَّرُواْ** أى : ليتعظوا ويعتبروا فيقفوا على بطلان ما يقولون - فإن التكرار يقتضى الإذعان واطمئنان النفس - ولكنهم يزيدون نفورا كلما سمعوا

هذا القرآن . نفورا من العقيدة التى جاء بها ، ونفورا من القرآن ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التى يستمسكون بها .

٤٢ – قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا .

لَّوْ – كما يقول النحاة – حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هناك آلهة مع الله – كما يقولون – والآلهة التى يدعونها إن هى إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجما أو كوكبا ، إنسانا أو حيوانا ، نباتا أو جمادا . وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التى تحكمها وتصرفها ، وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته .

وذكر الطبرى وابن كثير : أن معنى هذه الآية :

قل لهؤلاء المشركين – الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره ؛ ليقربهم إليه زلفى : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهه تعبد ؛ لتقرب إليه وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون الزلفى والطاعة لديه ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ؛ فإن الله لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه وقد نهى غن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه .

٤٣ – سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

تنزه الله وتسامى وارتفع عن الولد والشريك تنزها حقيقا به عُلُوًّا كَبِيرًا أى : تعاظم عن ذلك تعاظما كبيرا . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، مما يتنزه عنه مقامه الأسمى .

٤٤ – تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

أى : إن السماوات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتدل بإتقان صنعها على تنزيه الله سبحانه عن كل نقص وأنه لا شريك له ، وما من شىء من المخلوقات فى ملكه الواسع إلا ينزهه كذلك مع الثناء ، ولكن الكافرين لا يفهمون هذه الأدلة ؛ لاستيلاء الغفلة على قلوبهم وكان الله حَلِيمًا عليهم ، غَفُورًا لمن تاب فلم يعاجلهم بالعقوبة .

والآية تدل على أن الأشياء كلها تسبح لله وتسجد له ، بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار .

«وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازى ، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية . كنطقت الحال ، فإنه استعير فيه التسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزه عن الولد والشريك، كما يدل الأثر على مؤثره فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنها تنزيه له عما يخالفه [١٠٥] ، كما قال أبو نواس .

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

وجاء فى ظلال القرآن :

وأنه لمشهد كونى فريد حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة ، كل زهرة وكل ثمرة ، كل نبتة وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة على الأرض وكل سابحة فى الماء والهواء ... ومعها سكان السماء .. كلها تسبح لله وتتوجه إليه فى علاه .

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب فى كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئًا ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا .. سمعه يسبح لله ، وينبض بالحياة [١٠٦] .

وقد أخرج الإمام أحمد وابن مردويه عن ابن عمر : أن النبى ﷺ قال : «إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه : آمركما بسبحان الله وبحمده ؛ فإنها صلاة كل شىء، وبها يرزق كل شىء» .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

المفردات :

الحجاب والحجب : المنع من الوصول إلى الشىء والمراد : الحاجب . والمستور : أى : الساتر ، كما جاء عكسه من نحو . ماء دافق : أى : مدفوق .

أن يفقهوه : لئلا يفقهوه ويفهموه .

أكنة : أغطية واحدها : كنان وهو الغطاء الذى يكن فيه الشىء . والكن : ما يحفظ فيه الشىء ، جمعه : أكنان . يقال : كننت الشىء كنا ، جعلته فى كن .

الـــــوقــــــر: الصمم والثقل فى الآذان المانع من السماع .

الـــنـــفـــور: الانزعاج .

مســـحـــورا: أى : مخبول العقل ، فهو كقولهم : إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ (المؤمنون : ٢٥) .

فضـــلـــوا: أى : جاروا عن قصد السبيل .

المعنى الإجمالى :

وإذا قرأت أيها النبى القرآن الناطق بدلائل الحق ؛ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء حين إرادة الفتك بك ، حجابا ساترا لك عنهم فلا يرونك ، وجعلنا بمقتضى حكمتنا فى الإضلال والهداية على قلوبهم أغطية ؛ كراهة أن يفهموا القرآن على حقيقته ، وفى آذانهم صمما ، فلا يسمعونه سماع انتفاع؛ لأنهم أسرفوا فى العناد والمكابرة ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن منفردا عن ذكر آلهتهم ، رجعوا على أعقابهم نافرين عن استماعه .

نحن أعلم بالسبب الذى يدعوهم للاستماع إليك ، وهو الاستهزاء بك وبالقرآن ، ونحن أعلم أيضًا إذ هم يتناجون ، إذ يقول الظالمون لغيرهم : إن اتبعتم محمدًا فإنما تتبعون رجلا مسحورا قد ذهب عقله .

انظر كيف ذكروا لك الأشباه فشبهوك بالمسحور والكاهن والشاعر، فضلوا بذلك عن الهدى فلا يجدون طريقا إليه .

التفسير :

٤٥، ٤٦ - وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا .

كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا ، وجعل على قلوبهم كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلا تعى ما فيه من توجيه .

وقد روى ابن إسحاق فى السيرة : عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهرى : أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم ؛ لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى إذا

كانت الليلة الثانية : عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الثالثة : أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد : لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء؛ فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن قلوبهم فيصدونها ، وتجاذبهم إليه نفوسهم فيمانعونها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا يهتدون بالقرآن الذى يتلوه ، وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه ، ثم يغلبهم التأثر به فيعودون، ثم يتناجون من جديد حتى ليتعاهدوا على عدم العودة؛ ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذى يخلب القلوب والألباب ! ذلك أن عقيدة التوحيد التى يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم فى مكانتهم وفى امتيازاتهم وفى كبريائهم فينفرون منها .

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ، والكبرياء يمنعهم من التسليم والإذعان ، فيطلقون التهم على الرسول ﷺ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد .

٤٧ – نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا .

أى : نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزء والسخرية والتكذيب حين استماعهم ، وأعلم بما يتناجون به ويتسارون ، إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . أى : سحر فجن واختلط كلامه .

وهذه الكلمة ذاتها تحمل فى ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ، فهم يستكثرون فى دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر ؛ لأنهم يحسون فيه شيئا غير بشرى ، ويحسون دبيبه الخفى فى مشاعرهم فينسبون قائله إلى

السحر يرجعون إليه هذه الغرابة فى قوله وهذا التميز فى حديثه ، وهذا التفوق فى نظمه ، فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ولا خلق آخر من خلق الله .

٤٨ - ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً .

أى : تأمل وانظر أيها الرسول كيف مثلوا لك الأمثال وشبهوا لك الأشباه ، فقالوا : هو مسحور وهو شاعر مجنون ، فحادوا فى كل ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحق ؛ لضلالهم عنه وبعدهم منه .

أو المعنى : فلا يستطيعون سبيلا إلى طعن يمكن أن يقبله أحد بل يخبطون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد ، كالمتحير فى أمره لا يدرى ماذا يصنع .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

الرفات : ما تكسر وبلى من كل شىء .

يكبر فى صدوركم : أى : يستبعد قبوله للحياة .

فطركم : أى : خلقكم وأوجدكم ، يقال : فطرهم يفطرهم فطرا ، أى : خلقهم .

فسينغضون إليك رءوسهم : أى : فسيحركون رءوسهم ؛ تعجبا وسخرية .

فتستجيبون : أى : تجيبون الداعى .

إن لبثتم : أى : ما لبثتم .

المعنى الإجمالى :

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم هى : الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، وفندها بما

لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه ثم ذكر في هذه الآيات : شكوكهم في المعاد والبعث والجزاء ، ورد عليها بما لو نظر إليه المنصف ؛ لأيقن بصدق ما يقال .

التفسير :

٤٩- وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

أي : وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاما في قبورنا ، لم تتحطم ولم تتكسر بعد مماتنا ، ورفاتا متكسرة مدقوقة ، أئنا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها ، وقد بلينا فتكسرت عظامنا ، وتقطعت أوصالنا ؛ خلقا جديدا كما كنا قبل الممات.

ومثل الآية قوله تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس ٧٨ ، ٧٩) .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ، ويعرفهم قدرة الله على بعثهم بعد مماتهم فقال سبحانه :

٥٠ ، ٥١- قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ...

والعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ، والحديد والحجارة أبعد عن الحياة فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقا أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة ؛ فسيبعثكم الله .

وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدى وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع.

(فهو كقول القائل : أتطمع في وأنا فلان ؟ فيقول له صاحبه : كن ابن من شئت ، كن ابن الوزير فسأطلب منك حقى)[١٠٧] .

فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا .

من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما أو خلقا آخر أشد إيغالا في الموت والخمود ؟

قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

أي : الذي يفعل ذلك هو القادر العظيم ، الذي خلقكم أول مرة على غير مثال يحتذى ، ولا منهاج معين ينتحى ، وكنتم ترابا لم يشم رائحة الحياة ، فالذي أنشأهم إنشاءً قادر على أن يردهم أحياء ولكنهم لا ينتفعون بهذا القول ولا يقتنعون به .

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ . سيحركون رءوسهم برفع وخفض استنكارا واستهزاء .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ . أى : متى هذا البعث ؟ ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله واستنكاره .

قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا . أى : فاحذروا ذلك ، فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب .

ثم يرسم مشهدا سريعا لذلك اليوم .

٥٢- يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا .

وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له ، وقد قاموا يلبون دعوة الداع ، وألسنتهم تلهج بحمد الله ، ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب .

وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون يوم البعث كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا: الحمد لله ، الحمد لله .

ويومئذ تنطوى الحياة الدنيا كما ينطوى الظل :

وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا . أى : وتظنون حين تقومون من قبوركم أنكم ما أقمتم فى دار الدنيا إلا زمنا قليلا.

ومثل الآية قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ . (الروم : ٥٥).

قال الحسن : المراد : تقريب وقت البعث ، فكأنك بالدنيا ولم تكن ، وبالآخرة ولم تزل .

★ ★ ★

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات :

ينزغ بينهم : يهيج بينهم الشر ، النزغ لغة : الدخول فى الأمر لإفساده .

وكيلا : أى : موكولا إليك أمرهم تجبرهم على الإيمان .

زبورا : الزبور كتاب داود عليه السلام ، والزبور لغة : الكتاب ، جمعه : زبر .

المعنى الإجمالي :

قل لعبادى يقولوا الكلمة التى هى أحسن ، وعليهم أن يجادلوا مخالفيهم باللين ، ولا يغلظوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسبوهم ، فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع .

إن الشيطان يدخل بينهم فيهيج فيهم المراء والشر ، وربما أفضى ذلك إلى عنادهم وازدياد فسادهم إن الشيطان دائما عدو للإنسان بين العداوة ، فلا تصارحوهم بأنهم من أهل النار فإن ذلك يهيجهم على الشر ، ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم وإن شاء رحمكم ، ولا يصرح بأنهم من أهل النار فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ثم بين لرسوله أنه لا يقسر الناس على الإسلام فما عليه إلا البلاغ والإنذار ، والله هو العليم بمن فى السماوات والأرض ، فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب الفضل والكمال وأفضلهم محمد ﷺ وأمته .

التفسير :

٥٣- وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...

أى : وقل لعبادى يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للإقناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله تعالى : ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ... (النحل : ١٢٥) ثم علل ذلك بقوله:

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ . أى : بين الفريقين جميعا ؛ فيزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود [١٠٨] .

ومن ثم نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ؛ فإن الشيطان ينزغ فى يده فربما أصابه بها . روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار» [١٠٩] .

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا .

يتلمس سقطات فمه ، وعثرات لسانه ، فيغرى بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة آمنا من نزغاته ونفثاته .

ثم فسر التى هى أحسن بما عليهم النصفة بقوله :

٥٤- رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ...

أى : ربكم أيها القوم هو العليم بكم ، إن يشأ رحمتكم ؛ بتوفيقكم للإيمان والعمل الصالح ؛ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم ؛ بأن يخذلكم عن الإيمان ؛ فتموتوا على شرككم .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغى للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ، ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيروهم بذلك ، فإن العاقبة مجهولة ، ولا يعلم الغيب إلا الله - إلى أن ذلك مما يساعد على توليد الضغائن فى النفوس ، بلا فائدة ولا داع يدعو إليها ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ؛ ليكون من دونه أسوة له فقال:

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً . أى : وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيبا ، تقسر الناس على ما يرضى الله ، إنما أرسلناك بشيرا ونذيرا ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ، ومر أصحابك بذلك فإن ذلك هو الذى يؤثر فى القلوب ويستهوى الأفئدة .

٥٥- وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا .

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .

أى : فلا يخفى عليه شىء فيهما ، وعلمه يشمل من فى السماوات والأرض من ملائكة ورسل وإنس وجن وكائنات لا يعلم إلا الله ما هى ؟ وما قدرها ؟ وما درجتها ؟.

وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق ؛ فضل الله بعض النبيين على بعض .

وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ . بالمعجزات وكثرة التابعين ، (وفيه رد على أهل مكة فى إنكارهم أن يكون يتيم أبى طالب مفضلا على الخلائق ونبيا دون صناديد قريش وأكابرهم) [١١٠] .

وفى معنى الآية قوله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ... (البقرة : ٢٥٣) .

فالله أعلم بمن فى السماوات والأرض وأحوالهم ، فآتى موسى التوراة وكلمه ، وعيسى الإنجيل ، وداود الزبور ، فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد آتى محمدا القرآن ففضله به على الأنبياء كافة .

ونجد فى كتب العقائد : أن أولى العزم من الرسل خمسة هم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وقد فضل الله هؤلاء الخمسة على بقية الأنبياء ؛ لجهادهم وصبرهم وبلائهم فى سبيل دعوة الحق والخير وأفضل هؤلاء الخمسة محمد ﷺ ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وهو نموذج من عطاء الله لأحد أنبيائه ، ومن مظاهر التفضيل أيضا ؛ إذ كانت الكتب أبقى من الخوارق المادية التى يراها الناس فى ظرف معين من الزمان .

وقد خص الله داود بالذكر للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن فى نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ ما بلغ فى الحكمة والملك ، وقد اختصه الله بهما وميزه الله على أهل عصره وإذ كان ذلك اختصاصا ربانيا ؛ فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب من علم أنه أرجحهم عقلا ، وأكملهم فضلا ؛ لختم نبوته ، وهداية بريته بمنهاجه وشرعته .

★ ★ ★

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

الـزعـم : (بتثليث الزاى) القول المشكوك فى صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب حتى قال ابن عباس : كل موضع فى كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب .

لا يـمـلـكـون : لا يستطيعون .

كشف الضر : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم .

يدعون : ينادون .

الوسيلة : القرب بالطاعة والعبادة .

محذورا : يحذره ويحترس منه كل أحد .

الكتاب : اللوح المحفوظ .

الآيات : هى ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهبا .

مبصرة : بينة جعلتهم ذوى بصائر .

فظلموا بها : فكفروا بها وجحدوا .

إن ربك أحاط بالناس : هم فى قبضته .

الرؤيا : هى ما عاينه ﷺ ليلة أسرى به من العجائب .

الشجرة الملعونة : هى شجرة الزقوم .

الطغيان : تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

المعنى الإجمالى :

هذه الآيات عود على بدء فى تسفيه آراء المشركين ، الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيرا ؛ إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ؛ ليتقربوا إليه ، فيرجون رحمته ويخافون عذابه . ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبى واغتنام الأموال وأخذ الجزية ثم أردف ذلك ببيان : أن ما منعه من إرسال الآيات التى طلب مثلها الأولون كقولهم : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ ... الآيات إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا ؛ لأصابهم عذاب الاستئصال كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة ؟! ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه ، وأنه سينصره ويؤيده ، ثم أتبع ذلك ، فإن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا لإيمانهم .

التفسير :

٥٦، ٥٧- ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

أى : قل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون من دون الله من خلقه : ادعوا من زعمتموهم أربابا وآلهة من دونه،

عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم ، أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم : آلهة ؟ أي: فإنهم لا يقدرون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

وروى الطبرى : [١١١] عن ابن عباس : أن الآية عنى بها قوم مشركون ، كانوا يعبدون المسيح وعزيرا والملائكة ، وبعضهم كانوا يعبدون نفرا من الجن ، فأخبرهم الله تعالى : أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال .

فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجه إليه من تدعونهم: آلهة من دونه وهم عباد لله ، يبتغون رضاه.

وفى قوله تعالى : وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ. إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف . فبالرجاء تكثر الطاعات ، وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : مَحْذُورًا أى : يبتغى أن يحذر منه ، ويخاف من حلوله .

٥٨ــ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا.

أخبر الله : بأنه حتم وقضى ، أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده ؛ وذلك لذنوبهم ، وخطيئاتهم ، وعدم استجابتهم لنبيهم .

كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا . أى : كان ذلك مثبتا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ .

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب، فقال : ما أكتب ؟ قال : اكتب المقدر وما هو كائن إلى يوم القيامة» [١١٢] أخرجه الترمذى .

وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات ؛ لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهى الهلاك بالعذاب ، فاقترحت قريش على النبى ﷺ أن يريهم بعض الآيات والمعجزات فأجابهم الله بقوله :

٥٩ــ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ...

أى : أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم ؛ لاستحقوا عذاب الاستئصال كما هى سنتنا فى الأمم السابقة كعاد وثمود ، وقد قضى الله ألا يستأصل كفار هذه الأمة ؛ لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن .

ولأن الله شاء أن تكون معجزة الإسلام هى القرآن وهو كتاب يرسم منهجا كاملا للحياة ويخاطب الفكر والقلب ويبقى مفتوحا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة ، أما الخوارق المادية فهى تخاطب جيلا واحدا من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل .

والخلاصة : أنه ما منعنا من إرسال الآيات التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها ، فإن أرسلناها وكذب هؤلاء بها ؛ عوجلوا ولم يمهلوا .

روى الإمام أحمد [١١٣] عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن نستأنى بهم ؛ لعلنا نجتبى منهم ، وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم .

قال : بل نستأنى بهم فأنزل الله : وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ...

وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا .

أى : وقد سألت ثمود من قبل قومك : الآيات فأتيناها ما سألت ، وجعلنا لها الناقة حجة واضحة ، دالة على وحدانية من خلقها ، فكفروا بها ، ومنعوها شربها وقتلوها ، فأبادهم الله وانتقم منهم .

وما كانت الآيات إلا إنذارا وتخويفا بحتمية الهلاك بعد مجىء الآيات .

هذه التجارب البشرية ، اقتضت أن تجىء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق ؛ لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها ، لا رسالة جيل واحد يراها ، ولأنها رسالة الرشد البشرى ، تخاطب مدارك الإنسان جيلا بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذى تتميز به بشريته ، والذى من أجله كرمه الله على كثير من خلقه .

أما الخوارق التى وقعت للرسول ﷺ وأولها : خارقة الإسراء والمعراج ، فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء .

٦٠- وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ . أى : علما ، فلا يخفى عليه شىء من كفرهم وتكذيبهم ، ومنه ما جرى منهم إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة الملعونة ، من الجحود والهزء واللغو . ثم قال سبحانه :

وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ . قال الأكثرون : يعنى : ما رآه النبى ﷺ ليلة الإسراء من الآيات، فلما ذكرها النبى ﷺ للناس ؛ أنكر بعضهم ذلك وكذبوا ، كما ثبت بعضهم وازداد يقينا . ومن ثم كانت الرؤيا التى أراها الله لعبده فى تلك الليلة فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ، وابتلاء لإيمانهم .

وقد استدل القائلون بأن الإسراء والمعراج كانا مناما ، بهذه الآية على صحة ما ذهبوا إليه .

وذهب القائلون بأنهما كانا فى اليقظة إلى أن المراد بهذه الرؤيا رؤيا رآها فى وقعة بدر ؛ لقوله : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً . وقيل : بل هى رؤيا عام الحديبية حين رأى أنه دخل مكة .

وروى الطبرى عن الحسن فى الآية هذه ، قال : أسرى به ﷺ عشاء إلى بيت المقدس ، فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات ، ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس ، فقالوا له : يا محمد ، ما شأنك ؟! أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا : أنك أتيت بيت المقدس ، فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وروى البخارى فى التفسير عن ابن عباس : أنها رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ فى ليلة الإسراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة . وجاء فى اللغة : الرؤيا بمعنى : الرؤية مطلقا. وهو معنى حقيقى لها وقيل : إنها حقيقة فى رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلا . وقد ذكر السهيلى أنه ورد فى كلام العرب بهذا المعنى تقول : رأيته رؤيا كقربة وقربى .

وقيل : إن إطلاق الرؤيا على الإسراء مجاز ؛ لوقوعها ليلا أو لسرعتها (١١٤) .

وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ . أى : وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ؛ اختلفوا ؛ فقوم ازدادوا إيمانا ، وقوم ازدادوا كفرا ، كأبى جهل إذ قال: إن ابن أبى كبشة – يعنى : النبى ﷺ – توعدكم بالنار ، ثم يزعم أنها تنبت شجرة ، وتعلمون أن النار تحرق الشجر ، وقال عبد الله بن الزبعرى : إن محمدا يخوفنا بالزقوم ، وما الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا منه ، وجعل يأكل من هذا بهذا . أى : تمرا بزبد .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى ، لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامسها نظافة ومن ثم يلبسه رجال المطافئ .

وكم فى الأرض من عجائب وكم فى العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خلص من النار إلا قشرتها التى نعيش عليها وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية نحو $\frac{٨}{٩}$ منه أكسجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أدروجين .

وقوله تعالى : وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ . أى : صارت نارا من قولك : سجرت التنور إذا أشعلته .

والخلاصة : أن هؤلاء المشركين فتنوا بالرؤيا ، وفتنوا بالشجرة . وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها ، للعن الكفار الذين يأكلونها ؛ توسعا فى الاستعمال وهو كثير فى كلام العرب .

وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا . أى : ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديا فى الطغيان والضلال . وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغيانا كبيرا.

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده . ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة . فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق .

أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح وشعيب .. ومن المكذبين من آمن بعد ذلك ، وكان من جند الإسلام الصادقين . ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين .

وظل القرآن – معجزة الإسلام – كتابا مفتوحا لجيل محمد ﷺ وللأجيال بعده ، فآمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته ، عندما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه .

وسيبقى القرآن كتابا مفتوحا للأجيال ، يهتدى به من هم بعد فى ضمير الغيب ، وقد يكون منهم من هو أشد إيمانا وأصلح عملا ، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

المفردات :

أرأيتك : أى : أخبرنى .

هذا الذى كرمت على : أى : أهذا الذى كرمته على . قاله احتقارا واستصغارا لشأنه .

لأحتنكن : من قولهم : حنك الدابة واحتنكها ؛ إذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه .

اذهـــب : أي : امض لشأنك فقد خليتك وما سولت لك نفسك .

مـوفـورا : أي : مكملا لا يدخر منه شيء .

اسـتـفـزز : هيج واستخف .

بصـوتك : بدعائك إلى معصية الله .

وأجلب عليهم : أي : صح عليهم من الجلبة وهي الصياح ، يقال : أجلب على العدو إجلابا ؛ إذا جمع عليه الخيول.

بخيلك ورجلك : أي : بأعوانك من راكب وراجل .

الـغـرور : تزيين الباطل بما يظن أنه حق .

الـوكـيـل : الحافظ والرقيب الذى يكلون إليه أمورهم .

تمهيد :

لما نازع القوم رسول الله ﷺ وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين هما الكبر والحسد :

أما الكبر ؛ فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد ؛ فلأنهم كانوا يحسدونه على ما أتاه الله من النبوة ؛ فبين سبحانه أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج على الإيمان والدخول فى الكفر.

التفسير :

٦١- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ... الآية .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ حين خلقنا أباك آدم وفضلناه : ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ : تحية وتكريما ؛ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (١١٥) .

وفى سورة ص قال إبليس : قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ . (ص : ٧٦) .

قال الخطيب الشربيني :

فكفر بنسبته لنا إلى الجور متخيلا أنه أفضل من آدم – عليه السلام – من حيث إن الفروع ترجع إلى الأصول ، وأن النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم ، وذهب عنه أن الطين أنفع من النار ، وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد ، والله تعالى هو الذى أوجدها من العدم ، يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض ، وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى ست سور، وهى : البقرة ، والأعراف، والحجر، وهذه السورة ، والكهف، وطه . والكلام المستقصى فيها قد ورد فى سورة البقرة، ولعل هذه القصة إنما كررت ؛ تسلية للنبى ﷺ ؛ فإنه كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه ، فكأنه تعالى يقول : ألا ترى أن أول الأنبياء هو آدم – عليه السلام – ثم إنه كان فى محنة شديدة من إبليس .

وأن الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة عظيمة للخلق [١١٦] .

٦٢- قَالَ أَرَءَيْتَكَ [١١٧] هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ...

أى : أخبرنى عن هذا الذى كرمته على ، بأن أمرتنى بالسجود له ، لم كرمته على ؟! أو المعنى : أخبرنى أهذا الذى كرمته على ؟!

لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ [١١٨] ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلاً .

أى : لأعمنهم وأهلكنهم بالإغراء إلا المخلصين . ولأستولين عليهم استيلاء من جعل فى حنك الدابة الأسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه .

وجاء فى تفسير الخطيب :

فإن قيل : كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم ؟ أجيب : بأوجه :

الأول : أنه سمع الملائكة يقولون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، فعرف هذه الأحوال .

الثانى : أنه وسوس إلى آدم ولم يجد له عزما ، فقال : الظاهر أن أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم [١١٩].

الثالث : أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوية ، وقوة وهمية شيطانية ، وقوة عقلية ملكية ، وقوة سبعية غضبية [١٢٠] .

٦٣- قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا .

اذهب فحاول محاولتك ، اذهب مأذونا فى إغوائهم ؛ فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك ، فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ، مغلبا جانب الغواية فى نفسه على جانب الهداية ، معرضا عن نداء الرحمان إلى نداء الشيطان ، غافلا عن آيات الله فى الكون ، وآيات الله المصاحبة للرسالات ؛ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ أنت وتابعوك جَزَآءً مَّوْفُورًا أى : جزاء مكملا لا ينقص لكم منه شىء بما تستحقون من سيئ الأعمال، وما دنستم به أنفسكم من قبيح الأفعال .

٦٤- وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ...

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهى المعركة الصاخبة ، يستخدم فيها الصوت فيزعج الخصوم ، ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة ، فإذا استدرجوا أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال .

قال النيسابوري : «عن ابن عباس : كل راكب وراجل في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده . وقيل يحتمل أن يكون لإبليس جند من الشياطين بعضها راكب وبعضها راجل» [١٢١] والأقرب أن هذا كلام ورد تمثيلا فقد يقال للرجل المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك .

قال المراغي : ليس للشيطان خيل ولا رجالة ، وإنما يراد بهما : الأتباع والأعوان من غير ملاحظة؛ لكون بعضهم ماشيا وبعضهم راكبا [١٢٢] .

وقال الزمخشري في الكشاف : مثلت حاله في تسلطه على من يغويه ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة .

وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ ؛ بحثهم على كسبها من غير السبل المشروعة وإنفاقها في غير الطرق التي أباحها الدين، ويشمل ذلك الربا والغصب والسرقة ، وسائر المعاملات الفاسدة .

وقال الحسن : مرهم أن يكسبوها من خبيث ، وينفقوها في حرام .

وَٱلْأَوْلَـٰدِ أي : بالتفاخر والتكاثر بهم ، وتضليلهم بصبغهم بغير صبغة الدين ، أو تربيتهم لا كما ينبغي ؛ حتى ينشئوا غير راشدين ولا مؤدبين ولا متدينين بدين الحق [١٢٣] .

وإجمال القول فيه : إن كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه ، بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه ، أو بالزنا بأمه ، أو بوأده ، أو بقتله ، أو غير ذلك ؛ فقد شارك إبليس فيه .

وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا . كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص . والوعد بالغنى من الأسباب الحرام والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل الملتوية والأساليب الخسيسة .

ولعل أشد الوعود إغراء : الوعد بالعفو ، والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ، وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب ، التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة ، فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة ، وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية ، وشمول العفو والمغفرة .

وذهب القاشاني إلى : أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان إلى أصناف ، فقال : تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام ؛ لأن الاستعدادات متفاوتة ، فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه . أي: استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولمة ، ومن كان قوي الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات الإنسانية ، أو أخلصه لله تعالى عن شوائب الغيرية ، فليس إلى إغوائه سبيل كما قال سبحانه : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ، وإلا فإن كان منغمسا في الشواغل الخسيسة غارزا رأسه في

الأمور الدنيوية ، شاركه فى أمواله وأولاده ، بأن يحرضه على إشراكهم بالله فى المحبة ، بحبهم كحب الله، ويسول له التمتع بهم ، والتكاثر والتفاخر بوجودهم ، ويمنيه الأمانى الكاذبة ، ويزين عليه الآمال الفارغة، وإن لم ينغمس ، فإن كان عالما بصيرا بحيله ؛ أجلب عليه بخيله ، ورجله ، أى : مكر به بأنواع الحيل ، وكاده بصنوف الفتن ، وأفتى له فى تحصيل أنواع الحطام ، والملاذ ، بأنها من جملة مصالح المعاش ، وغره بالعلم وحمله على الإعجاب ، وأمثال ذلك ؛ حتى يصير ممن أضله الله على علم ، وإن لم يكن عالما بل عابدا منكسا ، أغواه بالوعد والتمنية ، وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون (١٢٤) .

٦٥- إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً .

فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى ، التى لا انفصام لها . متى يقظ فى روحه النفخة العلوية ، فأشرقت وأنارت ؛ فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان . وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان .

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستذل عبيده، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمان ، فما له عليهم من سلطان.

ذلك ما يبيته الشيطان للناس من شر وأذى ، ثم يوجد فى الناس من يتبعون هذا الشيطان ويستمعون إليه ، ويعرضون عن نداء الله لهم وهدايته . والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم ، ويستجيب لهم فى مواقف الشدة والضيق ، ويرشدهم إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، والحذر من كيده وعداوته (١٢٥) .

★ ★ ★

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

يــــزجــــى : يسوق ويجرى .

الـــفـــلك : السفينة وهذا اللفظ يكون مفردا وجمعا .

لـتـبـتـغـوا : لتطلبوا .

مـن فضلـه : من رزقه .

الضر فى البحر : خوف الغرق .

ضـــــل : غاب عن ذكركم ، وضاع عن فكركم كل من تعبدونهم .

يـــخسـف : يقلب فيجعل عالى الأرض سافلها .

حـــاصـبـــا : ريحا حاصبة أى : ترمى بالحصباء وهى الحصا .

أن يعيدكم فيه تارة أخرى : أى : يقوى دواعيكم لركوب البحر مرة أخرى .

قــاصــفــا : يقصف بمعنى : يكسر كل ما مر به .

الــتـبـيـع : الناصر والمعين ، (حملته على فرس) : أى : أعطيته إياها ؛ ليركبها .

المعنى الإجمالى :

بعد أن ذكر فى الآية السابقة : أنه هو الحافظ الكالئ للعبد المؤمن من غواية إبليس ، قفى على ذلك بذكر بعض نعمه تعالى فى البر والبحر على الإنسان ؛ فهو الذى يجرى له الفلك فى البحر ؛ لتنقل له أرزاقه وأقواته من المسافات البعيدة ، لكنه مع هذا هو كفور للنعمة ، إذا مسه الضر دعا ربه ، وإذ أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان ، فهل يأمن أن يخسف به الأرض ، أو يرسل عليه حاصبا من الريح فى البر ، أو قاصفا من الريح فى البحر فيغرقه بكفره ، وهل نسى أنه فضله على جميع الخلق ، وبسط له الرزق ، أفلا يفرده بالعبادة ويخبت له كفاء تلك النعم المتتابعة عليه ؟

التفسير :

٦٦- ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ .

ربكم الذى يجرى لكم السفن فى البحر ؛ لتسهيل نقل أقواتكم وحاجاتكم ، من إقليم إلى آخر ، من أقصى المعمورة إلى أدناها ، ولتطلبوا الربح بالتجارة والحصول على ما ليس عندكم من محصولات الأمم، ولتنتقلوا من قطر إلى قطر ؛ ابتغاء الرزق أو السياحة ورؤية مظاهر الكون ؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ؛ حيث سهل لكم أسباب ذلك .

٦٧- وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا.

والسياق يعرض هذا المشهد ؛ مشهد الفلك فى البحر نموذجا للحظات الشدة والحرج ؛ لأن الشعور بقدرة الله فى الخضم أقوى وأشد حساسية ، حيث تصبح الفلك نقطة من الخشب أو المعدن تائهة فى الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات ، والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمان .

إنه مشهد يحس به من كابده ، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة ، المتعلقة بكل هزة وكل رجفة فى الفلك صغيرا كان أو كبيرا ، حتى عابرات المحيط الجبارة ، التى تبدو فى بعض اللحظات كالريشة فى مهب الرياح على ثبج الموج الجبار !

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية ، وهو يشعر الناس أن يد الله تزجى لهم الفلك فى البحر ليبتغوا من فضله.

ثم ينتقل بهم من الإزجاء الرقى للاضطراب العتى ، حين ينسى الركب فى الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة ، وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده فى لحظة الخطر ، لا يدعون أحدا سواه ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ .

وخلاصة ذلك : أنكم إذا مسكم الضر ؛ دعوتم الله منيبين إليه ، مخلصين له الدين .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدل لكثير من الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة فى مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوه ، والمعاد وغيرها [١٢٦] .

فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ – من الغرق – إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ . أى : من عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه وأغاثكم ، وأجاب دعاءكم ونجاكم من الهول ، أعرضتم وعدتم إلى ما كنتم عليه ، فنسيتم لحظة الشدة ، وتقاذفتكم الأهواء ، وجرفتكم الشهوات ، وجحدتم فضل الله عليكم وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا أى : وكانت سجية الإنسان وطبيعته ، أن ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

وخلاصة ما سلف : أنكم حين الشدائد تجأرون طالبين رحمته وحين الرخاء تعرضون عنه .

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين ، بتصوير الخطر الذى تركوه فى البحر وهو يلاحقهم فى البر ، أو وهم يعودون إليه فى البحر ؛ ليشعروا أن الأمن والفرار لايكونان إلا فى جوار الله وحماه ، لا فى البحر ولا فى البر ، لا فى الموجة الرخية والريح المواتية ، ولا فى الملجإ الحصين ، والمنزل المريح .

٦٨، ٦٩- أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا .

إن البشر فى قبضة الله فى كل لحظة وفى كل بقعة . إنهم فى قبضته فى البر كما هم فى قبضته فى البحر ، فكيف يأمنون ؟! كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟! أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلا يحميهم ويدفع عنهم ؟!

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحا قاصفة ، تقصف الصوار وتحطم السفن، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم ؛ فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم .

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا . ثم يأمنوا أخذه وكيده . وهم يتوجهون إليه وحده فى الشدة ثم ينسونه بعد النجاة . كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله ! [١٢٧] .

وقد كرم الله الإنسان على كثير من خلقه ؛ كرمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء فى ذلك الكيان .

وكرمه بالاستعدادات التى أودعها فطرته ، والتى استأهل بها الخلافة فى الأرض ، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض ، وإمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب والأفلاك .

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذى استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذى تسجد فيه الملائكة ، ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان !

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله فى كتابه المنزل من الملإ الأعلى الباقى فى الأرض ، وهو القرآن .

٧٠- وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً .

قال النيسابورى : وقد ذكر المفسرون فى تكريمه وجوها منها : تعلم الكتابة ؛ فبها يقدر الإنسان على إبدا ع العلوم التى استنبطها هو أو غيره فى الدفاتر ، فتبقى على وجه الدهر مصونة عن الاندراس ، محفوظة عن الانطماس : ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . (العلق : ٣ ، ٤) .

ومنها : الصورة الحسنة : وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، ومنها : القامة المعتدلة : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ومنها : أن كل شىء يأكل بفيه إلا ابن آدم .

يحكى عن الرشيد : أنه حضر إليه طعام فأحضرت الملاعق وعنده أبو يوسف ، فقال له : جاء فى تفسير جدك ابن عباس : أن هذا التكريم هو أنه جعل لهم أصابع يأكلون بها ؛ فرد الملاعق وأكل بأصابعه ، ومنها: ما قال الضحاك : أنه النطق والتمييز فإن الإنسان يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه بخلاف سائر الحيوانات، ويدخل الأخرس فى هذا الوصف لأنه يعرف بالإشارة أو الكتابة، ويخرج الببغاء ونحوه ؛ لأنه لا يقدر على تعريف جميع الأحوال على الكمال ، ومنها : تسليطهم على ما فى الأرض وتسخيره لهم فالأرض كالأم الحاضنة : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وهى لهم فرش ومهاد، والماء ينتفعون به فى الشرب والزراعة والعمارة، وماء البحر ينتفع به فى التجارة واستخراج الحلى منه ، والهواء مادة الحياة ولولا هبوب الرياح؛ لاستولى النتن على المعمورة ، والنار ينتفع بها فى الطبخ والانضاج ودفع البرد وغير ذلك ، وانتفاعهم بالمركبات المعدنية والحيوانية ظاهر ، وبالجملة فهذا العالم بأسره كقرية معمورة والإنسان فيه كالرئيس المخدوم والملك المطاع فأى تكريم يكون أزيد من هذا [١٢٨] .

وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ . والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة ، فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التى رزقها إلا حين يحرم منها ، فعندئذ يعرف قيمة ما يستمتع به ، ولكنه سرعان ما يعود فينسى.. هذه الشمس ، هذا الهواء ، هذا الماء ، هذه الصحة ، هذه القدرة على الحركة ، هذه الحواس ، هذا العقل، هذه المطاعم والمشارب والمشاهد ، هذا الكون الطويل العريض الذى استخلف فيه ، وفيه من الطيبات ما لا يحصيه .

وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . أى : فضلناهم على كثير من المخلوقات بالعقل والتفكير تفضيلا عظيما .

ومن التكريم : أن يكون الإنسان قيما على نفسه ، محتملا تبعة اتجاهه وعمله ، فهذه هى الصفة الأولى التى بها كان الإنسان إنسانا . وهى حرية الاتجاه وفردية التبعة ، وبها استخلف فى دار العمل ، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله فى دار الحساب [١٢٩] .

★ ★ ★

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات :

بإمامهم : بمن ائتموا به من بنى آدم فى الدين وقيل: بكتابهم أو دينهم، وقيل: بكتاب أعمالهم.

الفتيل : الخيط المستطيل فى شق النواة ، وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير التافه ، ومثله: النقير ، والقطمير.

أعمى : أى : أعمى البصيرة عن حجة الله وبيناته .

وإن كادوا ليفتنونك : إن مخففة من إن ، وكادوا أى : أوشكوا – ليفتنونك – أى : ليوقعونك فى بلية ؛ بصرفك عما أوحى اليك .

تركن : أى : تميل . يقال : ركن إليه يركن ، وركن إليه يركُن ركونا ، مال إليه .

ضعف الحياة وضعف الممات : أى : ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة

نصيرا : أى : معينا يدفع عنك العذاب.

ليستفزونك : أى : ليزعجونك بمعاداتهم

لا يلبثون خلافك : أى : لا يبقون بعدك

تحويلا : أى : تغييرات .

المعنى الاجمالى :

يوم ندعو كل قوم بإمامهم الذى يأتمون به من دين أو زعيم ، أو ندعو كل إنسان بكتاب أعماله ، فالسعداء يأخذون كتابهم بيمينهم والأشقياء الذين عموا عن طريق الهدى فى الدنيا ؛ يبعثون على حالتهم من العمى والضلال ، بل هم فى الآخرة أشد عمى ، وأبعد عن سبيل الخير .

وقد أوشك هؤلاء الكافرون أن يوقعوك ؛ لتنصرف عن الذى أوحينا إليك ؛ لتختلق علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا .

وقد شملك لطفنا ، فصرفناك عن الاستجابة لهم ، وثبتناك على الحق ، ولولا ذلك لأوشكت أن تميل إلى استجابتهم ؛ طمعا فى أن يكمل إيمانهم يوما إذا دخلوا فى أوائل الإسلام، ولو ركنت إليهم ؛ لجمعنا عليك ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا .

ولقد حاول كفار مكة وكادوا أن يزعجوك بعداوتهم ومكرهم ؛ ليخرجوك من مكة ، وإذا فعلوا فلا يلبثون بعدك إلا قليلا ثم يهلكهم الله ، لقد جرت سنتنا بأن الأمم التى تلجأ رسلها إلى الخروج من أرضها، لابد أن يصيبها الوبال والنكال .

التفسير :

٧١- يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً .

يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ . أى : بمن ائتموا به من نبى أو مقدم فى الدين ، أو كتاب أو دين ؛ فيقال: يا أتباع فلان ، يا أهل دين كذا وكتاب كذا ، وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، ويا أصحاب كتاب الشر !

ورجح ابن كثير – رحمه الله – القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال ؛ لقوله تعالى : وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ . (يس : ١٢) .

وقال سبحانه : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية : ٢٨، ٢٩) .

وما رجحه ابن كثير هو الصواب ؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وأول ما ينبغي الاهتمام به فى معانى الآيات هو الرجوع إلى نظائرها .

فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ . أى : فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً أى : ولا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم، ولو قدر الفتيل ، وهو ما فى شق النواة ، أو ما تفتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شىء ، فإن الفتيل مثل فى القلة كقوله تعالى :

وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا . (مريم : ٦٠) .

وقد ثبت فى علم الكمياء أن وزن الذرات التى تدخل فى كل جسم بنسب معينة ، فلو أن ذرة واحد فى عنصر من العناصر الداخلة فى تركيب أى جسم من النبات أو الحيوان أو الجماد ، نقصت عن النسبة المقدرة لتكوينه ؛ لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا فى نظم الطبيعة ، فما أجل قدرة الله وما أعظم حكمته فى خلقه ! [١٣٠].

٧٢- ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

أى : ومن كان فى دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد ، ولا يتأمل حجج الله وبيناته التى وضعها فى صحيفة الكون وأمر بالتأمل فيها ؛ فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة وأضل سبيلا منه فى الدنيا ؛ لأن الروح الباقى بعد الموت هو الروح الذى كان فى هذه الحياة الدنيا وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبى ، وكما يثمر النخل الثمرة ، والأشجار والفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقى هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينفر أو ينشرح بحسب ما يرى ، وما الثمر إلا بحسب الشجر ، فإذا كان هناك ساهيا لاهيا ، فهناك يكون أكثر سهوا ولهوا ، وأبعد مدى فى الضلال ؛ لأن آلات العلم والعمل قد عطلت وبقى فيه مناقبه ومثالبه ولا قدرة على الزيادة فى الأولى ولا النقص فى الثانية .

وفى ظلال القرآن :

هذا مشهد يصور الخلائق محشورة وكل جماعة تنادى بعنوانها ، باسم المنهج الذى اتبعته ، أو الرسول الذى اقتدت به أو الإمام الذى ائتمت به فى الحياة الدنيا ، تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها فى الدار الآخرة ، فمن أوتى كتابه بيمينه ؛ فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقض منه شيئا ولو قدر الخيط الذى يتوسط النواة ، ومن عمى فى الدنيا عن دلائل الهدى ؛ فهو فى الآخرة أعمى عن طريق الخير وأشد ضلالا ، وجزاؤه معروف ، ولكن السياق يرسمه فى المشهد المزدحم الهائل ، أعمى ضالا يتخبط، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدى به ، ويدعه كذلك لا يقرر فى شأنه أمرا ؛ لأن مشهد العمى والضلال ؛ فى ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ، يؤثر فى القلوب ! [١٣١].

٧٣، ٧٤- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ .

إخبار عن تأييده تعالى رسوله ، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته ، وتولى أمره وحفظه. فإن المشركين ، لكثرة تفننهم فى ضروب الأذى ، وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم ، كادوا أن يفتنوه ، ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذى ثبت قدمه فى مثل مقامه ، فى الدعوة إلى الله الذى لا يثبت فيه أحد غيره .

وقد روى : أن ثقيفا قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب ، لا ننحنى فى الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتِّعنا باللات سنة من غير أن نعبدها ، فإن خشيت أن يقول العرب : لم أعطيتهم ما لم تعطنا ؟ فقل : الله أمرنى بذلك .

وروى : أن قريشا قالوا : لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا . وقالوا أيضا : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبرى :

يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر وأن تكون غير ذلك ، ولا بيان فى الكتاب ولا فى خبر يقطع العذر أى ذلك كان . فالأصوب الإيمان بظاهره ؛ حتى يأتى ما يجب التسليم له ببيان ما عنى بذلك منه .

وفى ظلال القرآن :

يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول ﷺ وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه ؛ ليفترى عليه غيره وهو الصادق الأمين .

لقد حاولوا هذه المحاوله فى صور شتى .. منها : مساومتهم له أن يعبدوا إلهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم .. ومنها : طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء ..

والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ؛ ليذكر فضل الله على الرسول فى تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته ؛ لركن إليهم فاتخذوه خليلا [١٣٢] .

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً .

أى : ولولا تثبيتنا إياك وعصمتك عما دعوك إليه لقاربت أن تميل إلى ما يريدون .

وخلاصة ذلك : أنك كنت على أهبة الركون إليهم ، لا لضعف منك ، بل لشدة مبالغتهم فى التحيل والخداع ، ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقرب من الركون ، فضلا عن أن تركن إليهم .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ : «اللهم ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين» .

٧٥ - إِذاً لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا .

أى : ولو ركنت إلى فتنة المشركين ؛ لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، أى : ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة (والضّعف) عبارة عن أن يضم إلى الشىء مثله والسبب فى تضعيف العذاب أن الذنب من العظيم يكون عقابة أعظم ، ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم من عقاب العامة ؛ لأن الناس تتبع العلماء وتقتدى بهم ، ومن ثم قال القائل :

يا معشر العلماء يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد

وقد جاء فى الأثر : «من سن سنة سيئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» .

ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا .

يعنى : لو أذقناك العذاب لم تجد أحدا يدفعه عنك أو يخلصك منه .

تنبيهات :

الأول : قال النيسابورى : اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها فلا يلزم من الآية طعن فى عصمة النبى ﷺ ، وفيه أنه لا عصمة من المعاصى إلا بتوفيق الله وتثبيته على الحق [١٣٣] .

الثانى : قال فى التفسير الكبير : حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون إليه همك ؛ لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثل عذاب المشرك فى الدنيا ومثل عذابه فى الآخرة [١٣٤] .

الثالث : قال القفال : من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون : إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك ؛ فأنزل الله تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . (الكافرون : ١ ، ٢) . وقوله : وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . (القلم : ٩) . وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ؛ ليترك ادعاء النبوة فأنزل الله تعالى : وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . (طه : ١٣١) .

ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله : وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ... (الأنعام : ٥٢) [١٣٥].

فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب ، وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم ، وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة فى تفسير الآيات ، إلى شىء من تلك الروايات . والله أعلم [١٣٦]

٧٦ – وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً .

أى : ولقد حاول كفار مكة أن يزعجوك ويستخفوك بعداوتهم ومكرهم ، فعندما عجز المشركون عن استدراج الرسول ﷺ إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازه ؛ ليخرجوه من أرض مكة – ولكن الله أوحى إليه : أن يخرج مهاجرا ؛ لما سبق فى علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة .

ولو أخرجوا الرسول ﷺ عنوة وقسرا ؛ لحل بهم الهلاك ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال الطبرى : ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا حتى أهلكهم بعذاب عاجل [١٣٧] .

قال الطبرى : واختلف أهل التأويل فى الذين كادوا أن يستفزوا رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوه من الأرض ، وفى الأرض التى أرادوا أن يخرجوه منها فقال بعضهم : الذين كادوا أن يستفزوا رسول الله ﷺ من ذلك اليهود ، والأرض التى أرادوا أن يخرجوه منها : المدينة [١٣٨].

وقال النيسابورى :

وروى عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم ، وقالوا : يا أبا القاسم ، إن الأنبياء بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة ، وكانت مهاجر إبراهيم فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك ، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم فإن كنت رسول الله علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم ، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة أو بذى الحليفة ؛ حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج إلى الشام ؛ لحرصه على دخول الناس فى دين الله فنزلت الآية فرجع ، وعلى هذا القول تكون هذه الآية مدنية [١٣٩] .

وقال قتادة ومجاهد : بل كان القوم الذين فعلوا ذلك قريشا ، والأرض أرض مكة ، وعلى هذا تكون هذه الآية مكية » [١٤٠] .

ونحن نرجح أن الآية مكية ، ونرى أن الرواية التى أوردها النيسابورى عن ابن عباس تثير فى النفس بعض التساؤل ؟

فكيف يعسكر الرسول على أميال من المدينة عازما على الخروج إلى الشام ؟

وهل بلغت به السذاجة أن يترك قاعدة الإسلام فى المدينة ويذهب مختارا إلى الشام من أجل كيد اليهود وحيلهم ؟

ونحن لا ننكر قدرة اليهود على الدس والخداع .

ولا نستبعد أن يميل النبى إلى حديثهم برهة أو لحظة ، ثم لا يلبث أن ينكشف أمامه الأمر .

أما أن يصل الأمر إلى حد الخروج من المدينة والعزم على السفر إلى الشام فهذا ما نستبعده ؛ لما عرف واشتهر من صدق فراسة الرسول ، وبعد نظره ورجاحة عقله وسلامة تفكيره .

وقد رجح الطبرى – شيخ المفسرين – أن الآية مكية لا مدنية ، فبعد أن روى الطبرى عدة روايات منها ما يفيد أن الآية مكية ، ومنها ما يفيد أن الآية مدنية عقب على هذه الروايات بقوله :

وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب قول قتادة ومجاهد (أى : بأن الآية مكية) وذلك أن قوله وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ فى سياق خبر الله عز وجل عن قريش وذكره إياهم ولم يجر لليهود قبل ذلك ذكر فيوجه قوله : وَإِن كَادُواْ إلى أنه خبر عنهم ، فهو بأن يكون خبرا عمن جرى له ذكر أولى من غيره [١٤١] .

ثم إن تاريخ الدعوة الإسلامية ، ونصوص القرآن الكريم تفيد : أن المسلمين كانوا مستضعفين فى مكة ، معرضين للعذاب والمصادرة .

وهذا الوضع يغرى الرسول بالخروج والمهاجرة ، أما وضعهم فى المدينة فقد كان مستقرا نسبيا ؛ إذ آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ووضع أساس الدولة الجديدة ، وقاد غزوات ناجحة ، وعقد معاهدات لحسن الجوار مع جيرانه من اليهود .

كل هذا يرجح أن القوم الذين هموا بإخراجه هم قريش وأن الأرض التى كاد أن يخرج منها هى مكة .

وفى سورة الأنفال (وهى مدنية نزلت سنة ٢ هجرية) يقول القرآن : وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (الأنفال : ٢٦) .

وقد قال المفسرون : إن هذه الآية تشير إلى ضعف المسلمين وقلتهم فى مكة ، وإلى عزتهم وقوتهم بالمدينة . خصوصا بعد النصر المبين الذى أحرزوه فى غزوة بدر الكبرى .

٧٧ - سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً .

يقول سبحانه : لو أخرجوك لم يلبثوا خلافك إلا قليلا ولأهلكناهم بعذاب من عندنا . هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم وكذبوهم ، فكل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ؛ سنة الله أن يهلكهم .

وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً أى : إن ما أجرى به العادة لا يتسنى لأحد سواه أن يغيره ولا أن يحوله .

وقد ذكر الطبرى أن الله أمهل أهل مكة قليلا حتى أخذهم بالعذاب يوم بدر [١٤٢] .

وقال ابن كثير :

وقد وقع العذاب لأهل مكة ، فانه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم ، وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم ، وسبى سراتهم ولهذا قال تعالى : سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا أى : هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم ، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب ، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ؛ لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به ، كما قال تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ... (الأنفال : ٣٣) .

★ ★ ★

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات :

دلوك الشمس : زوالها عن دائرة نصف النهار، وقيل: لغروبها، يقال: دلكت الشمس تدلك دلوكا، أي : زالت ساعة الزوال .

إلى غسق الليل : أي : إلى ظلمته ، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة .

وقرآن الفجر : أي : وقت صلاة الصبح ، سميت الصلاة قرآنا ؛ لأنه ركنها .

كان مشهودا : أي : تشهده الملائكة .

فتهجد به : أي : فاترك الهجود فيه لتصلى ، كالتحنث : ترك الحنث ، والتأثم ترك الإثم .

مقاما محمودا : مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة .

أدخلنى مدخل صدق : أي : أدخلنى فى القبر إدخالا مرضيا . مدخل اسم المكان من أدخل .

وأخرجنى مخرج صدق : أي : وأخرجنى منه عند البعث اخراجا محفوفا بالكرامة ، وقيل : المراد : إدخاله المدينة وإخراجه من مكة وقيل : إدخاله مكة ظافرا وإخراجه منها آمنا شر المشركين وقيل : إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة ، وإخراجه منها مؤديا حقها وقيل : إدخاله فى كل ما يلابسه من مكان وأمر ، وإخراجه منه .

سلطانا نصيرا : أي : برهانا ناصرا على الخصوم .

زهق : أي : زال واضمحل . من زهق روحه يزهق ؛ إذا خرج .

ونأى بجانبه : أي : لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره .

شاكلته : أي : مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال ،

يئوسا : أي : شديد اليأس والقنوط من رحمة الله .

أهدى سبيلا : أي : أسد طريقا ، وأقوم منهجا .

المعنى الإجمالي :

بعد أن ذكر كيد الكفار واستفزازهم لرسوله ﷺ ؛ ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به ؛ أمره بالإقبال على ربه بعبادته ؛ لينصره عليهم ، ولا يبالي بسعيهم ولا يلتفت إليهم ، فإنه سبحانه يدفع مكرهم وشرهم ، ويجعل يده فوق أيديهم ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود ، ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه ، فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ؛ لأنه كلما نزلت عليه آية ؛ ازدادوا بها كفرا وعتوا .

التفسير :

٧٨ - أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا .

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ... دلوك الشمس معناه : زوالها عن كبد السماء ، وقيل : دلوك الشمس هو : غروبها .

قال ابن تيمية : الدلوك : الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب .

وقال ابن جرير الطبري : اختلف أهل التأويل في الوقت الذي عناه الله بدلوك الشمس ، فقال بعضهم هو وقت غروبها والصلاة التي أمر بإقامتها حينئذ : صلاة المغرب .

وقال آخرون : دلوك الشمس : ميلها للزوال ، والصلاة التي أمر رسول الله ﷺ بإقامتها عند دلوكها الظهر.

وقد نقل الطبري في تفسيره أدلة كل فريق ، ثم قال :

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عنى بقوله : أقم الصلاة لدلوك الشمس صلاة الظهر وذلك أن الدلوك في كلام العرب : الميل يقال منه : دلك فلان إلى كذا إذا مال إليه [١٤٢] .

إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ، غسق الليل هو إقباله ودنوه بظلامه كما قال الشاعر : آب هذا الليل إذ غسقا .

وتكون الصلاة التي أمر ﷺ بإقامتها هي صلاة المغرب وقال بعضهم : إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ : صلاة العصر. وهو رأي ضعيف مردود .

قال الطبرى فى تفسيره :

وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال : الصلاة التى أمر النبى ﷺ بإقامتها عند غسق الليل هى صلاة المغرب دون غيرها ؛ لأن غسق الليل هو ما وصفناه من إقبال الليل وظلامه وذلك لا يكون إلا بعد مغيب الشمس ، فأما صلاة العصر فإنها مما تقام من ابتداء دلوك الشمس إلى غسق الليل لا عند غسق الليل .

وَقُرْءَانَ [١٤٤] ٱلْفَجْرِ أى : صلاة الصبح سميت : قرآنا ؛ لأنه ركنا ، كما سميت : ركوعا وسجودا فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهم .

إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا أى : يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء ، فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار ، أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة أو من حقه أن يكون مشهودا بالجماعة الكثيرة أو يشاهد الإنسان فيه عجائب صنع الله فى إدبار الليل وإقبال النهار ، وانتشار الضوء ودبيب الحركة والحياة .

وجاء فى تفسير النيسابورى :

قال أهل التحقيق : إذا شرع فى الصلاة الصبح فى أول وقتها شاهد فى أثنائها انقلاب العالم من الظلمة التى هى نظير الموت إلى الضياء الذى هو نظير الحياة فإنه يفىء عقله من هذه الحالة إلى عجيب صنع المدبر للأنفس والآفاق فيزداد بصيرة وإيقانا ومعرفة وإيمانا وتنفتح عليه أبواب المكاشفة والمشاهدة .

وإذا كان هذا المعنى فى الجماعات الكثيرة ؛ صارت نفوسهم كالمرايا المشرقة المتقابلة المتعاكسة أضواؤها الواقعة على كل منها فيزداد كل منهم نورا وبهاء فيتحمل أن يكون قوله : مَشْهُودًا إشارة إلى هذه الأحوال والمشاهدة ، ولا ريب أنه إذا شرع فى الصلاة أول انتباهه من النوم ، قبل أن يرد على لوح عقله وفكره النقوش الفاسدة ، من الأمور الدنيوية الدنية كان أولى ؛ فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لإزالة مثل هذه الأمراض عن النفوس [١٤٥] .

تنبيهات :

١ - معنى إقامة الصلاة : أداؤها كاملة الأركان ، مع حضور القلب فى مناجاة الرب ، والخشية منه فى السر والعلن ، وفى حديث البخارى : «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [١٤٦] .

والصلاة لب العبادة ؛ لما فيها من مناجاة الخالق ، والتبتل إليه والقيام والركوع والسجود بين يديه، فهى راحة المؤمن وقرة عينه كما ورد فى الحديث : «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» [١٤٧] .

٢ – قال النسفى : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ . أى : لزوالها وعلى هذا فالآية جامعة للصلوات الخمس، أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر . ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ هو الظلمة وهو وقت صلاة العشاء [١٤٨] .

٣ – قال النيسابورى : ذهب كثير من المفسرين كابن قتيبة ، وسعيد بن جبير منقولا عن ابن عباس أن دلوك الشمس هو: غروبها وعلى هذا لا تشمل الآية صلاتى الظهر والعصر .

وأكثر الصحابة والتابعين على أن دلوك الشمس : زوالها عن كبد السماء ويؤيده ما روى أنه ﷺ قال: أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بى الظهر، قالوا: واشتقاقه من الدلك؛ لأن الإنسان يدلك عينيه؛ إذ ينظر إليها وهى فى كبد السماء وحمل كلام الله على ما هو أكثر فائدة أولى واللام بمعنى: الوقت أو للتعليل أى : أقم الصلاة فى هذا الوقت أو لأجل دخول هذا الوقت [١٤٩] .

٤ – يرجح بعض المفسرين أن الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها ، فدلوك الشمس بمعنى : زوالها عن كبد السماء يتناول الظهر والعصر تناولا واحدا وغسق الليل بمعنى : إقباله يتناول المغرب والعشاء تناولا واحدا ، وقرآن الفجر يشير إلى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر وهى صلاة الصبح .

قيل : هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركا بين الظهر والعصر . والغسق مشتركا بين المغرب والعشاء. فيدل على جواز الجمع مطلقا بين الأولين ، وكذا بين الأخيرين . فالجواب : هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها . وأما فى غيرها فلا. وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها ، إلا بعذر [١٥٠].

قال الحافظ ابن كثير :

قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله ، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف وقرنا بعد قرن كما هو مقرر فى مواضعه .

وعن ابن سيرين : أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة ما لم يتخذ عادة واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر .

وقد روى الشيخان [١٥١] وغيرهما عن ابن عباس قال : صلى النبى ﷺ بالمدينة سبعا وثمانيا : الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعا ، والمغرب والعشاء جميعا من غير خوف ولا سفر ، وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والظاهر أن مستند من جوز الجمع فى الحضر مطلقا هذه الآية مع أثر ابن عباس [١٥٢] المتقدم .

٥ - رجح صاحب الظلال : أن كل ما ورد فى هذه الآية وما بعدها مختص بالرسول ﷺ - وأن أوقات الصلاة المكتوبة ثابتة بالسنة القولية والعملية . وأن هذه الآية لا تشير إلى أوقات الصلاة [١٥٣] .

ونرى أن هذه الآية تشير إلى أوقات الصلاة بصفة عامة وأن الخطاب فيها للرسول ﷺ يتناول أمته أيضا.

أما تحديد الأوقات تحديدا قاطعا يتناول بدايتها ونهايتها فقد تكفلت به السنة العملية والقولية .

أما الأمر بالتهجد فى الآية القادمة فهو خاص بالرسول ﷺ .

ولذلك قال القرآن : نَافِلَةً لَّكَ يقول : نفلا لك عن فرائضك التى فرضتها عليك ، فقد كان قيام الليل فريضة عليه ﷺ وهو لغيره تطوع [١٥٤] .

٧٩- وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا .

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ أى : واسهر بعض الليل وتهجد [١٥٥] به وهو أول أمر له ﷺ بقيام الليل زيادة على الصلوات المفروضة .

نَافِلَةً لَّكَ أى : أنها عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس مخصوصة بك وحدك دون الأمة ، فهى فريضة عليك ومندوبة فى حق أمتك .

عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . أى : افعل هذا الذى أمرتك به ؛ لنقيمك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى .

قال الطبرى :

وعسى من الله واجبة وإنما وجه قول أهل العلم عسى من الله واجبة أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه [١٥٦] .

مَقَامًا مَّحْمُودًا . أى : يحمده القائم فيه وكل من رآه عرفه ، وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى ؛ للفصل بين الخلائق الذى يحمده فيه الأولون والآخرون ، كما وردت به الأخبار الصحيحة [١٥٧] .

قال النيسابورى :

والأولى أن يخص ذلك المقام المحمود بالشفاعة ؛ لأن الحمد إنما يكون بإزاء إنعام، ولا إنعام للنبى على أمته فى الآخرة إلا إنعام الشفاعة ، أو لا إنعام أجل منها ؛ لأن السعى فى تخليص الغير من العقاب أهم من السعى فى إيصال الثواب ، ويؤيده رواية أبى هريرة عن النبى ﷺ : «وهو المقام الذى أشفع فيه لأمتى» [١٥٨] .

وقال الطبرى :

«اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك المقام المحمود ، فقال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذى يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة فى ذلك اليوم»[١٥٩] .

أخرج النسائى والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال : يجمع الله الناس فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادى : يا محمد ، فيقول : «لبيك وسعديك . والخير فى يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت» فهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله .

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة : أن الزحام إذا اشتد يوم القيامة ، ألهم الناس أن الشفاعة للأنبياء، فيذهب الناس إليهم ، فيقول كل نبى : نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى ، حتى يذهبوا إلى النبى ﷺ فيستشفعون به عند الله تعالى ؛ ليريحهم من هول الموقف ، فيقول الرسول : أنا لها أنا لها ! ثم يذهب تحت ساق العرش فيسجد ، ثم يلهمه الله تعالى من الثناء عليه والحمد له ما هو له أهل ، ثم يقول له الله عز وجل: ارفع ، واشفع تشفع . وسل تعط ، فذاك هو المقام المحمود الذى قال له الله : [١٦٠] عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء : [١٦١] «اللهم ، رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ؛ حلت لى شفاعتى» [١٦٢]

٨٠- وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا .

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ . أى : مدخلا حسنا مرضيا بلا آفة وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ . أى : مخرجا مرضيا من غير آفة الميل إلى النفس ولا الضلال بعد الهدى .

وخلاصة ذلك : أدخلنى إدخالا مرضيا كإدخالى للمدينة مهاجرا وإدخالى مكة فاتحا ، وإدخالى فى القبر حين الموت ، وأخرجنى إخراجا محفوفا بالكرامة والرضا ، كإخراجى من مكة مهاجرا وإخراجى من القبر للبعث .

قال النيسابورى :

والأولى أن يقال : إنه عام فى كل ما يدخل فيه ويلابسه ثم يتركه من أمر ومكان ، وقيل : أراد : إدخاله مكة ظاهرا عليها بالفتح وإخراجه منها آمنا من المشركين ، وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه سالما ، وقيل:

إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوة وإخراجه منه مؤديا لما كلفه من غير تفريط وقيل : أراد : رب، أدخلنى الصلاة وأخرجنى منها مع الصدق والإخلاص وحضور القلب ، أو أدخلنى فى مجارى دلائل التوحيد وأخرجنى من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفة المدلول [١٦٣] .

وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا . أى : حجة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى ، أو ملكا وعزا ناصرا للإسلام وذويه .

وهذا دعاء يعلمه الله لنبيه ؛ ليدعوه ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وفيم تتجه إليه دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج ، كناية عن صدق الرحلة كلها ، بدئها وختامها ، أولها وآخرها وما بين الأول والآخر [١٦٤] .

٨١- وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا .

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ . أى : الإسلام وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ أى : اضمحل الشر من زهقت ؛ نفسه إذا خرجت .

أمره الله أن يقول ذلك : استبشارًا ؛ بقرب الظفر والنصر وترهيبا للمشركين !

إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا . أى : مضمحلا غير ثابت فى كل وقت .

تلك حقيقة لدنية يقررها القرآن بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة ، فالباطل ينتفخ وينفش ؛ لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة ، ومن ثم يحاول أن يموه على العين ، وأن يبدو عظيما كبيرا ضخما راسخا ، ولكنه هش سريع العطب ، كشعلة الهشيم ، ترتفع فى الفضاء عاليا ثم تخبو سريعا وتستحيل إلى رماد ، بينما الجمرة الذاكية تدفئ وتنفع وتبقى ، وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء .

إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ، ومن ورائه الشيطان ومن ورائه السلطان . ولكن وعد الله أصدق وسلطان الله أقوى وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلاوة الوعد ، وصدق العهد ، ومن أوفى بعهده من الله؟! ومن أصدق من الله حديثا ؟! [١٦٥] .

تنبيه :

قال القاسمى :

سياق هذه الآيات مع ما سبقها أعنى : قوله تعالى : وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ يدل على أن نزولها فى أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة وأنه تعالى أمر نبيه بأن يبتهل إليه فى تيسير هجرته وإخراجه من بلده ، وأن يجعل له حماية من لدنه تعز جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء هو إرادة الخبر بحصول المدعو، ومشيئة الله بوقوعه عن قرب. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾؛ إعلاما بأن الأمر قد تم، والفرج جاء ودحر الباطل ورجع إلى أصله، وهو العدم (١٦٦).

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» (١٦٧) وفى رواية للطبرانى والبيهقى عن ابن عباس: أنه ﷺ جاء ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم فيها فيخر لوجهه فيقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» حتى مر عليها كلها.

قال فى الإكليل: فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر.

٨٢- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الفخر الرازى: ولفظه مِنَ هنا ليست للتبعيض بل هى للجنس، كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾.

والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء، فجميع القرآن شفاء للمؤمنين (١٦٨).

واختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على قولين:

الأول: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه.

الثانى: أنه شفاء من الأمراض الظاهرة، بالرقى والتعوذ ونحو ذلك، والتبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأدواء والأسقام، يدل عليه ما روى عن النبى ﷺ أنه قال فى فاتحة الكتاب: «وما يدريك أنها رقية؟!» (١٦٩).

ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز أو من باب حمل المشترك على معنييه (١٧٠).

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن كثير:

أى: يذهب أمراض القلوب، من شك، ونفاق، وشرك، وزيغ، وميل، فالقرآن يشفى من ذلك كله، وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان، والحكمة، وطلب الخير، والرغبة فيه (١٧١).

وقال القنوجي :

رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ؛ لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا والدين، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم ، الذي يكون سببا لرحمة الله سبحانه ، ومغفرته ورضوانه (١٧٢) .

وقال الطبري :

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله ، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ، فيدخلهم بذلك الجنة وينجيهم من عذابه ، فهو لهم رحمة ونعمة من الله أنعم بها عليهم.

وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ؛ لأن البدن غير النقي كلما غذوته ؛ زدته شرا ، فلا يزال سماع القرآن يزيد المشركين غيظا وحنقا ، ويدعوهم ذلك إلى ارتكاب الأعمال القبيحة (١٧٣) .

فالظالمون قد ظلموا أنفسهم ، وأعرضوا عن الهدى ، وكلما سمعوا القرآن ؛ ازدادوا بغيا وعنادا وكبرا قال تعالى : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

وجزاء عنادهم وبغيهم ، طبع الله على قلوبهم ، وهم في الدنيا محرومون من هدى القرآن ، فهم خاسرون . وفي الآخرة معذبون بكفرهم ولجاجهم في الطغيان ، فهم خاسرون .

قال تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ . (فصلت : ٤٤) .

وقال سبحانه : وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ . (التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥).

قال قتادة : في قوله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ إذا سمعه المؤمن ؛ انتفع به وحفظه ووعاه وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . أي : لا ينتفعون به ، ولا يحفظونه ولا يعونه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين . ا هـ .

تنبيـه :

١ – في تفسير الفخر الرازي تفصيل مسهب لهذه الآية خلاصته : أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية وشفاء أيضا من الأمراض الجسمانية .

٢ – قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة التي جاءت على لسانه ﷺ في حرف القاف (قرآن) : قال الله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن مِنَ

هـهنا لبيان الجنس، لا للتبعيض، وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ؛ فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة ، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به ، وإذا أحسن العليل التداوى به ووضعه على دائه ، بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه ؛ لم يقاومه الداء أبدا . وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء ، الذى لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها ؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان ، إلا وفى القرآن سبيل للدلالة على دوائه ، وسببه والحمية منه ، لمن رزقه الله فهما فى كتابه .. وقد علم أن الأرواح متى قويت ، وقويت النفس والطبيعة ؛ تعاونا على دفع الداء وقهره .

وقد أسهب ابن القيم أيضًا فى كتاب (إغاثة اللهفان) فى بيان تضمن القرآن لأدوية القلب ، وعلاجه من جميع أمراضه .

٨٣- وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ أى : وإذا أنعمنا على الإنسان بمال وعافية ، وفتح ونصر وفعل ما يريد أعرض عن طاعتنا وبعد عن طريقنا .

والنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر [١٧٤].وفسر الطبرى النعمة هنا: بالنجاة من الشدة .

يقول تعالى ذكره : «وإذا أنعمنا على الإنسان فنجيناه من كرب ما هو فيه فى البحر ، وهو ما قد أشرف فيه عليه من الهلاك ، بعصوف فى الريح عليه ، إلى البر وغير ذلك من نعمنا ، أعرض عن ذكرنا ، وقد كان بنا مستغيثا دون كل أحد سوانا فى حال الشدة التى كان فيها - ونأى بجانبه - يقول ويعد منا بجانبه يعنى : بنفسه ، كأن لم يدعنا إلى ضر مسه قبل ذلك» [١٧٥] .

قال تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... (يونس : ٢٢ ، ٢٣) .

وقال سبحانه : فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ... (يونس : ١٢) .

وقال سبحانه : فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ... (الإسراء : ٦٧) .

وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا . أى : وإذا أصابته الجوائح وانتابته النوائب ؛ كان يئوسا قنوطا من حصول الخير بعد ذلك .

قال النيسابورى :

وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ من مرض أو فقر كَانَ يَـُٔوسًا شديد اليأس من روح الله والحاصل أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوى ، وظفر بالمقصود الدنى ، نسى المنعم الحقيقى . وإن فاته شىء من ذلك ، استولى عليه الأسف حتى كاد يتلف أو يدنف ، وكلتا الخصلتين مذمومة ، ولا مقتضى لهما إلا العجز والطيش وكل بقدر[١٧٦] ونحو الآية قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ . (هود : ٩).

٨٤- قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً .

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ أى : قل : إن كلا من الشاكر والكافر يعمل على طريقته ، وحاله فى الهدى والضلال ، وما طبع عليه من الخير والشر ، من قولهم : (طريق ذو شواكل) ، وهى الطرق التى تتشعب منه؛ لتشاكلها ، أى : تشابهها فى الشكل ، فسميت عادة المرء بها ؛ لأنها تشاكل حاله .

فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً . أى : فربكم أعلم من كل واحد ، بمن منكم أوضح طريقا ، واتباعا للحق، فيؤتيه أجره موفورا ، ومن هو أضل سبيلا فيعاقبه بما يستحق ؛ لأنه يعلم ما طبع عليه الناس فى أصل الخلقة ، وما استعدوا له ، وغيره يعلم أمورهم بالتجربة وفى هذه الآية تهديد خفى بعاقبة العمل والاتجاه ؛ ليأخذ الإنسان حذره ، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى ويجد طريقه إلى الله .



﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾

تمهيد :

فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء :

الأول : القرآن ، وقد سمى القرآن روحا ؛ لأنه أحيا الأمة الإسلامية وبعث فيها العزة والكرامة ، وجمعها على المودة والألفة ، وأمدها بمقومات البقاء والنصر ، قال تعالى :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... (الشورى : ٥٢) .

وقال سبحانه : يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ... (النحل : ٢) .

الثانى : جبريل عليه السلام ، وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل بالروح فى مواضع عدة من القرآن كقوله تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ ... (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وقال سبحانه : فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ... (مريم : ١٧) . وهو روح القدس .

قال تعالى : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ... (النحل : ١٠٢) .

الثالث : الروح التى يحيا بها بدن الإنسان – وهذا هو قول الجمهور – ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر ، فعرفت أنه يوحى إليه ثم قال : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

التفسير :

٨٥– وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ الذى به البدن ، أقديم هو أم حادث ؟

قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى . الأمر واحد الأمور أى : الروح شأن من شئونه تعالى ، حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة ، وقد استأثر بعلمه ، لا يعلمه إلا هو ؛ لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم، ولا تعلمون من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للذوق ، والمشمومات للشم ، والحرارة والبرودة للمس ، فلا يتسنى لكم إدراك ما هو غير مادى كالروح .

وللعلماء فى حقيقة الروح أقوال كثيرة ، أولاها الاعتبار قولان :

١ – إن الروح جسد نورانى ، حى متحرك من العالم العلوى ، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء فى الورد ، والذهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، لا يقبل التبدل والتفرق والتمزق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ، ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، والأحدث الموت ، واختار هذا الرأى الرازى ، وابن القيم فى كتاب الروح .

٢ – إنه ليس بجسم ولا جسمانى ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالى ، والراغب الأصفهانى .

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً . هو علم المحسوسات ، فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس، وذلك شىء نزر قليل بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين فى العلم ، وقد روى الطبرى : أن هذه الآية نزلت بمكة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا: يا محمد: ألم يبلغنا أنك تقول: وما أوتينا من العلم إلا قليلا أفعنيتنا أم قومك قال : «كلا قد عنيت» ، قالوا : فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شىء ، فقال رسول الله ﷺ : «هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به انتفعتم» فأنزل الله : وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (لقمان : ٢٧).

وأورد الطبرى رواية أخرى ، تفيد : أن هذه الآية نزلت بالمدينة ، حين سأله اليهود عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، فأنزل الله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً – يعنى : اليهود ، والراجح أن هذه الآية مدنية لا مكية ، وأن السؤال فيها جاء من اليهود .

وقد ذهب فريق إلى أن المخاطب بهذه الآية هم اليهود دون غيرهم .

وهناك من يرى أن الخطاب موجه إلى الرسول ﷺ وإلى الناس أجمعين قال الطبرى : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : خرج الكلام خطابا لمن خوطب به ، والمراد : جميع الخلق ؛ لأن علم كل أحد سوى الله وأن كثر فى علم الله قليل ، وإنما معنى الكلام : وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلا من كثير مما يعلم الله [١٧٧] .

ملاحظات :

١ – مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن ، وتنعم وتعذب ، ليست هى البدن ، ولا جزءا من أجزائه .

٢ – قال أبو المعالى : إن الروح أجسام لطيفه ، مشابكة للأجسام المحسوسة ، أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها ، فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة [١٧٨] .

٣ – كتب بعض المنقبين عن مباحث العصرين فى الروح فقال :

إن نظرية الروحيين التى يستدلون عليها فى أوربا بالحس فى هذه الأيام ، هى أن للإنسان روحا هبطت عليه من الملإ الأعلى . لا يصل العقل إلى إدراك كنهها ، وأنها متصلة بهذا الجسد الطينى ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماما . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوما بقوانينه ، وأنه كغلاف للسر

الإلهي المسمى : روحا . ولعل في هذا ما يشبه قول الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه عن الروح : (هي صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص ، إلى عالم غير هذا العالم ، ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة ، ولكنا لا نراها بأعيننا ؛ لعدم استعداد أعيننا لذلك ، كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونتجن) مع أنها موجودة كما تدل عليه الآلة التي صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وأفادت العلم الطبيعي فائدة كبرى. ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص . به يرون الأرواح رائحة غادية وعن أيمانهم وعن شمائلهم رؤية حقيقية [١٧٩] .

★ ★ ★

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

وكيلا : أي : ملتزما استرداده بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه .

ظهيرا : أي : معينا في تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله .

صرفنا : كررنا ورددنا بوجوه مختلفة .

كفورا : جحودا . وهو من مصادر كفر .

المعنى الإجمالي :

لو شاء الله لأذهب القرآن من الصدور والسطور ، ومحاه من صدر الرسول ؛ ولكنه أبقاه في الصدور رحمة منه وفضلا ، وفي هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء ، وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد بينهم وبين هدى الدين ، بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعا لأهوائهم ، واستبقاء لودهم ، وحفظا لزعامتهم بين الناس .

ثم ذكر : أن القرآن وحي يوحى فلا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض معينا، وقد اشتمل على الحكم والأحكام ، والآداب التي يحتاج إليها البشر في معاشهم ومعادهم ، وكثير من الناس جحدوا فضله عتوا وكبرا .

التفسير :

٨٦- وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ(١٨٠) أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ .

أى : والله لئن شئنا لنمحون القرآن من الصدور والمصاحف ، ولا نترك له أثرا ، وتصيرن كما كنت لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان .

ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً . أى : لا تجد ناصرا ينصرك فيحول بيننا وبين ما نريد بك ، ولا قيما لك يمنعنا من فعل ذلك .

٨٧- إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا .

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ أى : لكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا امتنان من الله ببقاء القرآن .

قال الرازى : أنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة ، أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم، ثانيهما : إبقاء حفظه .

إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا . إذ أرسلك للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب ، وأبقاه فى حفظك ومصاحفك وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم، وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين ، وأعطاك المقام المحمود.

قال الزمخشرى :

وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم ألا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما ، وهما منة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه فى صدره، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ .

٨٨- قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .

أى : قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة ، وإحاطة وحسن معنى وتصرفًا ، وأحكاما ومنهجا كاملا ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ولو تعاونوا وتظاهروا فإن هذا غير ميسور لهم .

فهذا القرآن ليس ألفاظًا وعبارات ، يحاول الإنس والجن أن يحاكوها ، إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه .

هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره.

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل ، منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التى تعرف النفس البشرية ، فى كل أطوارها وأحوالها ، والتى تعرف الجماعات الإنسانية فى كل ظروفها وأطوارها ؛ ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة ، المتغلغلة فى وشائجها ، ودروبها ومنحنياتها الكثيرة ، يعالجها علاجا متكاملا متناسق الخطوات فى كل جانب ، فى الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة ، فى حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة فى كل أحوالها وملابساتها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهى متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته ، ومن ثم فهى تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات ، فى الوقت الواحد ، وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد .

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به [١٨١] .

٨٩- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ...

أى : ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة ، وكررنا الآيات والعبر ، والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهى ، وأقاصيص الأولين ، والجنة والنار ؛ ليدبروا آياته ، ويتعظوا بها .

فمن الناس من ينفعه الوعد ، ومنهم من ينجح معه الوعيد ومنهم من يستهويه قصص الأولين ، ومنهم من يلفت نظره وصف الكون ، وعرض مشاهده وآيات الله فيه ، ومنهم من يأسره الحديث عن دقائق النفس ، وأحاسيسها ومواقفها فى السراء والضراء ، وقد نوع القرآن آياته ؛ فمنها : ما اشتمل على الأحكام ، وبيان الحلال والحرام ، ومنها : ما عنى بأخبار الأمم السابقة ، وجزاء المكذبين وثواب العاملين ، ومنها : ما عنى بوصف مشاهد الكون، وحقائق الوجود، ومنها: ما عنى بسلوك الأفراد والجماعات، ومنها: ما حث على الفضائل ودعا إليها وحذر من الرذائل ، وتوعد من فعلها .

وبذلك أخذ القرآن على النفس البشرية كل سبيل ، ووضع أمامها أدلة الإيمان ، وحقائق الإسلام ، واستثار فى الإنسان نوازع الفطرة ، وتتبع أفكار المنكرين الجاحدين بالتفنيد ، حتى ألقوا سلاحهم وأظهروا عجزهم ، وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله ، أو بسورة واحدة فعجزوا ولزمهم العجز إلى يوم الدين .

فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا . أى : فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار ، والثبات على الكفر ، والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة ، وقطعت ألسنتهم وأفحموا ولم يجدوا وسيلة للرد ؛ أرادوا المراوغة باقتراح الآيات وطلبوا من ذلك ستة أنواع ذكرها سبحانه بقوله :

★ ★ ★

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

تفجر لنا من الأرض ينبوعا : أى : حتى تخرج لنا من الأرض عينا لا ينضب ماؤها . يقال : فجر الماء وفجره أى: أنبعه من الأرض .

جـــــنـــــة : أى : بستانا تستر أشجاره ما تحتها من الأرض .

كسفا : أى : مقطعا ، جمع كسفة ، كقطع وقطعة ، لفظا ومعنى .

قبيلا : أى : كفيلا بما تدعيه وشاهدا على صحته ، ويصح أن يكون معنى قبيلا : مقابلة وجها لوجه كعشير بمعنى : المعاشر والمراد : رؤيتهم عيانا .

من زخرف : أى : من ذهب وأصل الزخرف لغة الزينة وأجملها ما كان بالذهب

ترقى : أى : تصعد .

سبحان ربى : أى : أنزهه تنزيها أن يتحكم عليه إلى هذا الحد .

مطمئنين : أى : ساكنين مقيمين فيها.

أولياء : أى : نصراء جمع ولى .

ونحشرهم : أى : ونجمعهم وأصل الحشر : جمع الناس ، وسوقهم إلى الحرب .

وبكما : أى : وخرسا جمع أبكم يقال : بكم ، يبكم ، بكما أى : خرس .

وصما : أى : طرشا جمع أصم يقال : صم ، يصم ، صمما أى : طرش .

مأواهم : أى : محل إقامتهم . يقال : أوى ، يأوى ، أويا أى : أقام .

خبت : أى : سكن لهبها . يقال : خبت النار ، تخبو ، خبوا أى : سكن لهبها .

سعيرا : أى : توقدا . يقال : سعرت النار أسعرها ، سعرا ، فتسعرت ، أى : أوقدتها فتوقدت .

رفاتا : أى : فتاتا . يقال : رفته ، يرفته ، رفتا ، أى : فتته .

لاريب فيه : أى : لا شك فيه ، يقال : رابنى هذا الأمر يريبنى ريبا ، وأرابنى ، أى : حدث لى منه شك . والريبة : الشك ، جمعه : الريب .

كفورا : أى : جحودًا للحق .

خشية الإنفاق : أى : خوف الفقر .

قتورا : أى : مقترا بخيلا ، يقال : قتر عليه ، يقتر ، قترا ، وقتر أى : ضيق عليه .

المعنى الإجمالى :

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا على أمرهم ؛ أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ويتعثرون فى أذيال الحيرة ، فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها ؛ آمنوا به وصدقوا برسالته ؛ فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله رسولا من البشر ، فأجابهم : بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة ؛ لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ؛ لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقى من قومه . بأن الهداية والإيمان بيد الله ، ولا قدرة للنبى على شىء من ذلك ، ومن يضلل الله فلا هادى له . وسيلقى المكذبون جزاءهم فى نار جهنم بما كسبت أيديهم ودسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصى وإنكار البعث والحساب .

وهم يعلمون أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى ، ثم أمر الرسول أن يقول لهم : لو كنتم تملكون خزائن رزق ربى ؛ لبخلتم خشية الفقر ؛ لأن الإنسان مطبوع على شدة الحرص والبخل ، والله هو الغنى الجواد ، يمنح ما شاء لمن شاء ، وينزل المعجزات ما شاء لا ما شاء الناس وهو فى ذلك كله حكيم عليم .

سبب نزول الآيات :

روى الطبرى بإسناده [١٨٢] عن ابن عباس : أن نفرا من قريش اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وطلبوا رسول الله ﷺ فجاءهم فقالوا له : يا محمد ، إن كنت جئت بهذا الحديث – يعنون القرآن – تطلب به مالا ؛ جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد الشرف ؛ سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا؛ ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى بك رئيا من الجن ، تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده ؛ بذلنا لك أموالا فى طلب الطب حتى نبرئك منه – وكانوا يسمون التابع من الجن : رئيا – فقال رسول الله ﷺ : «ما بى من شىء مما تقولون ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون بشيرًا ونذيرًا ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم فإن تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله عز وجل، حتى يحكم الله بينى وبينكم» فقالوا : يا محمد ، فإن كنت صادقا فيما تقول : فسل لنا ربك الذى بعثك ، فليسير عنا هذا الجبل الذى قد ضيق علينا ، ويبسط لنا بلادا ، ويفجر لنا فيها الأنهار ، كأنهار الشام والعراق، ويبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك ؛ صدقناك ، ثم قالوا : فإن لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكا يصدقك ، واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة ، تعينك على معاشك . فقال : «ما بعثت بهذا» ، قالوا : فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، فإن ربك إن شاء فعل ، كما تقول ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا .

وقول عبد الله بن أبى أمية – وهو ابن عاتكة ، عمة الرسول – : لا أومن بك أبدا حتى تتخذ سلما إلى السماء ترقى فيه وإنا ننظر إليك حتى تأتيها ، فتأتى بنسخة منشورة معك وبنفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول.

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم حزينا ؛ لما رأى من تباعدهم عن الهدى فأنزل الله عز وجل ؛ تسلية له ﷺ: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ... الآية [١٨٣].

التفسير :

طلب كفار مكة أن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة كدليل على صدق نبوته وحددوا له آية من ست وها هي ذي :

٩٠- وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا .

أي : قال رؤساء مكة كعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبي سفيان، والنضر بن الحارث قول المبهوت والمحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا تدفق الماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون كما قال : إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . (يونس : ٩٦ ، ٩٧) .

وقال سبحانه : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ . (الأنعام : ١١١)

٩١- أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا .

أي : أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا لسقيه .

٩٢- أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ...

تقول العرب : جاءنا بثريد كسف أي : قطع من الخبز : أي : أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطا مماثلا لما زعمت في قولك : أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ (سبأ : ٩) .

وخلاصة ذلك : أو تسقط السماء علينا متقطعة قطعا قطعا ، ونحو الآية قوله : وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... (الأنفال : ٣٢) .

وكذلك طلب قوم شعيب منه فقالوا : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . (الشعراء : ١٨٧).

أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا .

أي : أو تأتي بالله وبالملائكة نقابلهم معاينة ومواجهة ، ونحو الآية ما حكاه القرآن عنهم : وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ... (الفرقان : ٢١) .

٩٣- أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ...

أى : أو يكون لك بيت من ذهب روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ . أى : أو تصعد فى سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك ، ولن نصدقك من أجل رقيك وحده ، بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه بلغتنا على نهج كلامنا وفيه تصديقك .

قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا . أى : قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد ، أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم بحسب ما تقتضيه المصلحة ، من غير تفويض إليهم فيه ، ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك : سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

تنبيه :

قال القاسمى : (١٨٤)

لا يخفى ما فى اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله فى خلقه، وبحكمته وجلاله وبيان ذلك- كما فى كتاب (لسان الصدق) – أن ما اقترحته قريش (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد، مما يخالف حكمة الله المقتضية ؛ لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة ، والأنهار الجارية، والجنان الناضرة ، دون بعض ، وإرساء الجبال الشم فى موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو – جلت عظمته – ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز فى شىء . مع أن مثله لا تثبت به النبوة .

فإننا نعلم أن أناسا قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ، ونحتوا الجبال ولم يكونوا أنبياء .

ومنه : ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا فإن إنزال السماء قطعا مقتض لهلاك العالم بحذافيره ، والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم .

ومنه : ما هو مستحيل فى نفسه غير ممكن وقوعه أصلا وهو قولهم : أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا . فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم ، مما لا يمكن أن يكون ، فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز.

ومنه : ما لا يصلح للأنبياء ولو حصل لم يكن معجزا وهو قولهم : أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ . فإن هذا غير صالح للأنبياء ، وليس بمعجز ؛ لحصول مثله عند أشباه فرعون .

ومنه : ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وهو قولهم : أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُ ... (١٨٥) .

فلم يكن شىء مما اقترحوه فى الآيات معجزا . وإنما هى أمور مستحيلة فى نفسها أو لأمر آخر؛ اقترحوها تكبرا وتعنتا وجهلا . على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قائل منهم : وايم الله ! لو فعلت ذلك؛ لظننت أنى لا أصدقك .

فكان الأولى فى جوابهم عما اقترحوه ، هو قول الرسول لهم : سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا . أى: تنزه ربى عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته . وما أنا إلا بشر رسول على أن أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتى مما أوحاه إلى وذلك ما تحديتكم بالإتيان بمثله أو بسورة مثله في الهداية والإصلاح (١٨٦) .

٩٤- وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا .

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ . أى : الذين حكى تعنتهم ، وهم مشركو قريش ، من الإيمان بك حين مجىء الوحى المقرون بالمعجزات ، التى تستدعى الإيمان بنبوتك وبما أنزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ؟! إنكارا منهم أن يكون الرسول من جنس البشر ، واعتقادا منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق؛ لوجب أن يكون من الملائكة ونحو الآية قوله تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ... (يونس : ٢) .

والآيات فى ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، وأنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ؛ ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته حتى لو كانت الأرض مستقرا لملائكته ، لكانت رسلهم منهم ؛ جريا على قضية الحكمة فقال سبحانه :

٩٥- قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا .

أى : لو وجد فى الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشى الإنس مُطْمَئِنِّينَ أى : ساكنين فى الأرض مقيمين فيها حتى يمكن الاجتماع بهم وتتلقى الشرائع منهم ؛ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ، أى: من جنسهم ؛ ليعلمهم الخير ويهديهم إلى الرشد ولكن طبيعة الملك لا تصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل

عليهم التخاطب والتفاهم معهم ؛ لبعد ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ؛ لأن الله وهبهم نفوسًا زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ؛ بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية ؛ بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة وجليل تلك النعمة بقوله :

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ . (آل عمران : ١٦٤) .

وقوله : لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . (التوبة : ١٢٨) .

وقوله : كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ . (البقرة : ١٥١) .

وإجمال القول فى ذلك : إنه لو جعل الرسل ملائكة ؛ لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا ؛ حتى يستطيعوا أداء الرسالة ، كما قال سبحانه : وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء فى صورة دحية الكلبى مرارا عدة ، فقد صح أن اعرابيا جاء وعليه وعثاء السفر فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان ، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام : «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم» .

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

٩٦- قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا .

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ . أى : على أنى بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتم وعاندتم ، وقرر الفخر الرازى فى تفسيره : أن المعنى بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه الصلاة والسلام بإعجاز القرآن. أى : كفى بما أكرمنى به تعالى من هذا المعجز شاهدا على صدقى ، ومن شهد تعالى على صدقه ؛ فهو صادق ، فقولكم – معشر المشركين – بعد هذا ، يجب أن يكون الرسول ملكا تحكم فاسد . ا هـ .

إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . أى : أنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن ، وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أن ما دعاهم إلى إنكار نبوته ﷺ إلا الحسد ، وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق، كما أن فيه تسلية له ﷺ ، على ما يلقاه من الإصرار والعناد ، والإمعان فى إيذائه .

٩٧- وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا .

من يهده الله إلى طريق الرشاد ؛ لحسن استعداده فهو المهتدى ، ومن يضلله ؛ لفساد طبعه ، وسوء اختياره وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ؛ فلن تجد لهم أنصارا يهدونهم ويحفظونهم من قهر الله سبحانه .

قال فى ظلال القرآن :

ولقد جعل الله للهدى والضلال سننا ، وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها، ويتعرضون لعواقبها. ومن هذه السنن : أن الإنسان مهيأ للهدى والضلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير فى طريق الهدى أو طريق الضلال ، فالذى يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه ؛ يهديه الله ، وهذا هو المهتدى حقا ؛ لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته ؛ لا يعصمهم أحد من عذاب الله [١٨٧] .

فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ . أى : يسحبون عليها كقوله سبحانه : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ... (القمر : ٤٨) . والوجه أكرم شىء فى الإنسان فهو مجمع المحاسن وفيه أهم الحواس كالعين والأذن والذوق والشم ومن شأن الإنسان أن يدافع عن وجهه وأن يحميه بيده فإذا اشتد هول القيامة تحمل الكافر عذاب النار بوجهه ؛ لأنه يلقى فى جهنم مغلولة يداه إلى عنقه فلا يستطيع أن يدفع عن وجهه العذاب قال تعالى : أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ... (الزمر : ٢٤) .

وقال فى ظلال القرآن : ونحشرهم يوم القيامة فى صورة مهينة يتكفأون على وجوههم .

وقال القاشانى : أى : ناكسى الرءوس لانجذابهم إلى الجهة السفلية .

عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا . أى : مطموسين محرومين من جوارحهم التى تهديهم فى هذا الزحام ؛ جزاء ما عطلوا هذه الجوارح فى الدنيا عن إدراك دلائل الهدى .

روى البخارى ومسلم : عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يمشى الناس على وجوههم ؟ قال : «الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» [١٨٨] .

وروى الترمذى : أن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر : مشاة ، وركبانا ، وعلى وجوههم [١٨٩].

وإنا نرى في الدنيا من الحيوان ما هو طائر ومنه ما هو ماش ، ومنه ما هو زاحف ، كالحيات وهوام الأرض . والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة في الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى الوجه في الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

والخلاصة : أنهم يبعثون في أقبح صورة وأشنع منظر وقد جمع الله لهم بين عمى البصر، وعدم النطق، وعدم السمع ، مع كونهم مسحوبين على وجوههم، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه.

فائدة :

جاء في تفسير الخطيب ما يأتي :

وأما قوله تعالى : **عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا** . فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال : أليس قد قال تعالى: **وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ** ... (الكهف : ٥٣) . وقال تعالى : **سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** . (الفرقان : ١٢) وقال تعالى: **دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا** . (الفرقان : ١٣) وقال تعالى: **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا** ... (النحل : ١١١) وقال تعالى حكاية عن الكفار : **وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**[١٩٠] فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى: هنا : **عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا** ؟ أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه :

الأول : قال ابن عباس : **عُمْيًا** لا يرون شيئا يسرهم **صُمًّا** لا يسمعون شيئا يسرهم **بُكْمًا** لا ينطقون بحجة.

الثاني : قال : في رواية عطاء **عُمْيًا** عن النظر أي : عما جعله الله تعالى لأوليائه **وَبُكْمًا** عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين **صُمًّا** عن ثناء الله تعالى عليهم .

الثالث : قال مقاتل : إنه حين يقال لهم : اخسئوا فيها ولا تكلمون ؛ يصيرون عميا ، بكما ، صما أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون .

الرابع : أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا لإلزام حجة الله تعالى عليهم إلا أنهم إذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار جعلهم الله تعالى عميا ، بكما ، صما ، قال الفخر الرازي : والجواب الأول أولى ؛ لأن الآيات السابقة تدل على أنهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون[١٩١] .

مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا .

خَبَتْ أي : سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم **زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا** أي : توقدا . بأن تبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة .

قال الزمخشرى :

كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم، تأكلها وتفنيها، ثم يعيدها ، لا يزالون على الإفناء والإعادة ؛ ليزيد ذلك فى تحسرهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل فى الانتقام من الجاحد .

٩٨- ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

أى : هذا العذاب جزاؤهم ؛ لأنهم استنكروا البعث واستبعدوا وقوعه وقالوا : أبعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك وقد تلف لحمنا وبقينا عظاما بل رقت عظامنا فصارت رفاتا تعاد مرة أخرى ؟ استنكارا منهم وتعجبا من أن يحصل ذلك .

٩٩- أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...

أى : ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السماوات والأرض ابتداعا على غير مثال سابق، وأقامهما بقدرته – قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق مرة أخرى ، وكيف لا يقدر على إعادتهم والإعادة أهون من الابتداء .

وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ . أى : وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لابد من انقضائها ، لا يعلمها إلا هو كما قال سبحانه : وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . (هود : ١٠٤) .

وخلاصة ذلك : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السماوات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس ، وإعادتهم إلى الحياة بالبعث ، وقد جعل لميقات إعادتهم أجلاوهو يوم القيامة الذى لا شك فيه فلا وجه لإنكاره .

فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا .

أى : بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل أمامهم ، أبوا إلا جحودا وتماديا فى باطلهم وضلالهم ، فكان جزاؤهم عادلا بعد منطق الدلالات ومنطق المشاهدات ووضوح الآيات .

١٠٠– قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا .

المراد من الإنفاق هنا : الفقر ، يقال : أنفق فلان إذا افتقر ، وقال أبو عبيدة : أنفق ، وأملق ، وأعدم ، وأصرم، بمعنى : أى : قل لهم أيها الرسول : إنكم لو تملكون التصرف فى خزائن الله ؛ لأمسكتم خشية الفقر : أى : خشية أن تزول وتذهب مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدا .

وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا . أى : بخيلا شحيحا ، والقتر ، والإقتار ، والتقتير : هو التقصير فى الإنفاق .

قال النيسابورى :

وهذا الخبر لا ينافى ما قد يوجد فى الناس ممن هو كريم جواد ؛ لأن اللام فى الإنسان للجنس أى : هذا الجنس من شأنه الشح ، إذا كان باقيا على طبعه ؛ لأنه خلق محتاجا إلى ضرورات المسكن والملبس والمطعوم والمنكوح ، ولابد له فى تحصيل هذه الأشياء من المال ، فبه تندفع حاجاته وتتم الأمور المتوقفة على التعاون ، فلا جرم يحب المال ويمسكه لأيام الضرورة والفاقة ، ومن الناس من يحب المال محبة ذاتية لا عرضية ، فإذا الأصل فى الإنسان هو البخل . والجود منه إنما هو أمر تكلفى أو عرضى ؛ طلبا للثناء أو الثواب . وقيل : المراد بهذا ، الإنسان المعهود السابق، ممن قالوا : لن نؤمن لك ؛ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا .. فبين الله تعالى : أنهم لو ملكوا خزائن الأرض ؛ لبخلو بها (١٩٢) .

وقال ابن كثير :

إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، كما قال تعالى : إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ.
(المعارج : ١٩ – ٢٢)

وشبيه بهذه الآيات قوله سبحانه :

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا . (النساء : ٥٣) .

أى : لو أن لهم نصيبا فى ملك الله ؛ لما أعطوا أحدا شيئًا ولا مقدار نقير ، وقد جاء فى الصحيحين : «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه» (١٩٣) .

وجاء فى تفسير الخطيب ما يأتى :

فإن قيل : قد يوجد فى جنس الإنسان من هو جواد كريم ؛ أجيب من وجوه :

الأول : أن الأصل فى الإنسان البخل ؛ لأنه خلق محتاجا والمحتاج لابد وأن يحبس ما به يدفع الحاجة ، وأن يمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود به لأسباب من الخارج ، فثبت أن الأصل فى الإنسان البخل .

الثانى : أن الإنسان إنما يبذل ؛ لطلب الثناء والحمد ، وليخرج من عهدة الواجب ، فهو فى الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل .

الثالث : أن المراد بهذا الإنسان المعهود السابق ، وهم الذين قالوا : لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا (١٩٤) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًۭا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًۭا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًۭا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًۭا ﴿١٠٤﴾ ﴾

المفردات :

بينات : أي : واضحات .

مسحورا : أي : مخبول العقل .

بصائر : أي : حججا وبينات تبصرك صدقى ، واحدها : بصيرة أي : مبصرة بينة .

مثبورا : أي : مصروفًا عن الخير ، من قولهم: ما أثبرك عن هذا ؟ أي : ما صرفك ؟ ويجوز أن يكون بمعنى: هالكا ، من قولهم: ثُبِر ؛ يثبر ؛ ثبورا ، أي : هلك .

أن يستفزهم : أي : أن يستخفهم ويخرجهم من أرض مصر بالقتل أو النفى والمراد : موسى وقومه .

المعنى الإجمالي :

بعد أن ذكر فيما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا — ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتم وأعظم منه ، ولم تُجْدِ فرعون وقومه شيئا ؛ فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات ، وكفاكم الآيات العلمية التى أنزلها على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج ؛ أهلككم كما أهلك فرعون بالغرق ، وفى ذلك تسلية لرسوله بذكر ما جرى لموسى مع فرعون وما جوزى به فرعون وقومه .

التفسير :

١٠١ – وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ...

أي : ولقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على صحة نبوته وصدقه ، حين أرسل إلى فرعون وقومه فلم يؤمنوا بها ، كما قال تعالى : فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًۭا مُّجْرِمِينَ . (يونس : ٧٥) وقال : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًۭا وَعُلُوًّۭا ... (النمل : ١٤) .

وقد ذكر سبحانه فى كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

تتمثل فيما يأتى :

١ – انقلاب العصا حية .

٢ – تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .

٣ – اليد البيضاء .

٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨– الطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع والدم [١٩٥] .

٩ – شق البحر [١٩٦] .

١٠– انفلاق الحجر فى قوله : فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ... (البقرة : ٦٠) [١٩٧].

١١– إظلال الجبل فى قوله : وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ... (الأعراف : ١٧١) .

١٢– إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه [١٩٨] .

١٣، ١٤– الجدب، ونقص الثمرات فى قوله : وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. (الأعراف : ١٣٠)

١٥– الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة [١٩٩] .

١٦– إزالة العقدة من لسان موسى ، أى : أذهب الله العجمة عن لسانه وصار فصيحا ، وقد اختلفوا فى المراد من هذه الآيات التسع .

جاء فى تفسير النيسابورى وابن جرير الطبرى من طرق عدة عن ابن عباس : أن الآيات التسع هن: العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والحجر ، والبحر ، والطور الذى نتقه على بنى إسرائيل.

وعن الحسن : الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور [٢٠٠] .

وقيل : المراد بالآيات : الأحكام فقد أخرج الإمام أحمد والبيهقى والطبرانى والنسائى وابن ماجة : أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبى فنسأله ، فأتياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ... فقال عليه الصلاة والسلام : «لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان؛ ليقتله ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت» فقبلا يده ورجله وقالا : نشهد أنك نبى قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبى ، وإنا نخاف أن اتبعناك أن تقتلنا يهود .

قال الإمام فخر الدين الرازى : هو أجود ما قيل فى الآيات التسع . وقال الشهاب الخفاجى : وهذا هو التفسير الذى عليه المعول فى الآية .

وأرى أن عد الأحكام من الآيات البينات فيه بعد ؛ لأن كل رسالة سماوية تشتمل على أحكام وآداب .

فلماذا خص الله موسى بتسع آيات ؟

الراجح أنها معجزات أيد الله بها موسى ، وقد أيد الله موسى بأكثر من تسع آيات ، فعد بعض المفسرين جانبا منها وترك بعضهم جانبا آخر .

إلا أن تخصيص العدد بالذكر لا يقدح فى الزيادة عليه هكذا قال الأصوليون : ولكن الذوق يأبى ألا يكون للتخصيص فائدة والذى يدور فى خلدى أن سبب التخصيص هو أن مرجع معجزاته إلى تسعة أنواع كالسنين ونقص الثمرات مثلا فإنهما نوع واحد [٢٠١] والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم يمكن أن تكون آية واحدة تشمل ألوانا من العذاب عذب الله بها أهل مصر ، ليفكروا جديا فى صدق رسالة موسى .

فَسْئَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . والخطاب فيه للنبى ﷺ والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان ؛ لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت والمسئولون هم مؤمنو بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

إِذْ جَآءَهُمْ [٢٠٢] فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا [٢٠٣] .

أى : فذهب موسى إلى فرعون وأظهر آياته ودعاه للإيمان بالله ولإرسال بنى إسرائيل معه ، فقال له فرعون : إنى لأظنك يا موسى مخلط العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل حصيف الرأى ، وهذا كقوله : إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . (الشعراء : ٢٧) .

١٠٢ – قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ [٢٠٤] وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا.

أى : قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات التسع [٢٠٥] إلا رب السماوات والأرض ؛ لأنه هو الذى يقدر عليها وهى واضحات تبصرك بصدقى ، وإنى لأظنك يا فرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر ، أو هالكا إذا لم ترجع عن عنادك [٢٠٦] .

١٠٣ – فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا .

فأراد فرعون أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ . أى : يفزعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الهرب فرقا منه . أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ، والضمير لموسى وقومه . وٱلْأَرْضِ : أرض مصر أو الأرض التى أذن لهم بالمسير إليها وسكناها وهى فلسطين وقوله تعالى: فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا أى : فحاق به مكره؛

لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين ؛ ليرجعهم إلى عبوديته ؛ فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق .

١٠٤ – وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا .

وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ، أي : من بعد إغراق فرعون لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ وهى أرض كنعان بلد أبيهم إسرائيل التى وعدوا بها فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ أي : قيام الساعة ؛ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا . أي : جمعا مختلطا أنتم وعدوكم. ثم يحكم بينكم وبينهم ، ويميز سعداءكم من أشقيائكم .

★ ★ ★

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

المفردات :

الحق : هو الثابت الذى لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة .

فرقناه : نزلناه مفرقا على حسب الحوادث . وقيل : فرقنا فيه الحق من الباطل .

على مكث : أي : على مهل . وقرئ على مكث بفتح الميم ، وكلاهما بمعنى التؤدة والتأنى .

الخرور : السقوط بسرعة .

الأذقان : واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين .

ادعو الله أو ادعوا الرحمان : أي : سموه بهذين الاسمين .

أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى: ما زائدة ، والمعنى : ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أى : هذين الاسمين تدعون فله أحسن الأسماء والحسنى مؤنث الأحسن .

ولا تخافت بها : خفت الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت ، وتخافت القوم : تسأروا فيما بينهم.

المعنى الإجمالى :

فى ختام السورة وضحت الآيات سمو القرآن وجلالة قدره ، وبينت : أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه نزل مفرقا ؛ ليسهل حفظه ، ولتثبت أحكامه وأسراره ، ثم هونت الآيات من شأن المعاندين وويختهم واحتقرتهم ، وبينت : أن كفرهم لا ينقص من قيمة القرآن ، فسيان إيمانهم به وعدم إيمانهم ، فإن الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب كانوا لا يتمالكون أنفسهم إذا سمعوا القرآن أن يخروا لله ساجدين ، يغمرهم التأثر والبكاء .

ثم أردفت الآيات ببيان أنكم إن ناديتم الله أو الرحمان فالأمر سواء ، وأمرت الرسول أن يتوسط فى صلاته بين الجهر والخفوت وختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولى والنصير ، وهو العلى الكبير ، فيلخص الختام محور السورة الذى دارت عليه والذى بدأت به ثم ختمت به .

التفسير :

١٠٥ – وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .

أنزلنا هذا القرآن نأمر فيه بالعدل والإنصاف ، والأخلاق الحميدة والأمور المستحسنة ، وننهى فيه عن الظلم والأفعال الذميمة .

قال بعض المفسرين :

الحق هو الثابت ، كما أن الباطل هو الزاهق ، ولا ريب أن هذا الكتاب يشتمل على دلائل التوحيد ، وصفات ذى الجلال والإكرام ، وعلى تعظيم الملائكة ، وإقرار النبوات ، وإثبات المعاد، وعلى أصول الأديان والملل ، التى لا يتطرق إليها النسخ والتبديل ، وكل هذه الأمور تدل على المعنى المذكور ؛ لأنها مما تبقى ببقاء الدهور [٢٠٧].

وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ : فالحق مادته والحق غايته ، ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتمامه ، الحق الأصيل الثابت فى ناموس الوجود ، والذى خلق الله السماوات والأرض قائمين به ، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله ، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه ، فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته [٢٠٨] قال تعالى : **لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ...** (فصلت : ٤٢) .

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . ما أرسلناك يا محمد إلا مبشرا بالجنة لمن أطاعنا واستجاب لأمرنا ففعل المأمورات واجتنب المنهيات – ومنذرا بالنار لمن عصانا وأعرض عن هدينا وخالف أمرنا ونهينا .

١٠٦ – وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ...

وَقُرْءَانًا [٢٠٩] فَرَقْنَـٰهُ أى : جعلنا نزوله مفرقا منجما ، وقرئ : فرقناه بالتشديد [٢١٠] .

قال ابن عباس : لم ينزل فى يومين أو ثلاثة بل كان بين أوله وآخره عشرون سنه [٢١١] .

لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ . أى : على مهل وتؤده وتثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم .

وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا . أى : على حسب المصالح والحوادث ، فقد كان القرآن كتاب الحياة يعالج أخطاءها، ويقوم عوجها ، ويجيب على أسئلة السائلين ، ويرد على شبه المخالفين ، وإذا تتبعنا أسباب نزول القرآن؛ ظهرت الحكمة واضحة ، فى تفريق القرآن ونزوله نجوما ؛ لأن النفوس إذا وقعت فى مشكلة ؛ تشوفت إلى آيات تحلها ، وتأخير الآيات إلى وقت الحاجة ؛ يجعل النفوس تتعلق بها وتتذكر قصتها كلما قرأتها .

فمشروعية التيمم ، وحد اللعان ، وحد القذف ، وحد الزنا ، وتحريم الخمر ، وتحريم التخلف عن الجهاد، وتحريم التبنى ، وكثير من الأحكام المشابهة ، كانت قضايا ومشاكل فى المجتمع تحتاج إلى حل وبيان فكانت آيات القرآن تنزل إثر كل مشكلة توضح حكمها ، وتبين حلها .

ففى كتب الصحاح : أن المسلمين تأخروا فى بعض الغزوات ؛ ليبحثوا عن عقد للسيدة عائشة ، ولم يكن معهم ماء ؛ فنزلت آية التيمم .

وأن رجلا اتهم زوجته بالزنا ؛ فنزلت آية اللعان .

واتهم بعض الناس السيدة عائشة بالزنا مع صفوان ابن المعطل ؛ فنزل حد القذف .

وسكر بعض المسلمين وأساء للآخرين ؛ فنزل تحريم الخمر .

وتخلف ثلاثة من المسلمين عن غزوة تبوك ؛ فنزلت سورة التوبة تفضح المنافقين وتلوم المتخلفين.

وكان التبنى معروفا فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ثم حرم القرآن التبنى وأمر الله رسوله أن يتزوج مطلقة ابنه المتبنى ، ليشرع بنفسه للناس إبطال هذه العادة .

وهكذا نجد أن نزول القرآن مفرقا فى عشرين سنة كان فرصة مناسبة ؛ ليشرع الأحكام، ويبين الحدود، ويوضح الحلال والحرام ، وكان الصحابة يتسابقون إلى العمل بالآيات قبل أن يحفظوها ، فطبقوا القرآن سلوكا وهديا ، وتعبدا وعملا ، مع عنايتهم به قراءة وحفظا .

أخرج البيهقى فى الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : تعلموا القرآن خمس آيات ، خمس آيات ، فإن جبريل عليه السلام كان ينزل خمسا خمسا ، وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى ، والمراد : أن الغالب كذلك ؛ فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

١٠٧ - قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا .

أى : قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا : آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم الإيمان به ينقص ذلك .

قال النيسابورى : وهو أمر وعيد وتهديد وخذلان .

وفى ظلال القرآن :

أمر الله رسوله أن يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم . إن شاءوا آمنوا بالقرآن وإن شاءوا لم يؤمنوا ، وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم ، ويضع أمام أنظارهم نموذجا من تلقى الذين أوتوا العلم من قبله ، من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علما ولا كتابا [٢١٢] .

١٠٧، ١٠٨ - إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا .

أى : وإن تكفروا به فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمنى أهل الكتابين إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون تعظيما له وتكريمًا [٢١٣] . ويسجدون لله شكرا وحمدا على إنجاز وعده ويقولون فى سجودهم : تنزه ربنا عن خلف الوعد . إنه كان وعده مأتيا .

والخلاصة : أنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية للرسول ، وازدراء لشأنهم .

قال الزمخشري :

أمر بالأعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وألا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم منه . وأنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيرا منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه ، وثبت عندهم أنه النبى العربى ، الموعود فى كتبهم ، فإذا تتلى عليهم خروا سجدا ، وسبحوا الله تعظيما لأمره ، ولإنجاز ما وعد فى الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد فى قوله : إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا .

١٠٩- وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .

ويخر هؤلاء الذين أوتوا العلم على الوجوه سجدا ، باكين من خوف الله ، ويزيدهم ما فى القرآن من المواعظ والعبر خشوعا وخضوعا لأمر الله وطاعته .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن فى القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله [٢١٤] .

قال النسفي : ومعنى الخرور للذقن : السقوط على الوجه كما خص الذقن ، لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن .

وفى حاشية الجمل : فالخرور الأول للسجود ، والآخر لشدة البكاء . أو الأول : فى حالة سماع القرآن أو قراءته ، والثانى : فى سائر الحالات [٢١٥] أو المراد : أن السجود يتكرر منهم فى حالات متعددة ؛ خشوعا لله واعترافا بفضله .

تنبيه :

قال القاسمي :

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين ؛ على استحباب البكاء والتخشع ، فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التى وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده ، يلزم الاتصاف بها ، كما أن ما ذم منها من مقته منهم ، يجب اجتنابه [٢١٦] .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى (الإحياء) : أن من آداب التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة . قال رسول الله ﷺ : «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا» [٢١٧] . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان ؛ فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم ؛ فليبك قلبه ، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء ، ووجه إحضار الحزن ، أن يتأمل ما فيه من

التهديد والوعيد ، والواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره ، فيحزن لا محالة ويبكى . فإن لم يحضره ؛ حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب .

وقد روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» [٢١٨] .

وروى الترمذى عن ابن عباس : قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى» [٢١٩] .

وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا اجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم» [٢٢٠] .

١١٠ – قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

قل لهؤلاء المشركين : سموا الله باسم الله ، أو اسم الرحمان ، فأى اسم تسمونه فهو حسن ، وهو تعالى له الأسماء الحسنى ولا شبهة لكم من أن تعدد الأسماء يستوجب تعدد المسمى ، وإذا قرأت القرآن فى صلاتك، فلا ترفع صوتك به ؛ لئلا يسمع المشركون فيسبونك ويؤذونك ، ولا تسر به فلا يسمع المؤمنون ، وكن وسطا فى قراءتك .

قال الطبرى والنيسابورى والنسفى : عن ابن عباس : أن أبا جهل سمع النبى يقول : يا الله يا رحمان، فقال : إن محمدا ينهانا أن نعبد إلهين ، وهو يدعو إلها آخر . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمان، وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم ؛ فنزلت [٢٢١] .

وفى تفسير القاسمى :

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ . رد لما أنكره المشركون من تسمية الرحمان ، وإذن بتسميته بذلك ، أى : سموه بهذا الاسم أو بهذا و (أو) للتخيير . أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ أى : أىُّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله : فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ؛ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين ، فأقيم فيه دليل الجواب مقامه وهو أبلغ . ومعنى كونها أحسن الأسماء : أنها مستقلة بمعانى الحمد والتقديس والتعظيم [٢٢٢] وهذه الآية كقوله تعالى : وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا . (الأعراف : ١٨٠) .

وقد روى الطبرى بإسناده : عن أبى هريرة : عن النبى ﷺ قال : «إن لله تسعا وتسعين اسمًا كلهن فى القرآن من أحصاهن ؛ دخل الجنة» . ومعناه : من عرف معانيها وآمن بها وقيل : معناه : من أحصاها بحسن الرعاية لها وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها [٢٢٣] وقد وردت أسماء الله الحسنى كاملة فى الحديث الذى رواه الترمذى فى الجامع الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ووردت فى تفسير الجلالين ، ثم شرحت معانى هذه الأسماء شرحا مستفيضا فى حاشية الجمل على الجلالين [٢٢٤] .

وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً .

أمر الله رسوله ﷺ أن يتوسط فى صلاته بين الجهر والخفوت ؛ لما كانوا يقابلون به صلاته من استهزاء وإيذاء ، أو من نفور وابتعاد ، ولعل الأمر كذلك ؛ لأن التوسط بين الجهر والخفاء أليق بالوقوف فى حضرة الله .

وروى : أن الرسول ﷺ طاف بالليل على دور الصحابة ، فكان أبو بكر يخفى صوته ، وكان عمر يرفع صوته ، وفى الصباح سأل النبى ﷺ أبا بكر عن قراءته فقال : يا رسول الله ، أناجى ربى وقد علم حاجتى ، وسأل النبى ﷺ عمر فقال : أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان ، فأمر النبى ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلا ؛ فنزلت الآية على حسب ذلك ، وقيل : معناه : ولا تجهر بصلاتك كلها ، ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار ، وعن عائشة وأبى هريرة ومجاهد : أن الصلاة هنا : الدعاء . وقد يروى هذا مرفوعا قال الحسن : لا يرائى بعلانيتها ولا يسىء بسريرتها [٢٢٥] .

١١١- وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا .

وقل : الحمد والشكر لله الذى لم يتخذ ولدا ؛ لعدم حاجته إليه ، ولم يكن له شريك فى الملك ؛ لأنه وحده منشئه ، ولم يكن له ناصر يعطيه عزة من ذل لحقه ، وعظم ربك تعظيما يليق به .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

١ – أنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه – تنزه ربنا عن ذلك – ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

٢ - أنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ، ولم يكن منفردا بالملك والسلطان .

٣ - أنه لم يكن له ولى من الذل أى : لم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته .

والخلاصة : أنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يوقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك ؛ فقد أمن الناس نضوب موارده ، وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتغترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لا يحابيك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ، ولو كنت ابن نبى من الأنبياء أو عظيم من العظماء [٢٢٦] .

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أى : وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

قال الإمام فخر الدين الرازى : تكبير الله تعالى وتنزيهه يكون :

١ - بتكبيره فى ذاته ؛ باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .

٢ - بتكبيره فى صفاته ؛ باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال متنزه عن صفات النقص .

٣ - بتكبيره فى أفعاله ؛ فتعتقد أنه لا يجرى شىء فى ملكه إلا وفق حكمته وإرادته .

٤ - بتكبيره فى أحكامه ؛ بأن تعتقد أنه ملك مطاع ، له الأمر والنهى ، والرفع والخفض ، وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .

٥ - تكبيره فى أسمائه ؛ فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفات الجلال والإكرام .

أخرج عبد الرازق عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : كان رسول الله ﷺ إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب ؛ علمه هذه الآية [٢٢٧] .

وروى الطبرى بإسناده عن القرظى : أنه كان يقول فى هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ... قال: إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولدًا ، وقالت العرب : لبيك لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله ؛ لذل الله ، فأنزل الله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ﴾ أنت يا محمد على ما يقولون ﴿تَكْبِيرًا﴾ [٢٢٨] .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى : أن رسول الله ﷺ كان يقول : «آية العز : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾».

وقال ابن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية :

قل يا محمد : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا فيكون مربوبا لا ربًا ؛ لأن رب الأرباب لا ينبغى أن يكون له ولد ، ولم يكن له شريك فى الملك ؛ فيكون عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفا ، ولا يكون إلها من يكون محتاجا إلى معين ، ولم يكن له ولى من الذل ، يقول : ولم يكن له حليف حالفه من الذل الذى به ؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليل مهين ، ولا يكون من كان ذليلا مهينا يحتاج إلى ناصر ؛ إلها يطاع، وكبره تكبيرا وعظمه تعظيما يليق به سبحانه[٢٢٩] .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والشكر لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه . اللهم ، اجعله عملا خالصا لوجهك وتقبله منا إنك أنت السميع البصير ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★


تفسير سورة الكهف

دروس من سورة الكهف

سورة مكية

المشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكية كلها ، وأنها من السور التى نزلت جملة واحدة كما جاء فى الخبر الذى أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس عن النبى ﷺ إذ يقول : «نزلت سورة الكهف جملة» .

وقد روى ذلك أيضًا عن بعض الصحابة ، واختاره الدانى ، ومشى عليه أكثر أهل التفسير والمتكلمين فى علوم القرآن وهناك روايات أخرى تخالف هذا المشهور فتقرر أن السورة مكية إلا بعض آياتها ، فإنه مدنى .

وفى المصحف الفؤادى المطبوع بمصر ، سورة الكهف مكية إلا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية ١٠١ فمدنية ، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية .

وقال الفيروزبادى : السورة مكية بالاتفاق وفيها إحدى عشرة آية مختلف فيها بين مكيتها ومدنيتها، وهى الآيات : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٣ (٢٣٠)

وينبغى أن يعلم أن كثيرا مما ذكر أنه مدنى تضمنته سورة مكية ، أو مكى تضمنته سورة مدنية ، هو موضع خلاف بين العلماء ؛ لاختلاف الرواية فيه ، أو لانبناء الحكم فيه على اجتهاد واستنباط من القائل به وفى ذلك يقول ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطى فى الإتقان : كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة ، إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل (٢٣١) .

القصص فى سورة الكهف

القصص هو العنصر الغالب فى هذه السورة ، ففى أولها تجىء قصة أصحاب الكهف وبعدها قصة أصحاب الجنتين ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفى وسطها تجىء قصة موسى مع العبد الصالح . وفى نهايتها قصة ذى القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية ، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق على القصص أو تعقيب عليه .

ويلتقى هذا القصص حول فكرة أساسية للقرآن وهى إثبات أن البعث حق وأن المؤمن يكافأ بحسن الجزاء ، وأن الكافر يلقى جزاء عنته وكفره فى الدنيا أو الآخرة .

قصة أصحاب الكهف

فى قصة أصحاب الكهف يتجلى صدق الإيمان وقوة العقيدة والإعراض عن كل ما ينافيها إعراضا عمليا صارما ، لا تردد فيه ولا مواربة ، فتية رأوا قومهم فى الضلال يعمهون ، وفى ظلمات الشرك يتخبطون، لا حجة لهم ولا سلطان على ما يزعمون ، وأحسوا فى أنفسهم غيرة على الحق لم يستطيعوا معها أن يبقوا فى هذه البيئة الضالة بأجسامهم ، ولو خالفوها بقلوبهم ، فتركوا أوطانهم وتركوا مصالحهم واعتزلوا قومهم وأهليهم ، وخرجوا فارين متجنبين الشطط وأهل الشطط ، وآثروا كهفا يأوون إليه فى فجوة منه ، لا يراهم فيه أحد ، ولا يؤنسهم فى وحشتهم إلا كلبهم .

ذلك هو مغزى القصة الخلقى ، وفيه ما فيه من إرشاد وإيحاء وتمجيد لأخلاق الشرف والرجولة والثبات على العقيدة والتضحية فى سبيلها .

أما المعنى العام الذى تتلاقى فيه القصة مع غرض السورة فهو إثبات قدرة الله على مخالفة السنن التى ألفها الناس وظنوا أنها مستعصية عليه جل شأنه ، أن تبدل أو تحول كما هى مستعصية على كل مخلوق، وشتان بين قدرة الخالق والمخلوقين ، وهذا ما تشير إليه القصة فى ثناياها إذ يقول الله عز وجل:

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ... (الكهف : ٢١) .

قصة موسى والخضر

أما قصة موسى وفتاه والعبد الصالح فلبابها ومغزاها هو إثبات قصور الخلق مهما سمت عقولهم ، وكثرت علومهم أمام إحاطة الله وعلم الله . وهكذا ترتبط – فى سياق السورة – قصة موسى والعبد الصالح، بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار .

لقد وقف موسى خطيبا فى بنى إسرائيل فأجاد وأبدع فى خطبته ، فقال له أحد المستمعين : ما أفصحك يا نبى الله ! هل فى الأرض من هو أكثر علما منك ؟ قال موسى : لا ، فأخبره الله: أن فى الأرض من هو أكثر علما منه ، فقال موسى : يا رب ، دلنى عليه ؛ حتى أذهب إليه فأتعلم منه .

وضرب موسى لنا مثلا رائعا فى الرحلة ؛ لطلب العلم ، وتحمل الصعاب والمشتقات بهمة الرجال وعزيمة الأبطال .

إذا هم ألقى همه بين عينه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

سار موسى مع تابع له هو يوشع بن نون ومعهما حوت فى مكتل ، وبلغ مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم . أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر ، أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر .

وفى المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبى بنى إسرائيل بعبده الصالح ، فقد موسى حوته وعاد؛ ليبحث عنه فوجد رجلا نحيل الجسم ، غائر العينين ، عليه دلائل الصلاح والتقوى ، فسلم عليه موسى ، وتلطف معه فى القول وأبدى رغبته فى اتباعه؛ ليتعلم منه العلم ، فاشترط الخضر على موسى: الصبر والتريث فقال موسى : سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . (الكهف : ٦٩) .

وانطلق موسى مع الخضر فى سفينة جيدة ، وفى غفلة من أهلها أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما، فذكره موسى بأن هذا ظلم وفساد ، فالتفت الخضر إليه وقال: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. (الكهف : ٧٢). فاعتذر موسى بالنسيان ووعد أن يرافقه مع الصبر والسكوت .

وسار الرجلان ثم قتل الخضر غلاما بريئا فى عمر الزهر فاحتج موسى ، وذكره الخضر بالشرط فسكت .

وفى الجولة الثالثة : دخل الرجلان قرية وكان الجوع قد اشتد بهما فطلبا من أهلها طعاما فأبوا إطعامهما ورأى الخضر جدارا متداعيا أوشك أن يقع فطلب من موسى مساعدته حتى بناه وأتم بناءه واعترض موسى على هذا العمل ؛ لأن أهل القرية لا يستحقون مثل هذا المعروف ؛ فهم بخلاء لؤماء ، فينبغى أن يأخذ الخضر أجرا على بناء الجدار لهم ، وافترق الرجلان بعد أن سمع موسى من الخضر سبب هذه الأعمال:

أما السفينة : فكانت ملكا لجماعة من المساكين يعتمدون عليها فى كسب الرزق ووراءهم ملك ظالم يستولى على كل سفينة صالحة للعمل غصبا فخرق الخضر السفينة ؛ ليراها الملك عاطبة فيتركها ؛ ليستفيد بها أهلها ، فهو عمل مؤلم فى الظاهر ولكنه مفيد فى الحقيقة والواقع .

وأما الغلام : فقد كان مفسدا وسيشب على الفساد والإفساد وكان أبواه مؤمنين فأراد الله أن يقبض الغلام إلى جواره وأن يعوض والديه بنتا صالحة تزوجت نبيا وأنجبت نبيا .

وأما الجدار : فكان ملكا لغلامين يتيمين تخدرا من رجل صالح كريم ، وكان تحت الجدار كنز من المال ولو سقط الجدار ؛ لتبدد الكنز فأراد الله أن يقام الجدار ويجدد ؛ حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما حلالا طيبا لهما .. ثم قال الخضر : وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا . (الكهف : ٨٢) .

وقد يتساءل الإنسان عن عمل الخضر عليه السلام ، وهل هو مشروع على الإطلاق ، وهل يجوز لمن علم فى حادثة – ما – مثل ما علمه العبد الصالح من حقيقة الأمر فيها أن يخالف الظاهر ؟

وقد اهتم بعض المفسرين بترديد أمثال هذه الأسئلة والمناقشات والإجابة عنها وتخريج ما يحتاج منها إلى تخريج ، كأن الأمر أمر أحكام تشريعية أو بيان لموضوعات خلافية . والواقع أنه لم يقصد بهذه القصة إلا الإقناع بأن الإنسان مهما اتسع عقله وسمت مداركه وعلا منصبه ، محدود فى علمه ، وأن كثيرا من الأمور يخفى عليه ، وأن لله عبادا قد يخصهم بنوع من العلم لا يبذله لجميع الناس ، ولا يستقيم حال الدنيا على بذله لجميع الناس .

قصة ذى القرنين

تلك قصة عبد مكن الله له فى الأرض وسخر له العلم والقوة والآلات والمواصلات وآتاه من كل شىء سببا . وقد استغل هذه الإمكانيات فى عمل مثمر نافع يعم نفعه ويبقى أثره وقد تحرك ذو القرنين إلى المغرب غازيا فاتحا ، محاربا مجاهدا وسار النصر فى ركابه حتى انتهى إلى عين اختلط ماؤها وطينها فتراءى له أن الشمس تغرب فيها وتختفى وراءها وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ولا سبيل للجهاد، ولكنه رأى عندها قومًا هاله كفرهم ، وكبر عليه ظلمهم وفسادهم فخيره الله بين قتالهم أو إمهالهم ودعوتهم للعدل والإيمان فاختار إمهالهم وقام فيهم مدة ضرب على يد الظالم ونصر المظلوم وأخذ بيد الضعيف ، وأقام صرح العدل ، ونشر لواء الإصلاح وقد وضع لهم دستور الحكم العادل فقال :

أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا . (الكهف : ٨٧ ، ٨٨) .

وقد عاد ذو القرنين إلى الشرق فسار غازيا مجاهدا حتى انتهى إلى غاية العمران فى الأرض وهناك وجد أقواما تطلع الشمس عليهم ، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم ، أو أشجار تظلهم ولعلهم كانوا على حال من الفوضى ونصيب من الجهل .. فبسط حكمه عليهم ونفذ فيهم دستور العدل ومكافأة المحسن ومعاقبة المسىء الذى سبق ذكره ، ثم تركهم إلى الشمال غازيا مجاهدا مظفرا منصورا ، حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين يسكنها أقوام لا تكاد تعرف لغاتهم ، أو يفهم فى الحديث مرماهم ، ولكنهم قد جاوروا يأجوج ومأجوج ، وهم قوم مفسدون فى الأرض ، وأوزاع من الخلق ضالون مضلون .

وقد لجأ الأقوام إلى ذى القرنين ؛ ليحول بينهم وبين المفسدين وشرطوا على أنفسهم نولا يدفعونه إليه، وأموالا يضعونها بين يديه ولكن ذا القرنين أجابهم إلى طلبهم ورد عطاءهم وقال لهم :

مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ... (الكهف : ٩٥) .

ثم طلب إليهم أن يعينوه على ما يفعل فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب والفحم ، فوضع بين الجبلين قطع الحديد وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه ذائب النحاس ، واستوى كل ذلك بين الجبلين سدا منيعا قائما ، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تظهره ؛ لملاسته ، أو تنقبه ؛ لمتانته ، وأراح الله منهم شعبا كان يشكو من أذاهم ، ويألم من عدوانهم .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وأعلن عقيدته فى البعث والحشر وإيمانه بأن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجردا مستويا وهكذا تختم هذه القصة بتأكيد قدرة الله على البعث .

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا . (الكهف : ٩٨) .

وبذلك تنتهى قصة ذى القرنين ، النموذج الطيب للحاكم الصالح يمكنه الله فى الأرض ، وييسر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه . إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق. ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله [٢٢٢] .

★ ★ ★

أهداف سورة الكهف

نزلت سورة الكهف بمكة فى وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذبين بيوم الدين . وقد نزلت قبلها سورة الغاشية وهى سورة تبدأ وتنتهى بحديث الساعة ، وإياب الناس جميعا إلى الله ؛ ليحاسبهم على ما قدموا .

ونزل بعد سورة الكهف سورة النحل وعدة سور تحدثت عن البعث والجزاء وأثبتت وحدانية الله وقدرته وذكرت عقوبته للمكذبين وأخذه على يد الظالمين .

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث ، ويستبعدون وقوعه فى عناد وإصرار ، فتكفل القرآن بمناقشتهم وتفنيد آرائهم ، وأثبت قدرة الله على البعث والجزاء ، وقدم الأدلة على هذه القضية ، وساق فى سورة الكهف عددا من الحجج والبراهين على حقيقتها مبرزا ذلك فى صورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام . فالمحور الموضوعى لسورة الكهف هو تصحيح العقيدة ، وتأكيد قدرة الله على البعث والجزاء ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر ذلك فيما يأتى :

١ - بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ . (الكهف : ١ - ٣).

وهى تتحدث فى هذا البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بأس شديد يصيب أقواما ، وأجر حسن يفوز به أقوام آخرون .

وختمت بقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ . (الكهف : ١١٠) .

وهى تتحدث فى هذا الختام عن الدار الآخرة أيضا وعمن يرجو لقاء ربه ، وما يجب عليه أثرا لهذا الرجاء والإيمان من عمل صالح ، وتوحيد لله لا يخالطه إشراك .

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها : أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها ، وبيان مهمة القرآن فى إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذارا وتبشيرا ، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التى تركزت وتقررت ويحاكم الناس إليها فى الإيمان والعمل الصالح .

ومما يلاحظ أن آيات البدء قد ذكر فيها أمر الذين : قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ، من إنذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله ، وذلك هو قول الذين يشركون بالله ، ويعتقدون ما ينافى وحدانيته وتنزيهه، وأن آية الختام قررت أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وأن على من يؤمن به ، ويرجو لقاءه ألا يشرك بعبادته أحدا ، فتطابق الأول والآخر فى إثبات الوحدانية والتنزيه لله جل وعلا ، كما تطابقا فى أمر البعث والدار الآخرة .

٢ – أما فى أثناء السورة وما بين بدئها وختامها ، فقد جاء أمر البعث عدة مرات :

(أ) جاء فى مقدمة قصة أصحاب الكهف التى ساقها الله حقيقة من حقائق التاريخ الواقعية ، دليلا على قدرته ، وتنظيرا لما ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا . (الكهف : ٩) . وفى ثنايا هذه القصة : وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ... (الكهف : ٢١) .

فهى تقرر : أن أصحاب الكهف آية من آيات الله ، وأنهم مع غرابة أمرهم لا يعدون فى جانب القدرة الإلهية عجبا ، فإنما هم فتية آمنوا بربهم ، وأووا إلى الكهف فرارا بعقيدتهم ، فضرب الله على آذانهم فيه مدة من الزمن ثم بعثهم ، وإذن فالله قادر على أن يضرب على آذان الناس جميعا فى هذه الدار بالموت ، كما يضرب على آذانهم بالنوم ، ثم يبعثهم إلى الدار الآخرة كما بعث هؤلاء الفتية ، وما ذلكم على الله بعزيز ، ولا هو فى قدرته بعجيب ، وتقرر أن العبرة من بعثهم والإعثار عليهم هى أن يعلم الناس أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .

(ب) وجاء أمر البعث مرة ثانية فى هذه السورة حين قررت أن الحق من الله ، وأن كل امرئ مخير فى الإيمان أو الكفر : وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ فهناك دار أخرى غير هذه الدار يحاسب فيها كل امرئ ، ويجزى بما يستحقه : إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . (الكهف : ٢٩)

وللذين آمنوا وعملوا الصالحات : جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ... (الكهف : ٣١) .

(جـ) وجاء أمر البعث فى المثل الذى ضربه الله للناس عن صاحب الجنتين وزميله ، وما كان من إنكاره قدرة الله ، وشكه فى الساعة ، ونصح صاحبه له ، وتبرئه منه ، وأن الله قد أحال الجنتين صعيدا زلقا، وحينئذ تنبه الكافر فقال : يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا . (الكهف : ٤٢) .

(د) وجاء أمر البعث بعد هذا في المثل الذي ضربه الله بالحياة الدنيا ، يكون فيها نبات وزينة ثم يصبح ذلك كله هشيما تذروه الرياح ، وتنتهي الدنيا وما فيها ، قد عقب الله على هذا المثل بذكر الجبال وسيرها ، والأرض وبروزها ، والحشر وشموله ، والعرض على الله ، ووضع الكتاب ، وإشفاق المجرمين مما فيه ، وقولهم : يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

(هـ) وجاء في السورة أيضًا إشارة إلى قصة آدم وإبليس ، حيث طلب الله من الثاني أن يسجد للأول فأبى ، فتقررت بينهما العداوة منذ ذلك اليوم إلى أبد الدهر . وحذر الله أبناء آدم من أن يتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دونه ، مع هذه العداوة المتأصلة ، ثم ذكر لهم أمرا من أمور الآخرة بعد هذا التحذير من اتخاذ الأولياء أو الشركاء – حيث ينادي الشركاء فلا يجيبون ، ويستجار بهم فلا يجيرون ، وتبرز الجحيم فيراها المجرمون ويظنون أنهم مواقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفا.

وفي هذا الأسلوب جمع بين المبدإ والمعاد ، ووضع لقضية الخلق والبعث مقترنتين بين يدي العقل؛ ليدرك الإنسان أنه منذ أول نشأته هدفٌ لعدو مبين يحاول إضلاله ولفته عن الطريق المستقيم جسدا له وانتقاما منه ، وأن أخطر هذا الإضلال هو الوصول إلى حد الثقة بالعدو المبين، واتخاذه وليا من دون الله يتبع أمره وينصر هواه ، وأن هذا العدو المخاتل سيكون أمره يوم الجزاء كسائر الشركاء ، يزينون الكفر والعصيان ما داموا في الدنيا . حتى إذا جاء أمر الله ؛ أعلنوا براءتهم ممن اتبعوهم وضلوا بسببهم :

كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ . (الحشر : ١٦ ، ١٧) .

(و) وجاء في هذه السورة أيضًا – مما يتصل ببراهين البعث– قصة موسى ، وفتاه ، والعبد الصالح. وهي قصة عظيمة حافلة بالفوائد والمعاني الجليلة . وفيها يساق الحديث على نحو يشعر معه كل سامع شعورا قويا بأن لله علما فوق علم الناس ، وتصريفا للكون على سنن منها ما هو معروف ومنها ما هو خفي. وإذا آمن الناس بهذا واطمأنوا إليه ؛ لم يعد هناك مجال للعجب من أمر الساعة. فما هي إلا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته . فإذا السنن المعروفة تحل محلها سنن أخرى ، ومن قدر على إنشاء السنن قدر على تغييرها . وبهذا يؤمن كل عاقل بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيبا . وهو في قدرة الله غير عجيب .

(ز) جاءت السورة أيضًا – بعد هذه القصة – بقصة أخرى عن عبد مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببا ، حيث سخر له العلم والقوة وأسبابا أخرى كثيرة ، ذلك هو : «ذو القرنين» وقد لجأ إليه قوم ؛ ليحول بينهم وبين المفسدين ، فأنجدهم وأعانهم وجعل الله عمله فى ذلك رحمة للناس يبقى ما بقيت هذه الحياة ، فإذا جاء وعد الله ضاعت السدود والحوائل وأصبحت دكا ، وترك الناس مضطربين يموج بعضهم فى بعض ، ثم ينفخ فى الصور فيجمعون جميعا ، وتعرض يومئذ للكافرين جهنم عرضا ، فيبصرون وقد كانت أعينهم من قبل فى غطاء ، ويسمعون وقد كانت آذانهم من قبل فى صمم . وهكذا نجد القصة قد انتهت إلى أمر البعث والدار والآخرة وما فيها وتخلصت إليه فى براعة وقوة ، مذكرة به ، منذرة ما هنالك من الأهوال والشدائد .

(ح) ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى تهديد الكافرين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، وتبين ما أعد لهم، وتوازن هؤلاء جميعا بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعد لهم ، ويأتى ختامها بعد إثبات القدرة والعظمة لله وأن كلماته لا تنفد ولو كتبت بماء البحار – والمراد : آياته فى الكون وتصريفه وآثار قدرته – فتذكر رسالة الرسول وأنها عن وحى من هذا الخالق القادر الواحد ، وتتوجه بعد ذلك إلى جميع الناس بصيغة من صيغ العموم ، هى لفظ «من» فتقول :

فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا . (الكهف : ١١٠) .

بهذا يتجلى للناظر فى السورة أنها منتظمة النسق ، مطردة السياق ، واضحة الغرض ، قوية الأسلوب. متماسكة فى أولها وآخرها وأثنائها ، يجول فيها مغنى واحد تلتقى عليه الآيات والأمثال والقصص والوعد والوعيد والتذكير والبيان . ولذلك يقول الله عز وجل فى آية من آياتها : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً . (الكهف : ٥٤) .

★ ★ ★

فضل سورة الكهف

سورة الكهف سورة القصص الهادف ، المشتمل على سمو العقيدة ، وفضل الإيمان ، وإكرام الله للمتقين ؛ فأهل الكهف شباب رفضوا عبادة الأوثان ، وأصروا على الثبات على الإيمان ، وذهبوا إلى كهف تحصنوا به من ظلم الملك الكافر ؛ فأرسل الله عليهم النوم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم فى عهد ملك مؤمن ، أكرمهم وسجل كفاحهم ؛ وقصة موسى والخضر فيها جهاد رسول كريم ، فى طلب العلم والتواضع فى طلبه ؛ وفيها بيان لسعة علم الله وعظيم حكمته .

وقصة ذى القرنين ، فيها بيان لجهود رجل صالح ، أعطاه الله الأسباب والقوة ، والجند والأتباع ، فسار فى جنوده جهة الغرب ، وجهة الشرق ، وفى كل مكان يصل إليه ، يرسى معالم الحق والعدل والخير .

ويتعود المؤمنون قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ؛ رغبة فى الثواب والتقرب إلى الله تعالى ؛ أخرج الحاكم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ : أنه قال : «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة ؛ أضاء له النور ما بينه وبين الجمعتين» [٢٣٣] .

وقد وردت الأحاديث النبوية الشريفة فى فضل سورة الكهف ، والآيات العشر التى فى أول سورة الكهف ، والآيات العشر التى فى آخرها ، وأنها عصمة من الدَّجال .

عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عُصم من الدَّجال» [٢٣٤] رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى .

وقال الإمام أحمد : عن أبى الدرداء : عن النبى ﷺ قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف؛ عُصم من فتنة الدَّجال» [٢٣٥] ورواه مسلم أيضًا والنسائى .

وأخرج النسائى فى سننه : عن ثوبان : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف؛ فإنها عصمة له من الدَّجال» [٢٣٦] .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

عـوجـا : العوج : الميل والانحراف عن الاستقامة ، فلا خلل فى لفظة القرآن ولا فى معناه .

قـيـمـا : مستقيما معتدلا ، لا ميل فيه ولا زيغ ، وعوجًا وقيمًا حالان من الكتاب .

بأسا شديدا : عقوبة عاجلة فى الدنيا ، وآجلة فى الأخرى .

من لدنه : من عند الله .

كبرت كلمة : بضم الباء ، أى : كبرت كلمتهم هذه وعَظُمت ، وهذا أسلوب فى الكلام ، يدل على التعجب والاستغراب مما حدث ؛ من قول أو فعل .

باخع نفسك : أى : مهلك نفسك بحُزنك عليهم .

على آثارهم : أى : من بعد تولِّيهم عن الإيمان ، وتباعدهم عنه .

بهذا الحديث : أى : بهذا القرآن .

الأسف : المبالغة فى الحزن والغضب .

صـــعـــيــداً : ترابا .

جُـــــرزا : لا نبات فيه .

التفسير :

١ - ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا .

حمد الله تعالى نفسه ؛ فهو أهل الحمد والثناء والتعظيم والإجلال ؛ فقد أنزل كتابه العزيز على رسوله محمدا ﷺ ؛ وهو أعظم نعمة أنعمها على أهل الأرض ؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وجعله كتابا مستقيما لا عوج فيه ولا زيغ ؛ بل يهدى إلى صراط مستقيم ، واضحًا بينا جليا ، فيه أخبار السابقين ، وبه أحكام وآداب ، وقصص وأمثال ، وبه سنن الكون ونظام الحياة ، وتشريع للعبادات والمعاملات ، وطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة .

٢ - قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا .

مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت ؛ بل بعضه يصدِّق بعضًا ، وبعضه يشهد لبعض ، ومن وظيفة القرآن ، إنذار الكافرين ، وتخويفهم من العذاب والنكال ، فى الدنيا والآخرة .

أما وظيفة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، الذين يعملون الأعمال الصالحة ؛ فيبشرهم بأن لهم الجزاء الحسن فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الجنة ، التى وعدها الله للمتقين .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. (الكهف : ٣٠)

٣ - مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا .

أى : خالدين فى الجنة خلودًا أبديًّا ، لا زوال له ولا انقضاء .

٤ - وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا .

أى : ويخوِّف ويحذر من بين هؤلاء الكافرين ، من قالوا هذه المقالة الشنعاء : إن الله اتخذ ولدا ، وهؤلاء ثلاث طوائف :

١ - المشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

٢ - اليهود القائلون : عزير ابن الله .

٣ - النصارى القائلون : المسيح ابن الله .

وإنما خصّ هؤلاء مع دخولهم فى الإنذار السابق ؛ لفظاعة حالهم ، وشناعة كفرهم وضلالهم .

٥ – مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ...

أى : ليس لهم على هذا القول دليل علمى أو عقلى ، بل هو قول يقولونه جزافا ؛ بدون ترو أو تبصُّر ، يقلدون فيه الآباء تقليدا أعمى ، وليس لدى الآباء برهان أو حجة ؛ فتاهوا جميعا فى بيداء الجهالة والضلالة.

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ .

أى : عظمت تلك المقالة الشنيعة ، كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها ! خرجت من أفواه أولئك المفترين، وهى فى غاية الفساد والبطلان .

إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . أى : ما يقولون إلا افتراء باطلا ، بعيدًا عن الحق والواقع .

٦ – فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا .

تأتى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ – عن إعراض قومه عن الهدى ، مع حرصه على هدايتهم ، والقرآن يوجِّهه بأنك رسول مبلغ عن الله ؛ ليس عليك هداهم إن عليك إلا البلاغ ؛ فلا تهلك نفسك حزنًا وحسرة بسبب تولِّيهم عن الهدى ، وعدم إيمانهم بالقرآن الكريم .

قال المراغى :

أى : إنك قد اشتد وجدك عليهم ، وبلغت حالاً من الأسى والحسرة ؛ صرت فيها أشبه بحال من يحدِّث نفسه : أن يبخعها أسى وحسرة عليهم ، وما كان من حقك أن تفعل ذلك ؛ إن عليك إلا البلاغ [٢٣٧] .

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم الواردة فى هذا الموضوع ؛ وجدنا الرسول الأمين حريصا غاية الحرص على هداية قومه ، وهم يتفلّتون من الهدى ، وينطلقون إلى الضلال ، فى سرعة الفراش الذى يتهافت على النار ، قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢١، ٢٢) .

وقال تعالى : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ... (فاطر : ٨) .

وقال تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... (البقرة : ٢٧٢) .

٧ – إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

أى : جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها ؛ من حيوان ونبات ومعادن ، زينة لها ولأهلها ؛ لنختبر الناس فى حياتهم الدنيا ؛ فمنهم : من يلتزم بهدى الله ؛ فيجمع المال من حقه ، وينفقه فى مصارفه العادلة ، ويطيع الله ويبتعد عن ما نهى عنه ؛ فهذا ناجح فى الاختبار ، وهو أهل لسعادة الدنيا والآخرة ، ومنهم : من تغرّه الدنيا ويختار العاجلة ويهمل الآجلة ؛ فيرسب فى الاختبار .

وقد بين القرآن الكريم : أن الله خلق الحياة والموت ؛ لابتلاء الناس واختبارهم ؛ قال تعالى : تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ. (الملك : ١ ، ٢)

وجميع ما على وجه الأرض من مال وجاه وسلطان ، وشباب وقوّة وفتوة ؛ هى مادة ذلك الاختبار ، وهذا مفهوم هذه الآية : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الدنيا حلوة خضرة ، والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون» [٢٣٨] .

وقال ﷺ : «إن أخوف ما أخاف عليكم ، ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ؛ قيل : وما زهرة الدنيا ؟ قال : بركات الأرض» .

وروى البخارى : أن عمر كان يقول : اللهم ، إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم ، إنى أسألك أن ننفقه فى حقه [٢٣٩] .

٨ – وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا .

يحشر الناس يوم القيامة على أرض مستوية ، صمّاء لا نبات فيها ولا ماء . والأرض الآن تتزين بالزراعة ، والنبات والأشجار ، والأنهار ، والنبات الأخضر ، وسائر فنون الزينة ، وعند نهاية الحياة تبدَّل الأرضُ غير الأرض والسماوات ويفنى الإنسان والحيوان والنبات وتنتهى الدنيا بكل ما فيها ، ثم يكون البعث والحشر والجزاء ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار .

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا. (طه : ١٠٥ – ١٠٧)

وقد وردت الآية السابعة والثامنة ؛ تسلية للرسول ﷺ ، وكأنه قيل : لا تحزن فهناك فى الآخرة جزاء عادل للأخيار والأشرار.

قال القرطبى :

الآية وردت ؛ لتسلية النبى ﷺ والمعنى : لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها ، فإنا إنما جعلنا ذلك امتحانا واختبارًا لأهلها ، فمنهم من يتدبر ويؤمن ، ومنهم من يكفر ، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم ، فلا يعظمنَّ عليك كفرهم ؛ فإنا سنجازيهم .

قصة أصحاب الكهف

تفيد كتب التفسير : أن ملكا جبارًا يسمَّى : دقيانوس ؛ ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى : «طرطوس»، بعد زمن عيسى عليه السلام .

وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة ، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان ، فلما رأى الفتية ذلك ؛ حزنوا حزنا شديدا وبلغ خبرهم الملك ، فبعث فى طلبهم ، وهددهم بالقتل ؛ إن لم يعبدوا الأصنام ، ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا فى وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا : رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا . (الكهف : ١٤) .

فأمهلهم الملك يومًا ؛ ليراجعوا أنفسهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، فهربوا ليلا ، ومرُّوا براعٍ معه كلب فتبعهم ، فلما كان الصباح أووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده ، فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم ، فقال الملك : سدُّوا عليهم باب الغار ؛ حتى يموتوا فيه جوعًا وعطشًا ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين – وهم لا يدرون – ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم أيقظهم الله ، وظنوا أنهم أقاموا يوما أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فأرسلوا واحدا منهم يسمَّى : (تمليخا) ؛ ليشترى لهم الطعام ونصحوه بالتخفى والحذر ، واشترى تمليخا الطعام ، ولما دفع النقود للبائع أخذ يقلب فيها ويقول : من أين حصلت على هذه النقود ؟! واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويتعجبون ، ثم قالوا : من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزًا ؟ فقال : لا والله ما وجدت كنزا إنها دراهم قومى ، قالوا : إنها من عهد بعيد ، ومن زمن الملك دقيانوس ، قال : وما فعل دقيانوس ؟ قالوا : مات من قرون عديدة ، قال : والله ما يصدّقنى أحد بما أقوله : لقد كنَّا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان ؛ فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف ، فأرسلنى أصحابى اليوم ؛ لأشترى لهم طعامًا ، فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى ، فتعجبوا من كلامه ، ورفعوا أمره إلى الملك ، وكان مؤمنا صالحًا ، فخرج الملك فى جنوده إلى الكهف ، وشاهد الفتية يصلّون ، ولما

انتهوا من صلاتهم ؛ عانقهم الملك ، وأخبرهم أنه رجل مؤمن ، وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد ، وسمع كلامهم وقصتهم ، وعرف أن الله بعثهم ؛ ليكون أمرهم آية للناس [٢٤٠].

ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم ، فقال الناس : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا . (الكهف : ٢١) .

★ ★ ★

إجمال القرآن لقصة أهل الكهف

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

المفردات :

أم : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر .

الكهف : الغار في الجبل .

الرقيم : لوح حجري رقمت فيه أسماؤهم .

إذ أوى الفتية : أوى إلى المكان : اتخذه مأوى ومكانا له ، والفتية : واحدهم : فتى وهو الشاب الحدث ، وقد كانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم ، لهم أطواق وشارات من الذهب .

رشدا : هداية إلى الطريق الموصِّل للمطلوب .

ضربنا على آذانهم : ألقينا عليها حجابا يمنع السماع ، والمراد : أنمناهم نومة لا تنبههم الأصوات الموقظة .

عددا : أي : ذوات عدد والمراد : التكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى العدّ غالبا .

بعثناهم : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم .

الحزبين : أي : الفريقين أدقّ إحصاء للمدة التي ناموها في الكهف .

أحصى : أضبط لأوقات لبثهم .

أمدا : مدة لها حد وغاية .

التفسير :

٩ - أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا .

أى : لا تظنن يا محمد أن قصة أصحاب الكهف والرقيم ، هى أعجب آياتنا وأغربها فى الدلالة على القدرة؛ فإن فى خلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وغير ذلك من الآيات المبثوثة فى صفحات الكون ما يفوق قصة أصحاب الكهف .

قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان فى آياتنا ما هو أعجب [٢٤١] .

١٠ - إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .

أى : اذكر حين لجأ الشبان إلى الغار فى الجبل ؛ فرارا بدينهم وعقيدتهم ، وقالوا : ربنا ، أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة : مغفرة ورزقا ، وأصلح لنا أمرنا كله واجعلنا من الراشدين .

كما جاء فى الحديث «وما قضيت لنا من قضاء ؛ فاجعل عاقبته رشدا» [٢٤٢] .

وفى المسند : عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو : «اللهم ، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة» [٢٤٣] .

١١ - فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا .

أى : ألقينا على آذانهم حجابا يمنعهم السماع ، وأنمناهم نومًا لا ينبهم فيه مختلف الأصوات فى الكهف ، سنين كثيرة معدودة .

١٢ - ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا .

أى : ثم أيقظناهم من رقدتهم ؛ لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم ، أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وتفيد الآية ، أنه كان هناك فريقان يتجادلان فى شأنهم ، ثم لبثوا فى الكهف ، فبعثوا ؛ ليتبين أىّ الفريقين أدق إحصاءً ، وليعرفوا ما صنع الله بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ؛ ويستبصروا فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفًا لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفارهم .

ذلك هو ملخص القصة لفتية آمنوا بالله ، وفرُّوا بإيمانهم إلى كهف مظلم ، فأكرمهم الله فى جواره عددًا من السنين ، ثم بعثهم من رقدتهم ؛ ليذكر الناس بعجائب القدرة ، وليعلموا أن قدرة الله لا حدود لها ، وأن قدرته فى خلق هذا الكون ، وحفظ نظامه وتوازنه ، أكمل وأجمل من الذى فعله مع أصحاب الكهف .

★ ★ ★

تفصيل قصة أصحاب الكهف

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

النـبـأ : الخبر العظيم .

بالحق : بالصدق .

ربطنا : شددنا وقوَّينا ، وربط الله على قلبه ، أى : قوَّى عزيمته .

قاموا : وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس .

إلهـا : أى : معبودًا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا .

اتخذوا من دونه آلهة : أى : نحتوا أصناما وعبدوها .

السلطان البين : الحجة الظاهرة .

اعتزلتموهم : اجتنبتموهم ، والاعتزال والتعزّل : تجنب الشىء بالبدن أو بالقلب .

فأووا إلى الكهف : أى : التجئوا إليه .

ينشر لكم : يبسط لكم .

مرفقا : ما يرتفق وينتفع به .

تزاور : تتنحى .

تقرضهم : تعدل عنهم وتتركهم ولا تقربهم .

فجوة : متسع من الكهف وفى وسطه؛ بحيث لا تصيبهم الشمس لا فى ابتداء النهار، ولا فى آخره .

أيقاظا : متيقظين ؛ لتفتح عيونهم وتقلبهم .

رقود : نيام واحدهم : راقد .

باسط ذراعيه : مادّهما .

الوصيد : فناء الكهف .

الرعب : الخوف يملأ الصدر .

التفسير :

١٣- نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ...

أى : نحن وحدنا يا محمد نقصّ عليك خبرهم العجيب ؛ بالصدق دون زيادة ولا نقصان .

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى .

أى : إنهم شباب أخلصوا العبادة لخالقهم ؛ وأسلموا وجوههم لبارئهم ، وآمنوا بالله تعالى إيمانا عميقًا ؛ فزادهم الله إيمانا على إيمانهم ، وهداية على هدايتهم .

ونحو الآية قوله تعالى : **وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَـٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ** . (محمد : ١٧) .

قال ابن كثير :

ذكر الله تعالى : أنهم كانوا فتية ، أى : شبابًا وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابًا ، وأمَّا المشايخ من قريش ، فعامَّتهم بقوا على دينهم ، ولم يدخل فى الإسلام منهم إلا القليل .

١٤ - وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا .

أى : ألهمناهم قوة العزيمة وصدق الإيمان ، وثبات اليقين ، حين وقفوا أمام الملك الظالم دقيانوس فى ثبات وصدق ، ولم يستجيبوا لدعوته لهم إلى عبادة الأوثان ، بل أعلنوا إيمانهم بالله وحده لا شريك له، وقالوا : رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ هو وحده خالق السماوات والأرض والكون كله ؛ فينبغى أن نتوجه إليه وحده بالعبادة .

لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا . أى : لن نعبد من دون رب السماوات والأرض إلها ، لا على طريق الاستقلال، ولا على سبيل الاشتراك ؛ إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا .

أى : إذا دعونا غير الله ، وعبدنا الأوثان أو الأصنام أو غيرها ؛ لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

قال الآلوسى :

إنهم أشاروا بالجملة الأولى وهى : رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إلى توحيد الربوبية .

وأشاروا بالجملة الثانية : لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا إلى توحيد الألوهية . اهـ .

فهم يعبدون الله وحده سبحانه رب السماوات والأرض ولا يعبدون مع الله آلهة أخرى من الأوثان .

وعبدة الأصنام كانوا يؤمنون بوجود الله ، وكانوا مع ذلك يعبدون آلهة أخرى يتقربون بعبادتها إلى الله ، وهو انحراف فى العقيدة .

وقد حكى القرآن عنهم قوله : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... (لقمان : ٢٥ ، الزمر : ٣٨) .

وقوله سبحانه حكاية عنهم : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... (الزمر : ٣) .

وكان أهل الجاهلية يقولون فى تلبيتهم للحج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك.

١٥ - هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ...

إن هؤلاء الفتية لم يكتفوا بإعلان إيمانهم بالله ، وتنزيهه عن كل شريك ؛ وتأكيد ذلك بأن عبادة غير الله شطط وغلو.

بل امتد إيمانهم وصدق عزيمتهم إلى انتقاد قومهم ، الذين بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم أشركوا مع الله غيره ؛ فعبدوا أصناما من دون الله ؛ هلاّ أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم ؛ بأن هذه الأصنام تصلح آلهة ، لا شك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال الزمخشرى :

وقوله : لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ تبكيت ؛ لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لابدّ فى الدِّين من حجة ؛ حتى يصح ويثبت .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا . أى : لا أظلم ممن افترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا .

ونلمح من الآيات الموقف الصادق لهؤلاء الفتية ؛ فى ثباتهم على الحق ، وانتقاد الباطل .

لقد تبين لهم الهدى فى وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط ؛ إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة ، والأرجح أن أمرهم قد كُشف فلا سبيل لهم إلا أن يفرُّوا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة .

١٦ - وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا .

أى : وإذ فارقتموهم وخالفتموهم فى عباتهم غير الله ؛ ففارقوهم بأبدانكم ، واتركوا ما أنتم فيه من مال ومتاع ورياش ، وانتقلوا إلى الكهف حيث تتمكنون من عبادة الله وحده .

لقد آثروا الهدى والإيمان ، وتركوا كلَّ مظاهر الترف ، والمتعة الدنيوية ، ورحلوا إلى كهف مظلم ، وهناك أخلصوا العبادة لله وحده ، وتوكلوا حق التوكل على الله ؛ فآواهم الله وأسبل عليهم لطفه ورحمته ، وأمدهم بما يرتفقون به وينتفعون به وصدق الله العظيم إذ يقول :

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٢، ٣) .

أخرج الطبراني وابن المنذر : عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبيًّا إلا وهو شاب ، وقرأ : قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ . (الأنبياء : ٦٠) .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ... (الكهف : ٦٠) .

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ... (الكهف : ١٣) .

١٧ – وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ...

تعرض الآية مظهرًا من مظاهر فضل الله على هؤلاء الفتية ؛ فالشمس عند طلوعها تنحرف عنهم ؛ حتى لا تحرقهم بحرها ، وعند غروب الشمس أيضا ؛ تتركهم منحرفة عنهم إلى جهة الشمال .

والغرض : أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ، ولا عند غروبها ؛ كرامة من الله ؛ لئلا تؤذيهم بحرّها.

وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ . أى : هم فى متسع من الكهف ، وفى وسطه ، بحيث لا تصيبهم الشمس لا فى ابتداء النهار ولا فى آخره ، ولكن يُسمح بدخول الهواء والنسيم لهم ، ويقلبهم الله؛ حتى لا تنال الأرض من جسومهم.

روى الطبرى عن ابن عباس: لو أن الشمس تطلع عليهم، لأحرقتهم، ولو أنهم لا يقلبون؛ لأكلتهم الأرض.

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية اتجاهان :

أولهما : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ؛ فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف، وإذا غربت كانت على شماله؛ فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم المرافق يصل .

ثانيهما : أن الشمس إذا طلعت ، منع الله ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان ذلك كرامة عظيمة ؛ خص الله بها أصحاب الكهف .

فأصحاب الرأى الأول : يرجعون عدم وصول الشمس إليهم ؛ لأسباب طبيعية ؛ تجعل الشمس لا تصل إليهم.

وأصحاب الرأى الثانى : يرجعون الأمر إلى فضل الله وإكرامه لهؤلاء الفتية ؛ فالله تعالى بقدرته منع ضوء الشمس من الوصول إليهم ؛ خرقًا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...

أى : هذا التوفيق لهؤلاء الفتية فى اللجوء إلى الكهف ، وإكرام الله لهم بحجب الشمس عنهم عند طلوعها وعند غروبها ؛ كل ذلك من آياته الكثيرة المبثوثة فى الكون ، والدالة على كمال قدرة الله تعالى ؛ وعلى أن الله تعالى يكرم أهله .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ...

أى : من يوفقه الله للهدى ؛ فهو المهتدى حقا ، مثل فتية أهل الكهف ؛ هداهم الله إلى الإيمان ، وألهمهم الصواب والعزوف عن عبادة الأوثان ، وهداهم إلى هذا الغار ، وأكرمهم بفضله .

وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا . أى : من يُضله الله عن الطريق المستقيم ، لسوء استعداده ، فلن تجد له خليلا ، ولا حليفا يرشده ؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله تعالى .

قال تعالى : مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ . (الأعراف : ١٧٨) .

وقال سبحانه وتعالى : مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ... (الإسراء : ٩٧) .

١٨ - وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ...

أى : وتظنهم أيها المخاطب ، لو قدّر لك أن تراهم ؛ أيقاظًا منتبهين ، والحال أنهم نيام .

وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ .

أى : ويقلبهم الله من جانب إلى جانب ؛ لئلا تأكل الأرض أجسامهم ، وعدد مرات التقليب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وما أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح .

وجاء فى تفسير ابن كثير : قال بعض السلف : يقلبون فى العام مرتين . اهـ .

وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا .

أى : وكلبهم ملق يديه على الأرض ، مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف قريبا من باب الكهف؛ كأنه يحرسهم وألقى الله عليهم المهابة .

ولو شاهدتهم وهم على تلك الحالة ؛ لفررت منهم هاربا ؛ رعبا منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة؛ فرؤيتهم تثير الرعب ، إذ يراهم الناظر نياما كالأيقاظ ؛ عيونهم مفتوحة ، ينقلبون ولا يستيقظون ، وتلك عناية إلهية ؛ لئلا يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لامس ؛ حتى يبلغ الكتاب أجله ؛ لما فى ذلك من الحكمة البالغة والرحمة الواسعة [٢٤٤] .

مكان الكهف

للمفسرين فى تعيين مكان الكهف أقوال ؛ فقيل : هو قريب من إيلياء (بيت المقدس) ببلاد الشام ، وقال ابن إسحاق : عند نينوى ببلاد الموصل ، وقيل : ببلاد الروم ولم يقم إلى الآن دليل على شىء من ذلك ، ولو كان لنا فى معرفة ذلك فائدة دينية ؛ لأرشدنا الله إلى معرفته ؛ كما قال ﷺ : «ما تركت شيئا يقربكم من الجنة ، ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم» [٢٤٥] .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

بعثناهم : أيقظناهم صحيحة أبدانهم .

لبثتم : أقمتم ورقدتم .

الورق: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة .

أزكى: أجود وأطيب .

وليتلطف: يتكلف اللطف فى المعاملة ؛ كى لا تقع خصومة تجرّ إلى معرفته .

ولا يشعرن: ولا يُعلمنّ .

إن يظهروا عليكم: إن علموا بمكانكم .

أعثرنا عليهم: أطلعنا عليهم الناس .

الساعة: يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعا للحساب .

التنازع: التخاصم .

الذين غلبوا على أمرهم: رؤساء البلد ؛ لأنهم هم الذين لهم الرأى فى مثل هذا .

المسجد: معبد المؤمنين من تلك الأمة ، وكانوا نصارى على المشهور .

الرجم: القول بالظن .

الغيب: ما غاب عن الإنسان ، والمراد هنا : القول بالظن والتخمين .

المراء: المحاجة فيما فيه مرية وتردد .

مراءً ظاهرًا: سهلا هينا .

ولا تستفت فيهم: لا تطلب الفتيا منهم ، ففيما قصه الله عليك بشأنهم ما يكفيك .

التفسير :

١٩- وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ...

أى : كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف ، وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام ؛ بعثناهم صحيحة أبدانهم ، وأشعارهم وأبشارهم ؛ لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئا ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين .

ولهذا تساءلوا بينهم : كَمْ لَبِثْتُمْ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قدّروا مدة مكثهم فى الغار نيامًا بيوم ، أو بجزء من اليوم ؛ فقد كان دخولهم الغار فى أول النهار ، واستيقاظهم كان فى آخر النهار ؛ فظنوا أن مكثهم فى الغار كان مدة محدودة بين أول النهار وآخره .

قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .

أى : قالت فئة أخرى : الموضوع فيه تردد وحيرة – بسبب إحساسهم بكثرة النوم – فاتركوا حسم هذا الموضوع ، والله أعلم بالمدة التى مكثناها نائمين فى الغار .

فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ .

أحسُّوا بشدة الجوع ؛ فقالوا : أرسلوا واحدًا منا ، ومعه هذه الفضة التى أحضرناها معنا إلى مدينة طرسوس التى خرجنا منها .

فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ .

أى : فليبصر أى الأطعمة أجود وأحسن وأحلّ فليأتكم بمقدار منه .

وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا .

أى : وليترفق فى دخوله المدينة ، وليذهب متخفيا فى رفق وسهولة ، ولا يجادل أحدًا ولا يختلف معه؛ حتى لا يظهر أمرنا وحتى لا يعلم الناس بمكاننا .

٢٠ – إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا .

تشير الآية إلى حديث الفتية مع بعض ، وهم فى حالة من الخوف والحذر ؛ خشية أن يعلم دقيانوس وأعوانه بمكانهم .

وإذا علم هؤلاء الكفار بمكانهم ؛ فالمتبع واحد من أمرين :

١ – القتل رميا بالحجارة .

٢ – أن يرجع الفتية إلى دين قومهم الوثنى ، ويعودوا إلى عبادة الأصنام .

وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا .

أى : إذا عدتم إلى دينهم ، وتركتم الإيمان بالله ؛ فلن تفوزوا بخير أبدا .

ويظهر من هذا التناجى حرص الفتية على إيمانهم ، والتواصى بالحيطة والحذر ، والثبات على الإيمان ، وعدم العودة إلى الكفر .

وقريب من هذا المعنى ، ما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى : أن رسول الله ﷺ قال :

«ثلاث من كنّ فيه ؛ وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» [٢٤٦] .

٢١ – وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ...

جاء فى تفسير ابن كثير :

أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة .

فجعل الله تعالى هذه القصة ، لهؤلاء الفتية . وأطلع الناس على أمرها ؛ ليشاهدوا بأعينهم ، أن القادر على بعث هؤلاء الفتية بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، بعد أن حفظت أجسامهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها .

فالله القادر على إحياء أصحاب الكهف ؛ قادر على بعث الموتى ، وإحياء من فى القبور للحشر والحساب والجزاء .

إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا .

لقد كانوا يتنازعون فى أمر القيامة ، فمن مثبت لها ومن منكر ؛ فجعل الله إطلاعهم على قصة أهل الكهف حجة للمؤمنين ، ودليلاً على المنكرين .

فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .

أى : قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بنيانا ؛ ليكون علما عليهم .

رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ . الله أعلم بحالهم وشأنهم ، وهذه الجملة يحتمل أن تكون من كلام الفريق الأول ، الذى رغب فى بناية بنيان على باب الكهف . ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى ؛ فهو سبحانه أعلم من الجميع بحال أصحاب الكهف .

قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا .

أى : قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة ، أصحاب الكلمة النافذة : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا. أى: معبدًا يُصلِّى فيه الناس ، ويتعبدون ؛ تبركا بهؤلاء الفتية .

التحذير من اتخاذ القبر مسجدًا

حارب الإسلام الوثنية والسجود لغير الله ، وخلص عقيدة المسلم من السجود لغير الله ، أو الاعتقاد بأن غير الله ينفع أو يضرّ . وفى الحديث الشريف : «إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ...» [٢٤٧] .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد ، منهى عنه أشد النهى ؛ حتى ذكر ابن حجر فى كتابه (الزواجر) : أنه من الكبائر .

قال الآلوسى فى تفسيره :

واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء ، واتخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك . وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي ، فى حواشيه على البيضاوى ، وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد .

فقد روى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسُّرج» [٢٤٨] .

وزاد مسلم «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ؛ فإنى أنهاكم عن ذلك» [٢٤٩].

وروى الشيخان عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ...» [٢٥٠] .

وروى أحمد والشيخان والنسائى : أن رسول الله ﷺ قال : «إن أولئك ، إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات ؛ بنوا على قبره مسجدًا أو صوَّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة» [٢٥١] .

وروى أحمد والطبرانى «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد» [٢٥٢] .

وقد علق الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى على هذه الآثار بقوله :

إلى غير ذلك من الآثار الصحيحة ؛ فليعتبر المسلمون بهذه الأخبار ، التى لا مرية فى صحتها ، وليقلعوا عما هم عليه؛ من اتخاذ المساجد فى أضرحة الأولياء والصالحين، والتبرك بها، والتمسح بأعتابها، وليعلموا أنها وثنية مقنعة .

وعود إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة ... إلخ [٢٥٣] .

ولعل الشيخ أحمد المراغى قد بالغ فى دعوته ، وتحمّس أكثر مما ينبغى ، وأرى أننا بحاجة إلى دعوة المسلمين بالحسنى ، إلى هدى دينهم وسنة نبيّهم .

وهذا الأمر يسير فيه الناس على طريقين مختلفين :

فريق يبيح التوسل والوسيلة وزيارة مقابر الصالحين ، والدعاء عندها ، ويستشهد بآيات وأحاديث وآثار تؤيده .

وفريق يُحرِّم زيارة المساجد ، التى فيها أضرحة للأولياء والصالحين ، ويحرم التبرك بها والتمسح ، ويعتبره وثنية مقنعة كما شاهدنا .

وجهة نظر :

أرى أن هناك أولويات ؛ ينبغى أن يتلاقى عليها المسلمون ، مثل : الوحدة ، والجماعة ، والتعاطف ، والتعاون ، ثم يبحث الموضوع فى إنصاف .

بمعنى : أن نعلِّم المسلمين آداب الزيارة للمساجد التى فيها أضرحة الصالحين ، فيزار المسجد وتُصلَّى تحية المسجد ، ثم يزار القبر فى أدب ، وإيمان بالله ، واعتقاد أن صاحب القبر بشر ؛ انتقل إلى جوار الله ، وأن الدعاء يكون لله ، وأن الله هو النافع الضار ، وأن أحدًا لا ينفع أو يضرّ إلا بإذن الله ؛ فنحن جميعًا ندعو الله خصوصًا فى هذه الأماكن الطاهرة .

ومن شاء ألا يزور هذه المساجد ، بُعدا عن شبهة الوثنية ؛ فله ذلك ونحترم وجهة نظره .

ومن شاء أن يزور هذه المساجد فله ذلك ؛ مع تأكيد طلبنا للزائرين أن روح الإسلام تأمر بإخلاص العبادة لله ، والتوجّه الكامل إليه ، واليقين الجازم بأن الله وحده هو المقصود فى العبادة والدعاء .

ونرى أخيرًا أن الله تعالى يقبل من كل طرف من الطرفين حسن نيته وصدق توجهه .

وبهذا نقرب بين المسلمين ، ونحدّ من غلواء المتطرفين ، وسنجد أن أسباب التوافق بين المسلمين أكثر بكثير من أسباب الخلاف والنزاع .

ومثل هذا القول ينطبق على كثير من الأمور التى تثار بين الشيعة والسنة ، والأباضية ، والوهابية ، والسنيّة ، والطرق الصوفية ، وغيرها .

حيث يتملك كل فريق بطرف من الموضوع ، ويبالغ فى دعواه : أنه وحده صاحب الحق المطلق ؛ وبذلك يتم التخاصم والتنازع . ولو تأملنا ؛ لوجدنا رحمة الله تتسع للجميع ، وأن أولويات ديننا تدعونا إلى

لزوم الوحدة ، والتماسك ؛ عملا بقول علمائنا : نتعاون جميعا على ما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه .

وفى تاريخ رسول الله ﷺ ، وحياة الصحابة ، نماذج لتعدد وجهات النظر ، والتيسير ، وعدم إخراج المسلم من الملّة .

فالنبى ﷺ عندما قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يصلين العصر إلاَّ فى بنى قريظة» [٢٥٤]؛ من المسلمين : من تمسك بلفظ الحديث ، ومنهم : قال : المراد : أسرعوا إلى بنى قريظة ، وصلَّى فى الطريق، وأقّر النبى الفريقين .

ومثل ذلك من صلى بالتيمم ثم وجد الماء ، منهم : من أعاد الوضوء والصلاة ، ومنهم : من قال : صليت ولا أعيد؛ وقال الرسول ﷺ للثانى : «صحت صلاتك ولا إعادة عليك» وقال للأوّل : «لك الأجرُ مرتين»، وفى الحديث الصحيح : «يسروا ولا تُعسِّروا وبشروا ولا تنفروا» [٢٥٥] .

وقد حث القرآن الكريم على استخدام العقل والفكر والرأى ، ومدح الذين يستخدمون عقولهم وفكرهم، وحذر القرآن من التقليد الأعمى بدون تبصر أو روية ، والأدلة الشرعية عندنا تعتمد على القرآن وهو كلىُّ الشريعة وأصل أصولها ، وعلى السنة المطهرة وهى المصدر الثانى للتشريع ، وعلى الاجتهاد ويشمل القياس والاستحسان وعمل الصحابة والعرف . والمقصود من الاجتهاد : بذل الفقيه الجهد فى استثمار حكم شرعى لواقعة جديدة لم يرد بها نص ؛، والمجتهد يبذل جهده فى تلمس الحكم الشرعى المناسب للواقعة وإذا أصاب؛ فله أجران : أجر الاجتهاد ، وأجر الصواب ، وإذا أخطأ ؛ فله أَجرٌ واحد ، هو أجر الاجتهاد .

وقد تعدد المجتهدون من أئمة الفقه الإسلامى ، وكان بينهم التقدير والاحترام ، ومن كلامهم اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية .

والقرآن حافل بعرض وجهة النظر الأخرى ومناقشتها بكل تقدير وقد علَّمنا أدب النقاش والجدال .

قال تعالى : وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ... (العنكبوت : ٤٦) .

وقال سبحانه : وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ... (البقرة : ٨٣) .

أتمنى أن يسود بين الأمة الإسلامية روح التفاهم والتقدير ، وتقديم الأولويات ، والتماس العذر للآخرين ، وتقديم الأهم على المهم .

إن أعداء الإسلام يتربصون بنا الدوائر ، ويحرِّكون هذه العصبيات ؛ رغبة فى تفتيت الجهود ، وتحريك الضغائن ، والقرآن طلب منا أن نفوِّت عليهم أغراضهم ، وأن نعتصم بحبل الله وكتابه . نجد ذلك فى الآيات ١٠٠ – ١٠٥ من سورة آل عمران ، وفى كثير من الآيات التى تحثنا على عدم الاختلاف وعلى عدم التنازع.

قال تعالى : وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ... (الأنفال : ٤٦) .

وروى البخارى : فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحاسدوا ، ولا تحاقدوا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ؛ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره» [٢٥٦] .

إن المسلمين فى أمسِّ الحاجة إلى جمع الكلمة ، ووحدة الصفوف ، والتلاقى على الثوابت وهى كثيرة، واحترام وجهة النظر الأخرى ، واستخدام الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن . والله ولى التوفيق .

٢٢– سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ...

أى : سيختلف الناس فى عدَّة أصحاب الكهف – أيها الرسول الكريم – فمن الناس من سيقول : إن عدتهم ثلاثة ، رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : إنهم خمسة ، سادسهم كلبهم .

رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ . أى : قذفًا بالظن ، من غير يقين ولا علم ؛ كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه .

وجاء فى التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى :

أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذى لا اطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود .

وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ .

أى : ويقول البعض : إنهم سبعة ، والثامن هو الكلب .

قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ .

أى : قل أيها الرسول لمن خاضوا فى عدة أصحاب الكهف : إن الله عز وجل أقدر على معرفة عددهم ، وأعلم ؛ فهو علام الغيوب ؛ فمن الأولى تفويض الأمر إليه فى مثل هذه الأمور التى لا يقين عندنا فيها .

مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ . أى : ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس .

روى قتادة : عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل ، وكانوا سبعة سوى الكلب .

ونلاحظ أنه لم يرد فى الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ شىء فى ذلك .

لكن المفسرين لاحظوا ، أن الله تعالى عقَّب على الرأى الأول والثانى ، بقوله : رجما بالغيب ، وسكت عن التعقيب على الرأى الثالث ؛ مما يدل على أن أصحابه قالوا ذلك عن تثبت وتعقل ويقين .

فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَـٰهِرًا .

فلا تجادل فى شأن أصحاب الكهف أحدًا من الخائضين فيه ؛ إلا جدالاً سهلاً لينا بالتى هى أحسن.

وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا .

أى : لا تستفت النصارى أو اليهود أو غيرهم فى شأنهم ؛ فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم من غير استناد إلى دليل قاطع ، ولا نص صريح .

وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ؛ فهو الحاكم المقدّم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السابقة.

والمقصود من القصة : هو العظة والاعتبار ، وبيان : قدرة الله ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة ، وهذا لا يتوقف على عدد معين ، والآية حافلة بمكارم الأخلاق ، وأدب المناقشة .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

تمهيد :

روى : أن الآيتين نزلتا حينما سألت قريش رسول الله ﷺ : أن يجيبهم عن ثلاثة أسئلة :

١ – أصحاب الكهف . ٢ – ذو القرنين . ٣ – الروح .

فقال : غدًا أجيبكم ، ونسى أن يقول : إن شاء الله ؛ فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يومًا فشق عليه ذلك، وقالت قريش : إن إله محمد ودّعه وقلاه ، وقد ردَّ عنه الله تعالى فى سورة الضحى .

التفسير :

٢٣، ٢٤– وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...

أى : لا تقولن أيها الرسول لشىء : إنى سأفعل ذلك غدًا ؛ إلاَّ أن تقول : إن شاء الله ؛ ذلك أنه ربما مات المرء قبل مجىء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله .

جاء فى تفسير الظلال ما يأتى :

إن كل حركة وكل نفس من أنفس الحى ، مرهون بإرادة الله ، وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ، وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل ، وعقله مهما علم قاصر كليل ، فلا يقل إنسان : إنى فاعل ذلك غدا ، وغدًا فى غيب الله .

وليس معنى هذا : أن يقعد الإنسان ، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا يدبّر له ، وأن يعيش يوما بيوم ، ولحظة بلحظة ، وألا يصل ماضى حياته بحاضره وقابله .. كلاَّ ، ولكن معناه : أن يحسب حساب الغيب ، وحساب المشيئة التى تدبِّره ، وأن يعزم ما يعزم ، ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ، ويستشعر أنَّ يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره ، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم ؛ فبها ونعمت ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبَّر ؛ لم يحزن ولم ييأس ؛ لأن الأمر لله أولا وأخيرا [٢٥٧] .

وبهذه المناسبة نتمنى أن يلتفت كل من يقدِّر تقديرًا ، أو يذكر محصولاً للقمح أو الذرة أو القطن أو البترول فى قادم الأيام ؛ أن يذكر المشيئة ؛ فيقول : سيكون عائد البترول كذا ألف برميل فى العام إن شاء الله، ومحصول القمح أو الذرة أو القطن كذا إن شاء الله ، وعدد الخريجين من المعاهد العليا و الكليات النظرية أو العملية كذا إن شاء الله .

فهذا التعليم والتوجيه للأفراد والجماعات والأمم ، وهو فى صلب العقيدة ، ويترتب عليه اليقين الجازم ؛ بأن يد القدرة الإلهية فوق قدرتنا ، ولها الكلمة النافذة فى حياة الأفراد والجماعات والأمم .

وأن الله تعالى يغيِّر ولا يتغيَّر ، وهو سبحانه يضع ويرفع ويعز ويذل ، قال تعالى : **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** . (آل عمران : ٢٦) .

ويقول سبحانه : **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ** . (الرحمن : ٢٩) .

وفى التفسير : شئون يبديها ولا يبتديها ؛ يشفى مريضا ، ويمرض سليما ، ويعافى مبتلىً ، ويبتلى معافى ، ويعزّ ذليلا ، ويذل عزيزا ، ويغير ولا يتغير .

ونحن ينبغى عندما نقول: سنعمل كذا ، أو سنترك كذا أو سنفعل كذا ؛ نربطها بالمشيئة فنقول: (إن شاء الله).

والمعنى : إذا أراد الله أن يتم ذلك فسيتم بمشيئته هو وإرادته ؛ فأمره غالب ومشيئته نافذة ، ومعونته للعباد نعمة وبركة ، وهو القائل : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٨٢ ، ٨٣) .

وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا .

أى : إذا نسيت أن تقول : إن شاء الله ، ثم تذكرت ؛ فقلها لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله، وقال عكرمة: وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، إذا غضبت .

وذهب الجمهور من المفسرين إلى أن هذه الفقرة من الآية مرتبطة بما قبلها .

والمعنى : إنك إن قلت : سأفعل غدًا كذا ، ونسيت أن تقول: إن شاء الله ، ثم تذكرت بعد ذلك ؛ فقل: إن شاء الله.

أى : اذكر ربك معلقا على مشيئته ما تقول إنك ستفعله غدًا ؛ إذا ذكرت بعد النسيان .

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الفقرة مستقلة عما قبلها ، ولا تعلق لها بما قبلها ، ويكون المعنى: إذا نسيت ذكر ربك لأى سبب من الأسباب ، ثم عاد إليك ذهنك وصفاؤك ؛ فاشتغل بالتسبيح والاستغفار؛ لأن ذكر الله شفاء ودواء .

قال تعالى : وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب : ٣٥) .

وقال سبحانه : فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ . (البقرة : ١٥٢) .

وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا .

أى : لعل الله أن يوفقنى ويرشدنى إلى ما هو أصلح من أمر دينى ودنياى .

ثم بين سبحانه ما أجمل من قوله : فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ؛ فقال :

★ ★ ★

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير :

٢٥- وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا .

أي : أن أصحاب الكهف مكثوا نائمين في الكهف مدة طويلة هي ٣٠٩ سنة بالتاريخ الهجري وهي تساوي ثلاثمائة سنة بالتاريخ الميلادي أو الشمسي .

وقد كانت عناية الله معهم ، حيث أرسل عليهم النوم وأرسل لهم الضوء والهواء ، وحجب عنهم حرارة الشمس عند شروقها وغروبها ، وألقى عليهم المهابة ، وحفظ الكلب معهم بفناء الكهف ، ومنع الناس من أن تعبث بهم .

وهذا البيان من الرسول النبي الأميّ ﷺ معجزة أيضًا ؛ فهو لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يطلع على كتب السابقين ؛ فمن أين له معرفة أن كل مائة سنة شمسية ؛ تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوما على السنة القمرية ؛ لا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير ، بما أوحاه إليه ، وهداه لأقرب من هذا رشدا .

وقد حفل القرآن ببيان نظام الكون وتكامله ، وأثر الشمس في تصاعد البخار ، وسير السحاب ، ونزول المطر ، وإنبات النبات ، وغذاء الإنسان والحيوان . والله سبحانه هو الذي سخر الشمس والقمر والليل والنهار، وأرسل الرسل لهداية الإنسان ، وأتم الله علينا النعم المادية والمعنوية . وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ... (إبراهيم : ٣٤)

٢٦- قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...

إن الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ؛ وكانت هناك أقوال لليهود والنصارى وغيرهم حول المدة التي مكثها هؤلاء الفتية في الكهف ، وفي عددهم ، فكأن الحق سبحانه يقول :

ما أخبرتك يا محمد ، هو فصل الخطاب في موضوعهم ، وقد أعلمتك به ، وما أخبرتك به هو الحق الصحيح ، الذي لا يحوم حوله شك ؛ فلا تلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين في أمر هؤلاء الفتية ؛ فإن الله هو الأعلم بحقيقة ذلك .

لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.

أى : هو سبحانه المختص بعلم الغيب، وهو علاّم الغيوب؛ فلا يخفى عليه علم شىء فى الأرض والسماء، وقد أخبرك السميع العليم ، بالخبر القاطع فى شأنهم .

أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ أى : إنه لبصير بهم ، سميع لهم .

قال ابن جرير : وذلك فى معنى المبالغة فى المدح ؛ كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه ! وتأويل الكلام : ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، ولا يخفى عليه من ذلك شىء !

وقال قتادة : أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ؛ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع .

مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا .

أى : ليس لأهل السماوات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما نصير ينصرهم أو ولى يلى أمرهم ، غير الله تعالى هو الذى له الخلق والأمر ، لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ولا مُشير ، تعالى وتقدّس .

العبر والعظات

من العبر والعظات التى تؤخذ من قصة أصحاب الكهف ما يأتى :

١ – إثبات صدق الرسول ﷺ فيما يبلغ عن ربّه عز وجل ؛ فقد بلّغ عن الله عز وجل قصتهم وعددهم وصدق مكثهم ، وصدق الله تعالى إذ يقول : نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ... (الكهف : ١٣) .

٢ – ساق القرآن الكريم القصة مجملة ، ثم ساقها مفصلة ، وفى هذا أدب للدعاة والهداة والمرشدين ، فى الاستفادة بأسلوب الإجمال ثم التفصيل .

٣ – بيان : أن الإيمان إذا استقر فى القلوب هان كل شىء فى سبيله ؛ فهؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، ولجئوا إلى ربهم راغبين فى مثوبته وهدايته ؛ فأكرمهم الله ورعاهم .

٤ – أن يد الله مع المتقين ، ومعونته مع الصادقين ، فقد برأ هؤلاء الفتية من عبادة الأوثان ، وآثروا الكهف على كل متاع الحياة الدنيا ؛ فشملهم الله برعايته ، وأرسل عليهم النوم مدة طويلة ، وحفظ أجسامهم من البلى ، وأرسل عليهم المهابة فلم يعتد عليهم معتد ، وحفظهم من حرارة الشمس ، وبعثهم فى عهد ملك صالح ، احتفى بهم وأكرمهم .

٥ – التواصى بالحق والصبر ، يؤدى إلى النجاح والفلاح ؛ فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، ووقفوا فى وجه الباطل ؛ فاستحقوا معونة الله ، وبركته ، وتوفيقه .

٦ – أن مباشرة الأسباب المشروعة لا تنافى التوكل على الله ؛ فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم ، أخذوا بعض النقود ، وبعد بعثهم من رقادهم ؛ أرسلوا واحدا منهم ؛ ليشترى لهم طعاما ؛ وأمروه بأخذ الحيطة والحذر .

هكذا العقلاء لا يمنعهم توكلهم على الله تعالى ؛ من أخذ الحيطة والحذر فى كل شئونهم التى تستدعى ذلك.

٧ – إقامة أوضح الأدلة على أن البعث حق ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، الذى بعث الراقدين من نومهم بعد مئات السنين ، قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

★ ★ ★

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

لا مبدل : لا مغيِّر .

لكلماته : لأحكامه ، فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه .

ملتحدا : أى : ملجأ تعدل إليه إذا ألمَّت بك ملمَّة .

واصبر نفسك: احبسها وثبِّتها .

بالغداة والعشى: أى : فى طَرَفَى النهار ، وخصهما بالذكر ؛ لأنهما محل الغفلة ، وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم .

وجهه: رضاه وطاعته ؛ لأن من رضى عن شخص يقبل عليه ، ومن غضب عليه يعرض عنه .

ولا تعد عيناك عنهم: لا تصرف عيناك عنهم إلى أبناء الدنيا ، والمراد : لا تحتقرهم ، وتصرف النظر إلى غيرهم لرثاثة منظرهم .

تريد زينة الحياة الدنيا: تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء ، وأصحاب الثراء .

أغفلنا قلبه: جعلناه غافلا .

فرطا: تفريطا وتضييعًا لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين .

أعتدنا: أعددنا وهيأنا .

السرادق: لفظ فارسى معرَّب يراد به : الفسطاط (الخيمة) شبه به ما يحيط بهم من لهب النار ، المنتشر منها فى سائر الجهات .

المهل: دردى الزيت ، أو ما أذيب من المعادن كالرصاص والنحاس .

يشوى الوجوه: ينضجها إذا قُدِّم ؛ ليُشرب لشدَّة حرِّه .

مرتفقا: متكأ .

جنات عدن: جنات إقامة واستقرار ، يقال : عدن بالمكان ؛ إذا قام به واستقر ، ومنه المعْدِن ؛ لاستقرار الجواهر فيه .

أساور: واحدها : سوار وهو ما يحيط بالمعصم .

سندس: رقيق الديباج واحده : سندسة ، وهو فارسى معرَّب .

استبرق: ما غلظ منه وهو رومى معرَّب .

الأرائك: واحدها : أريكة – سرير عليه حَجَلة (ناموسية) .

تمهيد :

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ، أمره جل شأنه بالمواظبة على دراسته وتلاوته ، وألا يكترث بقول القائلين له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله .

ثم ذكر ما يلحق الكافرين من العذاب يوم القيامة ، وما ينال المتقين من الثواب والتكريم .

التفسير :

٢٧- وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا .

أسباب النزول :

تفيد كتب التفسير : أن هذه الآيات إلى قصة موسى والخضر ؛ نزلت فى أشراف قريش ؛ حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه : كبلال ، وعمار ، وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ؛ فنهاه الله عن ذلك ، وأمره أن يكثر من تلاوة القرآن ، وأن يجعل باب تعليم الرسالة والدعوة الإسلامية ، مفتوحًا للجميع على السواء فى جميع الأوقات للفقراء والأغنياء ، وهذا مبدأ سام فى المساواة بين الناس ؛ فالإيمان يجمع بين الجميع ، وأكرم الناس عند الله أتقاهم [٢٥٨] .

وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ .

أى : اقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ؛ **لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ** . أى : لا يقدر أحد فى الكون أن يبدل أو يغير كلام الله ؛ فقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب ؛ قال تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** . (الحجر : ٩) ، وقال تعالى : **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** . (الأنعام : ١١٥)

وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا .

أى : لن تجد ملجأ أو حصنًا للنجاة ؛ غير الله تعالى أبدًا .

قال ابن جرير الطبرى :

يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ؛ فإنه لا ملجأ لك من الله ؛ كما قال تعالى: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ** ... (المائدة : ٦٧) .

٢٨- وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا .

لقد جاء الإسلام ؛ ليسوى بين الناس أمام الله ، فالخلق كلهم عيال الله ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح ، وكان كفار قريش وأغنياؤها ، يطلبون من النبى أن يطرد الفقراء عن مجلسه، أو يجعل للأغنياء مجلسًا خاصا بهم ، فإذا دخل هؤلاء الأغنياء فى الإسلام ؛ دخل خلفهم خلق كثير من الأتباع لهم ، وكأن النبى ﷺ حدث نفسه ، بالاستجابة لهذا العرض ، أو فكر فيه .

فنزل القرآن الكريم ؛ يحثه على رفض هذا العرض ؛ فالإسلام دين الوحدة والجماعة ، وإذا دخل الإيمان فى القلب ؛ أحبّ المؤمن ربّه ، وأحبَّ إخوانه المؤمنين ، وهانت عليه مظاهر الحياة ، والإسلام لا يحرِّم الغنى ولا المال ولا الجاه ؛ ما دام صاحبها يقدّم أوامر الله وواجباته ؛ ولكن الإسلام يحرّم أن يكون المال والجاه ، هما الهدف من هذه الحياة ؛ لأنهما فى وضعهما الصحيح وسيلة إلى مرضاة الله ، والهدف الأساسى هو مرضاة الله وطاعته .

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ .

يقول القرآن للرسول ﷺ : صاحب وجالس هؤلاء المؤمنين ، الذين أخلصوا أنفسهم لله ، وتوجهوا إليه بالدعاء فى الصباح والمساء .

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .

لا تتحول عنهم ، ولا تنصرف عنهم ، ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التى يستمتع بها الأغنياء ، أصحاب زينة الحياة الدنيا .

قال ابن عباس : لا تجاوزهم إلى غيرهم ؛ تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة .

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا .

أى : لا تطع كلام الذين سألوك : طرد المؤمنين ؛ فقلوبهم غافلة عن ذكر الله و قد شُغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا .

وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا .

لقد اتبعوا أهواءهم ، أهواء الجاهلية ؛ فالناس عندهم قسمان :

قسم: غنى قوى ذو سلطان ووجاهه، وهؤلاء يحكمون ويفكّرون ويملكون، وهم أهل الوجاهه والسيادة.

وقسم : فقير ضائع ، لا يجوز أن يفكّر ولا أن يجلس مع الأغنياء .

فلما جاء الإسلام ؛ رفض هذا المنطق ، وبين : أن الناس أمام الله سواء ؛ يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا . أى : كان أمره ضياعا ، وهلاكا ، ودمارًا .

قال ابن جرير الطبرى :

وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا .

معناه : وكان أمر هذا الذى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فى الرياء والكبر واحتقار أهل الإيمان ، سرفا قد تجاوز حدّه ؛ فضيّع بذلك الحق وهلك .

من هدى السنة

روى الشيخان عن سهيل بن سعد الساعدى قال : مرَّ رجل على النبىّ ﷺ فقال لرجل عنده جالس : «ما رأيك فى هذا؟» فقال رجل من أشرف الناس : هذا والله حرى إن خطب أن يزوَّج ، وإن شفع أن يشفَّع ؛ فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل آخر من فقراء المسلمين فقال رسول الله ﷺ للرجل : «ما رأيك فى هذا؟» قال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا والله حرى إن خطب ألا يزوَّج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله . فقال رسول الله ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا» [٢٥٩] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ؛ إلا ناداهم منادٍ من السماء : أن قوموا مغفورًا لكم ؛ قد بدِّلت سيئاتكم حسنات» [٢٦٠].

٢٩ - وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ...

أى : قل يا محمد للناس : هذا الذى جئتكم به من ربكم ، هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ، فمن شاء أن يؤمن به ، ويدخل فى غمار المؤمنين ؛ فليفعل ، ومن شاء أن يكفر به ؛ وينبذه وراء ظهره ؛ فأمره إلى الله ولست بطارد للمؤمنين من أجل أهوائكم .

قال ابن كثير : فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ؛ ولهذا قال :

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ...

فالله تعالى لا تنفعه طاعة الطائع ، أو إيمان المؤمن ، ولا تضره معصية العاصى ، ولا كفر الكافر ، ولكن هذا الكافر الذى أنف من الحق ، واستكبر عن الدخول فى الإسلام ظلما وعدوانا ، قد أعد الله له نارًا مؤجَجة ، يحيط به لهيبها من كل جانب ، كما يحيط السرادق بمن حل فيه ، فلا مخلص منه ولا ملجأ إلى غيره .

وقال ابن كثير :

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... أى : سورها ، كإحاطة السوار بالمعصم .

أخرج أحمد والترمذى فى صفة النار وابن جرير فى تفسيره : عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لسرادق النار أربعة جدر كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة» .

وقال ابن عباس :

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... قال : حائط من نار [٢٦١] .

وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ .

والمهل : ماء جهنم أسود منتن غليظ حار ، ولهذا قال : يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ . أى : من حرّه إذا أراد الكافر أن يشربه ، وقرّبه من وجهه ؛ شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه .

وأخرج أحمد والترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : «ماء المهل كعكر الزيت ؛ فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه» [٢٦٢] .

بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا .

أى : بئس هذا الشراب ، وما أقبحه ؛ فهو لا يطفئ غلّه ، ولا يسكّن حرارة الفؤاد ؛ بل يزيد فيها إلى أقصى غاية ، وما أسوأ هذه النار منزلا ومقيلا يرتفق به أهل النار !

قال تعالى : إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . (الفرقان : ٦٦) .

٣٠- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، أعقبه بذكر حال السعداء ، على طريقة القرآن فى الترغيب والترهيب ، أى : إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه ؛ بل نزيده وننميه .

وهذه الآية يستشهد بها الدعاة والعلماء ، الراغبون فى رقىّ الأمة وتقدمها ؛ فلن نتقدم إلا إذا أتقن كل إنسان عمله : الفلاّح ، والصانع ، والمهندس ، والطبيب ، والمعلم ، والموظف ، والإدارى ، وسائر أفراد الأمة؛ إذا أتقنوا عملهم ؛ نجحوا كأفراد ، وكأمة عاملة ، وتأهبوا لنيل ثوابهم فى الدنيا والآخرة .

أمّا ثوابهم فى الدنيا فهو القوة والتفوق ، وأما ثوابهم فى الآخرة فهو الجنة ونعيمها ، وقد بين القرآن ألوان نعم العاملين فى الجنة فقال :

٣١- أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ...

أى : هم فى جنات إقامة ، تجرى من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة .

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ...

أى : يحلّون فى الجنة بأساور الذهب ، وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما : عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» [٢٦٣] .

وتفيد آيات القرآن الأخرى : أن المؤمن يتمتع بثلاثة أساور ، واحدة : من فضة ، والثانية : من لؤلؤ ، والثالثة : من ذهب .

قال تعالى : وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ... (الإنسان : ٢١) .

وقال تعالى : وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . (الحج : ٢٣) .

وفى الآية التى نفسّرها : يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ...

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .

أى : ويلبسون رقيق الحرير وهو السندس ، وغليظه مما نُسج من سلوك الذهب ، وهذا لباس المترفين فى الدنيا ، ومنتهى ما يكون لأهل النعيم .

واختير اللون الأخضر ؛ لأنه أرفق بالأبصار ، ومن ثم جعله الله لون النبات والأشجار ، وجعل لون السماء الزرقة ؛ لأنه نافع لأبصار الحيوان أيضا .

وقد قالوا : ثلاثة يذهبن الحزن : الماء ، والخضرة ، والوجه الحسن !

مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ...

أى : يتكئون فيها على سرر مزدانة بالستور ، وفى هذا دليل على منتهى الراحة والنعيم ، كما يكون ذلك فى الدنيا .

نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا .

أى : نعمت الجنة لهم جزاء وفاقا على جميل أعمالهم ، وحسنت منزلا ومقيلا .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ . (الفرقان : ٧٥ ، ٧٦) .

★ ★ ★

قصة صاحب الجنتين

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

المفردات :

الـجـنـة : البستان، سميت بذلك؛ لاجتنان أرضها ، واستتارها بظل الشجر، وكل مادة (ج ن ن) تفيد: الخفاء والاستتار؛ كالجنين، والجنّ، والمجنون؛ لاستتار عقله، وجنَّ الليل: أظلم إلى نحو ذلك.

أعـنـاب : كروم منوعة .

وحففناهما بنخل : أى : جعلنا النخل محيطا بهما ، مطبقا بجانبيهما ، يقال : حفّه القوم أى : طافوا به . ومنه قوله : حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ... (الزمر : ٧٥) . وحففته بهم : إذا جعلتهم حافين حوله .

أكلها : ثمرها .

لم تظلم : ولم تنقص .

نهرا : لغة فى النهر ، وهو مجرى الماء العذب .

ثمر : أنواع من الفواكه والثمار .

الصاحب : المصاحب لك .

يحاوره : يجادله ويراجعه ويخاصمه .

النفر : الخدم والحشم والأعوان .

تبيد : تفنى وتهلك .

قائمة : كائنة وحاصلة ومتحققة .

منقلبا : مرجعا وعاقبة .

سواك : عدلك وكملك إنسانا .

لكنا هو الله : أصل التركيب : لكن أنا أقول : هو الله ربِّى ؛ دخله نقل وحذف .

لولا : هلَّا .

ما شاء الله : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

حسبانا من السماء : آفة أو صاعقة تدمِّرها .

صعيدا : ترابا .

زلقا : تزلق عليها القدم ولا تثبت ، والمراد : أن تصبح الحديقة ترابا أملسا لا تثبت فيه قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا ماء .

غورا : غائرا فى الأرض غائصا فيها .

طلبا : عملا وحركة لردِّه .

وأحيط بثمره : أُهلكت أمواله ، يقال : أحاط به العدوّ ، إذا استولى عليه وغلبه ، ثم استعمل فى كل إهلاك.

يقلب كفيه : هذا أسلوب فى اللغة يفيد : الندامة والحسرة ؛ فإن من تعظم حسرته ، يصفق بإحدى يديه على الأخرى ، متأسفا متلهفا .

خـــاويــــة: ساقطة مهشمة محطمة ، يقال : خوت الدار ، وخويت ، خيا ، وخويا : تهدمت وخلت من أهلها.

الـــعــــروش: واحدها : عرش ، وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم .

مـــنـــتصـــرا: ممتنعا بقوة من انتقام الله .

عـــقـــبـــا: عاقبة .

تمهيد :

كانت الآيات السابقة جوابا للكافرين ، الذين طلبوا أن يكون لهم مجلسًا خاصًّا بهم ؛ حتى لا يختلطوا مع فقراء المسلمين ، وهذا المثل ضربه الله لرجلين أحدهما : كافر غنى ، والثانى : مؤمن فقير .

وقد اغتر الغنى بماله ، وأنكر قيام الساعة ، وظن أن بستانه لن يهلك أبدًا ، وذكَّره المؤمن بالله وباليوم الآخر ، وخوَّفه عاقبة الغرور فلم يتعظ ؛ ثم كانت العاقبة هلاك بستان الغنى ، وندمه .

وفى النهاية بيان : قدرة الله وعظمته ؛ فهو يرفع ويخفض ويغنى ويفقر ، ثم بيان : أن الدنيا متغيرِّة وفانية ، والآخرة خير وأبقى . وكل هذه دروس تفيد أغنياء قريش ؛ إذا أنصتوا لها بقلوبهم وأفئدتهم .

التفسير :

٣٢- وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا .

أى : اذكر يا محمد لهؤلاء الكفار ، الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء عن مجلسك هذا المثل .

قال المفسرون :

هما أخوان من بنى إسرائيل أحدهما : مؤمن ، والآخر : كافر ، ورثا مالا عن أبيهما ؛ فاشترى الكافر بماله حديقتين ، وأنفق المؤمن ماله فى مرضاة الله ؛ حتى نفد ماله فعيَّره الكافر بفقره ؛ فأهلك الله مال الكافر ، وضرب هذا مثلا للمؤمن الذى يعمل بطاعة الله ، والكافر الذى أبطرته النعمة .

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصحّ ؛ فإن ضرب المثل لا يتوقف على صحتها ، والقصّة هنا نموذج للعظة والاعتبار ، والتحذير من إغراء المال .

جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا .

فهذا الغنى الكافر ؛ كان يملك بستانين من شجر العنب مثمرين بأنواع العنب اللذيذ ، وقد وسع الله على صاحب البستانين بأنواع التوسعة ، فأرضه جمعت القوت والفواكه ، وهى متواصلة متشابكة ؛ فلها منظر ورواء حسن ، ووضع أنيق يخلب اللب ؛ بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر ، وعلى حافة البستانين

أشجار النخيل ، تطوف حولهما فى سياج يطوف حول الأرض ، وتتوسط الأرض الزروع والثمار ، وتتفجر بينها الأنهار .

٣٣- كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ...

أى : كل واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها ؛ يانعًا فى غاية الجودة والطيب ، ولم تنقص منه شيئًا؛ فى سائر الأعوام ، على خلاف ما يعهد فى الكروم والأشجار؛ من أنها تكثر غلتها أعواما؛ وتقل أعواما أخرى.

وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا .

وشققنا وسط الجنتين نهرًا كبيرًا ؛ تتفرع منه عدة جداول ؛ ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما ، وتكثر غلتهما .

٣٤- وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ...

أى : أنواع أخرى من الثمار، وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالثمر : أموال أخرى غير الجنتين؛ من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك .

وقد قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى (ثُمُر) بضم الثاء والميم ، وهو جمع ثمار ، أى : أموال كثيرة ثمَّرها بما ادخره من غلات الجنتين ، ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك : أن الله أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتها وناطقها ، وكانت له مزارع يستخدم فيها أعوانه وأتباعه ، ولا يستعصى عليه شىء من مسرات الدنيا ومباهجها ، ولذاتها ونعيمها .

فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا .

أى : قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن ، وهو يحاوره ويجادله ويفتخر عليه بالمال والثمار والأتباع والخدم : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جناتى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطا وأتباعا ، فكل هؤلاء الأتباع يقومون بمساعدتى عند الحاجة ، وينفرون معى عند الخصومة .

٣٥- وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا .

لقد استولى عليه الغرور ، والأمل الكاذب ؛ فسار مع صاحبه إلى بستانه ، ثم تكلم فى عنجهية وخيلاء، ونسى قدرة الله الخالق الرازق المنعم ، وتكلم بكلام المعجب بنفسه وماله . فقال لأخيه مشيرًا إلى البساتين والأشجار ، والأعناب والثمار والأنهار : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدًا ولا تخرب .

إن طولَ الحرص ، وحبَّ المال ، ونسيان الآخرة يغرى صاحبه بالأمل ، فيظن أن هذا المال وهذه البساتين لن تهلك ولن تفنى أبدا .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

وترى أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فإن ألسنة أحوالهم ناطقة ، منادية عليه .

٣٦– وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا .

ثم ازداد غرورا وكفرًا ؛ فأنكر القيامة والبعث ؛ من شدة حبه للدنيا والمال والجنان والمتع العاجلة ؛ فقال : ما أظن القيامة كائنة وحاصلة ، فليس هناك بعث ولا حشر ولا جزاء . وبدل أن يشكر ربه ويحمده ، ويؤدى حق الله فى ماله ، كفر بالله وبالقيامة والبعث والجزاء ، ثم قال :

وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا .

أى : ولئن كان هناك بعث على سبيل الفرض والاحتمال ؛ فسوف يكون نصيبى فى الآخرة أفضل وأحسن **مُنقَلَبًا** أى : مرجعا ومآلا ؛ لأننى فى الدنيا أحسن وأغنى وأكرم ؛ فكما **أعطانى ربِّى ذلك فى الدنيا** فسوف يعطينى مثله فى الآخرة ؛ لكرامتى عليه . ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر : **وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ**... (فصلت : ٥٠) .

وهكذا نجد أن هذا الكافر لحقه الخسار من تفكيره الخطإ ، حيث ظن أن جنته لن تفنى ، وظن أن القيامة لن تقوم ، وظن أن الآخرة تقاس على الدنيا ، فمن كان غنيا فى الدنيا ، كان ممتازًا فى الآخرة .

وهنا يرشده أخوه ، إلى القيم الحقيقية فى الدنيا والآخرة ، ويبين له : أن الله هو صاحب الفضل ، والنعمة والمنة ، وأن واجبنا أن نعترف لله بالخلق والإيجاد من العدم ، والتفضل بالنعم .

٣٧– قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا .

هنا يقف الأخ المؤمن مذكِّرا أخاه بالله تعالى ، الذى خلق آدم من تراب ؛ وهو أب البشرية ، ثم خلق الناس من صلبه من منيٍّ يمنى ؛ وهذا يجعل الإنسان متواضعا متذكرًا عظمة الخالق .

والاستفهام فى الآية **أَكَفَرْتَ** للتوبيخ والتقريع ، أى : أتجحد من خلق آدم من تراب ، ثم خلق ذريته من نسله ، ثم سواك رجلا كاملا بقدرته ، ويحتمل الكلام وجها آخر لمعنى : **خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ** ؛ إذ غذاء والديك من

النبات والحيوان ، وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء دما يتحول بعضه إلى نطفة يكون منها خلقك بشرا سويا على أتم حال فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

والخلاصة : أن الله أوجدك من العدم ، وهو قادر على أن يعيدك إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت .

٣٨- لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا .

أى : لكن أنا أقول : هو الله ربّى وخالقى ، أؤمن به وأثق بوجوده وقدرته ، وأن بيده الخلق والأمر .

وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا .

أى : لا أشرك مع الله غيره ، فهو المعبود وحده لا شريك له ، ثم زاد فى نصيحته فقال :

٣٩- وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ...

أى : هلّا حين دخلت جنتك أو حديقتك ، وأعجبت بما فيها من أشجار وثمار ، وظلال وثمار ؛ قلت : هذا من فضل الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

جاء فى مختصر تفسير ابن كثير :

قال بعض السلف : من أعجبه شىء من حاله أو ماله فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة ، وقد روى فيه حديث مرفوع عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت»[٢٦٤] أخرجه الحافظ أبو يعلى .

وقد ثبت فى الصحيح عن أبى موسى : أن رسول الله ﷺ قال له : «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»[٢٦٥] .

فالمؤمن يرشد أخاه الكافر ، إلى التواضع والإيمان ، واليقين بأن النعمة جميعها من الله ، ويرشده أن يقول :

مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ . أى : الأمر ما شاء الله ، فجنّتى أو بستانى هذا باق فى نضارته بمشيئة الله، إن شاء الله أبقاه وإن شاء أهلكه . لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ . أى : لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته .

إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا .

أى : إن ترنى أيها المغرور أننى أقل منك فى المال والولد ؛ فإنى أرجو الله الذى لا يعجزه شىء : أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة .

٤٠ – فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا .

أى : إن رأيتنى فقيرًا قليل المال ، فإنى أتوقع من صنع الله وإحسانه ؛ أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى ؛ فيرزقنى جنة خيرا من جنتك ؛ لإيمانى به ، ويسلب عنك نعمته ؛ لكفرك به ، بأن يرسل على بساتينك مطرًا عارمًا ، أو سيلاً جارفا يخرِّب بستانك .

قال الزمخشرى :

والحسبان : مصدر كالغفران بمعنى : الحساب ، أى : ويرسل عليها مقدارًا قدَّره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها .

فَتُصْبِحَ صَعِيدًا : أى : أرضا ، زَلَقًا : جرداء ملساء لا نبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم .

والمراد : أنها تصبح عديمة النفع من كل شىء حتى من المشى عليها .

قال ابن كثير : فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ، أى : بلقعًا ترابًا أملسا ، لا يثبت فيه قدم .

وقال ابن عباس : كالجرز الذى لا ينبت شيئا .

٤١ – أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا .

أى : يفور ماؤها فى الأرض ، فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذ لا تستطيع طلبه فضلا عن إعادته وردّه .

وخلاصة ذلك : أن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر ، إما بآفة سماوية ، أو بآفة أرضية ، وهو غور مائها ، أى : يغوص فى أسفل الأرض ويذهب بعيدا عن الأشجار .

قال تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ . (الملك : ٣٠) .

٤٢- وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا .

الإحاطة : مأخوذة من إحاطة العدوّ بعدوّه ، من جميع نواحيه ، لإهلاكه واستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحُسبان على بستان صاحبه الجاحد المغرور، وأحيط بثمره بأن هلكت أمواله كلها ، جزاء بطره وتكبره وغروره .

فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا .

أى : صار يعض بنان الندم ، ويضرب إحدى يديه بالأخرى كناية عن الحسرة والأسف والخزى والهوان ، وهو يبدى اللوعة والحزن ؛ لبوار أرضه ، وهلاك ما أنفقه عليها ، وتهدّم الدور والقصور ، وسقوط السقوف على الجدران .

والغنى المغرور ، يشاهد جنته بجميع ما اشتملت عليه صارت خرابا يبابًا لا حياة فيها ولا منفعة فيندم أشد الندم ، على تبجحه وغروره .

وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا .

لقد اعترف بعد فوات الأوان ، أنه تجبّر وتكبر وتطاول على من خلقه ورزقه ، وأنكر البعث والحساب ، وجحد قدرة القدير .

فلما ضاعت منه الدنيا ، عظمت حسرته عليها ، وتمنّى لو أنه اعتدل فى تفكيره ، وحافظ على الإيمان بالله ، ولم يشرك معه الهوى والجحود والكفران !

٤٣- وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا .

لم تكن له جماعة أو قوة تنصره وتدافع عنه ، وتردّ عنه قضاء الله عليه بخراب جنته ، وما استطاع بنفسه أن يدفع هذا العذاب عن نفسه .

والآية تصوير لإحاطة قدرة الله به ، وهلاك بستانه وهو عاجز خاسر ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتز بهم ، وافتخر على أخيه الصالح ؛ بأنه أكثر منه مالا وأعز نفرا ، وما استطاع بنفسه أن يردَّ العذاب الذى أحاط به .

٤٤ – هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا .

أى : فى ذلك المقام وتلك الحال ، تكون النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد سواه ؛ فهو يوالى المؤمنين برحمته ومغفرته ، وينصرهم على أعدائهم .

هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا .

أى : أن الله أفضل ثوابا وجزاء ، فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو أفضل عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه ، وتشير الآية إلى : أن الصاحب المؤمن ، أكرمه الله فى دينه ودنياه وآخرته ، وأن الكافر قد خسر دينه ودنياه وآخرته . وقريب من هذه الآية قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ. (محمد : ١١)

إن هذا المثل الذى ضربه القرآن صورة حية ، صوَّرت غرور الغنى وبطره وخيلاءه ، وبينت : ثبات المؤمن وقوة إيمانه ويقينه بالله – وبينت : عاقبة الكفر والجحود ، وهى الخذلان والخسران ، وعاقبة الإيمان وهى شرف الدنيا وسعادة الآخرة .

★ ★ ★

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

مثل : صفة .

هشيما : متكسرًا متفتتًا .

تذروه : تنسفه وتبعثره وتفرقه .

مقتدرا : كامل القدرة .

الباقيات الصالحات: كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة .

ثوابا : جزاءً .

التفسير :

٤٥ - وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ .

فى أعقاب الحديث عن صاحب الجنتين ، وهلاك جنتيه ، يضرب القرآن الكريم مثلا آخر للدنيا فى سرعة تقلبها ، وانتهاء أمرها ، وسرعة زوالها ، بصورة عملية يشاهدها الإنسان ؛ هى صورة المطر ينزل من السماء ، فيخالط نبات الأرض ؛ فيخضر النبات ، وينمو ويصبح بهجة للناظرين ، ثم لا يلبث أن تجف أوراقه وتتكسر ، ويصبح هشيما متفتتا تنثره الرياح ذات اليمين وذات اليسار .

ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد ؛ حيث شبه القرآن الدنيا فى جمالها وزينتها ، وانتهاء أمرها بالماء يختلط بالنبات الأخضر ، يصبح جميلا مزهرا ممتعًا ، ثم يتحول إلى هشيم متفتت تنسفه الرياح.

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا . فهو سبحانه قادر قدرة كاملة على كل شىء، وهو الباقى بعد كل شىء، ومن عمل لوجه الله ظل عمله باقيا خالدًا ؛ ومن عمل للدنيا فعمرها قصير . وفى الأثر : اعمل لوجه واحد ؛ يكفك كل الأوجه .

٤٦ - ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...

إن المال والبنين من زينة الدنيا وبهجتها ، والإسلام لا يحرّم الانتفاع بهذه الزينة ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح ويقول تعالى : **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ**. (الأعراف : ٣٢).

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة . فما يجوز أن يوزن بهما الناس ، ولا أن يقدّروا على أساسهما فى الحياة [٢٦٦] .

وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا .

أى : أعمال الخير كلها التى يُبتغى بها وجه الله ، تبقى ثمرتها أبد الآباد فهى خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله .

قال ابن عباس :

ٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ هى الصلوات الخمس ، وعنه أيضًا : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة .

وأخرج النسائى والطبرانى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعًا : «خذوا جنتكم» قيل : يا رسول الله من أىّ عدو قد حضر ، قال : «بل جنتكم من النار ، قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ؛ فإنهنّ يأتين يوم القيامة مقدِّمات معقِّبات ومُجَنِّبات ، وهن الباقيات الصالحات» .

وقد رجح الطبرى والقرطبى : أن ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ ، هى جميع الأعمال الصالحة وأعمال الخير كلها ؛ فهى أبقى عند الله ثوابا ، وأرجى أملاً .

فالصلاة والزكاة والجهاد فى سبيل الله ، ومساعدة البائسين وذوى الحاجات ، والعمل على رفع شأن الأمة ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكل خير يعمله الإنسان ، هو من الباقيات الصالحات؛ إذ ينال صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

بارزة : ظاهرة للعيان ؛ إذ لم يبق على وجهها شىء .

حشرناهم : جمعناهم لموقف الحساب .

فلم نغادر : فلم نترك .

وعرضوا : أُحضروا لفصل القضاء .

صفا : صفا بعد صف كالصفوف فى الصلاة .

موعدا : وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث والحساب والجزاء .

ووضع الكتاب : وضعت صحائف أعمال البشر فى أيديهم .

مشفقين : خائفين .

الويل : الهلاك .

أحصاها : عدّها وأحاط بها .

حاضرا : مسطورًا فى كتاب كل منهم .

ولا يظلم ربك أحدا، لا يعاقب إنسانا بغير جرم ، ولا ينقص من ثواب المحسنين .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن مشهد من مشاهد القيامة ؛ حيث يتم فى هذا اليوم الجزاء العادل ، وفيه يُعاقب المجرمون ، ويُثاب الطائعون .

التفسير :

٤٧ – وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

يعقب القرآن على ذكر الدنيا ، بذكر مشاهد الآخرة ، حيث تقتلع الجبال من أماكنها ، وتسير فى الجو كالسحاب ، ثم تكون هباءً منثورا .

وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ...

وترى الأرض ظاهرة للعيان ، ليس عليها ما يسترها ، من شجر أو جبل أو بنيان ؛ فقد قلعت جبالها، وتهدّم بنيانها ، فهى مستوية لا اعوجاج فيها ولا نتوء ، وجميع الخلق ظاهرين لربهم ؛ فلا تخفى عليه خافية.

وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

وجمعنا الأولين والآخرين للحساب ، فلم نترك منهم أحدًا لا صغيرا ولا كبيرا .

وجُمع الناس حفاة عراة غرلا ، (الغُرْلة : القلفة) أى : كما ولدتهم أمهاتهم ؛ حتى يتم فصل القضاء بينهم.

قال تعالى : قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ . (الواقعة ٤٩ ، ٥٠) .

وقال سبحانه : ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . (هود : ١٠٣) .

٤٨ – وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا .

أى : عرضت جميع الخلائق على الله تعالى مصطفين ؛ صفوفا صفوفا ، كالصفوف فى الصلاة ، كل أمة وزمرة صفا ، لا يحجب أحدٌ أحدا .

وفى الحديث الصحيح : «يجمع الله تعالى الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر» [٢٦٧] .

لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ .

أى : يقال للكفار على وجه التقريع والتوبيخ : لقد جئتمونا حفاة عراة ، لا شىء معكم من المال والولد؛ كهيئتكم حين خلقناكم أوّل مرة .

ونحو الآية قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ... (الأنعام : ٩٤)

بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ... أى : زعمتم أن لا بعث ولا حشر ، ولا حساب ولا عقاب .

وإننا لنكاد نلمح الخزى على الوجوه ، والذلّ فى الملامح ؛ وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب [٢٦٨] .

فما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن .

قال تعالى : وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (النحل : ٣٨) .

٤٩- وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ...

أى : وضعت صحائف الأعمال للبشر وعرضت عليهم ، وفى هذه الصحف الجليل والحقير .

وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا .

أى : يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرّطنا فى حياتنا الدنيا ، ما شأن هذا الكتاب ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها !!!

وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا .

أى : من خير وشر ؛ وجدوه مثبتا فى الكتاب .

قال تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا . (آل عمران : ٣٠)

وقال سبحانه : يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . (القيامة : ١٣) .

وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ، أى : لا يعاقب إنسانا بغير جرم ، ولا ينقص من ثواب المحسنين ؛ فهو سبحانه عادل فى حكمه ، وكريم متفضل أيضًا ، قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وقال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «يرفع لكل غادر لواءٌ يوم القيامة عند إسته بقدر غدرته ، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان» [٢٦٩] .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن أنيس : أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة، حفاة عراة غرلاً بُهما» قلتُ : وما بُهما ؟ قال : «ليس معهم شىء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الدَّيان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ؛ حتى أقضيه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق؛ حتى أقضيه منه ، حتى اللطمة» قال : قلنا : كيف وإنما نأتى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً بهما ؟! قال : «بالحسنات والسيئات» [٢٧٠] .

وتفيد الآيات السابقة : عرض مشاهد القيامة ، وعدالة الحساب ، وندم المجرمين ، وأن الجزاء الحق من جنس العمل ، قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات:

فسق: خرج .

أفتتخذونه: الهمزة فى مثل هذا تفيد : الإنكار والتعجب ممن يفعل ذلك .

الذرية: الأولاد أو الأتباع .

عدو: يطلق على الواحد والكثير ؛ كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . (الشعراء : ٧٧) .

العضد: أصله ما بين المرفق إلى الكتف ويستعمل بمعنى : المعين كاليد ونحوها ، وهو المراد هنا .

فدعوهم: فاستغاثوا بهم .

فلم يستجيبوا لهم: فلم يغيثوهم .

الموبق: مكان الوبوق ، أى : الهلاك ، وهو النار . يقال : وبق وبوقا ، كوثب وثوبا ؛ إذا هلك .

مواقعوها: داخلوها وواقعون فيها .

مصرفا: مكانا ينصرفون إليه .

تمهيد:

ذكر القرآن : رغبة أغنياء مكة فى مجلس خاص بهم ؛ وقد أَنِفُوا من أن يجالسوا فقراء المسلمين ، وافتخروا بأنسابهم وأحسابهم وأموالهم على الفقراء ، ثم ذكر القرآن : عصيان إبليس ، وامتناعه عن السجود لآدم ؛ لأن الذى حمله على ذلك هو كبره وافتخاره بأصله ونسبه .

وقد تكررت هذه القصة (قصة إبليس) فى القرآن الكريم ، وهى فى كل موضع سيقت فيه لفائدة مناسبة ؛ غير ما جاءت له فى المواضع الأخرى ؛ على اختلاف أساليبها وعبارتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

التفسير :

٥٠- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ...

الملائكة أجسام من نور لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ؛ سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ، وقد استجابت الملائكة لأمر الله ، وامتثلت وسجدت لآدم ، وكان إبليس مقيما مع الملائكة فنسب إليهم ، وعندما أمر الجميع بالسجود ، أطاعت الملائكة ، أما إبليس فخانه أصله ؛ لأنه خلق من مارج من نار ؛ ولذلك تكبر وامتنع ، ظانا أنه من نار ، وآدم من طين .

وفى القرآن الكريم : قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ . (ص : ٧٦) .

وما علم أن النار خائنة تحرق ما يوضع فيها ، والطين أمين ، ينبت النبات إذا وضع فيه ، وقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة مرفوعًا «خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم» (٢٧١) .

وهذه الآية صريحة فى أن إبليس كان من الجن لا من الملائكة .

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن الحسن البصرى قال : «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجنّ ، كما أنَّ آدم عليه السلام أصل البشر» .

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . أى : خرج عن أمر ربه ، وفسق وكفر ؛ لأنه كان من الجنِّ ، من مارج من نار ، فغلب عليه أصله .

يقال : فسقت الرطبة ؛ إذا خرجت من أكمامها ، وفسقت الفأرة من جحرها ؛ إذا خرجت منه للعبث والفساد .

أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ...

أى : كيف تستبدلون بمن خلقكم ورزقكم ، وأمدكم بسائر النعم ، من لم يكن لكم منه منفعة قط ، بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم .

بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا .

أى : بئس البدل للكافرين بالله ؛ اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم .

والخلاصة : بئست عبادة الشيطان ، بدلا من عبادة الرحمان !

وقد ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث حذّر الله الناس من طاعة إبليس ، وبين أنه عدوٌّ للإنسان ، وقد أخرج أبانا آدم من الجنة ؛ فوجب أن نتخذه عدوا ، ولا ننخدع بوسوسته .

قال تعالى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ . (يس : ٦٠ – ٦٢) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (فاطر : ٦).

وآخر سورة فى القرآن الكريم ، فيها دعوة إلى لجوء المؤمن وتحصّنه برب الناس وخالقهم ، وملك الناس ، وإله الناس ، المستحق وحده للعبادة ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس للإنسان بالشر ويدعوه إليه ؛ فإذا ذكر المؤمن ربه ؛ خنس الشيطان ورجع . وللشيطان أتباع وأعوان من الجن ، وأتباع وأعوان من الإنس ، ونحن نتحصّن ونلجأ ، ونستعيذ بالله من شياطين الإنس والجن .

قال تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ . (الناس : ١ – ٦) .

وإن الإنسان ليأسف ويتحسر ، أن نجد بيننا فريقا من الشباب يدّعى : أنه من عبدة الشيطان ، وكتاب الله يدعونا أن نحذر الشيطان ، وأن نستعيذ بالله منه ، وأن نعتصم بإيماننا بالله ؛ حتى لا يجد الشيطان سبيلا إلى التسلط علينا .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال عز شأنه : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

وفى يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ويلوم أهل النار إبليس ؛ لأنه أغواهم وغرر بهم ؛ فيخطب فيهم الشيطان خطبة بتراء ، يجرّد نفسه من المسئولية ، ويلقى التبعة على من انجرف وراء دعوته ، وقد خلق الله للإنسان عقلا ورأيا ، وإرادة واختيارًا ؛ حتى يتحمل المسئولية فى اختياره .

قال تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ... (إبراهيم : ٢٢) .

٥١ - مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ...

أى : ما أشهدت هؤلاء الشياطين ، خلق السماوات والأرض ؛ فأنا الملك الخالق الرازق الموجود ، بيدى الخلق والأمر ، والإيجاد والإعدام والهداية والضلال .

فالعبادة والطاعة ينبغى أن تتوجه لى وحدى ؛ قال تعالى : **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـٰتِ وَالنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** . (الأنعام : ١) .

فهو خالق الكون كله ، وموجده من العدم ، ولكن الذين كفروا يعدلون ويتركون عبادة الله ، إلى عبادة أوثان أو شياطين ؛ لم تخلق ولم ترزق ؛ فلا تستحق العبادة .

وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ . أى : لم أشهد بعضهم خلق بعض ؛ فهم عبيد أمثالكم ، فكيف تعبدونهم ؟!

وقصارى ذلك : ما أطلعتهم على أسرار التكوين ، وما خصصتهم بخصائص لا تكون لسواهم ؛ حتى يقتدى الناس بهم ، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبّرها ، ليس لى فى ذلك شريك ولا وزير .

وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا .

أى : لم أتخذ الشياطين أعوانا لى فى الخلق ، فكيف تطيعونهم من دونى ؟!

والله سبحانه وتعالى غنى عن الناس أجمعين ، وليس له أعوان لا من المضلين ولا من المهتدين ؛ وإنما خص المضلين بالذكر ؛ زيادة فى ذمّهم ، وتوبيخهم ، وتقريعا لأمثالهم .

أى : كيف تعبدون الشيطان وهو ضال مضل ، وليس له فضل عليكم ؛ بل هو مخلوق مثلكم ، وأنا لا أتخذه مساعدًا يعضّدنى ويقوينى .

والعَضُد بفتح العين وضم الدال : فى الأصل يطلق على العضد المعروف ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعار للمعين والناصر ، فيقال : فلان عضدى أى : نصيرى .

ومنه قوله تعالى لنبيّه موسى : **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ** ... (القصص : ٣٥) ، أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون ؛ وذلك لأن اليد قوامها العضد ، فإذا فقدته ؛ أصابها العجز .

٥٢ - وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا .

أى : واذكر أيها الرسول الكريم ، يوم يقول الله تعالى للمشركين على سبيل التبكيت والتقريع : اطلبوا من عبدتموهم فى الدنيا ، وزعمتم : أنهم شركائى ؛ ليشفعوا لكم من هول هذا اليوم ، وينقذوكم من العذاب ، فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا . أى : حاجزا من النار يهلك من دخل فيه .

قال ابن عباس : مهلكا .

وقال قتادة : مَّوْبِقًا : واديًا فى جهنم .

قال ابن كثير :

والمعنى : أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ، ولا وصول لهم إلى آلهتهم ، التى كانوا يزعمون فى الدنيا ، وأنه يفرّق بينهم وبينها فى الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك ، وهول عظيم ، وأمر كبير .

قال تعالى : وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . (يس : ٥٩) .

وقال تعالى : وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ... (القصص : ٦٤) .

وقال سبحانه : وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا. (مريم : ٨١ ، ٨٢)

٥٣- وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا .

شاهد المجرمون جهنم ، ورأوها تتلمظ غيظا على من عصى الله ؛ فتيقنوا أنهم داخلون فى لهيبها ، ولم يجدوا وسيلة للابتعاد عنها .

وفى آية أخرى ، ذكر القرآن : أن النار إذا شاهدت المجرمين ؛ سمعوا لها أصواتا من الغضب والرغبة فى العقوبة ؛ قال تعالى : إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . (الفرقان : ١٢) .

لقد أفادت الآيات السابقة : ضلال إبليس وتكبره عن السجود لآدم ، وحذرتنا من موالاته وهو عدو لنا ، وبينت : أن هؤلاء الشركاء ، لم يشاركوا ولم يشهدوا خلق السماء والأرض ، وأنهم سيكونون أعداء للعابدين يوم القيامة ، وأن الكافر إذا شاهد النار ؛ تيقن بدخولها ، وذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب ، والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز .

ليت عبدة الشيطان ، يستوعبون هذه المعانى ؛ حتى يفيقوا ويرجعوا إلى رشدهم ويدركوا أنه ليس لهم باب سوى باب الله ، فمن وجد الله ؛ وجد كل شىء ، ومن فقد الله ؛ فقد كل شىء .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات :

صرفنا : رددنا وكررنا .

المثل : الصفة الغريبة .

الجدل : المنازعة بالقول ، ويراد به هنا : المماراة والخصومة بالباطل .

سنة الأولين : الإهلاك بعذاب الاستئصال .

القبل : بضمتين : الأنواع والألوان واحدها : قبيل : أو عيانا ومواجهة .

ليدحضوا به الحق : ليغلبوا به الحق ويبطلوه ويزيلوه .

وما أنذروا : أى : ما خوفوه من أنواع العقاب .

ونسى ما قدمت : لم يتدبر عواقبه .

أكنة : أغطية واحدها : كنان .

أن يفقهوه : أن يفهموه .

وقرا : ثقلا فى السمع .

موعدًا : يوم القيامة .

موئلا : ملجأ ومنجى .

القرى : قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

تمهيد :

ذكر القرآن : شبهات المبطلين وردّ عليها بأدلة لا تُدحض ، ثم قفى على ذلك ، ببيان : أن فى القرآن الكريم من الأدلة والأمثال ، ما فيه مقنع لمن رغب فى الإيمان ، لكنها القلوب قد تحجرت ، فلا تستجيب للهدى ، ولا تنفعها النصيحة . ولو يؤاخذهم الله بذنوبهم ؛ لعجل لهم العذاب ، لكنه أمهلهم إلى يوم القيامة ؛ لعلَّهم أن يتوبوا.

التفسير :

٥٤ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ...

هذه الآية شهادة من الله ، بأنه أنزل كتابه على نبيه محمدًا ﷺ ، وأن هذا الكتاب قد بيَّن الله فيه الأمور ووضحها ، وكرر وردد آداب القرآن وأمثاله ؛ رغبة فى إرشاد الناس وهدايتهم ؛ كيلا يضلُّوا عن الحق.

وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا .

ومع هذا البيان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله، وبصَّره بطريق النجاة .

روى البخارى ، ومسلم ، والإمام أحمد عن على بن أبى طالب : أن رسول الله ﷺ طرقه هو وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة ؛ فقال : «ألا تصليان؟» فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ؛ فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىّ شيئا، ثم سمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول : وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا[٢٧٢] .

٥٥ - وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا .

أى : وما منع كفار مكة من أن يؤمنوا بالله حين جاءتهم البينات الواضحات ، والدلالات الظاهرات، وعلموا صحة ما تدعوهم إليه ، وأن يستغفروا ربهم بالتوبة ، عما فرط منهم من الذنوب؛ إلا تعنتهم وعنادهم، الذى جعلهم يطلبون أحد أمرين :

١ - إما عذاب الاستئصال الذى أهلك الله به المكذبين السابقين .

٢ - وإما أن تأتيهم أنواع العذاب والبلاء يتلوا بعضها بعضا ، حين وجودهم فى الدنيا ، كقولهم : ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . (العنكبوت : ٢٩) .

قال صاحب الظلال :

لقد جاء من الهدى ما يكفى للاهتداء ، ولكنهم كانوا يطلبون أن يحلَّ بهم ما حل بالمكذبين قبلهم من هلاك – استبعادًا لوقوعه واستهزاءً – أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم ، وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون . ا هـ .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى :

وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢).

وحكى القرآن قولهم : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . (الشعراء : ١٨٧) .

٥٦– وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ...

أى : لم نرسل الرسل ؛ ليقترح عليهم الكفار ألوان العذاب ، أو يطلبوا منهم سقوط أنواع العذاب ؛ تعنتا واستهزاءً ، وإنما أرسلنا الرسل ؛ ليشرحوا حقيقة الإيمان ، ويبشروا المؤمنين بالجنة ، وينذروا الكفار بالنار ومع هذه الرسالة الواضحة ، فإن كفار مكة كانوا ينصرفون عن صميم الهدى ، ويقترحون على النبى ﷺ ألوانا من الاقتراحات ، كزحزحة الجبال عن مكة ، أو تفجير ينابيع الأرض ، إلى غير ذلك ، وأحيانا يسألون النبى ﷺ أسئلة ، مثل سؤاله عن قصة أهل الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ؛ من باب الجدال بالباطل، وانصرافًا عن هدايات القرآن الكريم .

وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا .

أى : اتخذوا الحجج والبراهين ، وخوارق العادات التى بعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب هُزُوًا أى : سخروا واستهزءوا بالرسل ، وهو أشد ألوان التكذيب والاستخفاف ، قال تعالى : وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا . (الفرقان : ٣٠) . أى : أعرضوا عن القرآن واستخفوا به .

٥٧– وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ...

أى : لا أحد أشد ظلمًا من إنسان ، حمل إليه الرسول الموحى إليه آيات الله، كالوحى والرسالة والبينات، فأعرض عنها ، ولم يتدبرها ولم يتعظ بها ، ونسى ما عمله من الذنوب والمعاصى والكفران ، ولم يتدبر عواقبه .

إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ...

إن هؤلاء الكافرين لا يرجى منهم هداية ولا إيمانا لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية وحجابا ؛ فلا تنفذ معانى القرآن وآدابه إلى قلوبهم ، وجعل على آذانهم صمما معنويا عن سماع الرشاد .

وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا .

أى : مهما دعوتهم إلى الإيمان والهداية فلن يستجيبوا لك ؛ لأنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد ، بما اجترحوا من الكفر والفسوق والعصيان ، قال تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (المطففين : ١٤).

٥٨- وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ...

إن رحمة الله واسعة ، وفضله عظيم ، وبابه مفتوح للتائبين ، فلو أن هؤلاء المشركين تابوا وأنابوا؛ لغفر الله لهم .

وهو سبحانه يمهل ولا يهمل ، ويترك الكفار والعصاة زمانا طويلا ؛ لعلهم أن يتوبوا ويؤمنوا .

ولو قابل الله عنادهم وكفرهم وجحودهم آيات الله بما يستحقون ؛ لأنزل بهم العذاب عاجلا كما فعل مع أمم سابقة ؛ عجل لها عذاب الدنيا .

قال تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣) .

فقد أكرم الله كفار مكة برسالة محمد ﷺ ولم ينزل بهم العذاب ؛ لوجوده بينهم من جهة ، وأملاً فى استغفارهم وتوبتهم من جهة أخرى .

بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا .

موعد فى الدنيا يحل بهم فيه شىء من العذاب ، وموعد فى الآخرة يوفّون فيه الحساب ، ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا مكان يعتصمون به ، ولا ملجأ يلتجئون إليه .

٥٩- وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا .

أى : هذه القرى الماضية التى أصر أهلها على الكفر ، كقوم نوح والذين من بعدهم ؛ أهلكهم الله بعذاب الاستئصال ، وجعل لهلاكهم موعدا لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون ، وفى هذه الآية تهديد لكفار مكة ، فلا يغرنهم إمهال الله لهم ، فإن موعدهم بعد ذلك آت ، وسنة الله لا تتخلف ، والله لا يخلف الميعاد .

★ ★ ★

قصة موسى والخضر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات :

لا أبـــــرح : لا أزال سائرا .

حـــقـــبـــا : الحقب (بضمتين ، وبضم فسكون) الدهر ، وقيل : ثمانون سنة ، وعن الحسن : سبعون .

مجمع بينهما : مكان اجتماع البحرين ، عند دمياط أو رشيد .

ســـــربـــا : مسلكا .

غـــداءنـــا : الغداء : الطعام الذى يؤكل أوّل النهار، أو هو طعام الغداء فى منتصف النهار، والمراد به هنا: الحوت.

نصبا : تعبًا ، وإعياء .

أوينا : التجأنا .

نبغى : نطلب .

ارتد : رجع .

على آثارهما : على طريقهما الذى جاءا منه .

قصصا : اتباعًا ، أى : رجعا يتتبعان أثرهما عائدين .

رحمة : قيل : هى النبوة ، أو الولاية .

الرشد : (بضم فسكون أو بفتحتين) إصابة الخير .

الإحاطة بالشىء : معرفته معرفة تامة .

الخبر : المعرفة .

ذكرا : بيانا .

إمرا : بكسر الهمزة : منكرًا .

لا ترهقنى : لا تحملنى ولا تكلفنى مشقة .

العسر : ضد اليسر وهو المشقة .

زكية : طاهرة من الذنوب .

بغير نفس : بغير حق قصاص لك عليها .

النكر : المنكر الذى تنكره العقول ، وتنفر منه النفوس .

تمهيد حول قصة موسى والخضر :

(أ) موسى : هو كليم الله ، وهو موسى بن عمران نبىّ بنى إسرائيل ، صاحب المعجزات الظاهرة ، والشريعة الباهرة .

(ب) فتى موسى : هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه .

(جـ) الخضر : بفتح الخاء وكسرها ، وكسر الضاد وسكونها ، لقب لصاحب موسى ؛ قيل : إنه كان نبيا ، وقيل: كان عبدًا صالحًا وقيل : وليًّا .

(د) مجمع البحرين : هو المكان الذى يجتمع فيه البحران ويصيران بحرًا واحدًا وفيه ثلاثة آراء :

١ – عند ملتقى بحرى فارس والروم ، (ملتقى المحيط الهندى والبحر الأحمر عند باب المندب .

٢ – عند ملتقى البحر الأبيض المتوسط ، والمحيط الأطلسى عند مضيق جبل طارق أمام طنجة .

٣ – قال برهان الدينى البقاعى فى تفسيره : (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) : إن سياق القصة يفيد : أن الأرض كانت رملا لا علاقة فيها ، فالظاهر والله أعلم أنها مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر .

(هـ) فى القصة بيان التواضع فى طلب العلم وتحمل المشقات فى سبيله ، وفيه دليل على أن التواضع خير من التكبر ، وفيها رد على أغنياء مكة الذين أنفوا من مجالسة فقراء المسلمين .

قصة موسى والخضر كما فى الصحيحين

عن أبىّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن موسى قام خطيبًا فى بنى إسرائيل فسئل: أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ؛ فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرُدَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه: أنَّ لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟ قال : تأخذ حوتًا فتجعله فى مِكْتل فحيثما فقدتَ الحوت؛ فهو ثمَّ ، فانطلق موسى : ومعه فتاه (يوشع بن نون) حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المِكْتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سرَبًا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا . قال : ولم يجد موسى النَّصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ؛ فقال فتاه: أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا . قال : فكان للحوت سَرَبًا ولموسى وفتاه عجبًا فقال موسى: ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا . قال : رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا هو مسجًّى بثوب فسلَّم عليه موسى فقال الخضر : وأنَّى بأرضك السلام [٢٧٣] ! من أنت ؟ قال : أنا موسى، قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك ؛ لتعلمنى مما عُلمت رُشدًا ، قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا . يا موسى إنى على علم من علم الله لا تعلمه علَّمنيه ، وأنت على علم من علم الله علَّمكه لا أعلمه ، فقال موسى : سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا . فقال له الخضر : قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا . فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل–

أى : بدون أجر – فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قومٌ قد حملونا بغير نوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ؛ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسيانًا ، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ؛ فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى : أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا . قال : أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قال سفيان : وهذه أشد من الأولى قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا . فانطلقا ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ... فقال الخضر بيده هكذا – أى : أشار بيده – فَأَقَامَهُۥ فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قال الخضر : هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا . قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما [٢٧٤] ؛ أخرجه الشيخان .

تنبيه :

قال العلامة القرطبى : كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف ، والصيفية فى الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث هزَّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهى ليست بنبية ، ويدل أيضًا ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار . ا هـ . [٢٧٥] .

التفسير :

٦٠– وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا .

أى : واذكر أيها الرسول حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع بن نون : لا أزال أمشى حتى أبلغ مكان اجتماع البحرين وتلاقيهما ، أو أسير دهرًا .

وسبب قوله هذا ؛ أن الله أوحى إليه أن عبدًا من عبادى بمجمع البحرين عنده من العلم مالم تحط به؛ فأحب أن يرحل إليه .

ومجمل الأمر : أن موسى وَطَّنَ نفسه على تحمل كل مشقة ؛ فى سبيل الوصول إلى رجل صالح أكثر علما من موسى ، وكان موسى قد خطب وأجاد الخطبة ؛ فقال له أحد المستمعين : ما أفصحك يا نبىَّ الله ! هل فى الأرض من هو أكثر علما منك ؟! قال موسى : لا ، فقال الله : تأدب يا موسى ، إن فى الأرض من هو

أكثر منك علما ؛ قال موسى : دلّنى عليه يا رب ؛ حتى أتعلم منه . فأمره الله أن يسير ومعه حوت فى مكتل وكان الحوت ميتا مملحًا وعندما تدبّ الحياة فى الحوت ويلقى بنفسه فى البحر فثمّ العبد الصالح .

٦١- فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا .

وسار موسى ويوشع بن نون حتى وصلا إلى ملتقى البحر الأحمر والأبيض ، أو ملتقى النيل والبحر الأبيض ، أو التقاء بحرين لا نعلمهما ، وإنما جعلهما الله وسيلة لرؤية العبد الصالح ، فقد أمره الله بالرحلة، وجعل له أمارة لمعرفة المكان المجهول لموسى .

وعند صخرة قرب مجمع البحرين نام موسى عليه السلام ، وأمطرت السماء فانتفض الحوت وقفز إلى الماء ، وكان هذا آية من آيات الله لموسى عليه السلام ، أن تدب الحياة فى حوت ميت مملح .

ورأى يوشع بن نون هذه العجائب ، من دبيب الحياة فى الحوت وانتفاضه ، وتسربه إلى الماء وسيره فيه ، ثم نسى أن يخبر موسى بذلك .

٦٢- فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا .

لم يحس موسى بالتعب ؛ إلا بعد أن ترك المكان الذى تسرب منه الحوت إلى البحر ، ثم سار سيرا طويلا واستراح ، وطلب من تابعه أن يعدّ لهما الغداء بعد هذه الرحلة المضنية ، وكان الغداء من الحوت المملح ، والنصب : هو التعب . أى : قال موسى : لقد تعبنا من السير فى هذا السفر ؛ فقدم لنا ما نأكله .

٦٣- قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا .

أى : قال يوشع بن نون : أرأيت ما حدث لى حين التجأنا إلى الصخرة التى بمجمع البحرين ، لقد دبت الحياة فى الحوت فانتفض إلى البحر وسار فيه بصورة عجيبة ، وقد نسيت أن أخبرك بهذا الأمر فى حينه وما أنسانى ذكره إلا الشيطان .

٦٤- قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا .

أى : قال موسى : ذلك الذى ذكرت من أمر الحوت ؛ ما كنا نطلبه من حيث إنه أمارة للفوز بما هو المقصود بالذات ، فرجعا فى نفس الطريق الذى قدما منه يتبعان أثرهما اتباعا حتى آتيا الصخرة .

وقد رجح الإمام البقاعى أن مجمع البحرين هو مجمع النيل والبحر الأبيض المتوسط عند دمياط أو

رشيد ، ويؤيده نقر العصفور فى البحر الذى ركب فى سفينته للتعدية كما ورد فى الحديث فإن الطير لا يشرب من الماء المالح .

لقد أحس موسى بقرب الوصول إلى الهدف ، فعاد إلى الصخرة بمجمع البحرين .

٦٥- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا .

فوجد موسى عند الصخرة رجلا مسجى بثوب، فسلّم عليه موسى، فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام؟ فقال : أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل ، قال : نعم .

وقد أعطى الله الخضر الكرامة ، ووهبه نعمة عظيمة وفضلا كبيرا ، وعلّمه علمًا خاصا لا يُنال إلا بتوفيق من علام الغيوب .

وقد رجح بعض المفسرين أنه نبى ، والصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبىٍّ ؛ وإنما هو من عباد الله الصالحين ، وأوليائه المقربين ، وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات ، والأمور الغيبية ؛ تعليما للخلق فضل العبودية الحقة لله .

قال العلماء :

هذا العلم الربانى ثمرة الإخلاص والتقوى ، ويسمى : (العلم اللّدنى) يورثه الله لمن أخلص العبودية له، ولا ينال بالكسب والمشقة ، وإنما هو هبة الرحمان لمن خصّه الله بالقرب والولاية والكرامة .

قال صاحب الجوهرة فى منظومة فنّية فى علم التوحيد :

وأثبتــن للأولـيــاء الكــرامـة		ومــن نفـاهـا فانبــذنّ كلامه

وقد بين القرآن الكريم : قيمة العمل الصالح فى آياته الكثيرة .

قال تعالى : **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** . (الكهف : ٣٠) .

وقال سبحانه : **وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ** . (آل عمران : ٣٩) .

وقال عن أهل الكهف : **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى** . (الكهف : ١٣) .

وقال سبحانه : **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ** . (الأنبياء : ١٠٥) .

قال العلماء :

وقفت النُّبُوَّة أمام العبد الصالح فى كتاب الله مرتين :

الأولى : عندما وقف زكريا فوجد عند مريم أرزاقا فى غير أوانها : قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ... (آل عمران : ٣٧) .

الثانية : عندما وقف موسى رسولُ الله أمام العبد الصالح يقول: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا.

٦٦- قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا .

أى : هل تأذن لى وتسمح لى أن أكون رفيقا تابعا لك ؛ حتى أتعلم منك ما يرشدنى فى حياتى ؟! وهذا أسلوب فى غاية الترفق والتأدب من طالب العلم ، وفيه أدب التواضع ، والرغبة فى صحبة الصالحين ، والرغبة فى طلب العلم ، وأن الكبير لا يعيبه أن يتعلم من الصغير جانبا من المعرفة ليس عنده ، فالفاضل يتعلم أحيانا من الفاضل ، وأحيانا يتعلم الفاضل من المفضول ، وموسى هو كليم الله ، الذى أوتى الألواح ، وهو من أولى العزم من الرسل ، وله ماض كبير فى الجهاد والنضال والدعوة ، ولكنه يصرّ على تعلم نوع من العلم ، عند الخضر عليه السلام .

٦٧- قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا .

أى : قال الخضر لموسى : إنك لا تستطيع أن تصبر فى صحبتى ، فأنا على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمكه لا أعلمه .

٦٨- وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور أعملها أنا ؛ ظواهرها منكرة ، وبواطنها مجهولة ، والرجل الصالح لا يتمالك إذا رأى ذلك بل يبادر بالإنكار .

٦٩- قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا .

قال موسى : سألتزم الصبر والطاعة إن شاء الله ، ولن أعصى لك أمرا تأمر به ، وهنا نجد أدب موسى حيث قدّم المشيئة كما قال تعالى : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... (الكهف ٢٣ ، ٢٤).

٧٠- قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا .

أي : لا تسألنى عن شيء من تصرفاتي ، حتى أبين لك سر ذلك بنفسى فى وقت لاحق ؛ فنجد أن العبد الصالح قد اشترط لنفسه الشرط المناسب ، وقبل موسى ذلك الشرط فى تواضع .

٧١- فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا .

أي : انطلق موسى والخضر فى طريقهما ، وشاهدا سفينة عرف أهلُها الخضر عليه السلام ؛ فسمحوا لهما بالركوب بدون أجر ؛ تكريما لهما ، وفى وسط البحر ، تناول الخضر فأسا وخلع لوحا من السفينة .

وأنكر موسى على الخضر هذا العمل ؛ الذى يؤدى إلى غرق السفينة بمن فيها .

يروى : أن موسى لما رأى ذلك ؛ خلع ثوبه فجعله مكان الخرق ، ثم قال للخضر : قوم حملونا بدون أجر ؛ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ؛ لتغرق أهل السفينة ؛ لقد فعلت أمرا منكرًا عظيمًا أو عجبا !

٧٢- قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا .

أي : قال الخضر لموسى مذكرًا له بما سبق ، وأن الخضر معه علم لا يعرفه موسى ، وأن موسى لن يستطيع الصبر على أفعال الخضر ، وأن الخضر قد اشترط على موسى ألا يسأل عن شيء إلا بعد فترة ، ثم سيتكفل الخضر نفسه بشرح الأسباب لموسى عليه السلام .

٧٣- قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا .

كانت الأولى من موسى نسيانا ؛ لذلك قال للخضر : لا تؤاخذنى بما نسيت ، وغفلت عن التسليم لكَ ، وترك الإنكار عليك ، ولا تكلفنى مشقة ، ولا تضيّق علىّ فى أمرى ، ولا تعسِّر على متابعتك ، بل يسرها بالإغضاء وترك المناقشة .

ثم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته فى كل أدوار حياته ، ومن ثم لم يصبر على خرق السفينة ، ولم يستطع الوفاء بوعده الذى قطعه ، أمام غرابة الموضوع ، وأنكر على الخضر خرق السفينة في وسط البحر ؛ ومن ثم اندفع الخضر فى هدوء يذكره بالوعد السابق ، فاعتذر موسى بنسيانه وقبل الخضر اعتذاره [٢٧٦] .

٧٤- فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا .

لقد سلمت السفينة من الغرق والعطب ، وظلت فى ملك أصحابها المساكين ، ونزل الخضر وموسى إلى اليابسة ، وفى الطريق وجد الخضر صبية يلعبون ، وبينهم صبى جميل وضيء ؛ أخذه الخضر على جانب

ولوى رقبته وقطع رأسه ؛ وعندئذ غضب موسى وأنكر على الخضر أن يقتل نفسًا بريئة لم ترتكب جرما ولم تقتل نفسًا ؛ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ . منكرًا تنكره العقول ، وتنفر منه النفوس .

لقد كان موسى ناسيًا فى المرة الأولى ؛ لكنه فى المرة الثانية كان متذكرًا ؛ لكن قتل النفس ؛ جعله يغضب وينكر على الخِضْر ، ويذكِّره بأن ذلك منكر .

★ ★ ★

الخاتمة

تحدثنا عن قصة موسى والخضر فى الجزء الخامس عشر ، وللقصة بقية فى بداية الجزء السادس عشر، وتفيد هذه البقية : أن الخضر أعلن فراق موسى عليه السلام ، ثم شرح له أسباب الأعمال الثلاثة على النحو الآتى :

١ – السفينة التى خرقها الخضر عليه السلام ، كانت ملكا لمساكين يعملون فى البحر ، ويتكسبون منها ، وهناك ملك ظالم يغتصب كل سفينة كاملة صالحة ؛ فعمد الخضر إلى أن يحدث بها عيبا ، ويساهم الجميع فى سد الخرق ، ثم يتركها الملك ؛ لأنها معيبة .

٢ – الغلام الذى قتله الخضر ، كان سينشأ كافرا فاجرًا ، وقد روى الإمام مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرًا ، ولو عاش ؛ لأرهق أبويه طغيانا وكفرا .»[٢٧٧] .

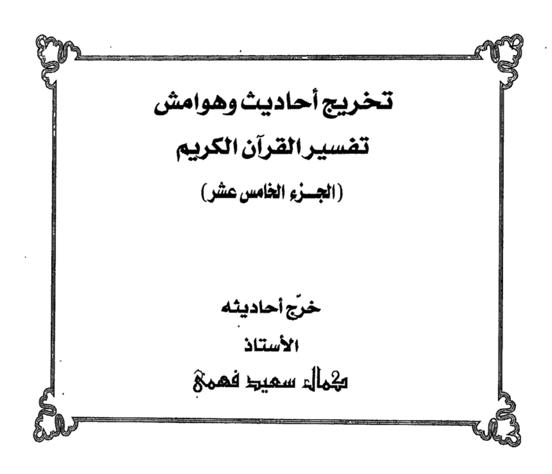
فهذا العمل مؤلم فى الظاهر ، لكن الله أراد بالوالدين خيرا ؛ فقبض الغلام إلى جواره ، وعوضهما ذرية صالحة ، فيها الرحمة والرأفة والطهارة ومكارم الأخلاق .

٣ – القرية البخيلة اللئيمة ، كان بها جدار متداع وتحته كنز من المال ، ولو وقع الجدار ؛ لتبدد الكنز ، وقد أصلحه الخضر بأمر الله ؛ حتى يكبر اليتيمان ويستخرجا كنزهما رحمة من الله وفضْلا ، وإكراما للرجل الصالح فى ذريته .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد أشرف الكائنات ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين.

تمَّ بحمد الله تفسير الجزء الخامس عشر ويليه تفسير الجزء السادس عشر

إن شاء الله



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجــزء الخامس عشر)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمي

(١) جاء في المصباح المنير : (السبط) ولد الولد والجمع : أسباط مثل حمل وأحمال (والسبط) الفريق من اليهود يقال للعرب: قبائل، ولليهود: أسباط . اهـ . وهؤلاء الأسباط هم إخوة يوسف ، وقد حكى القرآن أن يوسف رأى في منامه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له ، وقد تحققت رؤيا يوسف حين أصبح وزيرا لمصر ودخل إخوته عليه وسجدوا له مع والديه.

(٢) قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ (آل عمران : ٨١) .

(٣) انظر تفسيره للآية ٨١ من سورة آل عمران . والآيات التي تتحدث عن الرسل والأنبياء .

(٤) إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا :

رواه البخاري في المناقب(٣٥٣٥،٣٥٣٤) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة – قال – فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

(٥) العلة : الضرة ، العلات : الضرائر .

(٦) الأنبياء أولاد علات :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣،٣٤٤٢) ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥) وأبو داود في السنة (٤٦٧٥) (٢٧٢٤٠،٢٧٤٦٨) من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي» .

(٧) هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى :

هذا اللفظ جزء من حديث طويل رواه البخاري (٤٩٥٥،٤٩٥٦،٣) ومسلم في كتاب الإيمان حديث رقم (٢٣٣،٢٣١) ، والترمذي في كتاب المناقب حديث رقم (٣٥٦٥) ، وأحمد في مسنده حديث رقم (٢٤٧٦٨،٢٤٦٨١،٢٤٠٤٦،١٤٥٠٢) .

(٨) راجع المكي والمدني في القرآن ، في الإتقان للسيوطي ، أو البرهان للزركشي .

(٩) وهو منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل مضمر تقديره : أسبح الله سبحانه .

(١٠) وهو فعل لازم تعدى بالباء ومصدره الإسراء ، ومعنى أسرى وسرى واحد ولكن مصدر أسرى الإسراء ومصدر سرى: السرى بوزن الهدى .

(١١) ﴿ليلا﴾ : منصوب على الظرفية وفي تنكيره تقليل مدة الاسراء ؛ لأن التنكير فيه معنى البعضية أي : في بعض الليل ، ويظهر ذلك في قولك : سرت الليل ، وسرت ليلا أو أرقت الليل وأرقت ليلا .

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان .

(١٣) البخاري ، وقد ورد فيه أن عائشة سألت النبي عن أشد ما لقيه من التكذيب فقال لها : لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيته من أهل عبد ياليل بالطائف .

(١٤) حديث الإسراء :

رواه مسلم فى الإيمان (١٦٢) من حديث أنس .

(١٥) يجعله مستحيلا .

(١٦) هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى اللهم عليه وسلم ليلة أسرى به :

رواه البخارى فى المناقب (٣٨٨٨) وفى التفسير (٤٧١٦) وفى القدر (٦٦١٣) والترمذى فى التفسير (٣١٣٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى اللهم عليه وسلم ليلة أسرى به إلى بيت المقدس قال : ﴿والشجرة الملعونة فى القرآن﴾ قال : هى شجرة الزقوم.

(١٧) هذا المعنى مقتبس من كتاب الإسراء والمعراج ، للدكتور/ عبد الحليم محمود .

(١٨) الدكتور/ عبد الحليم محمود ، الإسراء والمعراج : ٦٧ .

(١٩) لقد رأيتنى فى الحجروقريش تسألنى :

رواه مسلم فى الإيمان (١٧٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثله قط – قال – فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شئ إلا أنبأتهم به وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلى ، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم – يعنى : نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد ، هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت إليه فبدأنى بالسلام» .

(٢٠) باسمك رب وضعت جنبى وبك أرفعه :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) وفى التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم فى الذكر (٢٧١٤) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى صلى اللهم عليه وسلم: إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك رب وضعت جنبى وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

(٢١) اللهم غارت النجوم وهدأت العيون :

قال الهيثمى فى المجمع : عن زيد بن ثابت قال أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «قل : اللهم، غارت النجوم وهدأت العيون وأنت حى يا قيوم، يا قيوم أنم ليلى وأهدئ ليلى» فقلتها فذهب عنى. وقال : رواه الطبرانى وفيه عمرو بن الحصين العقيلى وهو متروك . وذكر مالك فى الموّطإ كتاب النداء للصلاة فقال : وحدثنى عن مالك أنهم بلغهم أن أبا الدرداء كان يقوم من جوف الليل فيقول: نامت العيون وغارت النجوم وأنت الحى القيوم . فذكره هكذا من قول أبى الدرداء . وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على من وصله ، ولا أسنده ابن عبد البّر مع تتبعه لذلك .... إلخ . الفتوحات الربانية ٣/ ١٧٧.

(٢٢) الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣١٢،٦٣١٤،٦٣٢٤) والترمذى فى الدعوات (٣٤١٧) وأحمد فى مسنده (٢٢٧٦٠) من

حديث حذيفة بن اليمان قال كان النبى صلى اللهم عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك أموت وأحيا» وإذا قام قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» . ورواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنهم قال : كان النبى ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال: «اللهم باسمك أموت وأحيا» فإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» .

(٢٣) أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧٢٣) وأبو داود فى الأدب (٥٠٧١) والترمذى فى الدعوات (٣٣٩٠) وأحمد فى مسنده (٤١٨١) من حديث عبد الله بن مسعود قال: كان نبى الله صلى اللهم عليه وسلم إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له» قال: أراه قال فيهن: «له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير رب، أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها . رب ، أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر. رب ، أعوذ من عذاب فى النار وعذاب فى القبر» وإذا أصبح قال : ذلك أيضا : أصبحنا وأصبح الملك لله .

(٢٤) اللهم لك انتشرت وإليك توجهت :

ذكره الهندى فى الكنز (١٧٦٣٦) فقال : عن أنس قال : لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرا قط إلا قال حين ينهض من جلوسه : «اللهم، لك انتشرت وإليك توجهت وبك اعتصمت . اللهم ، أنت ثقتى وأنت رجائى . اللهم، اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم له وما أنت أعلم به . اللهم ، زودنى التقوى واغفر لى ووجهنى للخير أينما توجهت» ثم يخرج. ونسبة لابن جرير.

(٢٥) آيبون إن شاء الله تائبون عابدون حامدون :

رواه البخارى فى كتاب الحج (١٧٩٧) ، وفى الجهاد (٣٠٤٨،٢٩٩٥) وفى المغازى (٤١١٦) وفى الدعوات (٦٣٨٥) ، ومسلم فى كتاب الحج (١٣٤٤،١٣٤٢) والترمذى فى كتاب الحج (٩٥٠) ، وفى الدعوات (٣٤٤٧) وأبو داود فى كتاب الجهاد (٢٧٧،٢٥٩٩) وأحمد (٤٨٨٢، ٤٥٥٥، ٤٦٢٢، ٤٧٠٣، ٤٩٤٠، ٥٢٧٣، ٥٧٩٦، ٦٢٧٥، ٦٣٣٨) مالك فى الحج (٩٦٠) والدارمى فى الاستئذان (٢٦٨٢) من حديث ابن عمر أن النبى صلى اللهم عليه وسلم كان إذا قفل كبر ثلاثا وقال: «آيبون إن شاء الله تائبون عابدون حامدون لربنا ساجدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» .

(٢٦) ذكر المصدر؛ إزالة للشك، وتحقيقا للخبر .

(٢٧) ويجوز أن تكون ما بمعنى: المدة ، أى : ما دام سلطانهم جاريا على بنى إسرائيل ، انظر تفسير النيسابورى .

(٢٨) ﴿وعد الآخرة﴾: أى : وعد عقوبتكم على المرة الآخرة على حذف مضاف، وجواب إذا محذوف والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوءوا وجوهكم. وحسن هذا الحذف؛ لدلالة جواب إذا الأولى عليه فى قوله تعالى : ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباد لنا...﴾ .

(٢٩) تفسير الفخر الرازى ١٥٩/٢ .

(٣٠) تفسير ابن كثير : ٢٥/٣ .

(٣١) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ١٤/١.

(٣٢) تفسير ابن جرير : ١٥/ ١٧ .

(٣٣) الدكتور/ محمد سيد طنطاوى : بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ٢/ ٣٦٠ .

(٣٤) الدر المنثور السيوطى : ١٦٣/٤ .

(٣٥) انظر وصف ذلك فى الآيات ٢٤٦ - ٢٥٢ من سورة البقرة ، وفيها ما يفيد: أن طالوت وقائده داود قد انتصرا على جالوت ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة﴾ .

(٣٦) تفسير الدر المنثور ١٦٣/٤ .

(٣٧) تاريخ الإسرائيليين : ص ٧٦ .

(٣٨) تاريخ الإسرائيليين : ص ٧٧ .

(٣٩) تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٥) وفى المناقب (٣٥٩٣) ومسلم فى الفتن (٢٩٢١) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٦) وأحمد فى مسنده (٥٩٦٩) من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول : ياعبد الله ، هذا يهودى ورائى فاقتله» . رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٦) ، ومسلم فى الفتن (٢٩٢٢) وأحمد فى مسنده (٢٧٥٠٢) من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم ياعبد الله ، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرد فإنه من شجر اليهود» .

(٤٠) عبد الله التل : خطر اليهودية العالمية : ١٠٦ - ١٢٠ .

(٤١) من كبار علماء لبنان الشقيق .

(٤٢) عبد اللطيف مشتهرى ، المسجد الأقصى : ص ١٢٠ .

(٤٣) دكتور/ محمد طنطاوى : بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ٤٣٦/٢ .

(٤٤) مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ٦٥٧/١ - بيروت .

(٤٥) عبد اللطيف مشتهرى : المسجد الأقصى : من ١٧ .

(٤٦) محمد عزة دروزة : قصة فلسطين ص ٧١ .

(٤٧) تفسير النيسابوى ١٢/١٥ وهذا الكلام أقرب إلى الإسرائيليات .

(٤٨) تفسير النيسابورى ، ١٥ / ١٤ ، ١٥ .

(٤٩) تفسير القاسمى : ٣٩١٢/١٠ .

(٥٠) ﴿إما يبلغن﴾ هي أن الشرطية زيدت عليها ما؛ تأكيدا لها ، ثم أدخلت النون المشددة؛ لزيادة التقرير والتأكد كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سيقع البتة عادة فليكن هذا الجزاء مترتبا عليه .

﴿أحدهما﴾ فاعل ﴿يبلغن﴾ وفى قراءة: يبلغان فأحدهما بدل من ألفه .

﴿أف﴾ بفتح الفاء وكسرها منونا وغير منون ، مصدر بمعنى تبا وقبحا وروى ثعلب: أن الأف: الضجر ، وقيل: معنى أف: القلقة من الأفيف وهو الشيء القليل وتف اتباع له نحو شيطان ليطان ، حيث بيث ، خبيث نبيث .

(٥١) فى هذا التعبير قدرة رائعة فى تصوير هذا التواضع والتذلل من الأبناء للآباء وفيه استعارة مكنية وتخيلية فقد شبه الذل بطائر تشبيها مضمرا ، وأثبت له الجناح تخييلا والخفض ترشيحا .

وإضافة الجناح إلى الذل؛ للبيان ؛ لأنه صفة مبينة . أى : جناحك الذليل وفيه مبالغة؛ لأنه وصف بالمصدر ، فكأنه جعل الجناح عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية فيكون مثلا لغاية التواضع ، وسر ذكر الجناح وخفضه تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس .

(٥٢) من الكشاف بتصرف وانظر محاسن التأويل للقاسمى ٣٩١٩/١٠ .

(٥٣) عفوا تعف نساؤكم :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٥٤٤٣) بلفظ : «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ، وبروا آباؤكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك منه محقا كان أو مبطلا، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض» ونسبه للحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة، وصححه . وقال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبى، عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا: « عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم .. الحديث» . قال الهيثمى فى المجمع : وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : «عفوا تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم من شئ بلغه عنه، فلم يقبل عذره، لم يرد على الحوض. رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه خالد بن زيد العمرى وهو كذاب .

(٥٤) بر أمك وأباك وأختك وأخاك :

أبو داود فى الأدب (٥١٤٠) من حديث كليب بن منفعة عن جده أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى ذاك حق واجب ورحم موصولة» . ورواه النسائى فى الزكاة (٢٥٣٢) من حديث طارق المحاربى قال: قدمنا المدينة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: يد المعطى العليا وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك» مختصر . ورواه أحمد فى مسنده (٧٠٦٥)من حديث أبى رمثة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك وقال رجل: يا رسول الله، هؤلاء بنو يربوع قتلة فلان قال: «ألا لا تجنى نفس على أخرى» . ورواه أحمد فى مسنده (١٦١٧٧)من حديث رجل من بنى يربوع قال: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك» قال: فقال رجل: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة الذين أصابوا فلانا قال: فقال رسول الله ﷺ: ألا لا تجنى نفس على أخرى» . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . قال المناوى فى الفيض : قال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح، وقال المنذرى: إسناده حسن وهو فى البخارى بتقديم وتأخير. وقضية صنيع المؤلف أن هذا لم يخرج فى الصحيحين ولا أحدهما وهو عجب فقد خرجه البخارى من حديث أبى هريرة بزيادة ولفظه: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله» . وقال المنذرى: خرجه الشيخان معًا بنحوه عن حكيم بن حزام.

(٥٥) رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له :

رواه الترمذى فى الدعوات باب ١١٠ (٣٦١٣) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ . ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له . ورغم أنف رجلٍ أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنَّة» . قال عبد الرحمن: وأظنّه قال: «أو أحدهما» . وفى الباب عن جابرٍ وأنسٍ : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ .

(٥٦) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم وقال : صحيح الإسناد، وقد أورده ابن كثير فى تفسيره والغزالى فى الإحياء ١٩٣/٢ .

(٥٧) من أحق الناس بحسن صحابتى :

رواه البخارى فى الأدب (٥٩٧١) ومسلم فى البر (٢٥٤٨) وأحمد فى مسنده (٨١٤٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» .

(٥٨) اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم :

رواه البخارى فى الهبة (٢٥٨٧) ومسلم فى الهبات (١٦٢٣) من حديث عامر قال: سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنهما وهو على المنبر يقول: أعطانى أبى عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتنى أن أشهدك يا رسول الله ؛ قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم!» قال : فرجع فرد عطيته .

(٥٩) ابن حبان .

(٦٠)من لا يَرحم لا يُرحم :

رواه البخارى فى الأدب (٥٩٩٧) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٨) وأبو داود فى الأدب (٥٢١٨) والترمذى فى البر (١٩١١) وأحمد فى مسنده (٧٠٨١) من حديث أبى هريرة قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم!» .

(٦١) إحياء علوم الدين ١٩٤/٢ .

(٦٢) حاشية الجمل على الجلالين ٦٢٣/٢ .

(٦٣) أنا الرحمان وهى الرحم شققت لها اسما :

رواه أبو داود فى الزكاة (١٦٩٤) والترمذى فى البر (١٩٠٧) وأحمد فى مسنده (١٦٦٢) من حديث عبد الرحمان بن عوف قال: سمعت رسول الله صلى اللهم عليه وسلم يقول: «قال الله: أنا الرحمان وهى الرحم شققت لها اسما من اسمى من وصلها ومن قطعها بتته» .

(٦٤) من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) وفى الأدب (٥٩٨٥،٥٩٨٦) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٥٧) وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٣) (١٢١٧٨،١٣١٧٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من سره أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ له فى أثره؛ فليصل رحمه» .

(٦٥) الصدقة على المسكين صدقة وهى على ذى الرحم ثنتان :

رواه أبو داود فى الصوم (٢٣٥٥) والترمذى فى الزكاة (٦٥٨) وابن ماجة فى الصيام (١٦٩٩) وأحمد فى مسنده (١٥٧٩٢) من حديث سلمان بن عامر يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة فإن لم يجد تمرا فالماء فإنه طهور – وقال – الصدقة على المسكين صدقة وهى على ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة». وقال الترمذى : حديث حسن . وقال فى الآخر : حسن صحيح .

(٦٦) أرى أن تجعلها فى الأقربين :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٦١) وفى الوكالة (٢٣١٨) وفى الوصايا (٢٧٦٩) وفى التفسير (٤٥٥٥) وفى الأشربة (٥٦١١) ومسلم فى الزكاة (٩٩٨) من حديث أنس بن مالك رضى اللهم عنهم قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى اللهم عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى اللهم عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالى إلى بيرُحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال: فقال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «بخ! ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

(٦٧) أى : تلعب الميسر عليها فمن خسر اللعب دفع ثمن الإبل ثم وزعت على الفقراء .

(٦٨) ﴿حسيرا﴾ بزنة فعيل يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث تقول : رجل حسير وامرأة حسير كما تقول رجل كحيل وامرأة كحيل .

(٦٩) وفى الآية استعارتان تمثيليتان ، شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه بمن يده مغلولة لعنقه بحيث لا يقدر على مدها، وفى الثانية: شبه المسرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئا .

(٧٠) مه : اسم فعل بمعنى : اكفف عما تقول .

(٧١) أتحبه لأمك؟! :

رواه أحمد فى مسنده (٢١٧٠٨) من حديث أبى أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبى صلى اللهم عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لى بالزنا؛ فأقبل القوم عليه فزجروه قالوا: مه مه! فقال: «ادنه» فدنا منه قريبا قال: فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»

قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم ، اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح .

(٧٢) ما من ذنب بعد الشرك أعظم :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٨٠٣٠) بلفظ : «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له» . ونسبه لابن أبى الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائى . قال المناوى فى الفيض : قال في التقريب : ثقة من الخامسة وهو صريح فى كونه غير صحابى فكان على المصنف أن يقول: مرسلاً .

(٧٣) إن الله كتب على ابن آدم حظه :

رواه البخارى فى الاستئذان ح ٦٢٤٣، وفى القدر ح ٦٦١٢ ، ومسلم فى القدر ح ٢٦٥٧، وأبو داود فى النكاح ح ٢١٥٢، وأحمد ح ٧٦٦٢ ، ٢٧٠٢٣،٢٧٤٣٧، من حديث أبى هريرة .

(٧٤) المحصن : هو الذى سبق له الزواج .

(٧٥) ثمر السياط : عقد أطرافها .

(٧٦) الاختيار (فقه حنفى) تأليف : عبد الله الموصلى ٣/٤٠ – ٤١ .

(٧٧) المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ١٨٥ .

(٧٨) الدكتور / محمد وصفى ، القرآن والطب ٨٣ – ١٠٣ وبه وصف تفصيلى لأمراض الزنى وأوبائه التى تقشعر منها الأبدان وتنفر منها النفوس .

(٧٩) لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخارى فى الديات ح ٦٣٧٠، ومسلم فى القسامة ٣١٦٧،٣١٥٧، والترمذى فى الديات ح ١٣٢٢، وفى الحدود ح ١٣٦٤، والنسائى فى تحريم الدم ح ٣٩٥١، وفى القسامة ح ٤٦٤٢، وأبو داود فى الحدود ح ٣٧٨٨، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٢٥، وأحمد ح ٤٠٢٤،٣٨٥٩،٣٤٣٨، والدارمى فى الحدود ح ٢١٩٦.

(٨٠) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ١٥/٣٥ ط بولاق .

(٨١) تفسير المراغى ١٥/٤٣ .

(٨٢) روى هذا المعنى عن مجاهد ، وانظر تفسير النيسابورى ٥/٣٦ .

(٨٣) تفسير المراغى ١٥/٤٤ .

(٨٤) يقول سبحانه : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا﴾ (النساء : ٢).

ويقول سبحانه : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا * إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ (النساء ٩ ، ١٠) .

ويقول سبحانه : ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ (الضحى : ٩) .

(٨٥) إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا :

رواه الترمذى فى البيوع (١٢١٠) وابن ماجة فى التجارات (٢١٤٦) من حديث رفاعة أنه خرج مع النبى صلى اللهم عليه وسلم إلى المصلى فرأى الناس يتابعون فقال: «يا معشر التجار» فاستجابوا لرسول الله صلى اللهم عليه وسلم ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق» . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٨٦) التاجر الصدوق الأمين مع :

رواه الترمذى فى البيوع (١٢٠٩) والدارمى فى البيوع (٢٥٣٩) من حديث أبى سعيد عن النبى صلى اللهم عليه وسلم قال : «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

ورواه ابن ماجة فى التجارات (٢١٣٩) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة» .

(٨٧) من غشنا فليس منا :

رواه مسلم فى الإيمان (١٠١) وأحمد فى مسنده (٢٧٥٠٠) من حديث أبى هريرة: أن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم قال : من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا» . ورواه أحمد فى مسنده (٥٠٩٢) والدارمى فى البيوع (٢٥٤١) ابن عمر قال: مر رسول الله ﷺ بطعام وقد حسنه صاحبه فأدخل يده فيه فإذا طعام ردىء فقال: «بع هذا على حدة وهذا على حدة فمن غشنا فليس منا» . ورواه ابن ماجة فى التجارات (٢٢٢٥) من حديث أبى الحمراء قال: رأيت رسول الله صلى اللهم عليه وسلم مر بجنبات رجل عنده طعام فى وعاء فأدخل يده فيه فقال: لعلك غششت! من غشنا فليس منا» . ورواه أحمد فى مسنده (١٥٤٠٦) من حديث أبى بردة بن نيار قال: انطلقت مع النبى صلى اللهم عليه وسلم إلى نقيع المصلى فأدخل يده فى طعام ثم أخرجها فإذا هو مغشوش أو مختلف فقال: «ليس منا من غشنا» .

(٨٨) التطفيف : إنقاص الكيل أو الوزن ، وسمى بذلك ؛ لأن المطفف لا يكاد يأخذ إلا الشىء الطفيف القليل .

(٨٩) الردغة : بفتح الدال وسكونها : الماء والطين والوحل الشديد ، الخبال : الفساد ويطلق على الجنون .

وفى تفسير النيسابورى : وردغة الخبال: هى غسالة أهل النار من القيح والصديد . ا هـ . ومعنى الحديث الشريف : من اتهم مؤمنا كذبا وزورا عاقبه الله فى الدنيا بأن يجعل سمعته ممرغة فى الوحل والطين حتى يتوب. أو عاقبه فى الآخرة بأن يضعه فى غسالة أهل النار من القيح والصديد حتى يأتى بالدليل والبرهان على دعواه وما هو بقادر على ذلك .

(٩٠) ورد جل هذه الآراء فى تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٣٧/١٥ ، ٣٨ طبعة بولاق .

(٩١) أى : أن أكذب الكذب أن يدعى : أنه رأى رؤيا فى المنام كذبا .

(٩٢) إن من أفرى الفرى أن يُرى عينيه :

رواه أحمد في مسنده (٥٦٧٨،٥٩٦٢) من حديث ابن عمر : أن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم قال: «إن من أفرى الفرى أن يُرى عينيه في المنام ما لم تريا» . ورواه أحمد في مسنده (١٦٥٣٢،١٦٥٣٥) من حديث واثلة بن الأسقع يقول: قال نبي الله صلى اللهم عليه وسلم: «إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه، أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول على رسول الله - صلى اللهم عليه وسلم - ما لم يقل» .

(٩٣) تحلم حلما : اختلق الحلم من عند نفسه ، شعيرتين أي : حبتين من شعير ، ولما كانت الرؤيا من عند الله كما ورد في الحديث : «الرؤيا من الله ، فمن قال: رأيت مناما كذبا يكون مفتريا على الله فيكلف بالعمل العسير كأن يعقد عقدة بين حبتين من شعير ولن يستطيع ذلك» .

(٩٤) من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد :

رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٢) وأبو داود في الأدب (٥٠٢٤) والترمذي في الرؤيا (٢٢٨٣) وابن ماجة في تعبير الرؤيا (٣٩١٦) وأحمد في مسنده (١٨٦٩) من حديث ابن عباس عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قال: «من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ» . ورواه أحمد في مسنده (١٠١٧١) من حديث أبي هريرة عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قال: «من صور صورة عذب يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها. ومن استمع إلى حديث قوم ولا يعجبهم أن يستمع حديثهم أذيب في أذنه الآنك. ومن تحلم كاذبا دفع إليه شعيرة وعذب حتى يعقد بين طرفيها وليس بعاقد» .

(٩٥) طولا: تمييز محول عن الفاعل أي : ولن يبلغ طولك الجبال أي : تطاولك واستعلاؤك . والمقصود: التهكم بالمتكبر .

(٩٦) تفسير النيسابوري بهامش الطبري ٣٩/١٤ .

(٩٧) بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل :

رواه البخاري (٣٤٨٥،٥٧٩٠)، وأحمد (٥٣١٨)، والنسائي في الزينة (٥٣٢٦). من حديث عبدالله بن عمر. ورواه البخاري في اللباس(٥٧٨٩)، ومسلم في اللباس (٢٠٨٨)، والدارمي في المقدمة (٤٣٧) وأحمد (٧٥٧٤ ، ٨٨٢٢ ، ٩٠٨٢، ٩٥٦٧ ، ٢٧٢٦١ ، ٢٧٣٩٤، ١٠٠١٠ ، ١٠٠٧٧، ١٠٤٨٨) من حديث أبي هريرة . ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩١) وأحمد (٧٠٣٤). من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . ورواه أحمد (١٠٩٦٠، ١٠٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري .

(٩٨) تفسير ابن كثير : ٤٠/٣ وبه آثار في الموضوع فارجع إليها إن شئت .

(٩٩) قال في حاشية الجمل على الجلالين : فأولها : ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر﴾ ، ثانيها وثالثها: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ لاشتماله على تكليفين: الأمر بعبادة الله ، والنهي عن عبادة غيره ، رابعها : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ ، خامسها : ﴿فلا تقل لهما أف﴾، سادسها : ﴿ولا تنهرهما﴾ ، سابعها : ﴿وقل لهما قولا كريما﴾ ، ثامنها : ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ ، تاسعها : ﴿وقل رب ارحمهما﴾ ، عاشرها : ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ (١١) ﴿والمسكين﴾ (١٢) ﴿وابن السبيل﴾ (١٣) ﴿ولا تبذر تبذيرا﴾ (١٤) ﴿فقل لهم قولا ميسورا﴾ (١٥) ﴿ولا تجعل يدك مغلولة﴾ (١٦) ﴿ولا تبسطها﴾ (١٧) ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ (١٨) ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ (١٩) ﴿ولا تقتلوا النفس﴾ (٢٠) ﴿فلا يسرف في القتل﴾ ، والبقية : ﴿وأوفوا بالعهد﴾ ، ﴿وأوفوا الكيل﴾ ، ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ ، ﴿ولا تقف﴾ ، ﴿ولا تمش...﴾ إلخ وكلها تكليفات .

(١٠٠) هذا التفسير مستفاد من التفاسير الآتية : تفسير الطبرى ٦٣/١٥ ، ابن كثير : ٤٠/٣ ، النيسابورى بهامش الطبرى ٣٩/١٥، حاشية الجمل على الجلالين : ٦٢٦/٢ ، القاسمى ٣٩٢٩/١٠ .

(١٠١) تفسير القاسمى ٣٩٢٩/١٠ .

(١٠٢) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد فى مسنده ح ٨٥٩٥ من حديث أبى هريرة .

(١٠٣) إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة :

رواه الترمذى فى البر (٢٠١٨) من حديث جابر : أن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم قال: «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون» . وقال الترمذى: حديث حسن غريب . ورواه أحمد فى مسنده (١٧٢٧٨) من حديث أبى ثعلبة الخشبى قال: قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «إن أحبكم إلى وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى فى الآخرة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» . ورواه أحمد فى مسنده (٨٦٠٤) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «ألا أنبئكم بشراركم؟!» فقال: «هم الثرثارون المتشدقون ألا أنبئكم بخياركم؟! أحاسنكم أخلاقا».

(١٠٤) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ٤١ .

(١٠٥) تفسير القاسمى ج ١٠ ص ٣٩٣٣ .

(١٠٦) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ج ١٥ ص ٣٩ .

(١٠٧) تفسير النيسابورى ٤٨/١٥ .

(١٠٨) تفسير النيسابورى ٥٠/١٥ .

(١٠٩) لا يمشين أحدكم إلى أخيه بالسلاح :

رواه أحمد فى مسنده (٢٧٤٣٢) من حديث أبى هريرة قال قال: رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «لا يمشين أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من نار» .

(١١٠) تفسير النيسابورى ٥١/١٥ .

(١١١) تفسير الطبرى طبعة بولاق ٧١/١٥ .

(١١٢) أول من خلق الله القلم :

أخرجه الترمذى (٢١٥٥، ٣٣١٩) وأبو داود (٤٧٠٠) وأحمد (٢٢١٩٧و٢٢١٩٩) ، من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه . وقال الترمذى : حسن غريب . وقال الشيخ الألبانى : صحيح.

(١١٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢٣٣٣ (طبعة المعارف) ورواه الطبرى بعدة روايات يؤيد بعضها بعضا ج ١٥ ص ٧٤ طبعة بولاق .

(١١٤) تفسير القاسمى ٣٩٤٤/١٠ نقلا عن الشهاب .

(١١٥) ﴿طينا﴾ منصوب بنزع الخافض أى : من طين ، قال النسفى : وهو تمييز أو حال من الموصول والعامل فيه أأسجد والمعنى: أأسجد له وهو طين أى : أصله طين .

(١١٦) تفسير السراج المنير ، فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير ، للشيخ الإمام : محمد بن أحمد الخطيب الشربينى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ ، ج٢ ص ٣٠٣ .

(١١٧) الكاف للخطاب وهذا مفعول به .

(١١٨) احتنك الجراد الأرض؛ إذا أجرد ما عليها أكلا ، وهو من الحنك ، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم : أحنك الشاتين أى : أكلهما، تفسير الكشاف ٣٦٦٦/٢ .

(١١٩) الظاهر من نصوص الدين أن إبليس قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة وقارن بتفسير الكشاف للزمخشرى ج٢ ص٣٣٦.

(١٢٠) تفسير الخطيب الشربينى ٣٠٤/٢ .

(١٢١) تفسير النيسابورى بهامش الطبرى :١٥ /٦١ ط : بولاق .

(١٢٢) تفسير المراغى ١٧/١٥ .

(١٢٣) تفسير النيسابورى ٦١/١٥ .

(١٢٤) تفسير القاسمى ٣٩٤٨/١٠ نقلا عن القاشانى .

(١٢٥) قال تعالى : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ...﴾ . (فاطر : ٦) .

وقال سبحانه : ﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ...﴾ . (الأعراف : ٢٧) .

وآخر سور القرآن تعلمنا الاستعاذة من كيده وهى : ﴿قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس* الذى يوسوس فى صدور الناس * من الجنة والناس﴾ . (الناس : ١ - ٦) .

(١٢٦) تفسير القاسمى ٣٩٤٩/١٠ .

(١٢٧) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٥٣/١٥ .

(١٢٨) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٦٤/١٥ .

(١٢٩) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٥٥/١٥ .

(١٣٠) تفسير المراغى ٧٧/١٥ ، ٧٨ الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(١٣١) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٥٥/١٥ .

(١٣٢) فى ظلال القرآن ٥٩/١٥ .

(١٣٣) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٧٢/١٥ ط بولاق .

(١٣٤) تفسير النيسابورى ٧١/١٥ .

(١٣٥) الأنعام ٥٢ وتمام الآية : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ .

(١٣٦) تفسير القاسمى ٣٩٥٦/١٠ ، وتفسير النيسابورى ٧٠/١٥ ط بولاق .

(١٣٧) تفسير الطبرى ٨٩/١٥ ط بولاق .

(١٣٨) تفسير الطبرى ٨٩/١٥ ط بولاق .

(١٣٩) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٧٢/١٥ ، ٧٣ .

(١٤٠) تفسير الطبرى .

(١٤١) تفسير الطبرى ٩٠/١٥ ط بولاق .

(١٤٢) تفسير الطبرى ٩٠/١٥ .

(١٤٣) تفسير الطبرى ٩١/١٥ ، ٩٢ .

(١٤٤) ﴿وقرآن الفجر﴾ منصوب بالعطف على ﴿الصلاة﴾ أى : وأقم صلاة الفجر. وجوز بعض النحاة نصبه على الإغراء ، أى: وعليك قرآن الفجر أو الزم قرآن الفجر .

(١٤٥) تفسير النيسابورى بهامش الطبرى ٧٥/١٥ ط بولاق .

(١٤٦) الإحسان أن تعبد الله :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠، وفى تفسير القرآن ح ٤٧٧٧، ومسلم فى الإيمان ح ٩،٨، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦١٠، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٩١،٤٩٩٠، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٩٥، وابن ماجة فى المقدمة ح ٦٤،٦٣، وأحمد ح ٦١٢١،٥٨٢٢،٣٧٦،٣٦٩ من حديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال: يا رسول الله ، ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» قال : يا رسول الله ، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: يا رسول الله ، متى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ...﴾ ثم انصرف الرجل فقال: «ردوا على» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» . ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح.

(١٤٧) وجعل قرة عيني في الصلاة :

رواه النسائي (٣٩٣٩،٣٩٤٠) وأحمد (١١٨٨٤،١١٨٨٥،١٢٦٤٤) من حديث أنس بن مالك . قال: قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة» . قال العراقي : رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد وضعفه العقيلي . قال المناوى في الفيض : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وقال الحافظ العراقي : إسناده جيد ، وقال ابن حجر : حسن ، واعلم أن المصنف جعل في الخطبة (حم) رمزا لأحمد في مسنده فاقتضى ذلك أن أحمد روى هذا في المسند وهو باطل فإنه لم يخرجه فيه وإنما خرجه في كتاب الزهد فعزوه إلى المسند سبق ذهن أو قلم قلت : وكلام المناوى فيه نظر فإن الحديث رواه أحمد في مسنده كما تقدم من حديث أنس بن مالك وذكره في ثلاث مواضع، فتأمل .

(١٤٨) تفسير النسفي ٢/٢٥٠ .

(١٤٩) تفسير النيسابوري ١٥/٧٣ .

(١٥٠) تفسير القاسمي ١٠/٣٩٦٠ .

(١٥١) أخرجه البخاري في الجزء التاسع، كتاب مواقيت الصلاة ، والثاني عشر، باب تأخير الظهر إلى العصر رقم ٣٥٣ (عن ابن عباس) .

وأخرجه مسلم في الجزء السادس ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها حديث رقم ٥٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(١٥٢) تفسير القاسمي ١٠/٣٩٦٠ ، ٣٩٦١ .

(١٥٣) في ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ١٥/٦٢ .

(١٥٤) تفسير الطبري ١٥/٩٦ ط بولاق .

(١٥٥) التهجد: ترك الهجود وهو النوم و (تفعل) يأتي للسلب كـ (تأثم وتحرج) ، بمعنى: ترك الإثم والحرج . قال الأزهرى : المعروف في كلام العرب أن الهاجد هو النائم ، وأما المتهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له : (متهجد)؛ لإلقائه الهجود عن نفسه كما يقال للعابد: (متحنث)؛ لإلقائه الحنث عن نفسه . ونقل عن ابن فارس أن معناه: صل ليلا. وكذا عن ابن الأعرابي قال : هجد الرجل وتهجد؛ إذا صلى بالليل والمعروف الأول .

(١٥٦) تفسير الطبرى ١٥/٩٧ ط بولاق .

(١٥٧) ورد ذلك في البخاري في : ٦٥ – كتاب التفسير ١، ٧ سورة الإسراء ، حديث رقم ٧٨٧ عن ابن عمر .

(١٥٨) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبرى ١٥/٧٧ .

(١٥٩) تفسير الطبرى ١٥/٩٧ ط بولاق .

(١٦٠) رواه الإمام أحمد في مسنده في حديث طويل ذكر فيه : «إن الناس تذهب إلى نوح ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ، فيعتذر كل نبي ويقول: اذهبوا إلى غيرى ، إن الجبار غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب مثله» .

(١٦١) المراد به : النداء للصلاة وهو الأذان والإقامة .

(١٦٢) اللهم رب هذه الدعوة التامة :

رواه البخارى في الأذان (٦١٤) وفى التفسير (٤٧١٩) وأبو داود فى الصلاة (٥٢٩) والترمذى فى الصلاة (٢١١) والنسائي فى الأذان (٦٨٠) وابن ماجة فى الأذان (٧٢٢) وأحمد فى مسنده (١٤٢٠٩) من حديث جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته؛ حلت شفاعتى يوم القيامة» .

(١٦٣) تفسير النيسابورى ٧٨/١٥ .

(١٦٤) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٦٢/١٥ .

(١٦٥) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٦٣/١٥ .

(١٦٦) تفسير القاسمى ٣٩٧٦/١٠ .

(١٦٧) جاء الحق وزهق الباطل :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٧٨) ، وفى المغازى (٤٢٨٧) وفى التفسير (٤٧٢٠)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨١)، وأحمد (٣٥٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٣٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح وفيه: عن ابن عمر، ورواه مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٠) ،وأحمد (١٠٥٦٥) من حديث أبى هريرة .

(١٦٨) تفسير الفخر الرازى ٤٤٥/٥ الطبعة الأولى بالمطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٠٨ هـ .

(١٦٩) ورد ذلك فى صحيح البخارى وخلاصته: أن رجلا من المسلمين قرأ الفاتحة على مريض قد لدغ فقام من مرضه كأنما نشط من عقال ، ثم أخذ الراقى بعض الغنم مكافأة له على رقيته ، وقد أخبر النبى ﷺ بذلك فأيده وباركه .

(١٧٠) فتح البيان فى مقاصد القرآن لصديق بن حسن القنوجى البخارى ملك بهوبال بالهند ط بولاق ج ٥ ص ٣٥٨ .

(١٧١) تفسير ابن كثير بهامش تفسير القنوجى ملك بهوبال ١٠٠/٦ ط بولاق .

(١٧٢) تفسير القنوجى ملك بهوبال بالهند ٣٥٨/٥ .

(١٧٣) تفسير النيسابورى ٧٩/١٥ .

(١٧٤) فى ظلال القرآن ٦٤/١٥ .

(١٧٥) تفسير الطبرى ١٠٣/١٥ ط بولاق .

(١٧٦) تفسير النيسابورى ٧٩/١٥ ط بولاق .

(١٧٧) تفسير الطبرى ١٠٦/١٥ ط بولاق .

(١٧٨) تفسير القاسمى ٣٩٨٨/١٠ .

(١٧٩) تفسير القاسمى ٣٩٩٠/١٠ وما بعدها .

(١٨٠) عبر عن القرآن بالموصول؛ تفخيما لشأنه ، ووصفا له بما هو فى حيز الصلة ، وإعلاما بأنه ليس من قبيل كلام المخلوقين .

(١٨١) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٦٦/١٥ ، ٦٧ .

(١٨٢) إسناد الطبرى هو : حدثنا أبو كريب قال : ثنا يونس بن بكير قال : ثنا محمد بن إسحاق قال : ثنا شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس - ثم أورد الرواية بطولها ، وقد ذكرتها مختصرة كما وردت فى تفسير النيسابورى، والخازن ، وحاشية الجمل . فمن أراد نص الرواية فليرجع إلى تفسير الطبرى ١١٠/١٠ .

(١٨٣) حاشية الجمل ٦٤٧/٢ نقلا عن تفسير الخازن .

(١٨٤) تفسير القاسمى ٣٩٩٨/١٥ بعناية محمد فؤاد عبد الباقى الطبعة الأولى .

(١٨٥) تفسير القاسمى بتصرف واختصار .

(١٨٦) تفسير القاسمى ٣٩٩٩/١٠ ، ٤٠٠٠ بتصرف .

(١٨٧) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٦٩/١٥.

(١٨٨) أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا :

رواه البخارى فى التفسير (٤٧٦٠) وفى الرقاق (٦٥٢٣) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٦) وأحمد فى مسنده (١٢٩٧٩) من حديث أنس بن مالك رضى اللهم عنهم أن رجلا قال: يا نبى الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال: «أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» قال قتادة : بلى وعزة ربنا .

(١٨٩) يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا :

رواه الترمذى فى التفسير (٣١٤٢)، وأحمد فى مسنده (٨٤٣٣) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة، وصنفا ركبانا، وصنفا على وجوههم» قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟! قال: «إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن .

(١٩٠) الأنعام ٢٣ وتمام الآية : ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ .

(١٩١) تفسير الخطيب الشربينى ج ٢ ص ٣٢٣ .

(١٩٢) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٩٧/١٥ .

(١٩٣) أخرجه البخارى فى ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٩ - باب حدثنا معاذ بن فضاله حديث ٢٠١٢ عن أبى هريرة . وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة وجاء فى شرح النووى على صحيح مسلم ج ٧ ص ٨٠ السح الصب الدائم ، والليل والنهار منصوبان على الظرف ومعنى لا يغيضها شىء أى: لا ينقصها يقال : غاض الماء وغاضه الله لازم ومتعد وفى رواية أبى هريرة فى مسلم : «قال الله تبارك وتعالى: «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك» . وقال رسول الله ﷺ : «يمين الله ملأى».

(١٩٤) تفسير الخطيب الشربينى ج٢ ص ٣٢٥ .

(١٩٥) ورد ذلك فى الآية ١٣٣ من سورة الأعراف وهى :

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ .

(والطوفان) ما طاف بهم وغشى أماكنهم ، وهو فى اللغة: المطر الغالب والماء الذى يغشى كل شيء والسيل المغرق . (القمل) صغار الذر وقيل: أولاد الجراد واحدتها: قملة ، وهي غير القملة المعروفة التى جمعها قمل (والضفادع) معروفة واحدها: ضِفدع وضُفدع .

والمعنى : أرسل الله على آل فرعون السيول تهلك مزروعاتهم والجراد يجتاح ثمارهم والقمل والضفادع فامتلأت بها بيوتهم ، والدم تلوثت به مياههم فاستكبروا مع كل هذه البلايا وكانوا مجرمين .

(١٩٦) ورد ذلك فى الآية ٩٠ من سورة يونس وفيها : ﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت...﴾ وفى الآية ٧٧ من سورة طه : ﴿فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ...﴾ .

(١٩٧) ورد ذلك أيضا فى الآية ٦٠ من سورة البقرة ، وفى الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(١٩٨) ورد ذلك فى سورة البقرة الآية ٥٧ ، وفى الأعراف الآية ١٦٠ ، وفى طه الآية ٨٠ حيث تقول الآية : ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ والمن: شيء حلو مثل العسل أبيض كالثلج كان ينزل بالليل على شجرهم ، والسلوى طائر السمان .

(١٩٩) ورد ذلك فى الآية ٨٨ من سورة يونس ، والطمس: هو محق الأموال وإهلاكها .

(٢٠٠) تفسير النيسابورى ٩٨/١٥ ، وقارن بتفسير المراغى ١٠٤/١٥ .

(٢٠١) تفسير النيسابورى .

(٢٠٢) ﴿إذ جاءهم﴾ يتعلق بآياتنا أو ينتصب بإضمار اذكر ، أو هو للتعليل والمراد: فاسألهم يخبروك؛ لأنه جاءهم أى : جاء آباءهم وانظر تفسير النيسابورى .

(٢٠٣) ﴿مسحورا﴾ بمعنى: سحرت فخولط عقلك . أو بمعنى:ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب العصا ثعبانا .

(٢٠٤) البصائر: جمع بصيرة بمعنى: مبصرة، أى : بينة أو المراد : الحجج ، يجعلها كأنها بصائر العقول ، وتكون بمعنى: عبرة.

(٢٠٥) فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية المسمى : المنتخب فى تفسير القرآن الكريم: أن هذه الآيات التسع هى : ١ - العصا ، ٢ - اليد البيضاء ، ٣ - الطوفان ، ٤ - الجراد والضفادع والقمل والدم ، ٥ - الجدب ونقص الثمار ، ٦- فلق البحر ، ٧ - انبجاس الماء من الحجر ، ٨ - نتق الجبل كأنه ظله ، ٩ - خطاب موسى لربه .

(٢٠٦) قال الفراء : ﴿مثبورا﴾ أى : ملعونا محبوسا عن الخير من قولهم: ما ثبرك عن هذا أى : ما منعك وصرفك ، وقال مجاهد وقتادة : أى: هالكا من الثبور وهو الهلاك ، وفى آية أخرى : ﴿لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا﴾ . (الفرقان : ١٤).

(٢٠٧) تفسير النيسابورى ١٠٠/١٥ .

(٢٠٨) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٧٢/١٥ بتصرف .

(٢٠٩) قرآنا منصوب بفعل محذوف يفسره فرقناه .

(٢١٠) قال الطبرى : اختلفت القراء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الأمصار: فرَقناه بتخفيف الراء من فرقناه بمعنى: أحكمناه وفصلناه وبيناه ، وذكر عن ابن عباس : أنه كان يقرؤه بتشديد الراء فرّقناه بمعنى: نزلناه شيئا بعد شيء، آية بعد آية ، وقصة بعد قصة ، وأولى القراءتين بالصواب القراءة الأولى .

(٢١١) تفسير النيسابورى ١٠١/١٥ .

(٢١٢) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٧٢/١٥ .

(٢١٣) تفسير الطبرى ١٢٠/١٥ .

(٢١٤) فى ظلال القرآن ٧٣/١٥.

(٢١٥) حاشية الجمل على الجلالين ٦٥٤/٢ .

(٢١٦) تفسير القاسمى ٤٠١٠/١٠ .

(٢١٧) فإن لم تبكوا فتباكوا :

رواه ابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٣٧) من حديث عبد الرحمان بن السائب قال: قدم علينا سعد بن أبى وقاص وقد كف بصره فسلمت عليه فقال: من أنت؟ فأخبرته فقال: مرحبا بابن أخى بلغنى أنك حسن الصوت بالقرآن سمعت رسول الله صلى اللهم عليه وسلم يقول: «إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن به؛ فليس منا» .

(٢١٨) ليس منا من لم يتغن بالقرآن :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٢٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وزاد غيره : «يجهر به» . ورواه أبو داود فى الصلاة (١٤٦٩، ١٤٧١) والدارمى فى الصلاة (١٤٩٠) وفى فضائل القرآن (٣٤٨٨) وأحمد فى مسنده (١٤٧٩) من حديث سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من لم يتغن بالقرآن» .

(٢١٩) عينان لا تمسهما النار : عين بَكَتْ من خشية الله :

رواه الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٣٩) وقال : حديث ابن عباس حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق. قلت : شعيب هذا ، ضعَّفَهُ بعضهم .

(٢٢٠) لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن :

رواه الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٣٣) وفى الزهد (٢٣١١) والنسائى فى الجهاد (٣١٠٨) وأحمد فى مسنده (١٠١٨٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم» .

(٢٢١) تفسير النيسابورى ١٠٢/١٥ وتفسير النسفى ٢٥٥/٢ ، وقال أبو جعفر الطبرى: ولدخول ما فى قوله : ﴿أياما تدعوا﴾ وجهان: أحدهما: أن تكون صلة كما قيل: ﴿عما قليل ليصبحن نادمين﴾ والآخر: أن تكون فى معنى أن كررت لما اختلف لفظاهما كما قيل: ما إن رأيت كالليلة ليلة – تفسير الطبرى ١٢٢/١٥ .

(٢٢٢) تفسير القاسمى ٤٠١١/١٠ ، ٤٠١٢ وهذا المعنى فى تفسير النيسابورى ١٠٢/١٥ .

(٢٢٣) انظر حاشية الجمل ٦٥٥/٢ ، وفيها أن الإمام النووى فسر الإحصاء بالحفظ وهكذا فسره البخارى والأكثرون، ويؤيده أن فى رواية الصحيح: «من حفظها دخل الجنة» ونرى أن حفظها لابد أن يرافقه فهم معناها والعمل بمقتضاه.

(٢٢٤) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٦٥٥/٢ – ٦٦٧ وأسماء الله الحسنى كما وردت فى الحديث الصحيح هى «الله الذى لا إله إلا هو الرحمان ، الرحيم ، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواحد، الماجد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولى، المتعال، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور».

(٢٢٥) وردت هذه الآراء فى تفسير الطبرى وتفسير النيسابورى .

(٢٢٦) تفسير المراغى ١١١/١٥ .

(٢٢٧) تفسير النيسابورى١٥ /١٠٤ بتصرف ، وقارن بتفسير المراغى ١١١/١٥ .

(٢٢٨) تفسير الطبرى ١٢٦/١٥ .

(٢٢٩) تفسير الطبرى ١٢٦/١٥ بتصرف .

(٢٣٠) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، تحقيق الأستاذ محمد على النجار ، جـ ١ ص ٢٩٧ .

(٢٣١) الإتقان فى علوم القرآن ١ – ١٧ .

(٢٣٢) فى ظلال القرآن ج ١٦ ص ١٥ ط ١ .

(٢٣٣) من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء :

رواه الدارمى فى فضائل القرآن (٣٤٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى قال: من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق . قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى السنن ، عن أبى سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين».

(٢٣٤) من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٩) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢٣) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٦٨) وأحمد فى مسنده (٢١٢٠٥) من حديث أبى الدرداء: أن النبى ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال».

(٢٣٥) من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف :

انظر ما قبله.

(٢٣٦) من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن الضريس والنسائى وأبو يعلى والرويانى ، عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ؛ فإنه عصمة له من الدجال» .

(٢٣٧) تفسير المراغى ١١٦/١٥ .

(٢٣٨) إن الدنيا حلوة خضرة :

بهذا اللفظ رواه مسلم فى الذكر (٢٧٤٢) والترمذى فى الفتن (٢١٩١) من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت النساء» . وما أشار إليه المصنف حفظه الله من أن البخارى أخرجه فإنما أخرجه البخارى فى الزكاة (١٤٦٥) من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال: «إنى مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها .. الحديث» وفيه: «وإن هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل .. الحديث» . وكذلك ذكر البخارى تلك اللفظة فى الرقاق (٦٤٤١) من حديث حكيم بن حزام قال: سألت النبى صلى الله عليه وسلم فأعطانى ثم سألته فأعطانى ثم قال: «هذا المال» وربما قال: «سفيان» قال لى : «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه .. الحديث» .

(٢٣٩) اللهم إنّا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا :

ذكره البخارى فى الرقاق تعليقا بقوله : باب قول النبى ﷺ : هذا المال خضرة حلوة وقال الله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا...﴾ قال عمر: اللهم ، إنّا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا . اللهم ، إنى أسألك أن أنفقه حقه .

(٢٤٠) انظر تفسير المراغى ١١٨/١٥ ، وصفوة التفاسير للصابونى ١٨٤/٢ .

(٢٤١) زاد المسير ١٠٨/٥ .

(٢٤٢) ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا :

رواه أحمد فى مسنده (٢٤٦١٣) من حديث عائشة : أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فأراد أن يكلمه وعائشة تصلى فقال لها رسول الله ﷺ : «عليك بالكوامل» أو كلمة أخرى فلما انصرفت عائشة سألته عن ذلك فقال لها: «قولى: اللهم، إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما

لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد - ﷺ - وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك - محمد ﷺ - وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا» .

(٢٤٣) اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها :

رواه أحمد في مسنده (١٧١٧٦) من حديث بُسر بن أرطاة القرشي قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو: اللهم ، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة» .

(٢٤٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٤١٢/٢ .

(٢٤٥) ما تركت شيئًا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم :

رواه الشافعي في مسنده (٦٧٣) من حديث المطلب بن حنطب : أن النبي ﷺ قال : «ما تركت شيئًا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئًا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه وإن الروح الأمين قد نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فأجملوا في الطلب». وذكره العراقي في تخريج الإحياء فقال : «إني لا أعلم شيئا يقربكم من الجنة ويبعدكم عن النار إلا نهيتكم عنه وإن الروح الأمين نفث في روعي : أن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» رواه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهد الحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين، وهما مختصران، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال : إنه منقطع . قال المناوي في الفيض : رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة الباهلي ورواه عنه أيضا الطبراني ورواه ابن أبي الدنيا والحاكم عن ابن مسعود ورواه البيهقي في المدخل وقال : منقطع .

(٢٤٦) ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

رواه البخاري في الإيمان (٢١،١٦) والإكراه (٦٩٤١)، ومسلم في الإيمان (٤٣)والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، والنسائي في الإيمان (٤٩٨٨)وابن ماجة في الفتن (٤٠٣٣) وأحمد في مسنده (١١٥٩١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة : الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف النار» .

(٢٤٧)إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله :

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال العجلوني في كشف الخفاء: رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه، وكذا القضاعي عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلي، فقال: «ياغلام، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله... الحديث»، وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه»، وفيه: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»، وأورده الضياء في المختارة وهو حسن، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضي

الله عنهما رفعه بلفظ: يا ابن عباس، احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله الرخاء يعرفك فى الشدة»، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى، قال فى المقاصد: وقد بسطت الكلام عليه تخريج الأربعين.

(٢٤٨) لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور :

رواه أبو داود فى الجنائز (٣٢٣٦) والترمذي فى الصلاة (٣٢٠) والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٣) وأحمد فى مسنده (٢٠١٣) من حديث ابن عباس قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج .

(٢٤٩) وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد :

رواه مسلم فى المساجد (٥٣٢) من حديث جندب قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ولو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إنى أنهاكم عن ذلك» .

(٢٥٠) لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد :

رواه البخارى فى الصلاة (٤٣٦) وأحاديث الأنبياء (٣٤٥٤) والمغازى (٤٤٤٤) واللباس (٥٨١٦) ومسلم فى المساجد (٥٣١) والنسائى فى المساجد (٧٠٣) وأحمد فى مسنده (١٨٨٧) من حديث عائشة وابن عباس يرفعاه «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. ورواه البخارى فى الصلاة (٤٣٧) ومسلم فى المساجد (٥٣٠) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٢٧) والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٧) وأحمد فى مسنده (٧٣١١) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». ورواه البخارى فى الجنائز (١٣٣٠،١٣٩٠) والمغازى (٤٤٤١) ومسلم فى المساجد (٥٢٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٩٩٢) من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدا» قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أنى أخشى أن يتخذ مسجدا .

(٢٥١) أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح :

رواه البخارى فى الصلاة (٤٣٤) والجنائز (١٣٤١) والمناقب (٣٨٧٣) ومسلم فى المساجد (٥٢٨) والنسائى فى المساجد (٧٠٤) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٣١) من حديث عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية فذكرت له ما رأت فيها من الصور فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح– أو الرجل الصالح – بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله». ورواه البخارى فى الصلاة (٤٢٧) من حديث عائشة : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبى صلى الله عليه وسلم فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» .

(٢٥٢) إن من شرار الخلق عند الله يوم القيامة من تدركهم الساعة :

رواه البخارى فى الفتن (٧٠٦٧) وأحمد فى مسنده (٤٣٣٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من البيان سحرا وشرار الناس الذين تدركهم الساعة أحياء والذين يتخذون قبورهم مساجد».

(٢٥٣) تفسير المراغي ١٣٤/١٥ ، وانظر التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي ٤٨/١٥ نقلا عن تفسير الآلوسي ٢٣٧/١٥ .

(٢٥٤) لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة :

رواه البخاري في المغازي (٤١١٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فلم يعنف واحدا منهم .

(٢٥٥) يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا :

رواه البخاري في العلم (٦٩) والأدب (٦١٢٥) ومسلم في الجهاد (١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا». ورواه مسلم الجهاد (١٧٣٢) من حديث أبي موسى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا من أصحابه بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا» .

(٢٥٦) لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا :

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) والإكراه (٦٩٥١) ومسلم في البر (٢٥٨٠) وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) والترمذي في الحدود (١٤٢٦) وأحمد في مسنده (٥٦١٤،٥٣٣٤) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة». ورواه مسلم في البر (٢٥٦٤) والترمذي في البر (١٩٢٧) وأحمد في مسنده (٨٠٤٢،٧٦٧٠) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». ورواه أحمد في مسنده (١٢٩٤١) من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» .

(٢٥٧) في ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٨٧/١٥ طبع عيسى البابي الحلبي .

(٢٥٨) انظر تفسير ابن كثير ، والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي ، وفي صحيح مسلم: أن المشركين قالوا للنبي: اطرد هؤلاء الفقراء عنك أو اجعل مجلسًا خاصًا بأشراف قريش ؛ فنزلت الآيات .

(٢٥٩) هذا خير من ملء الأرض مثل هذا :

رواه البخاري في النكاح (٥٠٩١) والرقاق (٦٤٤٧) وابن ماجة في الزهد (٤١٢٠) من حديث سهل قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع قال: ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حرى إن خطب لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يستمع فقال رسول الله ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» .

(٢٦٠) ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله :

رواه أحمد فى مسنده (١٢٠٤٥) من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات» .

(٢٦١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٤١٧/٢ .

(٢٦٢) كعكر الزيت فإذا قربه إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه :

رواه الترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨١،٢٥٨٤) والتفسير (٣٣٢٢) وأحمد فى مسنده (١١٢٧٥) من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قوله : ﴿كالمهل﴾ قال: «كعكر الزيت فإذا قربه إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه». قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث رشدين قد تكلم فيه .

(٢٦٣) تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء :

رواه مسلم فى الطهارة (٢٥٠) وأحمد فى مسنده (٨٦٢٣) من حديث أبى حازم قال: كنت خلف أبى هريرة وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه فقلت له: يا أبا هريرة، ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بنى، فروخ أنتم هاهنا لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء؛ سمعت خليلى ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». ورواه البخارى فى اللباس (٥٩٥٣) وأحمد فى مسنده (٧١٢٦) من حديث أبى هريرة دارا بالمدينة فرأى أعلاها مصورا يصور قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة» ثم دعا بتور من ماء فغسل يديه حتى بلغ إبطه فقلت: يا أبا هريرة، أشىء سمعته من رسول الله ﷺ قال : منتهى الحلية .

(٢٦٤) ما أنعم الله على عبد نعمة أهل أو مال :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٨٤٢) بلفظ : «ما أنعم الله على عبد نعمة أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته» وقرأ : ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله﴾ . ونسبه لأبى يعلى فى مسنده والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس وقال : ضعيف. قال الهيثمى المجمع : رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف. ورواه ابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٥) من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ».

(٢٦٥) ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٩٢) والمغازى (٤٢٠٥) والدعوات (٦٣٨٤) والقدر (٦٦١٠) والتوحيد (٧٣٨٦) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٤) وأحمد فى مسنده (١٩٠٢٦،١٩١٠٢،١٩٢٤٦) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله؛ فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم» وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعنى وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله فقال لى: «يا عبد الله بن قيس» قلت: لبيك يا رسول الله قال: «ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟» قلت: يا رسول الله، فداك أبى وأمى قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

(٢٦٦) فى ظلال القرآن ٩٦/١٥ طبع عيسى البابى الحلبى .

(٢٦٧) يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠،٣٣٦١) والتفسير (٤٧١٢) ومسلم فى الإيمان (١٩٤) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٣٤) وأحمد فى مسنده (٩٣٤٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ يوما بلحم فقال: «إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس منهم ... ـ فذكر حديث الشفاعة – فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبى الله وخليله من الأرض اشفع لنا إلى ربك فيقول : ... ـ فذكر كذباته – نفسى نفسى اذهبوا إلى موسى ...» تابعه أنس عن النبى صلى اللهم عليه وسلم .

(٢٦٨) فى ظلال القرآن .

(٢٦٩) لكل غادر لواء يوم القيامة :

رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٧) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٧) وأحمد فى مسنده (١٢٠٣٥) من حديث أنس عن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة قال: أحدهما: ينصب وقال: الآخر يرى يوم القيامة يعرف به». رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٨) والحيل (٦٩٦٦) والفتن (٧١١١) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٥) والترمذى فى السير (١٥٨١) وأحمد فى مسنده (٤٨٢٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «لكل غادر لواء ينصب بغدرته يوم القيامة. ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٦) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٢) والدارمى البيوع (٢٥٤٢) وأحمد فى مسنده (٣٨٩٠) من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان» . ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٩١) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٣) وأحمد فى مسنده (١٠٩١٠) من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : «لكل غادر لواء عند أسته يوم القيامة» .

(٢٧٠) يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا :

رواه أحمد فى مسنده (١٥٦١٢) من حديث جابر بن عبدالله قال: بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلى فسرت إليه شهرا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبدالله بن أنيس فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم ؛ فخرج يطأ ثوبه فاعتنقنى واعتنقته فقلت: حديثا بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة – أو قال: العباد – عراة غرلا بهما » قال: قلنا وما بهما؟ قال: «ليس معهم شئ ثم يناديهم بصوت يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة» قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتى الله عز وجل عراة غرلا بهما؟ قال: «بالحسنات والسيئات» . وذكره البخارى تعليقا التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير﴾ ولم يقل: ماذا خلق ربكم وقال جل ذكره: ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان». ويشهد له ما رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «تحشرون حفاة عراة غرلا» قالت عائشة: فقلت : يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ! فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذاك» . ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٠) والترمذى فى

صفة القيامة (٢٤٢٣) وتفسير القرآن (٣٣٣٢) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨١) والدارمى فى الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٠٩٧،١٩١٦) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسا من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابى! فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى﴾» إلى قوله: ﴿العزيز الحكيم﴾ ورواه الدارمى فى الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: قيل له: ما المقام المحمود؟ قال: «ذاك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه يئط كما يئط الرحل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويجاء بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى: اكسوا خليلى فيؤتى بريطتين بيضاويتين من رياط الجنة ثم أكسى على إثره ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطنى الأولون والآخرون».

(٢٧١) خلقت الملائكة من نور وخلق الجان:

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٩٦) وعبد بن حميد فى مسنده (١٤٧٧) وأحمد فى مسنده (١٥٣/٦،١٦٨) من حديث عائشة.

(٢٧٢) ألا تصليان:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٢٧) والاعتصام (٧٣٤٧) والتوحيد (٧٤٦٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٥) من حديث على بن أبى طالب: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبى عليه السلام ليلة فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وكان الإنسان أكثر شئ جدلا﴾.

(٢٧٣) يعنى: من أين السلام فى هذه الأرض التى لا يعرف فيها السلام؟

(٢٧٤) لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما:

رواه البخارى فى العلم (١٢٢) وأحاديث الأنبياء (٣٤٠١) والتفسير (٤٧٢٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٨٠) من حديث أبى ابن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل فسئل: أى الناس أعلم؟ الحديث...» وفيه: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما» قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانا – قال – وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر فى البحر فقال له الخضر: ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر» قال سعيد بن جبير وكان يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا، وكان يقرأ: وأما الغلام فكان كافرا.

(٢٧٥) صفوة التفاسير، تأليف محمد على الصابونى ٢٠٣/٢ طبعة دار القرآن الكريم بيروت.

(٢٧٦) فى ظلال القرآن بتصرف كبير.

(٢٧٧) إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا:

رواه مسلم فى القدر (٢٦٦١) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٥، ٤٧٠٦) والترمذى فى التفسير (٣١٥٠) وأحمد فى مسنده (٢٠٦١٨) من حديث أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا».

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (الخامس عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء الخامس عشر
ويليه الجزء السادس عشر بإذن الله

تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

المساكين : واحدهم: مسكين ، وهو الضعيف العاجز عن الكسب؛ لأمر فى نفسه، أو فى بدنه .

يعملون فى البحر : يؤاجرون ويكتسبون .

أعيبها : أجعلها ذات عيب .

وراءهم : أمامهم ، وهو لفظ يستعمل فى الشيء وضده ، كما قال الشاعر:

أليس ورائى أن أدِبّ على العصا   فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى

خشينا : خفنا .

يرهقهما : يحمّلها .

طغيانا : مجاوزة للحدود الإلهية .

زكاة : طهارة من الذنوب .

رُحما : أى : رحمة ، كالكُثْر والكثرة .

عن أمرى : عن رأيى واجتهادى .

ما لم تسطع : أى : تستطع ماضيه : اسطاع ، الذى أصله : استطاع .

تمهيد :

أمور ثلاثة ، تعجل موسى عليه السلام فى الإنكار عليها عند حدوثها ، وكان الخضر قد أعطى شفافية خاصة ، ومعرفة ببواطن الأمور وخفاياها ، وهى معرفة لايطلع عليها إلا من اختصه الله من عباده ، بهذا العلم ، فهو علم لدنّى ، من لدن الله العلى القدير ؛ حيث قال سبحانه فى شأن الخضر : ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . (الكهف : ٦٥) .

وخلاصة هذه الأمور هى : تحمُّل الضرر الأصغر فى سبيل دفع الضرر الأكبر ؛ فتحمل الخضر ضرر خرق السفينة فى سبيل دفع اغتصابها ، وقتل الغلام؛ حتى لا يُفسد على والديه إيمانهما ، وبنى الجدار؛ حتى يشب اليتيمان ، ويستخرجا كنزهما من تحته ؛ رحمة من الله تعالى .

التفسير :

٧٥- قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا .

أكد الخضر فى التذكير بالشرط الأوّل ، وذكر هنا :

أَلَمْ أَقُل لَّكَ ، أى : لك أنت على التعيين والتحديد ، فلم تقتنع وطلبت الصحبة وقبلت الشرط .

٧٦ - قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا .

أى : إن اعترضت عليك بعد هذه المرة فى شىء ؛ فاترك صحبتى ، ولك العذر فى ذلك حيث أكون قد خالفتُ الشرط ثلاث مرات .

٧٧ - فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

أى: مشيا حتى وصلا إلى قرية أهلها لؤماء ، وهما جائعان ، وأهل القرية لايستضيفون ضيفا ، ولايكرمون غريبًا ، فطلبا طعاما فامتنعوا عن ضيافتهما ، ووجد الخضر فى هذه القرية جدارا مائلا يوشك

أن يسقط ؛ وإذا الخضر عليه السلام ، يشغل نفسه بإقامة الجدار ، وإصلاحه وتقويته وتعديله ؛ حتى يصبح بحالة جيدة .

وهنا يحس موسى بالتناقض بين عمل أهل القرية وبخلهم الشديد ، ورفضهم إطعام رجلين غريبين ، وبين الجهد الذى بذله الخضر فى إصلاح الجدار لهم دون مقابل ، وقال للخضر :

لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

أنكر عليه موسى صنع المعروف فى غير أهله ، وقال موسى : لو أخذت منهم أجرًا على إصلاح الجدار؛ تستطيع أن تستعين به فى شراء الطعام .

روى : أن موسى قال للخضر : قوم استطعمناهم فلم يطعمونا، وضيَّفناهم فلم يضيِّفونا ، ثم قعدت تبنى لهم الجدار ؛ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

٧٨ – قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا .

أى : قال الخضر لموسى : آن وقت الافتراق بيننا حسب قولك ، سأخبرك بالحكمة الكامنة والسِّر المخبأ وراء هذه الأعمال الثلاثة ، التى أنكرتها ؛ لأنك لم تطلع على الأسباب الكامنة وراءها .

روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «رحم الله أخى موسى لوددت أنه صبر حتى يقصَّ الله علينا من أمرهما ، ولو لبث مع صاحبه؛ لأبصر العجب!»[1] .

٧٩ – أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا .

أى: أما فعلى ما فعلته بالسفينة ، فإنها كانت لقوم ضعفاء ، لايقدرون على دفع الظُّلمة ، وكانوا يؤاجرونها ، ويكتسبون قوتهم منها ، فأردت أن أعيبها بالخرْق الذى خرقته ، وكان أمامهم ملك ظالم يستولى على كل سفينة صالحة للعمل غصبًا وعنوة ؛ فأردت أن أعيبها ؛ ليتركها الملك الظالم لهم ؛ فهو عمل مؤلم فى الظاهر ، لكنه نافع مفيد فى عاقبته .

٨٠ – وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا .

أى: وأما الغلام الذى قتلته ، فقد كان أبواه مؤمنين صالحين ، وكان الغلام كافرًا فاجرًا ، وقد روى مسلم فى صحيحه: (أن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرًا ولو عاش؛ لأرهق أبويه طغيانا وكفرا)[2] .

أى: علم الله أنه لو أدرك الغلام وبلغ ؛ لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه فى دينه؛ لفرط حبهما له .

٨١ - فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا .

أى: أراد الله ووجَّه إرادة العبد الصالح إلى قتل هذا الغلام الذى يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفًا خيرا منه ، وأرحم بوالديه ، وأكثر شفقة عليهما وبرا بهما .

جاء فى مختصر تفسير ابن كثير للصابونى :

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قُتل ، ولو بقى ؛ لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره ؛ خير له من قضائه فيما يحبّ ، وصح فى الحديث : «لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له»[٣] .

وقال تعالى : وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . (البقرة : ٢١٦) .

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا .

أى: ولدًا أزكى من هذا . وقال قتادة: أبرّ بوالديه ، وقيل: لما قتله الخضر ؛ كانت أمّه حاملا بغلام مسلم، والله أعلم .

والخلاصة : أن الله أبدل والديه ذرية صالحة أكثر برًّا ورحمة وطاعة لله ، والأمر فى جملته خاضع لعلم علام الغيوب ، وحكمته سبحانه وتعالى .

٨٢ - وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا .

كان الخضر قد أقام الجدار وعدَّله وثبَّته فى مكانه ، وقصته: أن الجدار كان ملكا لغلامين يتيمين ، قد مات أبوهما ولو سقط الجدار؛ لاستولى الأوصياء على الكنز الذى تحته ، وكان تحت الجدار كنز من ذهب وفضة ، فأراد الله سبحانه وتعالى ، أن يبلغ اليتيمان أشدَّهما ، أى: سن القوة والفتوة والرشد ؛ فيستوليان على هذا الحائط ، ويستخرجان الكنز من تحته ، وهذا كلُّه بتوجيه الله ، وإرادته ورحمته بعبادة ولم يفعله الخضر برغبته ؛ بل بأمر الله سبحانه وتعالى له . وفى هذا ما يدل المسلم على أن يحنى رأسه لكل ما يجىء به القدر ؛ فقد يأتى الله تعالى بالنعمة ، وقد يأتى بالمحنة ، ونحن أمرنا أن نشكر على النعماء ، وأن نصبر على البأساء ، وأن نرضى بأسباب القضاء .

إن هذه المصالحة مع القدر ، وحلاوة الرضا والتوافق ، تمنح المؤمن زادًا من قوة اليقين ، وهدوء الباطن ، وحلاوة التسليم ؛ لكل ما يأتى به الله على حد قول القائل :

سلِّم الأمر تجدنا نحن أولى بك منك

وفى الحديث الصحيح : أن جبريل سأل النبى ﷺ عن الإيمان فقال له النبى ﷺ : «الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومرّه»[٤] .

وفى الحديث الشريف : «ما من عبد يبتلى بمصيبة فيقول : اللهم، اؤجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيرا منها ؛ إلا عوضه الله خيرًا مما فقده»[٥] .

ويقول النبى ﷺ : «إذا مات ولد المؤمن ؛ قال الله تعالى : يا ملائكتى ؛ أقبضتم روح ولد عبدى؟! فيقولون : نعم يا ربنا ؛ فيقول سبحانه : أقبضتم قلبه وثمرة فؤاده ؟! فيقولون : نعم يا ربنا ، فيقول الله تعالى : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : يا ربنا ، حمد واسترجع ، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة، وسمُّوه : بيت الحمد»[٦] .

ومعنى : حمد واسترجع ، أى : قال : الحمد لله ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وروى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «ما يصيب المسلم من هم ولا حزن ولا تعب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفّر الله بها من خطاياه ، ولايزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»[٧] .

وفى الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه ، ولايزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»[٨] .

وهذه المعانى تلتقى مع قصة موسى والخضر ، وترمز إلى الرغبة الإلهية العليا فى تسليم المؤمن ، ورضاه بالقضاء والقدر ، والتمتع بحلاوة الرضا ، واليقين بالثواب والجزاء الكريم للصابرين .

قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ – ١٥٧) .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : إذا ابتليت عبدى فى حُبيبتيه (يعنى: عينيه) فصبر واحتسب ؛ لم أجد له جزاءً دون الجنة»[٩] .

ويقول تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ . (البقرة : ١٥٣ ، ١٥٤) .

وإلى هنا تنتهى قصة موسى والخضر عليهما السلام وعلماؤنا ذكروا : فوائد ونصائح تتعلق بقصة موسى والخضر عليهما السلام نودّ أن نذكر جانبا منها :

١ - للقدر حكمةٌ إلهية عليا ، وأسبابٌ خفية ، لم نطلع عليها ، من ذلك معرفة الخضر بأمور خفية وراء أفعاله الثلاثة ، وهى رمز لما ينبغى للمؤمن أن يعمله إزاء أحداث هذه الحياة ، علينا أن نحنى رءوسنا لكل ما يجىء به الله ، وكما قال القائل :

سلّم الأمر تجدنا نحن أولى بك منك

٢ - الإخلاص فى طلب العلم والتواضع فى سبيله ، ومعرفة كل جديد ، وعدم الحياء من التعلم ؛ فقد يتعلم الفاضل من المفضول ، وقد شاهدت أساتذة فى علوم متعددة ؛ يجلسون تلامذة أمام معلم كمبيوتر أقل منهم درجة وعلما ، وفى القرآن الكريم : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ . (الإسراء : ٨٥) ، ويقول سبحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ . (طه : ١١٤) .

٣ - الرحلة فى طلب العلم ، ومعرفة الرجال الفضلاء ، سمة من صفات العقلاء ؛ فموسى عليه السلام يرحل إلى الخضر ، مصمما على بلوغ هدفه .

قال البخارى : ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس فى طلب حديث واحد .

٤ - أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر ؛ فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصْبا ، وإن قتل الغلام شرٌ ولكنه أقل من الضرر الذى سيترتب على بقائه ؛ وهو إرهاقه لأبويه وحملهما على الكفر .

٥ - إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ .... (الكهف : ٨٢) .

وقد ورد فى القرآن والسنّة : ما يفيد : أن الرَّجل الصالح يحفظ فى ذريته ، وتشملهم من بركة عبادته ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة .

قصص ذى القرنين ، ويأجوج ومأجوج

مكّن الله لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه الجند والأتباع والعزيمة والقوة؛ حتى استطاع أن يصل إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وشمالها ، وأن يمتد ملكه فى أعظم بقاع الأرض ، وأعطاه الله أسباب القوة والنصر ، فاستغلها وبسط ملكه محاولا إحقاق الحق ، وقهر الباطل والظلم .

قال المفسرون :

ذو القرنين هو (الإسكندر اليوناني) ملك المشرق والمغرب ؛ فسمي : (ذا القرنين) وكان ملكا مؤمنا ؛ مكّن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح ، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما، وروى : أن الذين ملكوا الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان: فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران: فنمروذ وبختنصر[١٠] .

ويرى بعضهم أن ذا القرنين من حمير، واسمه: أبو بكر بن أفريقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومرّاكش وغيرهما ، وبنى مدينة أفريقية؛ فسميت القارة كلها باسمه ، وسمي: ذا القرنين ؛ لأنه بلغ قرني الشمس[١١] .

وقيل: هو أبو كرب الحميري ؛ وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ، وينبغي أن تؤخذ بحذر ؛ لما فيها من إسرائيليات وأساطير ، مثل قولهم : إنه ملك من الملائكة[١٢] .

وحسبنا ما في كتاب الله تعالى ، فقد سجل القرآن الكريم له ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدّين .

★ ★ ★

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

التفسير :

٨٣ – وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا .

أى : يسألك اليهود يا محمد عن قصة ذى القرنين ؛ حتى تخبرهم عن تاريخه وشأنه وأعماله .

قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا .

أى : سأقص عليكم من نبأه وقصته قرآنا ووحيا .

٨٤ – إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا .

أى: يسرنا له أسباب الملك والسلطان ، والفتح والعمران ، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه؛ للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف .. وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه فى هذه الحياة .

٨٥ – فَأَتْبَعَ سَبَبًا

أى: استغل الأسباب التى يسرها الله له ، واجتهد فى استثمارها ، فكان كلما استولى على إقليم من الأقاليم أو بلدًا من البلاد ، استغل ما فيها من أقوات وجنود وآلات؛ لفتح البلاد القريبة منها .

قال ابن كثير :

كان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه ، وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم[١٣].

وقد أخذ ذو القرنين طريقه إلى جهة الغرب .

٨٦ – حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ...

أى : سار ذو القرنين غربا حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسى – وكان يسمى: بحر الظلمات ، ويظن أن اليابسة تنتهى عنده ، فرأى الشمس تغرب فيه ، والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار،

حيث تكثر الأعشاب ، ويتجمع حولها طين لزج هو : الحمأ ، وتوجد البرك وكأنها عيون الماء .. فرأى الشمس تغرب هناك .

قال صاحب الظلال :

ومغرب الشمس هو المكان الذى يرى الرائى أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق ، وهو يختلف بالنسبة للمواضع ، فبعض المواضع يرى الرائى فيها أن الشمس تغرب خلف جبل ، وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الماء كما فى المحيطات الواسعة والبحار ، وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الرمال إذا كان فى صحراء مكشوفة على مدّ البصر .

أى: أن القرآن الكريم ، يأتى أحيانًا فى تعبيراته على نحو ما يراه المشاهد ويعتقده أى : وصل ذو القرنين إلى مكان اعتقد أن الشمس تغرب خلفه ، وأن هذا هو نهاية العالم من جهة الغرب .

وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا .

لقد أمدّه الله بالأسباب والنصر ، ونصره على هؤلاء القوم ، وخيَّره عن طريق الإلهام أو الوحى ، أو هو حكاية حال ، فبعد أن تم له النصر؛ أصبح من حقه أن يتصرف كما يشاء ، فمن حقّه الانتقام أو الإحسان .

٨٧ – قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا .

أى : من أصر على الكفر ، والعدوان والظلم؛ فله عقابه الدنيوى ، بالقتل أو الردع . ثم يرد إلى ربّه يوم القيامة ، فيعذبه عذابا منكرا فى نار جهنم .

٨٨ – وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا .

أى : أما المؤمنون الصالحون الذين يقومون بالأعمال النافعة والسلوك الحميد؛ فلهم منا التكريم والإحسان وتيسير الأمور ، ولهم عند الله الجنة والمكانة اللائقة ، وتلك مهمة الحاكم العادل ؛ فعليه أن يعاقب المعتدين وأن ينكل بالظالمين ، وأن يكافأ المحسنين ؛ وبذلك يستقيم حال الأمة ، وتتبوأ منزلة كريمة تليق بها .

٨٩ – ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا .

أى : سلك طريقا بجنده نحو المشرق .

٩٠ – حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا .

أى : حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق ؛ حتى مطلع الشمس فى عين الرائى ، وجد قوما

ليس لهم بناء يكنهم ، ولا أشجار تظلهم ، ولا لباس يسترهم ، بل لهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ، فإذا غابت الشمس ؛ خرجوا للبحث عن معايشهم .

قال قتادة :

مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ، ويقتل الرجال ؛ إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قومًا فى أسراب ، عراة ، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت ، حتى إذا زالت عنهم الشمس ؛ خرجوا من أسرابهم فى طلب معايشهم ، وذكر لنا : أنهم كانوا فى مكان لايثبت عليه بنيان ، ويقال : إنهم الزنج[١٤] .

٩١ – كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا .

أى : كذلك فعل بأهل المشرق ، مثل ما فعله بأهل المغرب ، فأكرم المحسنين ، وعاقب الظالمين الكافرين ، وأنصف أهل الحق ، ويطش بأهل الظلم ؛ وكان أمره وأمر جنوده وأتباعه وجيوشه من الكثرة ؛ بحيث لايحيط بعلمه وجميع أحواله إلا اللطيف الخبير .

٩٢ – ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا .

أى : ثم سلك طريقه فى اتجاه ثالث ، معترضا بين الشرق والغرب ؛ آخذا من مطلع الشمس إلى الشمال.

٩٣ – حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً .

أى : حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين ، يقال: إنها بمنقطع أرض بلاد التُرك ، مما يلى أرمينية وأذربيجان .

قال الطبرى :

والسَّدُّ : الحاجز بين الشيئين ، وهما هنا جبلان ، سُدّ ما بينهما ، فردم ذو القرنين حاجزا بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ؛ ليقطع مادة غوائلهم وشرّهم عنهم .

والذى يفيده النص القرآنى : أن ذا القرنين وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو ممر ؛ فوجد هناك قوما متخلفين : لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ؛ لبعد لغتهم عن لغات غيرهم من قلة فطنتهم ، وعندما شاهد هؤلاء المتخلفين ، فاتحًا قويًا ، توسموا فيه القدرة والصلاح ؛ عرضوا عليه جُعْلاً من المال ؛ نظير إقامة سد بينهم وبين يأجوج ومأجوج مكمن الخطر .

٩٤ - قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا .

أى : قال مترجموهم : يا ذا القرنين ، إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب ، وأخذ الأقوات ، وسائر ضروب الإفساد .

قال المفسرون :

كانوا من أكلة لحوم البشر ، يخرجون فى الربيع فلا يتركون أخضرا إلا أكلوه ، ولا يابسا إلا احتملوه، فعرض القوم على ذى القرنين أن يجمعوا له ضريبة من أموالهم ؛ حتى يبنى سدا بينهم وبين يأجوج ومأجوج .

٩٥ - قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا .

أى : ما أعطانى الله تعالى من الملك والقوة والتوفيق خيرٌ من أموالكم ، ثم رغب فى أن يشترك القوم معه بالرجال والآلات والإمكانات والقوة؛ حتى يبنى لهم سدا منيعا ، فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب ، والفحم ، فوضع بين الجبلين قطع الحديد ، وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار وأفرغ عليها ذائب النحاس .

٩٦ - ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا .

أى : أعطونى قطع الحديد واجعلوها فى ذلك المكان ، حتى إذا ساوى البناء بين جانبى الجبل أمرهم أن ينفخوا بالكير عليه .

قيل : كان يأمر بوضع قطع الحديد والحجارة ، ويوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى ، والحديد إذا أوقد عليه ؛ صار كالنار المحمَرة ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة .

وقد ثبت علميا أن إضافة نسبة من النحاس إلى الحديد تضاعف مقاومته وصلابته ، وكان هذا الذى هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله فى كتابه الخالد ؛ سبقا للعلم البشرى الحديث بقرون عديدة[١٥] .

٩٧ - فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا .

أى : أن هذا السد المنيع المرتفع ، المكون من الحديد الأملس لم يقدر يأجوج ومأجوج على تسوّرة ، والارتفاع فوقه ؛ لعلوه وارتفاعه ، ولم يستطيعوا نقبه من أسفل ؛ لصلابته وثخانته ، وبهذا السدّ المنيع أغلق

ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ، ونظر هذا الرجل المؤمن إلى السدّ وقوته ، ومناعته وضخامته ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ، بل شكر الله تعالى على توفيقه ومعونته .

٩٨ – قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا .

أى : هذا البناء العظيم ، تمَّ بفضل الله ورحمته ، وتوفيقه ومعونته ، فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج ، وذلك قرب قيام الساعة ؛ جعل الله هذا السدّ مستويا بالأرض ، وعاد متهدمًا كان لم يكن بالأمس .

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا . أى : وكان وعده تعالى بخراب السدّ ، وقيام الساعة كائنا لا محالة ؛ فقد أفاد القرآن: أن الجبال والحواجز والسدود ستدكّ قبل يوم القيامة ؛ فتعود الأرض سطحًا أجردًا مستويا .

قال تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٥ – ١٠٨) .

وقال تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

وقال عز شأنه : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . (الانشقاق : ١ – ٥) .

وتفيد آيات القرآن الكريم: أنه عند قيام الساعة ؛ تُلقى الأرض ما فى باطنها ، وتندك الجبال والسدود ؛ ويحشر الناس على أرض بيضاء مستوية ، ينفذ إليهم البصر وتراهم العيون ، ويصطفّ الناس للحساب .

قال تعالى : كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ....

(الفجر : ٢١ – ٢٣)

إنه يوم القيامة نؤمن به ، ونؤمن بما جاء فى القرآن الكريم عنه ، وبأن المُلك فى ذلك اليوم لله تعالى وحده ، قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

ملحق بتفسير الآية

٩٨ من سورة الكهف

قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا .

أى : قال ذو القرنين : إن بناء السدّ بهذا الإحكام ؛ رحمة وتفضل وتوفيق من الله تعالى ؛ فإذا جاء يوم القيامة صار السدّ مستويا بالأرض ، وعاد متهدمًا كأن لم يكن بالأمس ؛ هذا رأى .

ومن المفسرين من ذكر : أن معنى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ، أى : إذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج ؛ اندكّ السدّ ، وخرج هؤلاء الناس يقتلون ويعتدون .

قال المراغى :

أى : فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السدّ ؛ جعله ربّى بقدرته وسلطانه أرضا مستوية ، فسلط عليهم منهم ، أو من غيرهم من يهدمه ، ويسوى به الأرض .

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا .

أى : وكان ما وعد به سبحانه حقا ثابتا لا ريب فى تحققه .

وقد جاء وعد الله تعالى بخروج جنكيز خان سلطان خوارزم السلجوقى[١٦] .

من تفسير الظلال

وبعد ، فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟

وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟!

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن، وفى بعض الأثر الصحيح ، والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين : فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا .

وهذا النص لا يحدد زمانا ، ووعد الله ، بمعنى : وعده بدك السدّ ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانساحوا فى الأرض ، ودمروا الممالك تدميرا[١٧] .

وفى موضع آخر فى سورة الأنبياء :

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ . (الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧) .

وهذه الآيات ترجِّح أن دكَّ السدِّ وخروج يأجوج ومأجوج ؛ سيكون قرب قيام الساعة ، أو هو من علامات قيام الساعة . وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يؤيد ذلك[١٨] .

من هدى السنة

فى الصحيحين ومسند أحمد : عن زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ قالت : استيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمَّر الوجه وهو يقول : «ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلقَّ بأصبعيه : السبابة والإبهام . قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟! قال : «نعم إذا كثر الخبيث»[١٩] .

والحديث من دلائل النبوة ، وهو فى نفس الوقت تحذير للأمة العربية من التردى والتفسخ ، وانتشار المنكر ، عندئذ يطمع فى الأمة أعداؤها ، ويسلط الله عليها الجبارون المنتقمون ؛ جزاء خروجها عن الجادة .

إن الأمة العربية مدعوة ، إلى الوحدة والتماسك ، والتلاقى حول القرآن والسنّة والتراث ، والاعتصام بحبل الله وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (آل عمران :١٠١) .

إن عودة القدس ، وتحرير بيت المقدس يحتاج أمة مجاهدة ، وقيادة مؤمنة ، ورغبة صادقة فى الجهاد فى سبيل الله ؛ وعندئذ يأتى النصر قال تعالى : إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٧) .

٩٩ – وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا .

أى : ويوم يُدكُّ السدّ يخرج هؤلاء من ورائه ، يموجون فى الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ، ويتلفون أموالهم.

وهذا معنى قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . (الأنبياء : ٩٦) .

أى : وهم من كل مرتفع من الأرض ، يسرعون فى النزول من الآكام والمرتفعات .

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا .

أى : فإذا دنا ميقات الساعة ؛ نفخ إسرافيل فى الصور ، وهو البوق الذى يصعق الناس عند سماعه، ثم يقومون بعد فترة للحساب ، وقد جمع الله فى هذا اليوم الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

من تفسير القرطبى

قال القرطبى :

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ .

الضمير فى تَرَكْنَا لله تعالى ، أى : تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يَوْمَئِذٍ أى : يوم كمال السدّ يموج بعضهم فى بعض ، واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون فى الدنيا مختلطين ؛ لكثرتهم .

خلاصة

يأجوج ومأجوج قبائل كانت تغير فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيرًا ما أفسدوا فى الأرض ودمروا كثيرًا من الأمم . تمكن ذو القرنين – وهو مجاهد صالح يسر الله له النصر والملك – أن يبنى سدا من الحديد والنحاس ، فحبسهم خلف السدّ .

رأيان للمفسرين

يرى عدد من المفسرين : أن يأجوج ومأجوج قد جاءوا بالفعل وهم المغول التتار ؛ ومن هؤلاء المفسرين : الشيخ القاسمى ، والمراغى ، وصاحب الظلال .

ويرى فريق آخر من المفسرين : أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ، وأن خروجهم سيكون قرب قيام الساعة ؛ وهذا الفريق يؤيده أن سياق الآيات التى تحدثت عن يأجوج ومأجوج فى سورة الأنبياء ، وهنا فى سورة الكهف ، يوحى بأن ذلك قرب يوم القيامة ؛ والأحاديث النبوية الصحيحة فيها : خروج الدجال ، وبعث عيسى وقتله الدجال ، .. ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فينحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الطور .. ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوج النغف فى رقابهم فيموتوا ، وقد روى الإمام مسلم فى صحيحه : ما يفيد : أن خروج يأجوج ومأجوج سيكون من علامات الساعة ، والله تعالى أعلم.

★ ★ ★

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

المفردات :

عرضنا : أظهرنا وأبرزنا .

غطاء : غشاوة محيطة بها .

ذكرى : الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدى وتمجيدى .

أولياء : معبودات يقونهم بأسى .

أعتدنا : هيأنا .

نزلا : منزلا .

ولقائه : حين البعث والحشر وما يتبع ذلك .

الهزو : السخرية والاحتقار .

تمهيد :

تعرض الآيات مشهد جهنم أمام الكافرين ؛ بحيث يرونها رأى العين ، وفى ذلك تعجيل الهم والحزن لهم : بسبب أنها تعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم من عذابه .

التفسير :

١٠٠- وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا .

أى : أبرزنا وأظهرنا جهنم بأهوالها ونيرانها ، وألوان عذابها أمام الكافرين يوم جمع الخلائق أجمعين ؛ إبرازًا هائلاً فظيعًا ، حيث يرونها ويشاهدونها بدون لبس أو خفاء ، فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .

١٠١- ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا .

حجب الكافرون عقولهم عن التفكير فى أدلة الإيمان ، ومنعوا عيونهم عن النظر والتأمل فى أدلة الكون وأدلة القرآن على وجود الله ، ثم صموا أسماعهم عن سماع كلمة الحق ؛ فاستحقوا أن تعرض عليهم جهنم بجميع أهوالها عرضا فظيعا مؤلما .

قال أبوا السعود :

وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عمى، صم . اهـ .

لقد دنسوا أنفسهم باجتراح المعاصى والآثام ، وأطاعوا وساوس الشيطان ؛ فسلب الله عنهم الهدى وتركهم أسرى للضلال والظلام ، فى قلوبهم مرض الكفر أو النفاق ، وفى عيونهم غشاوة التّعامى عن الحق، وفى أسماعهم وقر وصمم عن سماع الحق أو القرآن، وقد تكرر هذا المعنى فى آيات القرآن الكريم، قال تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ . (البقرة : ١٨) .

١٠٢- أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلاً .

والهمزة هنا للاستفهام الإنكارى والتوبيخ ، أى : أفظن هؤلاء الكافرين الذين اتخذوا عبادى أولياء لهم ؛ فعبدوا الملائكة ، وعيسى ، وعزيرًا ، وغيرهم، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابى .

قال القرطبى :

وجواب الاستفهام محذوف تقديره : أفحسبوا أن ذلك ينفعهم ، أو لا أعاقبهم ؟!

لقد هيأنا لهم منزلا فى جهنم ، وفيها ما فيها من ألوان العذاب . ويطلق النُّزُل على المنزل ، كما يطلق على ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه؛ على سبيل التكريم والترحيب ، وقد جاءت الجملة الأخيرة فى الآية على سبيل التهكم بهم ، والتقريع لهم؛ لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها ، بل هى عذاب مهين ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (التوبة : ٣٤) ، وقوله عز شأنه : وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩).

١٠٣- قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الكافرين الذين أعجبتهم أعمالهم ، وتصرفاتهم الجائرة : ألا تريدون أن أخبركم خبرًا هاما كله الصدق ، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالاً فى الدنيا والآخرة.

١٠٤- ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

أى : عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة ، مرضية مقبولة ، وهم مخدوعون بأعمالهم يظنون أنهم على صواب وأنهم يحسنون صنعا .

وقد ورد فى صحيح البخارى فى باب التفسير ، عن مصعب قال : سألت أبى - يعنى : سعد بن أبى وقاص - عن قول الله : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً . أهم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى ؛ أما اليهود فكذبوا محمدًا ﷺ ، وأمّا النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد يسميهم : الفاسقين .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

والآية عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية ؛ يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطئ وعمله مردود .

فالآية تشمل المشركين، واليهود، والنصارى ، وغيرهم ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .

وقال الضحاك :

هم القسيسون والرهبان يتعبدون ، ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهى لا تقبل منهم .

١٠٥- أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا .

أى : إن هؤلاء الأخسرين أعمالا ، هم الذين كفروا بدلائل الوحدانية المنبثة فى الآفاق ، وكفروا بالبعث والنشور وما يتبع ذلك من أمور الآخرة ؛ ومن ثمّ حبطت أعمالهم أى : فسدت وبطلت .

فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا .

أى : ليس لهم عند الله قيمة ولا قدر ولا منزلة ، أو لأنه لا توجد لهم أعمال صالحة توجد فى ميزان حسناتهم ، فهى خالية من الخير .

روى البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، - وقال - اقرأوا إن شئتم : فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا» .[٢٠] .

وأخرج الحافظ البزار عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له ، فلما قام على النبى ﷺ قال : «يا بريدة ، هذا ممن لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا»[٢١] .

١٠٦ – ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا .

أي : إن دخولهم جهنم بسبب كفرهم بكل ما يجب الإيمان به ، وبسبب استخفافهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ، فلم يكتفوا بالكفر بل امتد ضلالهم إلى السخرية بالآيات والمعجزات ، وبالرسل الكرام .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

المفردات :

الفردوس : وسط الجنة وأفضلها .

حولا : متحولا .

المداد : ما يمد به الشيء ، واختص بما تمدّ به الدواة من الحبر .

كلمات ربي : كلامه وحكمه ومعلوماته غير المتناهية .

الرجاء : طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة .

لقاء ربه : هو البعث وما يتبعه .

تمهيد :

بينت هذه الآيات في ختام السورة ما يأتي :

(أ) جزاء المؤمنين في الفردوس الأعلى .

(ب) فضل القرآن وإعجازه واشتماله على العقائد ، وبيان : كمالات الله وشرائعه وآدابه وتوجيهاته . ولا حدود لهذه الكمالات ، ولا لما يمدّنا به القرآن من العلوم والآداب .

(جـ) أن العمل لا يقبل إلا إذا صاحبه أمران :

١ – الالتزام بمنهج الله .

٢ – الإخلاص بالعمل لوجه الله .

التفسير :

١٠٧- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً .

إن الذين آمنوا بالله تعالى ، وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة بإخلاص واتباع لما جاء به محمد ﷺ ؛ كان جزاؤهم عند الله تعالى جنات الفردوس منزلا ومستقرا وتكريما . وجنات الفردوس أعلى منازل الجنة ؛ كما ورد في الصحيحين .

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت : أن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة مائة درجة، كل درجة منها ما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومن فوقها يكون العرش ومنه تنفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[٢٢] .

١٠٨- خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً .

أي : أن أهل الجنة خالدين فيها خلودًا أبديا سرمديا ، وهم في نعيم دائم لا يسأمون منه ، ولا يرغبون في التحوّل عنه ؛ فالنفس البشرية في الدنيا راغبة في التنقل والاستكشاف ولكن أهل الجنة يخلق الله فيهم الرغبة في الإقامة الدائمة بالجنة ، وعدم التحوّل عن منازلهم ومنزلتهم في الجنة إلى أيّ مكان آخر ، ثم هم في الجنة يجدون فيها نعيمًا دائمًا ، ونعما لا حصر لها وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ... (الزخرف : ٧١).

١٠٩- قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا .

هذه الآيات تمثيل لسعة علم الله ، وعظيم ما تشتمل عليه آياته وكلماته ؛ فقد حوت من الإعجاز العلمي والأدبي والنفسي والغيبي آفاقا لا حدود لها . وعلم الإنسان محدود يرمز إليه بالبحر ، وعلم الله ومدلول آياته لا حدود له ؛ فلو تحول البحر إلى مداد ؛ لنكتب به معاني آيات الله ، وما تشتمل عليه من آفاق وآداب وعلوم ؛ لنفد البحر قبل أن تنفد آيات القرآن وإعجازها المتعدد الوجوه ، ولو جئنا بمثل البحر مددا لنفد أيضًا ، وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ؛ لأن البحر محدود ، وكلام الله تعالى من جملة صفاته ، وصفاته تعالى لا حد لها ولا منتهى ، وهكذا سائر صفاته كعلمه وقدرته ورحمته .

وفي معنى هذه الآية ورد قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (لقمان : ٢٩) .

١١٠ - قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا .

أى : قل لهم يا محمد : إننى مثلكم ، لست ملاكا ولست إلها ، بل أنا بشر ممن خلق الله ، اصطفاه الله بنزول الوحى والرسالة عليه ، وكلفنى التبليغ عن الله وكمالاته التى لا نهاية لها ، وهو سبحانه واحد أحد فرد صمد ، لا ندَّ له ولا شريك له ، وليس له والد أو ولد . فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ؛ فليعمل الأعمال الصالحة التى تقرِّبه إلى ربه ، وليبتعد عن الإشراك بالله ، وليبتعد عن الرياء ؛ فإن الله تعالى لا يقبل إلاَّ ما كان خالصًا لوجهه الكريم .

جاء فى كتاب زبدة التفسير من فتح القدير ما يأتى :

أخرج أحمد وابن سعد عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدًا ؛ فليطلب ثوابه من عند غير الله ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[٢٢] .

★ ★ ★

خاتمة سورة الكهف

مجمل ما تضمنته سورة الكهف :

١ – وصف القرآن بأنه قيمٌ لا عوج فيه .

٢ – ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ؛ ليرى كيف ينتفع به .

٣ – وصف الكهف وأهله ، ومدة لبثهم فيه ، وعدد أهله وبيان : قدرة الله على البعث والنشور .

٤ – الدعوة الإسلامية عامة للفقراء والأغنياء ، وللإنسان أيا كان هذا الإنسان ، ويجب على الرسول أن يصبر على مجالسة الفقراء ، ولايهجرهم إلى الأغنياء .

٥ – ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .

٦ – قصة رجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر ، وعرض النقاش بينهما تمثيلا لحال فقراء المؤمنين وأغنياء الكافرين .

٧ – سجود الملائكة لآدم ، وإباء إبليس ، وعداوته لآدم وبنيه .

٨ – قصص موسى والخضر .

٩ – قصص ذى القرنين ، وسدّ يأجوج ومأجوج .

١٠ – وصف أعمال المشركين ، وبيان : أنها ضلال وخيبة فى الآخرة .

١١ – ما يلقاه المؤمنون من النعيم فى الآخرة .

١٢ – القرآن ينبوع العلوم والمعارف ، وآيات الله لا نهاية لها .

١٣ – الإخلاص لله وعدم الشرك والرياء من سُبل السعادتين .

★ ★ ★


تفسير سورة مريم

دروس من سورة مريم

سورة مريم مكية نزلت بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة وقبل الإسراء وكانت الهجرة إلى الحبشة فى السنة السابعة من البعثة ، وكان الإسراء فى السنة الحادية عشرة للبعثة ، قبل الهجرة إلى المدينة بسنة وشهرين .

أى : أن سورة مريم نزلت بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم ؛ لذكر قصة مريم فيها . وعدد آياتها (٩٨) آية ، وعدد كلماتها (١١٩٢) كلمة .

أهداف السورة

الأهداف الأساسية لسورة مريم هى : تنزيه الله عن الولد والشريك ، وإثبات وحدانية الله ، والإلمام بقضية البعث القائمة على التوحيد .

هذه هى الأهداف الأساسية للسورة. كالشأن فى السور المكية غالبًا .

والقصص هو مادة هذه السورة ؛ فهى تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، فقصة مريم ومولد عيسى ، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه .. ثم تعقبها بإشارات إلى النبيين : إسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وإدريس . وآدم ، ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالى ثلثى السورة ، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث ، ونفى الولد والشريك وبيان : منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة وبعض الجدل مع المنكرين للبعث ، واستنكار للشرك ودعوى الولد ، وعرض لمصارع المشركين والمكذبين فى الدنيا وفى الآخرة وكله يتناسق مع اتجاه القصص فى السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها ويتمشى فى موضوعاتها .. إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية.. الانفعالات فى النفس البشرية ، وفى «نفس» الكون من حولها . فهذا الكون الذى نتصوره جمادًا لا حس له يعرض فى السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، تشارك فى رسم الجو العام للسورة حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل ؛ حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا ؛ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . (مريم : ٩١ ، ٩٢) .

أما الانفعالات فى النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهى مع ختامها والقصص الرئيس فيها حافل بهذه الانفعالات فى مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة فى قصة مريم ، وميلاد عيسى[٢٤] .

القصص فى سورة مريم

القصص فى سورة مريم امتداد للقصص فى سورة الكهف . فهناك ظهرت قدرة الله البالغة فى حفظ أصحاب الكهف وإحيائهم بعد موتهم ، وفى إعطاء الرحمة والعلم للخضر عليه السلام ، وفى منح ذى القرنين أسباب الملك والسلطان والسيادة ، وهنا تظهر رحمة الله وفضله على زكريا ؛ إذ يمنحه يحيى على كبر وشيخوخة ، وتظهر قدرة الله البالغة فى خلق عيسى من أم دون أب ، ثم نعمته السابغة على الأنبياء والرسل ورعاية الله لهم حتى يؤدوا رسالتهم ، ويظهر ذلك فى قصة إبراهيم مع أبيه ، وقصة موسى مع قومه ، وقصة إسماعيل الصادق الوعد ، وقصة إدريس الصديق النبى .

زكريا ويحيى

ذكرت حلقة من هذه القصة فى سورة آل عمران ، ولكنها فى سورة مريم تخالف ما سبق منها فى أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص .

إن السمة الغالبة هنا هى سمة الرحمة والرضا والاتصال فهى تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا وهو يناجى ربه نجاء خفيا .

فتصور أحاسيس ذلك الشيخ الهرم ورغبته فى الذرية والولد ودعائه لله خفية بعيدا عن زوجته وعن الناس .

ثم ترسم لحظة الاستجابة فى رعاية وعطف ورضا .. فالرب ينادى عبده من الملإ الأعلى يَٰزَكَرِيَّآ .
ويعجل له البشرى : إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ . (مريم : ٧) .

ويعمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذى بشره : ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ . وهو اسم فذ غير مسبوق : لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا . (مريم : ٧) .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء فإذا هو يواجه الواقع .. إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتيا ، وهن عظمه واشتعل شيبه ، وامرأته عاقر لم تلد فى فتوته وصباه : فكيف يا ترى سيكون له غلام ؟!

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا . (مريم : ٨) .

ثم يأتيه الجواب عن سؤاله . بأن هذا أمر هين يسير أمام قدرة الله فهو سبحانه الخالق الفعال لما يريد . وهو سبحانه الذى جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفانى لا ينسل . وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل وهو على كل شيء قدير .

وتمت ولادة يحيى وكبر وترعرع وأحكم الله عقله وهيأه لرعاية ميراث أبيه فى حزم وعزم ولم يكن هذا الميراث مالا أو عقارا وإنما كان رسالة الهدى ودعوة الإيمان وناداه الله : ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ . (مريم : ١٢) .

والكتاب هو التوراة ، كتاب بنى إسرائيل من بعد موسى وعليه يقوم أنبياؤهم يعملون به ويحكمون . وقد نودى : يحيى ؛ ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم . لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة .

وقد زود الله يحيى بالحكمة فى صباه ووهبة الحنان والعطف ؛ لتأليف القلوب واجتذابها إلى الخير وآتاه الطهارة والتقوى فكان موصولا بالله ، عابدا له ، مجاهدا فى سبيله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولايخشى فى الله لومة لائم .

حكمة خلق عيسى

انتقلت السورة من قصة ميلاد يحيى إلى قصة ميلاد عيسى وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل وهى أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلا وإنشاءه على هذه الصورة فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها كله ويكون حادثًا فذا لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها . وهو الحادث العجيب الضخم فى تاريخها لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب ولا أم . وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ، فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى من غير أب على غير السنة التى جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ؛ ليشهدها البشر ثم تظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال . إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التى لم يشهدها إنسان !

لقد جرت سنة الله فى امتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى فى جميع الفصائل بلا استثناء .

حتى المخلوقات التى لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع فى الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث ، جرت هذه السنة أحقابا طويلة حتى استقر فى تصور البشر أن هذه هى الطريقة الوحيدة ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان ؛ لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة . وأنها لا تحتبس داخل النواميس التى تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى ؛ لأن الأصل هو أن تجرى السنة التى وضعها الله وأن ينفذ الناموس الذى اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تكفى ؛ لتبقى أمام أنظار البشرية معلما بارزا على حرية المشيئة وعدم احتباسها داخل حدود النواميس : وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ . (مريم : ٢١) .

ونظرًا لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة فى إبرازه . فجعلت تضفى على عيسى ابن مريم عليه السلام صفات ألوهية . وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب – وهى إثبات القدرة الإلهية التى لا تتقيد ، تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد . والقرآن فى هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ويبرز دلالتها الحقيقية وينفى تلك الخرافات والأساطير .

قصة ميلاد عيسى

وهب الله مريم التقوى واليقين ورزقها من فضله بغير حساب وفى يوم ما اعتكفت مريم كعادتها . وتوارت من أهلها واحتجبت عن أنظارهم . وبينما هى فى خلوتها . مطمئنة إلى انفرادها . إذ ظهر أمامها رجل مكتمل سوى الخلقة فانتفضت انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد به وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته فى هذا المكان الخالى . ولكن الرجل السوى هدأ من روعها وأعاد إليها طمأنينتها وأخبرها : أنه ملاك أرسله الله إليها ؛ لحكمة إلهية وفضل ربانى : قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا . (مريم : ١٩) .

وتدرك مريم شجاعة الأنثى المهددة فى عرضها ؛ فتسأل فى صراحة وحجة قائلة : أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . (مريم : ٢٠) .

فهى لم تخالط رجلا فى نكاح ولا فى سفاح فأخبرها الملاك : أن هذا الحمل سيتم بقدرة الله وحده وهو أمر هين أمام هذه القدرة التى تقول للشىء : كن فيكون ، وقد أراد الله أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته .

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . (مريم : ٢١) .

ثم مضى الملاك واختفى . وتم الحمل بقدرة الله ، وجلست مريم حائرة تفكر فى أمر نفسها وتخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بعل ، وفى حدة الألم ومرارة الخوف نظرت إلى الطفل فى حسرة واكتئاب ، وجعلت تتمنى لو ضمها القبر . وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أما من غير أن تتزوج فقالت : يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا . (مريم : ٢٢) .

لكنها ما لبثت أن سمعت صوت وليدها ؛ فبدد مخاوفها وكفكف دموعها . وناداها من تحتها : أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . (مريم : ٢٤) .

أى : جدولا يجرى ماؤه فى تلك البقعة الجرداء والأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء فى الجبل . وهذه النخلة التى تستندين إليها هزيها فتتساقط عليك رطبا . فهذا طعام وذاك شراب والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء : فَكُلِى وَٱشْرَبِى . هنيئا وَقَرِّى عَيْنًا . (مريم : ٢٦) ، واطمئنى قلبا ؛ بما ترين من قدرة الله التى اخضر بها جذع النخلة اليابسة . وطيبى نفسا بما حباك الله من جريان الماء فى تلك البقعة المقفرة ؛ واطمأنت مريم إلى فضل الله وإلى أن الله لن يتركها وحدها وإلى أن حجتها معها . هذا الطفل الذى ينطق فى المهد .

ورجعت مريم إلى قومها وعشيرتها تحمل وليدها على كتفها ، وسرعان ما شاع أمرها ، وعرف خبرها ، وجاء أقاربها :وأنبونها بألسنة التقريع والتأنيب ويلومونها على هذه الفعلة المنكرة ويذكرونها بشرف أسرتها وكرم أصلها ؛ والتزمت مريم الصمت وأشارت إليهم : أن كلموا هذا الوليد إن أردتم الوقوف على حقيقة الأمر .

فقال القوم لها : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا . (مريم : ٢٩) .

كيف نكلم وليدا لم تكتمل أدوات نطقه ، ولم تتحرك شفته إلى ثدى أمه ؛ فانطلق الوليد يجيبهم فى بيان وحجة وبرهان وقال : إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . (مريم : ٣٠ – ٣٣) .

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام : عبوديته لله ؛ فليس هو ابنه كما تدعى فرقة ، وليس هو إلها كما تدعى فرقة ، وليس هو ثالث ثلاثة كما تدعى فرقة ، ويعلن : أن الله جعله نبيا لا ولدًا ولا شريكًا ، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته .

أسلوب القرآن

تحس فى كلمات هذه السورة السهولة واليسر ، والرضا واللطف ؛ فهى كلمات معبرة عن معانيها ، فمعانى السورة تدور حول فضل الله على زكريا ومريم وغيرهما من الأصفياء .

ويتمثل الرضا والسلاسة واليسر فى معانى السورة ، كما يتمثل فى ألفاظها وفواصلها وهى : رَضِيًّا ، سَرِيًّا ، حَفِيًّا ، نَجِيًّا .

فأما المواضع التى تقتضى الشدة والعنف ، فتجيء فيها الفاصلة مشددة على حرف الدال فى الغالب : مَدًّا ، ضِدًّا ، إِدًّا ، هَدًّا ، أو زايا : عِزًّا ، أَزًّا .

ويتنوع الإيقاع الموسيقى والفاصلة والقافية ؛ بتنوع الجو والموضوع فى هذه السورة . فهى تبدأ بقصة زكريا ويحيى فتسير الفاصلة والقافية هكذا : ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا . (مريم : ٣،٢) ... إلخ وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . (مريم : ١٧،١٦) ... إلخ

إلى أن ينتهى القصص ، ويجيء التعقيب ؛ لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم ، وللفصل فى قضية بنوته، فيختلف نظام الفواصل والقوافى . تطول الفاصلة وتنتهى القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن ، وكأنما الآيات تعبر عن حكم بعد نهاية القصة ، مستمد منها ، ولهجة الحكم تقتضى أسلوبًا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض وتقتضى إيقاعًا قويا رصينًا بدل إيقاع القصة الرضى المسترسل فيقول سبحانه : ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (مريم: ٣٤ ، ٣٥) .

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرضية المديدة : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا . (مريم : ٤١ ، ٤٢) ... إلخ.

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام ؛ تغير الإيقاع الموسيقى وجرس القافية: قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا . (مريم : ٧٥) ... إلخ .

وفى موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . (مريم : ٨٨ – ٩٠) ... إلخ .

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقى فى السورة وفق المعنى والجو ويشارك فى إبقاء الأسلوب الذى يتناسق مع المعنى فى ثنايا السورة . وفق انتقالات السياق من فكرة إلى فكرة ، ومن معنى إلى معنى .

المعالم الرئيسة فى السورة

يمكننا أن نلمح ثلاث مجموعات رئيسة فى سورة مريم :

المجموعة الأولى : تتضمن قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى ، والتعقيب على هذه القصة بالفصل فى قضية عيسى التى كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

المجموعة الثانية : تتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لملة الشرك وما عوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمة . ثم أشارت إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ، ومصير هؤلاء وهؤلاء ، وينتهى بإعلان الربوبية الواحدة التى تعبد بلا شريك : رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا . (مريم : ٦٥) .

المجموعة الثالثة والأخيرة : تبدأ بالجدل حول قضية البعث وتستعرض بعض مشاهد القيامة ، وتعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك ، وتنتهى بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ .... (مريم : ٩٨) ، أى : أمة من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا . (مريم : ٩٨) .

وقد جاء فى تفسير الطبرى لهذه الآية الأخيرة من سورة مريم ما يأتى :

يقول تعالى ذكره : وكثيرًا أهلكنا يا محمد قبل قومك من مشركى قريش مِّن قَرْنٍ .... يعنى : من جماعة من الناس ؛ إذ سلكوا فى خلافى وركوب معاصى مسلكهم ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ، يقول : فهل تحس أنت منهم أحدا يا محمد فتراه وتعاينه ، أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ، يقول : أو تسمع لهم صوتا بل بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم وصاروا إلى دار لا ينفعهم فيها إلا صالح من عمل قدموه ، فكذلك قومك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك[٢٥] .

وبذلك تنتهى سورة مريم بعد تقرير قدرة الله الفائقة وحكمته البالغة فى خلق يحيى وخلق عيسى وتقرير قدرته سبحانه على البعث والحشر والحساب والجزاء ، ومكافأة المؤمنين ومعاقبة المعتدين .

★ ★ ★

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

نردات :

زكـــريــــا : (يمدّ ويقصر) من ولد سليمان بن داود وكان نجارًا .

ـــادى ربـــه : دعاه .

ـــفـــيـــا : مستورًا عن الناس لم يسمعه أحد منهم .

ـلمن العـــظـــم : ضعف ورقّ من الكبر إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أو ثمانين .

الرأس شيبا : انتشر الشيب فى الرأس .

ـقـــيـــا : يقال : شقى بكذا أى : تعقب فيه ولم يحصّل مقصوده منه ، أى : كنت أدعوك فتعرّفنى الإجابة فيما مضى .

المـــــوالى : عصبة الرجل .

مـــن ورائـــى : من بعدى .

عـــاقـــر : عقيم لا تلد .

ولـــنيـــا : ولدًا من صلبى .

يـــعـــقـــوب : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان متزوجا أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان عليه السلام .

رضـــيـــا : مرضيا عندك قولا وفعلا .

لم نجعل له من قبل سميا : لم يسم أحد بهذا الاسم قبله .

أنـــى : كيف ؟

عـــتـــيـــا : كل متناه إلى غاية من كبر أو فساد ؛ فهو عاتٍ ، أى : يبست مفاصله وعظامه .

شـــيـــئـــا : موجودًا .

ســـويـــا : وأنت صحيح من غير مرض .

المحـــراب : المصلى .

أوحـــى : أومأ وأشار .

ســبـحـوا : صلّوا .

تمهيد :

تشتمل هذه السورة على عظيم فضل الله ، وجليل قدرته ، ففى بدايتها خلق يحيى من أبوين كبيرين عقيمين ، ثم قصة مريم ابنة عمران ، وقد ورد فى كتب السيرة : أن جعفر بن أبى طالب قرأ صدر هذه السور؛ على النجاشى وأصحابه .

التفسير :

١ - كٓهيعٓصٓ .

هى حروف افتتح الله تعالى بها بعض السور . قيل : هى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وقيل : بل ل معان ، وتعددت الآراء فى هذه المعانى :

(أ) قيل : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ؛ فالكاف من اسمه (كاف) ، والهاء من (هاد) ، واليا من (حكيم) ، والعين من (عالم) ، والصاد من (صادق) .

(ب) وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان : أن القرآن مؤلف من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ؛ فدل ذلك على أنه من عند الله تعالى ، وأصحاب هذا الرأى يذكرون : أن الحروف المقطعة فى فواتح السور ، مجموعها ١٤ حرفا ، بينما حروف اللغة العربية ٢٨ حرفا ، فكأنّ القرآن أخذ نصف الحروف فى فواتحه ، وترك للناس النصف الباقى ؛ ليصنعوا منه قرآنا إن استطاعوا .

(جـ) وذهب آخرون إلى أن هذه الأحرف للتنبيه مثل أدوات الاستفتاح ، أو الجرس الذى يضرب فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة .

٢ - ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ .

أى : هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، والآية تبدأ بذكر : رحمة الله ، وتفضله على عبد من عبيده، ونبى عظيم من أنبياء بنى إسرائيل . والمعنى : هذا الذى نذكره لك يا محمد هو جانب من قصة عبدنا زكريا، وطرف من مظاهر الرحمة التى أسبغناها عليه ، ومنحناه إياها .

٣ - إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا .

لقد أخفى دعاءه عن الناس ؛ حتى لا يُنسب إلى الرعونة ؛ لكبر سنه ، أو رغبة فى أن يبث ربه ما به فى صوت خفيض ، فإن الله يعلم القلب التقى ، ويسمع الصوت الخفىّ . وتلمح رجلا كبيرا مسنا يتضرع إلى الله تعالى فى ظلام الليل ، أو ضحوة النهار ، بعيدًا عن الناس ، مناجيا له ، راغبا فى الدعاء ، والله تعالى يسمع الدعاء ويجيبه .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

٤ - قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا .

أظهر زكريا ضعفه وعجزه أمام ربّه فى استعطاف وتبتل ونداء خافت .

قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى .

أى : ضعف العظم وهو قوام البدن ، وإذا ضعف العظم كان غيره أضعف وأوهن .

وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا .

أى : شاب شعر الرأس ، وانتشر البياض فيه ، كما تنتشر النار فى الهشيم ، وأسند الاشتعال إلى الرأس

وهو مكان الشعر ومنبته ، ورسم صورة بارزة لرأس جللها الشيب ، والبياض والكبر ، وكأنه يقول : يا ربى، شخت وضعفت ، وكبرت وصرت شيخًا كبيرًا فانيا قد وهن عظمه ، وشاب شعره .

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا .

أى : تعودت على دعائك ، وعلى مناجاتك ، وعلى طرق بابك ، وعودتنى الفضل والإجابة والكرم ، وأنا الآن أحوج ما أكون إلى هذا الفضل وهذه الإجابة ؛ فتوسل إلى الله بسابق دعائه ، وسابق فضل الله عليه ، وقد كان ذلك فى شبابه وقوته ، فأولى بفضل الله أن يناله فى مرحلة شيخوخته وكبر سنّه .

٥ - وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَ ٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا .

وإنى خفت بنى العم والعشيرة من بعد موتى ، أن يضيِّعوا الدِّين ، ولايُحسنوا وراثة العلم والنبوة ؛ فقد أثر عنهم : أنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل ، فخافهم ألا يحسنوا خلافته فى أمَّته ، لا فى الدين ، ولا فى المال ، ولا فى السياسة التى تُتّبع فى إدارة شئونها .

وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا .

لقد أظهر أمام الله حاجته ، وبين أسباب دعائه ؛ وهى خوفه على التراث والدين ، أن يضيع بسبب أقاربه غير الصالحين للقيام على ذلك التراث ؛ فطلب من الله ولدًا من صلبه ، يغرس فيه مبادئ الإيمان ، ويؤهله للقيام على التراث والديانة .

٦ - يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا .

أى : يرث النبوة والعلم ورعاية الدين ، وقد ورد فى الصحيحين : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ؛ ما تركنا صدقه»[٢٦] .

أما قوله تعالى : وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُدَ . (النمل : ١٦) . فهو ميراث العلم والدين والدعوة والرسالة .

قال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

قدّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أمورًا ثلاثة :

أحدها : كونه ضعيفا .

والثانى : أن الله ما ردَّ دعاءه .

والثالث : كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة في الدين ، ثم صرَّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيدا ؛ لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته ، والتبري عن الأسباب الظاهرة .

وقال ابن كثير :

يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ . يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . أي : مرضيا عندك وعند خلقك تحبّه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه .

٧ – يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا .

تشير الآية إلى عظيم فضل الله على خلقه ، فقد استجاب الله دعاء زكريا وتبتله، وناداه الحق سبحانه: بأنه قد استجاب دعاءه ووهب له غلامًا ، واختار الله اسمه ، وسماه : يَحْيَىٰ . وقد أحياه الله من بين شيخ كبير تخطى عمره مائة سنة ، وامرأة عجوز لا تلد ، وهي عقيم في صباها فكيف بها في شيخوختها .

لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا . أي : لم يسمّ أحد بهذا الاسم قبله ، أو لم نجعل له مثيلا في ولادته ؛ حيث ولد لأب كبير عجوز واهن ؛ بلغ عمره مائة وعشرين سنة ، وأم عاقر عقيم قاربت مائة سنة ، أو لم نجعل له مثيلا في زهده وطاعته وإخلاصه ، وجدّه في الحق واجتهاده . ويحتمل أن يكون جامعا لكل ما سبق . والله أعلم.

قال المفسرون :

كان قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وامرأته ثمان وتسعين سنة . فأراد أن يطمئنّ ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام .

وقد ورد هذا المعنى في الآية ٣٩ من سورة آل عمران حيث قال تعالى : فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) .

وهذه الآية تبين : أن الله تعالى قد استجاب دعاءه ويشره بواسطة الملائكة ؛ أنه سيولد له غلام اسمه يحيى ، مؤيدًا بآيات الله ، وله كرامة وسيادة ، وامتناع عن الشهوات – مع قدرته عليها – وهو من الأنبياء ومن الصالحين ، الذين بلغوا درجة عالية في عبادة ربهم وطاعته ، ولعل هذه الصفات توضح معنى لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ، أي : أنه متميز في سلوكه ، وفي اسمه ، وفي ولادته من بين شيخين كبيرين عقيمين .

٨ – قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا .

إن زكريا هو الذي دعا ، وهو الذي طلب ، ثم تفضل الله عليه بالجواب، ويشره بغلام ذكر اسمه: يحيى ؛ فذٌّ في اسمه وفي مسمّاه وصفاته ، هنا تنبه زكريا على الواقع ، وناجى ربّه مظهرا ما فيه من ضعف ، ووهن، وما في امرأته من عقم وشيخوخة .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ . وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب .

وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا . أي : والحال أن امرأتى عجوز عقيم ، لم تلد فى شبابها فكيف وهى الآن عجوز!

وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا . أى : قد بلغت فى الكبر والشيخوخة نهاية العمر .

قال الطبرى :

عِتِيًّا . كل متناه إلى غاية من كِبَرٍ أو فساد فهو عاتٍ وعاسٍ .

٩ – قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا .

قَالَ كَذَٰلِكَ . أى : الأمر كما ذكرت ؛ بأنك شيخ كبير هرم ، وزوجك عجوز عقيم ، ولكن أمام قدرة الله فذلك أمر هين يسير ؛ فقد خلق الله آدم بدون أب ولا أم ، وخلق عيسى بدون أب وهو على كل شىء قدير ، إذا أراد أمرًا هيأ له الأسباب ثم قال له : كن فيكون .

وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا . أى : كما خلقتك من العدم ، ولم تك شيئا مذكورا فأنا قادر على خلق يحيى منكما .

قال المفسرون :

ليس فى الخلق هين وصعب على الله ، فوسيلة الخلق للصغير والكبير ، والجليل والحقير واحدة ، كُن فَيَكُونُ . وإنما هو أهون فى اعتبار الناس ، فإن القادر على الخلق من العدم ، قادر على الخلق من شيخين هرمين .

١٠ – قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .

أى : طلب زكريا من الله تعالى أن يجعل له دليلا على بداية الحملة ؛ ليطمئن وليزداد شكرا لله تعالى وذكرا له وحمدا .

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .

أى : إن العلامة على بداية الحمل هى أن ينقطع عن الكلام مع الناس بلسانه ، مع كمال صحته وانطلاق لسانه فى قراءة التوراة وذكر الله ، وهى علامة تناسب الجو الذى يعيش فيه زكريا ، من تبتله وشكره وذكره وعرفانه لله : بأنه المنعم المتفضل ؛ فكلمة سَوِيًّا . حال من زكريا . أى : أنك لا تكلم الناس بلسانك ؛ حال كونك سليما سويا معافى .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد : ثلاث ليال كاملات بأيامهن ، والأرجح أن المراد بكلمة سَوِيًّا هو زكريا ، أى : لا تكلم الناس مع عدم وجود علة بك بل نطقك سليم .

وفى سورة آل عمران : قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ . (آل عمران : ٤١) .

١١- فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا .

أى : خرج زكريا إلى قومه من مكان عبادته وصلاته لله تعالى ، فأشار إليهم : أن اذكروا الله وسبحوه ونزهوه عن الشريك والولد ؛ فى أوائل النهار وأواخره بُكْرَةً : صباحًا ، عَشِيًّا : عصرًا .

وقد ورد فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وفى صلاة العصر اقرؤا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا [٢٧] . (الإسراء : ٧٨) .

والمحراب يطلق على المصلى ، أو الغرفة التى كان يجلس فيها فى بيت المقدس ؛ أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمَّى : المحاريب ؛ لأنها الأماكن التى تحارب فيها الشياطين .

وفى تفسير المراغى :

والمحراب (هو المسمّى عند أهل الكتاب بالمذبح ، وهو مقصورة فى مقدَّم المبعد ، لها باب يُصعد إليه بسلّم ذى درج قليله يكون من فيها محجوبا عمن فى المعبد) .

وفى هذا المحراب الذى يتعبد فيه زكريا جاءت الملائكة فبشرته بيحيى . قال تعالى : فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . (آل عمران : ٣٩)

★ ★ ★

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات :

الكتاب : التوراة .

القوة : الجد والاجتهاد .

الحكم : الحكمة والفقه فى الدّين .

صبيا : صغيرا فى زمن الصبا (سبع سنين) .

حنانا : ذا حنان وشفقة .

زكاة : طهارة من الدنس والذنوب والآثام .

تقيا : مطيعا لأمر ربّه .

برا بوالديه : كثير الإحسان إليهما .

جبارا : متعاليا عن قبول الحق والإذعان له .

عصيا : مخالفا أمر مولاه .

سلام : أى : أمان من الله عليه .

تمهيد :

تفيد الآيات: أن الله أوجد يحيي إلى عالم الوجود، ونما وترعرع متصفا بصفات الجد والحكمة والفهم، متحليا بالرحمة والطهارة والتقوى وبر الوالدين، مبتعدًا عن التكبر والتجبر ، وقد منحه الله السلام والسلامة فى ميلاده وعند موته وعند بعثه .

التفسير :

١٢ - يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا .

لقد زود الله يحيى بمؤهلات عديدة ، ليحسن الميراث وليلبّى دعوة والده حين قال :

فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا .

والكتاب هنا هو التوراة ، وهو ميراث الأنبياء ، يتولون شرحه والدعوة إليه ، أى : نادى الله يحيى وألهمه ووفقه فى أن يأخذ التوراة بالجدّ والاجتهاد ، وتطبيق ما اشتملت عليه من أحكام وآداب ؛ فإن بركة العلم فى العمل به .

وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا .

أعطيناه بفضلنا الحكمة والفهم ، والعلم النافع مع العمل به ، وهو فى سن الصبا (سبع سنين) حيث قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ؛ فقال : ما للعب خلقنا ، لذلك قال تعالى : وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالحكم : النبوة ، واعترض آخرون بأن النبوة تحتاج إلى كمال العقل والفطنة ، والراجح أن المراد بالحكم هنا : الفهم والحكمة ، والعلم النافع والعمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها .

١٣- وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا .

أعطاه الله الحنان والشفقة والرحمة ، وطبعه على هذه الصفات ، وآتاه الطهارة والعفة ، ونظافة القلب والطبع ، وَكَانَ تَقِيًّا ، موصول القلب بالله ، مراقبا لمولاه ، مطيعا لأمره ، يستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه .

١٤- وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا .

كان يحيى كثير البر بوالديه ، والحدب عليهما ، بعيدا عن عقوقهما ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى طاعته فقال سبحانه : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ... (الإسراء : ٢٣) .

وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا . أى: لم يكن متكبرا على الناس ، ولا مخالفا لأمر ربه ، بل كان لين الجانب ، متواضعا .

وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بمثل هذا فى قوله: وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ٢١٥)، وقال تعالى : وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ . (آل عمران : ١٥٩) .

١٥- وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا .

أى : وتحية وأمان له منا يوم ميلاده ، ويوم وفاته ، ويوم يبعث من قبره للحساب . وخصّ هذه المواطن الثلاث ؛ لأنها أحرج المواطن فى حياة الشخص ، فعند : الميلاد يخرج من مكان آمن إلى دنيا لم

يشاهد أحدًا فيها ، وعند الموت : يرى قومًا لم يكن عاينهم ، وعند البعث : يرى نفسه فى مشهد عظيم ، فالإنسان أحوج ما يكون فى هذه المواقف إلى فضل ربه وعظيم رحمته ، ورأفته به .

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

عن قتادة : أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لى ؛ أنت خير منى ، فقال له الآخر : أنت خير منّى ، فقال له عيسى : أنت خير منى ، سلَّمت على نفسى ، وسلَّم الله عليك. فعُرف والله فضلهما .

★ ★ ★

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

انتبذت : اعتزلت وتنحت .

مكانا شرقيا : شرقى بيت المقدس ، أو قبل مشرق الشمس .

حجابا : ساترا يسترها عنهم وعن الناس .

روحنا : جبريل عليه السلام .

بشرا سويا : فى صورة رجل من بنى آدم معتدل الخلق .

أعوذ : أعتصم ، وألجأ ، وأستجير .

إن كنت تقيا : ذا تقوى ، أن تنال منّى ما حرّم الله عز وجل .

زكيا : طاهرًا من الأدناس والأرجاس والذنوب .

أنى : كيف يكون ذلك ؟

بغيا : زانية .

آيـــــة : علامة على قدرة خالقكم .

مـقضـيـا : محتوما قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

تمهيد :

بدأت سورة مريم بذكر : قصة زكريا وقد رزق ولدًا وهو عجوز وزوجته عقيم ، وهى قصة مألوفة، فأتى بها كالتمهيد لميلاد عيسى من أم دون أب للدلالة على كمال القدرة الإلهية ، وأنه هو مسبب الأسباب، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له الأسباب ثم قال له : كن فيكون ، وقد ألف الناس أن يكون مجيء الأطفال بسبب تلقيح الذكر للأنثى ، فجعل الله خلق عيسى معجزة وآية تدل على كمال القدرة الإلهية .

التفسير :

١٦ - وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا .

أى : واتل أيها الرسول الكريم فى كتاب الله الذى أنزله إليك بالحق : قصة مريم ابنة عمران حين اعتزلت أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم خلق الله لأى شيء اتخذ النصارى الشرق قبلة ؛ لقول الله عز وجل : إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة .

١٧ - فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

أى : انفردت مريم لأمر يخصها ؛ أو لتتفرغ لعبادة ربها ، فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام ، متمثلا فى صورة بشر مكتمل الحواس سوىّ الخلقه ، وسمى جبرل : روحًا ؛ لأنه يحمل الوحى وهو روح وحياة .

قال تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وقد أضاف الله الروح إليه ؛ إضافة تشريف وتكريم . رُوحَنَا ؛ لأنه يتصرف بإذن الله وأمره .

١٨ - قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا .

هنا تنطفض الفتاة مذعورة حين وجدت شخصًا سوى الخلقة فى مخدعها وتقول : إنى أستجير بالله منك أن تنال منى ما حرم الله عليك ؛ إن كنت ذا تقوى تتقى محارمه ، وتجتنب معاصيه ، وتمثل الآية موقف فتاة مؤمنة ، فى حجاب بينها وبين قومها ، تفاجأ بشخص سوى الخلقة ، فتُحرِّك فيه دواعى التقى والإيمان ، وتذكره بالرحمان ، الذى تتحصن بسلطانه ، وتذكر الشخص بتقوى الله والخوف منه .

١٩ - قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا .

أى : قال جبريل لها ، مزيلاً ما حدث عندها من الخوف منه ، ومن النفور : لست شابا راغبا فى الفاحشة كما تظنين ، إنما أنا رسول ربك بعثنى لأهب لك غلامًا طاهرًا مبرأ من العيوب ، وقد نسب الهبة إليه، من قبل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله .

٢٠ - قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا .

أى : كيف يكون لى ولد ، وأنا لم أتزوج ، ولست فاجرة ؛ فلم أتخذ الطريق إلى الولد بالزواج ، ولست من الزانيات . والولد لا يأتى إلا من نكاح أو من سفاح !

٢١ - قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ .

إن الولد لا يأتى إلا من نكاح أو من سفاح فى عادات الناس، أما إذا كان الأمر أمر الله ، فإنه نافذ لا محالة ، وليس على الله هين وصعب ، لكن أراد أن يقرب الأمر إلى فهم مريم ، والمراد : أن الله على كل شىء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى الموادّ والآلات .

وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا .

ولنجعله معجزة ظاهرة أمام الناس ، ورحمة من الله لعباده ؛ حين بعثه نبيا وهاديا ورسولا ، وكان ذلك قضاء قد قضى فى سابق علم الله ، ومضى به فلا يغير ولا يبدل .

لقد خلق الله آدم من تراب ونفخ فيه من روحه ، ثم خلق حواء من أب دون أمّ ، ثم خلق عيسى من أم دون أب ؛ ليظهر للناس أن الآباء والأمهات هم أسباب مادية ملموسة ، والمسبب الحقيقى هو الله قال تعالى : يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

(الشورى : ٤٩ ، ٥٠)

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩).

★ ★ ★

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات :

فانتبذت : اعتزلت .

قصيا : بعيدا من أهلها وراء الجبل .

فأجاءها : ألجأها وأضطرها .

المخاض : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن .

نسيا منسيا : كشىء ترك فلم يُطلب ، أو لم أكن فى الأشياء .

فناداها من تحتها : اختلف فى أنّه عيسى ، أو جبريل .

سريا : نهرًا أو عنى نفسه عيسى .

هزى : حرِّكى .

رطبا : بُسرًا ناضجًا .

جنيا : صالحا للاجتناء .

قرى عينا : طيبى نفسًا وافرحى بولادتك إياى ولا تحزنى .

قولى : أشيرى إليهم .

صوما : صمتًا .

التفسير :

٢٢ - فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا .

أى : اقتنعت بكلام جبريل فنفخ فى جيب درعها (الفتحة التى من الأمام فى القميص) فدخلت النفخة

فى جوفها فحملته ، قاله ابن عباس ، وقال غيره : نفخ فى كمها وقد تم الحمل بالجنين ، فاعتزلت وهو فى بطنها مكانًا بعيدًا عن أهلها ؛ خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج .

٢٣ - فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا .

أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به وهو محمول فى بطنها عن قومها ، وحان وقت ولادتها ، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة يابسة ؛ لتتكأ عليه عند الولادة ، فاعتراها الهم والحزن ، وتهيبت مقابلة الناس ، فهم كانوا يرونها عابدة زاهدة ، والآن يظنون أنها زانية عاهرة ؛ فقالت : يا ليتنى متّ قبل هذا الحمل والمخاض الذى حلّ بى ، وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا . شيئًا متروكًا لايهتم به أحد ؛ نسيا بفتح النون وكسرها لغتان فى الشيء الحقير المهمل ، مثل : الوَتر ، والوِتر بفتح الواو وكسرها .

وقد أدب نبينا محمد ﷺ المسلمين بالأدب الإلهى ومن ذلك ألا يتمنى المسلم الموت ؛ لضيق مادى أو مرض ؛ روى مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «لايتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به ، فإن كان لابد متمنيا فليقل : اللهم ، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى»[٢٨] .

٢٤ - فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا .

توجد قراءتان سبعيتان فى مِن تَحْتِهَآ . الأولى : بفتح الميم بمعنى : الذى تحتها وهو عيسى ، والثانية: من تحتها بكسر الميم وهو جبريل عليه السلام ، ورجح الطبرى أن الذى ناداها هو عيسى عليه السلام ؛ لتزداد اطمئنانا ويقينا بهذه المعجزة ، أى : ناداها عيسى عند ولادته قائلا : لاتحزنى لهذا الأمر ؛ فقد جعل الله تحتك جدولا صغيرا يجرى أمامك .

قال ابن عباس : ضرب جبريل برجله الأرض ، فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا .

٢٥ - وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا .

أى : حركى جذع النخلة اليابسة ؛ يتساقط عليك الرُّطب الشهى الطرى .

والرُّطب : هو ما نضج واستوى من التمر .

جنيا : صالحا للأخذ والاجتناء .

لقد أراها الله تعالى عددا من الكرامات ، منها وجود عين ماء تسيل لوقتها ، وتحريك نخلة يابسة تخضر وتثمر ، ثم تحريك يديها بهزّ النخلة يؤدى إلى وقوع الثمر ، وكل هذا ؛ لتطمين القلب ، وللحث على الأخذ بالأسباب ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزِّه جنته ، ولكن كل شىء له سبب

وقد ذكر العلماء : أن أفضل ما تأكله النفساء هو الرطب ؛ لأن فيه حلاوة وقوّة .

٢٦ - فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا.

أى : فكلى من ذلك الرطب الشهى ، واشربى من هذا الماء العذب السلسبيل ، وَقَرِّى عَيْنًا . أى : طيبى نفسًا بهذا المولود ولا تحزنى ؛ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا . أى : إذا رأيت أحدًا من الناس وسألك عن شأن المولود ؛ فأشيرى إليهم : بأنى أوجبت على نفسى لله صمتا ؛ ألا أكلم اليوم أحدًا .

قال الفخر الرازى ما ملخصه :

إنما مُنعت من الكلام لأمرين .

أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ؛ ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها .

ثانيهما : كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذلّ الناس سفيه لم يجد مسافها .

★ ★ ★

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

فريا : عظيما خارقا للعادة ، وهى الولادة بلا أب .

هـــــارون : هو أخو موسى ، وقيل : هو رجل صالح من بنى إسرائيل .

يا أخت هارون : يا شبيهة هارون فى الصلاح .

فـى الـمـهـد : فى الحجر (حجر أمّه) .

الـكـتـاب : الإنجيل .

مـبـاركـا : نفّاعًا للناس .

الـجـبـار : المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقًا .

الشـقـى : العاصى لربه .

التفسير :

٢٧- فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا .

أى : حملت ابنها وجاءت إلى قومها بعد أن طهرت من النفاس ، فلما رأوها أنكروا عليها وجود الولد معها ، وقالوا لها : لقد جئت أمرًا منكرًا عظيمًا .

٢٨- يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا .

كان هارون رجلا صالحا فى بنى إسرائيل ، منقطعا للعبادة ؛ فشبهوها به فى صلاحها .

والمعنى : يا شبيهة هارون فى الصلاح والعبادة والتقوى ، ما كان أبوك بالفاجر ، وما كانت أمك بالبغىّ ؛ فكيف أتيت بهذا الولد ؟!.

أو المعنى : يا من أنت من نسل هارون أخى موسى ؛ كما يقال للتميمى : يا أخا تميم ، وللمصرى : يا أخا مصر .

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون : يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم» [٢٩] .

٢٩- فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا .

فأشارت إلى ابنها عيسى ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم إليه ؛ فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر، ولكنهم لم يقتنعوا بإشاراتها ، بل قالوا لها : كيف نكلم طفلا صغيرا لا يزال فى السرير يتغذى بلبان أمه ؟

جاء في التفسير الكبير لفخر الدين الرازي :

روى : أنه كان يرضع ، فلما سمع ذلك ؛ ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان . اهـ .

وكلام عيسى في المهد معجزة إلهية ، أجراها الله على يديه ؛ تبرأة لمريم ، وإرهاصا لنبوة عيسى ، فنحن نؤمن بها كما وردت في كتاب الله ، وهو حسبنا .

٣٠- قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا .

أي : قال عيسى في كلامه أمام قوم مريم : أنا عبد الله خلقني بقدرته من غير أب ، فقدم ذكر العبودية؛ ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية .

ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا .

أي : قضى ربّي أن يؤتيني الإنجيل في المستقبل ، وأن يجعلني نبيًّا ، أدعوا الناس إلى عبادته وحده، وإنما جاء بلفظ الماضي ؛ لإفادة تأكد تحققه ؛ فإن ما قضى به الله لابدَّ أن يقع ، وقريب منه قوله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ... (النحل : ١) ، وقوله سبحانه : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

٣١- وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

أي : جعل فيّ البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ، وأوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي .

٣٢- وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا .

أي : وجعلني الله مطيعًا لوالدتي ومحسنًا إليها ، ولم يجعلني – سبحانه – متكبرا مرتكبا للمعاصي والموبقات .

٣٣- وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .

أي : سلام الله عليّ في يوم ولادتي وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حيًّا من قبري .

هذا ما نطق به المسيح وهو طفل لا يزال فى المهد ؛ فقد تبرأ ممن جعله إلها حيث نطق بأنه عبد الله، وأنه نبى سيؤتيه الله الإنجيل ، وسيجعله كثير البركة محافظًا على الصلاة والزكاة، محسنا لوالدته، بعيدا عن التكبر والمعصية ؛ ثم هو بشر يسأل الله السلام والأمان له فى كل أطوار حياته .

وبهذا ردّ المسيح على من جعله إلها ، وعلى من قال : إنه ابن زنى ، وعلى من ذهب إلى أن الأب إله ، والابن إله ، وروح القدس إله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فالمسيح فى القرآن عبد الله ورسوله يحيا ويموت كسائر البشر خلقه الله من أم دون أب ؛ ليكون آية على قدرة الله الباهرة .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى، ويكذبنى ابن آدم وما ينبغى له أن يكذبنى ؛ أما شتمه إياى : فقوله : إن لى ولدا ، وأما تكذيبه إياى فقوله لا يبعثنى الله بعد موتى ...» [٣٠] .

وقد تحدث القرآن مستنكرًا أن يكون لله ولدًا ، مستخدمًا الدال وهى حرف من حروف القلقلة فى نهاية كل آية فقال :

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا . (مريم : ٨٨ – ٩٥) .

وفى الصفحة الأخيرة من سورة المائدة يتبرأ المسيح عيسى عليه السلام ممن ادعى : بأنه إله ، أو أن أمّه مريم إله .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

(المائدة : ١١٦ – ١١٨)

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

قول الحق : قول الصدق الذى لا شبهة فيه .

يمترون : يشكون ويتنازعون ويختصمون ؛ فزعم اليهود : أنه ساحر كذاب ، وزعمت النصارى : أنه ابن الله ، وثالث ثلاثة ، وإله – تعالى الله عن ذلك –

ما كان لله أن يتخذ من ولد : ما ينبغى ولا يصح أن يجعل له ولد .

صراط مستقيم : طريق لا يضل سالكه .

الأحزاب : فرق النصارى الثلاث .

مشهد : شهود وحضور .

يوم عظيم : يوم القيامة .

اليوم : فى الدنيا .

يوم الحسرة : يوم القيامة ، حين يندم الناس على ما فرطوا فى جنب الله .

قضى الأمر : فرغ من الحساب .

التفسير :

٣٤– ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ .

أي : هذه هى القصة الحقيقية ، وهى القول الحق فى عيسى ابن مريم ، لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ، ويشكون فى أمره ويمترون ويجادلون .

٣٥- مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ .

ما صح ولا استقام للإله الواحد الأحد ، السميع البصير القدير ، أن يتخذ ولدًا ؛ لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله هو الباقى بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذى لا يعجزه شىء .

سُبْحَـٰنَهُۥٓ تنزه عن الصاحبة والولد .

إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ .

أى : إذا أراد أمرًا فإنما يأمر به ؛ ليكون كما أراد ؛ فليس فى حاجة إلى نصرة الولد أو معونته كما يفعل البشر ؛ بل هو الإله القادر النافذ الأمر ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

٣٦- وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ .

لقد أنطق الله عيسى فى المهد بهذه الحقائق ؛ حتى لا يضل الضالون ، ومن ذلك قوله : إن الله سبحانه هو رب الكون ، ورب الناس أجمعين ، ورب عيسى وخالقه ، وإليه نتوجه جميعا بالعبادة ولا نعبد سواه ، وهذا هو الطريق الواضح المستقيم .

وهذا معنى لا إله إلا الله . أى : لا معبود بحق سواه . وقريب منه ما ورد فى سورة الصمد ؛ حيث أثبتت وحدانية الخالق ، المقصود فى الحوائج ، فهو لم يلد ولدًا ولم يولد من أب ، كشأن البشر حيث يولد الصغير ثم يكبر فيصير أبا ، وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ . أى : ليس له شبيه أو نظير أو مكافئ .

قال تعالى : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ . (الإخلاص : ١-٤).

٣٧- فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : اختلفت الفرق من أهل الكتاب فى شأن عيسى ؛ وصاروا أحزابا متفرقين ، فمنهم : من يزعم : أنه ابن الله ، ومنهم : من يزعم : أنه ابن زنى .

ولقد جمع الإمبراطور الرومانى قسطنطين مجمعا من الأساقفة -وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة- بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفا ، فاختلفوا فى شأن عيسى اختلافا شديدا ، وقالت كل فرقة فيه قولا .

قال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء ،

وقال بعضهم : هو ابن الله .

وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس .

وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله ، وعيسى إله ، وأمّه إله ».

وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته .

وقالت فرق أخرى أقوالا أخرى ، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية اتفقوا على قول ، فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين ، وشرّد المعارضة وبخاصة الموحدين .

وقد سمى أتباع الملك قسطنطين الملكانية ، وقد ابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار فى مملكته كلها ، بلاد الشام والجزيرة والروم ، فكان مبلغ الكنائس فى أيامه ما يقارب اثنى عشر ألف كنيسه [٣١] .

ونلاحظ أنه قبل الفتح الإسلامى لمصر ، كان فى مصر مذهبان منتشران بين أقباط مصر :

المذهب الملكانى : ويذهب إلى أن الابن مفصول من الأب قبل كل الأزمنة والدهور وهو جوهره ونوره اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم .

والمذهب اليعقوبى : نسبه إلى عالم قبطى يسمىّ : يعقوب ، يرى أن اللاهوت حلّ فى الناسوت ، أى : أن المسيح إنسان حلّت فيه روح إله . وكان المذهب اليعقوبى منتشرا بين أبناء الشعب المصرى ، وكان زعماء اليعاقبة مجاهدون غاضبون على المذهب الملكانى ، الذى تحبذه روما ؛ ولذلك فإن الشعب القبطى قد استقبل الفتح الإسلامى لمصر استقبالا حسنا ، وأمدّ الفاتحين المسلمين بالعلف والمئونة والمساعدة ؛ ليتخلص الشعب من ظلم الرومان وتعسفهم .

وكانت مصر تعتبر مزرعة للقمح توررده إلى روما ، وكانت روما تجبى الضرائب ، وتفرض المذهب الملكانى ، وتجنى ثمار القمح ؛ مما جعل الأقباط راغبين فى التخلص من جور الرومان وظلمهم ، كما أن تصوّر اليعاقبة لطبيعة المسيح كان أقرب إلى التصور الإسلامى ، من المذهب الملكانى الرومانى [٣٢] .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : فعذاب شديد للكافرين من شهود ذلك اليوم ؛ وهو يوم القيامة ، الذى يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله .

٣٨- أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

ما أشد سمعهم وبصرهم يوم يقدمون على ربهم وقد شاهدوا بأعينهم حقيقة الآخرة ، وتفتحت أبصارهم وأسماعهم على الوعد الحق ، فأفاقوا بعد فوات الأوان !

لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

إلا أن هؤلاء الظالمين اليوم فى الدنيا ، فى ضلال ظاهر ؛ قد أعمتهم الدنيا وشغلتهم الأمانى ، وسلبت أسماعهم وأبصارهم عن سماع الحق والتأمل فى حقيقة التوحيد ، فهم عمى فى الدنيا عن الحقيقة ، ثم يبصرون ويسمعون ويعرفون الحقيقة فى الآخرة ، ولكن بعد فوات الأوان ، حيث يطلبون العودة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فات فلا يجابون إلى طلبهم !

صاح هل رَيْتَ أو سمعت براع ردَّ فى الضَّرع ما قرى فى الحِلاب ؟

٣٩- وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : خوف الناس جميعا من يوم القيامة ، يوم يتحسر الظالمون على ما أسرفوا فيه وفرَّطوا فى جنب الله ، وفى ذلك اليوم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وقد ورد فى الصحيحين أنه : «يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح ، يخالط بياضه سواد فيذبح بين الجنة والنار ثم ينادى : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت» ، ثم قرأ النبى ﷺ : وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .[٣٢]

وذبح الكبش تصوير ؛ لأن كلًّا من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه ؛ أنه لا موت بعد ذلك ، وقوله : وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ . أى : والظالمون فى غفلة عن يوم القيامة ، شغلتهم الدنيا وحظوظها عن التفكير فى ذلك اليوم ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . لا يصدقون بالبعث ، والحساب ، ومجازاة الله لهم على أعمالهم .

٤٠- إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ .

كل ما على وجه الأرض عائد إلى الله تعالى عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ؛ فلا تأس يا محمد على تكذيبهم ؛ فإنهم سيرجعون إلينا فنجازيهم بالعدل والقسطاس المستقيم .

جاء فى مختصر تفسير ابن كثير للصابونى :

يخبر تعالى : أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدَّس ، ولا أحد يدّعى ملكا ، ولا تصرفًا ؛ بل هو الوارث لجميع خلقه ، الباقى بعدهم ، الحاكم فيهم ، فلم تظلم نفس شيئا، ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة .

★ ★ ★

قصة إبراهيم عليه السلام

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

المفردات :

واذكر فى الكتاب : اتل فى هذه السورة .

صديقا : مبالغا فى الصدق لم يكذب قط .

صراطا سويا : طريقا مستقيما ، موصلا إلى نيل السعادة .

وليا : قرينا تليه ويليك فى العذاب .

أراغب أنت عن آلهتى : أكاره لها ؟

لأرجمنك : لأشتمنك باللسان ، أو لأرجمنك بالحجارة .

مليا : دهرًا طويلا ، قال مهلهل :

فتصدعت صم الجبال لموته ... وبكت عليه المرملات مَليّا

حفيا : مبالغا فى برى وإكرامى ، يقال : حفى به ؛ إذا اعتنى بإكرامه .

شقيا : خائب المسعى .

لسان صدق : ثناءً حسنا .

تمهيد :

سورة مريم سورة إثبات القدرة الإلهية ، والوحدانية والبعث ، وإثبات النبوة ، وهناك من ادعى : أن عيسى إلها ، ومن ادعى : أن الأصنام آلهة تعبد من دون الله ؛

لذلك، بدأ بقصة عيسى ؛ ليبين أنه عبد الله ورسوله ، ثم ثنى بقصة إبراهيم ؛ ليرد من خلال قصته على عبّاد الأوثان .

التفسير :

٤١ - وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا .

أى : واتل أيها الرسول على قومك ، الذين يعبدون الأصنام ؛ ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمان الذين هم من ذريته ، ويدّعون : أنهم على ملته وهو الصدّيق النّبىُّ .

أى : إنه كان صدّيقا ملازما للصدق فى كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبيا من أولى العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

٤٢ - إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا .

أى : إن الإنسان يعبد إلها قادرًا حكيمًا سميعا بصيرا مجيبا ، أما أن يعبد صنما عاجزا لا يصنع شيئًا، ولا يسمع الدعاء ، ولا يرى من يعبده ، ولا يقدر على نفع نفسه ، فضلا عن أن ينفع غيره ، فهذا العمل باطل ضائع .

٤٣ - يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا .

إن الله أكرمنى بالرسالة ، وأفاض علىّ من علمه وفضله ، ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ... (الجمعة : ٤).

فقد اختص الله برسالته وفضله وعلمه ، ولم يأتك مثل هذا العلم أو ذلك الفضل ، فاتبعنى فى دعوتى ورسالتى ، فإنك إن اتبعتنى ؛ يسرت لك الهدى والإيمان والطريق القويم المعتدل .

٤٤ - يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا .

إن الشيطان هو الذى يزين للناس عبادة الأوثان ويزين لهم البعد عن طريق الرحمان ، فمن عبد الأوثان فكأنما عبد الشيطان ، وهناك طريقان فى هذه الحياة : عبادة الرحمان ، وعبادة الشيطان ، فمن

ترك طريق الرحمان ، واتبع طريق الشيطان ، صار عاصيا للرحمان ، وهذه المعصية يتبعها غضب الرحمان، وسوء الخاتمة وسوء المصير .

٤٥- يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا .

يا أبت، إنِّى أشفق عليك من غضب الله وعذابه ونقمته ، وإذا غضب الله على إنسان ؛ طرده من رحمته ، وصار من أولياء الشيطان، وأعظم بها من نقمة؛ أن يُطرد إنسان من مرضاة الله ، وأن ينضم إلى حزب الشيطان!

قال تعالى: إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ. (فاطر: ٦).

ونلمح فى الآيات رقة إبراهيم وأدبه وتواضعه فى مخاطبة أبيه ، واستعمال أيسر الألفاظ ، وأجمل الجمل ، فلم يصرح له بأنه على الكفر والضلال ، بل تدرج معه فى بيان جملة من الحقائق فأخبره بما يأتى:

١ - الأصنام لا تسمع ولا ترى ولا تنفع من يعبدها .

٢ - لقد جاءنى العلم والرسالة والهدى ، ولا عيب أن يتبع الكبير الصغير ما دام الصغير على الحق والهدى.

٣ - إن اتباع الشيطان وعبادة الأوثان جرم كبير .

٤ - وشتان بين طريق الله العامر بالرضى والإيمان ، وطريق الشيطان العامر بالإثم والعدوان .

٤٦- قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا .

قال والد إبراهيم مجيبا دعوة إبراهيم بالإنكار والاستكبار ؛ إذ كيف يخرج إبراهيم عن متابعة أبيه، وكيف لا يسجد لهذه الأصنام ، وكيف يعيب على من يعبدها ؟

ونلمح توافق عباد الأصنام جميعا على أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها ، وأنها طريقهم للعبادة ، وأن من خرج عن عبادتها ؛ فقد خرج عن المعروف المألوف .

لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا .

إذا لم تنته عن دعوتك هذه ؛ لأقتلنك رميا بالحجارة ، وخير لك أن تبتعد عنى بعدًا طويلاً لا أريد أن أراك فيه .

٤٧- قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا .

أجاب إبراهيم أباه فى هدوء ورقه وإيمان ، فقال : سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ، وأمان الله أدعوه : أن يحل بك ، سأدعو الله أن يسامحك ، وأن يغفر لك ، فإن الله عودنى إجابه الدعاء ، والكرم والقرب والفضل ، وجاء هذا المعنى

فى قوله تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

٤٨- وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...

لقد كان موقف إبراهيم إيجابيا حين لم يستجب والده لدعوته ؛ فقد فارق أباه وقومه ، على وعد أن يدعو الله بأن يغفر لأبيه .

قال تعالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ . (التوبة : ١١٤) .

روى : أن إبراهيم عليه السلام هاجر من أرض العراق إلى بلاد الشام ؛ فرارًا بدينه ، وبعدًا عن عبادة والده للأصنام ، وفى بلاد الشام تزوج سارة حيث عوضه الله عما ترك ، وآواه إلى جواره وفضله .

وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا .

سأبتعد عنكم وألجأ إلى عبادة الله ودعائه ، آملا أن يكون دعائى مستجابا ، وألَّا أكون خائب المسعى، شقيا مرفوض الدعاء .

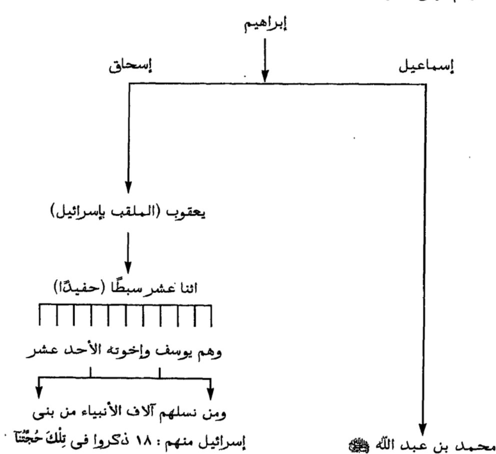
٤٩- فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا .

أى : عندما اعتزل إبراهيم قومه ، واعتزل أصنامهم التى يعبدونها ، آواه الله إليه ، وعوضه زوجة وذرية وأحفادًا ، هم آباء الأنبياء من بنى إسرائيل ، ولهم الشأن الخطير ، والقدر العظيم .

فقد وهبه الله إسحاق ، وولد لإسحاق يعقوب وهو الملقب بإسرائيل ، وقد رزق اثنى عشر ولدًا سجد منهم أحد عشر ولدًا ليوسف ، تعبيرا لرؤيا يوسف فى قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ . (يوسف : ٤) .

أما إسماعيل فتولى الله تربيته بعد نقله رضيعا إلى المسجد الحرام ؛ فأحيا تلك المشاعر العظام ومن ثم أفرده بالذكر بقوله : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ... (مريم : ٥٤) .

وهذا رسم تقريبى لشجرة الأنبياء :



ولم يكن من نسل إسماعيل نبى إلا محمد ﷺ ، ومن هنا قال بعض العلماء : إن فرع هذه الشجرة ، يعدل فرعها الثانى . وآيات تِلْكَ حُجَّتُنَآ يقول الله تعالى فيها :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (الأنعام : ٨٣ – ٨٧) .

٥٠– وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا .

ووهبنا وأعطينا لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ من فضلنا الدينى والدنيوى ما لم نؤته أحدًا من العالمين ؛ فآتيناهم النسل الطاهر ، والذرية المباركة ، وإجابة الدعاء ، واللطف فى القضاء ، والبركة فى المال والأولاد ؛ إلى نحو ذلك من خيرى الدنيا والآخرة .

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا . فمحامدهم مذكورة على جميع الأزمان ، قد سجلها الدهر على صفحاته؛ تلبية لدعوة إبراهيم : وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ . (الشعراء : ٨٤) .

فقد سجل الله لإبراهيم العديد من المواقف ومن بينها ما يأتى :

– موقفه من عبادة الأوثان .

– هجر والده وقومه عندما تبين له عدم إيمانهم .

– وفاؤه بذبح ولده ؛ استجابة لأمر الله .

– دعاؤه : أن يبعث الله فى ذريته رسولا منهم .

– ذكره فى التشهد والدعاء فى الصلوات الخمس : «اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...»

– أن جعل الله موطئ قدميه مباركا فقال : وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ... (البقرة : ١٢٥) .

– أن الله مدحه بقوله : وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ . (النجم : ٣٧) .

– أنه عادى كل المعبودات فى الله فقال : فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ . (الشعراء : ٧٧) .

– أن الله سجل له الذكر الحسن فقال : وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . (الصافات : ١٠٨ ، ١٠٩) .

★ ★ ★

قصص موسى عليه السلام

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات :

مخلصا : مختارًا مصطفى .

قربناه : تقريب تشريف وتكريم .

الطور : الجبل الذى بين مصر ومدين .

نجيا : مكلما لله بلا واسطة .

التفسير :

٥١- وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا .

أى : واتل أيها الرسول على قومك : ما اتصف به موسى من صفات كريمة ؛ فقد كان مخلصًا أى : قربه الله واجتباه واستخلصه من عباده ، وهناك قراءة أخرى بكسر اللام أى : أنه كان مخلصا لله فى عبادته يعبد الله عن إخلاص وتوحيد وتقوى وإيمان .

وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا . فقد من الله عليه بصفتين : الأولى : الرسالة ، والثانية : النبوة ، والرسول هو الذى يوحى إليه بشرع ويكلف بالتبليغ ، مثل موسى وإبراهيم ونوح وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ؛ والنبى ﷺ هو الذى يوحى إليه بشرع ولا يكلف بالتبليغ ، مثل يوشع عليه السلام .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ .(الأعراف : ١٤٤) .

٥٢- وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا .

نادى الله موسى حين عاد من أرض مدين إلى مصر ، واقترب من جبل الطور ، وكلمه الله من الجانب الأيمن للطور ، أى : الذى عن يمين موسى ، وأعلمه الله بأنه رسول الله ، وقد منحه الله البركة والرضا والقرب والمناجاة ؛ حيث كلم الله موسى تكليما .

وأى شرف أعظم من أن ينال البشر هذه المناجاة ، والمناداة والاختيار الإلهى للإنسان ؛ ليحمل رسالة الله إلى خلقه ، وفى سورة طه يقول الله تعالى : وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ. (طه : ٩ - ١٤)

٥٣- وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا .

ووهبنا لموسى من فضلنا ومعونتنا : أخاه هارون نبيا ؛ ليؤازر موسى ويناصره ، ويقوم بالحجة والدفاع عن الرسالة معه ، حيث استجاب الله دعاء موسى حين دعا الله أن يعاونه برسالة هارون معه قال تعالى : وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ . (القصص : ٣٤ ، ٣٥) .

وقال عز شأنه : وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ (طه : ٢٩ – ٣٦) .

قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين ، وقال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا ، أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيا .



قصص إسماعيل عليه السلام

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

تمهيد :

إسماعيل الذبيح الذى أجاب أباه يوم الذبح والفداء بقوله : يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ . (الصافات : ١٠٢) .

وهو ابن إبراهيم خليل الرحمان ، وقد أثنى عليه ربه بصفات هى مفخرة للبشرية .

التفسير :

٥٤– وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا .

أى : واذكر يا محمد فى القرآن العظيم خبر جدك إسماعيل الذبيح ابن ابراهيم ؛ وهو أبو العرب جميعا.

إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ . أى : متميزا فى صدق الوعد والوفاء به .

قال المفسرون :

ذُكِر بصدق الوعد والوفاء به ، وإن كان موجودًا فى غيره من الأنبياء، تشريفا وإكراما، ولأنه عانى فى الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء ، فمن أخلاقه : الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ؛ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا . أى : جمع الله له بين الرسالة والنبوة .

قال ابن كثير :

وفى الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وكان محمد ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام .

٥٥- وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا .

وكان يحثّ أهله على فعل الخيرات خصوصا : إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وفى هذا المعنى قال الله تعالى : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... (طه : ١٣٢) .

والصلاة : هى الصلة بين المؤمن وبين ربه وهى مفتاح الخير وطهارة النفس ومعراج الروح .

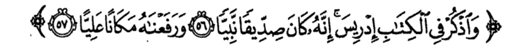
والزكاة : طهارة المال وسبيل من أسباب تماسك المجتمع وتراحم الناس وتكاتفهم وتعاطفهم .

وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا . أى : كان محمودا عند الله ، مقبولاً قد نال رضى الله كما قال عز شأنه : رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... (البينة : ٨) .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير : وهذا نهاية المدح ؛ لأن المرضىّ عند الله هو الفائز فى كل طاعاته بأعلى الدرجات .

★ ★ ★

قصص إدريس عليه السلام



﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

التفسير :

٥٦- وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا .

أى : واذكر فى القرآن الكريم بالثناء عليه : إدريس عليه السلام .

والنسابون يقولون : إنه جد نوح عليه السلام ، ويقولون : إنه أول من خط القلم ، وخاط الثياب ، ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود .

وإدريس أول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب ، وجعل الله ذلك من معجزاته [٢٤] .

وكل هذه الأخبار ، ليس لدينا سند صحيح يؤكدها أو ينفيها ، فنتوقف فى قبولها ، ويكفينا ما جاء فى القرآن الكريم بشأنه .

قال صاحب الظلال :

وهناك رأى نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه ، يقول به بعض الباحثين فى الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس) المصرية القديمة ، كما أن يحيى تعريب لكلمة يوحنا ، وكلمة اليسع تعريب لكلمة إليشع .. وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة ، فهم يعتقدون بأنه صعد إلى السماء ، وصار له فيها عرش عظيم ، وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته ، فإنه يلحق بأوزريس الذى جعلوه إلها لهم ، وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء . وعلى أية حال فنحن نكتفى بما ورد فى القرآن الكريم عنه ، ونرجح أنه سابق على أنبياء بنى إسرائيل [٣٥] .

إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا .

لقد كان إدريس عليه السلام ملازما للصدق فى جميع أحواله ؛ فسمى : صدِّيقا .

وفى الحديث النبوى الشريف : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البّر ، وإن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ؛ حتى يكتب عند الله صديقا» . وكان إدريس نبيا يوحى إليه بوحى السماء .

٥٧- وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا .

أى : رفعنا قدره وأعلينا ذكره ، بشرف النبوة والزلفى عند الله ، ونحو هذا قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . (الشرح : ٤) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وقد تقدم فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ مرّ بإدريس ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة ، وعن ابن عباس أن إدريس كان خياطا ، فكان لا يغرز إبرة إلا قال : سبحان الله ، فكان يمسى حين يمسى وليس فى الأرض أحد أفضل عملاً منه .

وقال سفيان : عن مجاهد : وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا . قال : السماء الرابعة .

وقال الحسن وغيره : فى قوله تعالى : وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا . قال : الجنة ؛ إذ لا شرف أعلى منها .

وقال بعضهم : احتال إدريس فقال : يا رب ، أريد أن أرى الجنة ؛ فحمله ملاك فشاهد الجنة ، فقال إدريس : يا ربى ، اتركنى فيها فتركه الله فيها .

★ ★ ★

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾

المفردات :

إسرائيل : يعقوب عليه السلام .

اجتبينا : اصطفينا واخترنا .

سجدا : واحدهم : ساجد .

بكيا : واحدهم : باك .

قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ، أى : لا صوت معه كما قال الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها   وما يغنى البكاء ولا العويل

تمهيد :

بعد أن أفرد الله كل رسول من رسل الله العشرة ، الذين سبق ذكرهم ؛ بالثناء عليه بما هو جدير به ؛ أردفه بما جازاهم به من الخير والاصطفاء والتفضيل .

التفسير :

٥٨- أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ ...

أى : هؤلاء النبيون الذين قصصت أنباءهم عليك أيها الرسول ، هم الذين أنعم الله عليهم بما خصهم به من القرب منه ، وعظيم المنزلة لديه .

وقال ابن كثير :

أى : هؤلاء النبيون ، وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط ؛ بل جنس الأنبياء عليهم السلام ، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس .

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ...

قال السدى وابن جرير رحمه الله :

فالذى عنى به من ذرية آدم : (إدريس) والذى عنى به ممن حملنا مع نوح : (إبراهيم) ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم : إسحاق ، ويعقوب ، وإسماعيل . والذى عنى به من ذرية إسرائيل : موسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ابن مريم .

أولئك النبيون ، ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم ، صفتهم البارزة .

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

فقد جمعوا بين الإيمان ورقة الوجدان ، فهم يؤمنون بآيات الله ، وتفيض قلوبهم وأفئدتهم بالخشوع والخضوع ؛ فيسجدون لله تعالى باكين خاضعين .

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم فى معنى هذه الآية تدل على أن من صفات المؤمنين التأثر والخشوع والبكاء لسماع القرآن وأدلة الإيمان .

قال تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . (الأنفال : ٢) .

وقال عزَّ شأنه : وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ . (المائدة : ٨٣) .

وقال سبحانه وتعالى : ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ . (الزمر : ٢٣) .

★ ★ ★

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

خلف : بسكون اللام : عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق : خلَف (بفتح اللام) .

أضاعوا الصلاة : تركوها بتاتا .

اتبعوا الشهوات : انهمكوا فى الملذات والمعاصى .

غـيـا : ضلالاً ، والمراد : يلقون جزاءهم فى جهنم .

تمهيد :

ذكر سبحانه : حزب السعداء الأتقياء من الأنبياء والصالحين ، الذين اجتباهم الله واختارهم ؛ لرقة قلوبهم ؛ وبكاء عيونهم وسجودهم لربهم .

ثم أردف هنا ذكر : من خلفهم ممن أضاعوا الواجبات وأقبلوا على شهوات الدنيا ، ثم أعقب ذلك بذكر ما ينالهم من النكال والوبال فى الآخرة ، إلا من تاب وأناب فإن الله عز وجل يقبل توبته ، ويدخله الجنة ويحسن مثوبته .

التفسير :

٥٩ – فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا .

أى : جاء بعد الأنبياء والصالحين ، خلف سوء من أهل الضلال ، تركوا أداء الفريضة ، وجحدوا أوامر الله وأحكامه ، واتبعوا الشهوات واستغرقوا فيها ؛ فما أشد المفارقة بين الفريقين .

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا . والغىّ : الشرور والضلال ، والضياع والهلاك .

٦٠ – إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا .

أى : لكن من تاب إلى الله تعالى ، وآمن به إيمانا صادقا ، وأتبع ذلك بالعمل الصالح ، فإن الله تعالى يقبل توبته ، ويدخله الجنة ، ويكافئه ويجازيه أحسن الجزاء ، ولا ينقصه شيئا من جزاء عمله .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ؛ دعوة إلى التوبة وحثا عليها ، ورأفة ورحمة ببنى آدم ، الذين أغواهم الشيطان ، ودعوة لهم أن ينتصروا على شهواتهم ، وأن يفرّوا إلى ربهم ؛ فإن بابه مفتوح بالليل والنهار ، والصباح والعشى ، يقبل التوب ويغفر الذنب ، وفى الآيات الأخيرة من سورة الفرقان ، وصف لعباد الرحمان ، ثم قال سبحانه : **وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا .** (الفرقان : ٦٨ – ٧١).

وذكرت آيات التوبة والدعوة إليها فى القرآن الكريم كثيرا فالإنسان خطاء ، والله تعالى كريم حليم لذلك يدعو عباده إلى التوبة والإنابة ، وينهاهم عن اليأس والقنوط قال تعالى : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . (الزمر : ٥٣) .

وحفلت كتب السنة النبوية ، وكتب الأحاديث القدسية ؛ بالدعوة إلى التوبة النصوح ، وحثت عليها المؤمنين ، وحذرتهم من التسويف واليأس ، ودعتهم إلى الرجاء والأمل فى وجه الله تعالى .

وفى الحديث الذى أخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود والحكيم الترمذى : عن أبى سعيد الخدرى . يقول النبى ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» [٣٦] .

وفى صحيح البخارى يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : ما تقرب عبدى إلىّ بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألنى لأعطينه» [٣٧] .

وروى الإمام أحمد فى مسنده : أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لو أتانى عبدى ليلا قبلته ، ولو أتانى نهارًا قبلته ، وإن استقالنى أقلته ، وإن استغفرنى غفرت له ، ..... ، ومن جاء إلى تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد ، ومن تعرَّف لحولى وقوتى ألنت له الحديد» [٣٨] .

★ ★ ★

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

المفردات :

جنات عدن : جنات إقامة ، وهذا وصف لها بالدوام .

بالغيب : وهى غائبة عنهم .

وعده : ما وعد به من الجنات .

مأتيا : يأتيه من وُعد به لا محالة .

لــغــــوا : فضولا من الكلام لا طائل تحته .

ســــلامـــا : من الله أو من الملائكة .

تمهيد :

لما ذكر سبحانه وتعالى : أنه يدخل التائبين الجنة ، أتبع ذلك بعدة أوصاف لهذه الجنة .

التفسير :

٦١- جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا .

إن الجنة التى وعدها للتائبين هى جنات إقامة ، وعد الرحمان عباده بها حال كون الجنة غائبة عنهم؛ لكنهم آمنوا بها وصدقوا أن وعد الله آت لا محالة ، ومن أصدق من الله حديثًا .

٦٢- لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا .

لا يسمعون فى الجنة فاحشا من القول ، ولا شيئا من فضول القول ، بل تسلِّم عليهم الملائكة ، على وجه التحية والإكرام ، ولهم ما يشتهون فى الجنة من أنواع المطاعم والمشارب ؛ بدون كد ولا تعب ولا انقطاع .

٦٣- تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا .

إن هذه الجنة التى تقدم وصفها ؛ نورثها لعبادنا المتقين ، الذين أطاعوا الله ، وابتعدوا عن معاصيه؛ فاستحقوا هذه الجنة بجدارة ؛ كأنها ميراث لهم ؛ كما قال سبحانه فى وصف المؤمنين فى أول سورة المؤمنون : أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . (المؤمنون : ١٠ ، ١١) .

★ ★ ★

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

المفردات :

الــتــنــزل : النزول وقتا غب وقت .

ما بين أيدينا : ما قدامنا من الزمان المستقبل .

ما خلفنا : من الزمان الماضى .

ما بين ذلك : هو الزمان الحاضر .

نسيا : تاركا لك ، فهو لا ينسى شيئا من أعمال العباد .

اصطبر عليها : اثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق .

سميا : شبيها ونظيرا .

تمهيد :

ذكر كثير من المفسرين كالطبرى والقرطبى وغيرهم : أن أهل مكة سألوا النبى ﷺ ثلاثة أسئلة بإيعاز من اليهود حيث قالوا لأهل مكة : اسألوه عن فتية ذهبوا فى الزمان الأول وكان لهم أمر عجب ، واسألوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، واسألوه عن الروح ، فلما سألوا النبى ﷺ عنها قال : غدا أجيبكم، ونسى أن يقول : إن شاء الله ؛ فتأخر الوحى خمسة عشر يوما ؛ حتى قال كفار مكة : إن إله محمد ودّعه وقلاه؛ فنزل قوله تعالى : مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . (الضحى : ٣) .

وأخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وجماعة : عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... [٣٩] .

قال العلماء :

ويمكن التوفيق بين الروايتين بأن الرسول ﷺ قال ذلك فى محاورته السابقة أيضًا ، واقتصر فى كل رواية على شىء مما وقع فى المحاورة .

التفسير :

٦٤- وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا .

أى : قال جبريل للنبى ﷺ : إنما أنا عبد مأمور إذا أمرت نزلت ، وإذا حُبست احتبست فالله سبحانه هو الذى يملك كل شىء وهو المدبّر لنا فى جميع الأزمنة ، مستقبلها وماضيها وحاضرها .

قال المراغى :

وقصارى ذلك : أن أمرنا موكول إلى الله تعالى ، يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته ، لا اعتراض لأحد عليه ، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان ؛ إلا بإذنه عز وجل .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا .

سبحانه لا ينسى شيئا من أعمال العباد ، وإنما ينزل الوحى عندما تقتضى حكمته أن ينزل .

٦٥- رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا .

هو الله خالق السماوات والأرض وما بينهما ، أى : خالق الكون كله بما فيه : السماء والفضاء ، والأرض وما فيها من جبال ورمال وبحار وأنهار ، ونبات وحيوان وإنسان ، ومن وجد الله وجد كل شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء .

فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ .

أى : استمر فى عبادته وداوم عليها فى إتقان وإخلاص ، وتجرد وتمعن وصبر وتحمل ، عندئذ تجد لذة العبادة ، وتتحمل كل أذى وشدة كما يقول أحد العباد : نحن فى سعادة لو عرفها الملوك لحاربونا عليها بالسيوف .

هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا .

أى : ليس له مثيل أو شريك أو مساو ؛ لأنه تعالى هو الخالق الرازق المبدئ المعيد بيده الخلق والأمر وهو يجير ولا يجار عليه .

لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

ومعنى هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا . أى : هل تعلم له نظيرًا أو شبيهًا يستحق معه المشاركة فى العبادة والطاعة؟ والجواب : كلا إنك لا تعلم ؛ لأنه سبحانه هو الخالق لكل شىء وما سواه إنما هو مخلوق له .

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

المفردات :

يـــذكـــر : يتذكر ويتفكر .

لنحشرنهم : لنجمعنهم .

جثيا : واحدهم : جاث وهو البارك على ركبتيه .

شيعة : جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه .

عتيا : تكبرا ومجاوزة للحد .

صليا : دخولا من صلى بالنار ؛ إذا قاسى حرها .

واردها : مار عليها .

حتما : واجبا .

مقضيا : قضى بوقوعه .

تمهيد :

روى الكلبى : أن هذه الآيات نزلت فى أبى بن خلف ؛ أخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويذريه فى الريح؛ ويقول : زعم فلان : أنا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ، إن هذا لن يكون أبدًا .

فنزلت هذه الآيات تناقش الفكرة وترد عليها ، وتثبت البعث والحساب والجزاء ، والنجاة للمتقين والعقوبة للظالمين .

التفسير :

٦٦- وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا .

أى : يقول الكافر الجاحد للبعث : إذا مت وصرت ترابا ، وعظما باليا ، أبعد ما يكون عن الحياة ، كيف أعود حيًّا بعد ذلك ، والاستفهام هنا استفهام استبعاد واستنكار .

وقد روى البخارى ومسلم عن خباب بن الأرت : قال كنت رجلاً قينا – أى : حدادا – وكان لى على العاص بن وائل دينار ؛ فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، أى : تموت الآن ، وتبعث أمامى ، وهذا من باب المستحيل ، قال : فإنى إذ مت ثم بعثت ؛ جئتنى ولى مال فأعطيك ؛ فأنزل الله : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا . (مريم : ٧٧).

٦٧- أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا .

أى : لقد بدأنا خلق الإنسان من لاشىء ، والإعادة أهون من البدء ، وهذا من أقصر الأدلة على البعث قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وفى أواخر سورة يس ، يستعرض القرآن هذه الشبهة من المكذِّب الجاحد ويرد عليها بإثبات أن من بدأ الخلق قادر على إعادتهم ، بل إن الإعادة أهون من البدء ، قال تعالى :

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ - ٨٣) .

٦٨- فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا .

يحشر الكفار ومعهم الشياطين الذين أغووهم .

قال المفسرون :

يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة ، والموقف هنا موقف رهيب ، حيث تعرض الآية أمام الأعين ، موقف المشركين كل كافر مع شيطانه ، وقد اشتد الهول وعظم الكرب ؛ فجثا الجميع على ركبهم حول جهنم من شدة الهول ، حين عجزوا عن الوقوف .

وقد شرح هذا الموقف فى سورة الجاثية ، حيث تجتمع كل جماعة من المشركين ، حول سجل أعمالها، وينادى عليهم : بأن اليوم هو يوم الجزاء بعذاب المهانة ، والإذلال جزاء تكبركم فى الدنيا .

قال تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٨ ، ٢٩) .

٦٩- ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا .

ثم لنستخرجن من كل طائفة ، تشايعت وتعاهدت على الكفر بالبعث والجحود للحق ، الذين هم أشد خروجا عن طاعتنا وامتثال أمرنا .

وقصارى ذلك : أن الله يحضرهم أولاً حول جهنم ، ثم يميز بعضهم عن بعض ، فمن كان أشد تمردًا فى كفره ؛ خص بعذاب أعظم ، فعذاب الضالِّ المُضل أشد وأقوى من عذاب التابع .

٧٠- ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا .

أى : نحن أعلم بعتاة المجرمين ، وبرءوس الكفر الداعين إليه ، فبدأ بالأعتى فالأعتى . وهو منظر رهيب حين يقذف بكبار المجرمين فى جهنم أمام أعين الجميع ؛ زيادة فى النكال بهم .

قال ابن مسعود : يبدأ بالأكابر جرما .

جاء فى التفسير الوسيط :

ثم لنحن أعلم من كل أحد سوانا ، بالذين هم أحق بجهنم وباصطلاء نارها ، وبالاكتواء بَحرِّها وسعيرها ؛ لأننا لا يخفى علينا شيء من أحوال خلقنا .

وقريب من هذه الآية ما ورد من عتاب المستضعفين للكبراء ؛ لأن المستضعفين كانوا تبعا للكبراء فى الدنيا ؛ فهل ينفعهم الكبراء يوم القيامة ، ويجيب الكبراء بأن العذاب سيشملنا جميعا .

قال تعالى : وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ . (غافر : ٤٧ ، ٤٨) .

وأيضًا دعوة المتكبرين للضعفاء أن يتبعوهم وسيتحملون عنهم جانبا من العذاب يوم القيامة ، ولكنهم يوم القيامة لا يحملون عن الضُّعفاء شيئا ، إنما يتحملون جزاء كفرهم ، وأثقالا أخرى مع أثقالهم قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . (العنكبوت : ١٢ ، ١٣) .

وخلاصة هذا : إنهم جميعًا يستحقون العذاب ؛ لكنا ندخلهم فى جهنم بحسب عتيهم وتجبرهم فى كفرهم ، وفى هذا جزاء عادل حيث يهان أئمة الكفر على رءوس الأشهاد ؛ جزاء عتوهم وضلالهم .

٧١، ٧٢- وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا .

قضى الله أن يمر الخلائق جميعا على جهنم ؛ حيث يشاهدها المؤمنون وهي تتلمظ غيظا على من عصى الله تعالى ، ثم يمرُّون على الصراط إلى الجنة ، أما الكافرون فيبقون فيها قاعدين على ركبهم من شدة الهول .

روى السدى : عن ابن مسعود قال : يرد الناس جميعا الصراط ، ويقومون حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم : من يمر مثل البرق ، ومنهم: من يمر مثل الريح، ومنهم من يمرّ مثل الطير، ومنهم: من يمرّ كأجود الخيل ، ومنهم: من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمرّ كعدو الرجل ... فى حديث طويل.

وقال رسول الله ﷺ : يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون بأعمالهم .

ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا .

أى : يرد الناس جميعا على الصراط ، وهو على متن جهنم ؛ فيسقط فيها من يسقط من الكفار والعصاة؛ على قدر ما اجترحوا من الآثام والذنوب ، ثم ينجى الله المتقين منها بحسب أعمالهم ، ويترك الكافرين جاثين على الركب كما جاءوا .

آراء العلماء فى دخول جهنم

للعلماء أقوال متعددة حول المراد بقوله تعالى : وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ...

قال ابن عباس :

الورود : الدخول ؛ لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخل جهنم ؛ فتكون بردًا وسلاما على المؤمنين ؛ عند دخولهم إياها ، كما كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وتكون لهيبا وسعيرا على غيرهم .

وقال ابن مسعود وقتادة :

الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط كما فى قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ... (القصص : ٢٣).
أى : أشرف عليه وقاربه، فالمؤمنون يشرفون على جهنم ويشاهدونها؛ ويقتربون منها دون أن يدخلوها .

وقد توسع المفسرون كالطبرى والقرطبى وابن كثير والآلوسى وغيرهم فى سوق أدلة كل فريق .

قال القرطبى :

وظاهر الورود : الدخول .. إلا أنها تكون بردًا وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين .

قال خالد بن معدان :

إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فيقال لهم : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا.

واختار كثير من المفسرين : أن المؤمنين يردون فيدنون ويمرون بجهنم ؛ وهى تتأجج وتتميز وتتلمظ، ويرون العتاة يُنزعون ويقذفون فيها ، ثم يزحزح المؤمنون عن النار ، وينجون منها لا يكادون ؛ ويترك الكفار يصطلون عذابها .

قال تعالى : فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥).

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

بينات : ظاهرات الإعجاز .

مقاما : مكانا ومنزلا .

نديا : مجلسا ومجتمعا ومثله النادى .

القرن : أهل كل عصر .

الأثاث : متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له .

رئيا : المنظر ، والمراد به : النضارة والحسن .

فليمدد : فليمهله بطول العمر ، والتمكن من سائر التصرفات .

جندا : أنصارا .

الباقيات الصالحات : الطاعات التى تبقى آثارها .

مردا : مرجعا وعاقبة .

تمهيد :

كان المشركون يفتخرون على المسلمين بالغنى والمال والسلطان، ويرون أن المسلمين فى فقر وشدة؛ فأجاب القرآن بأنه أهلك من الأمم السابقة ؛ من كان أحسن حالا وأفضل مظهرا ، وعند قيام القيامة سيتميز المشركون إلى جهنم ، والمتقون إلى الجنة .

التفسير :

٧٣- وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا .

إذا قرأ المؤمنون القرآن ، وشرحوا كلام الرحمان ، وعرضوا مبادئ الإسلام ؛ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ ، أنتم فى خشونة من العيش ، وقلة من المال والسلطان ، ونحن نعيش فى سعة من المال والعز والجاه والسلطان . والإله الحكيم لا يذلّ أحبابه بالفقر ، ولا يسعد أعداءه بالغنى، وغنانا هذا دليل على أننا على الحق وأنتم على الباطل ؛ فمن منا أفضل حالا وأحسن منتدى ومجتمعا ؟

قال ابن عباس :

خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا .

المقام : المنزل ، والندىّ : المجلس .

٧٤- وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا .

إن كثيرا من المكذبين لرسلهم كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم والقرون ؛ أهلكناهم بالعذاب ، وقد كانوا أكثر أموالا وأمتعة وأشكالا ، وأفخم منظرا ، وأكثر نعيما .

قال ابن عباس : الأثاث : المتاع ، والرئى : النظر .

والمقصود : ما أكثر متاعهم ؛ وما أبهى قصورهم ورياشهم ، وما أجمل ثيابهم ومناظرهم ، ولم تغن عنهم من عذاب الله شيئًا !

قال تعالى : كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ . (الدخان : ٢٥ – ٢٩) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ . (التوبة : ٥٥) .

٧٥- قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين بربهم ، المدّعين : أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل : مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ . منا أو منكم فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا . فليمهله الرحمان فيما هو فيه ، وليدعه فى طغيانه حتى يلقى ربّه ، وينقضى أجله ، وهذا غاية التهديد والوعيد .

وقصارى ذلك : إن من كان فى الضلالة فسنّة الله أن يمدّ له ويستدرجه ؛ ليزداد إثما ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ .

أى : إما بعذاب الدنيا يأتيه من حيث لا يحتسب ، وإما بعذاب فى الآخرة لا قبل له بدفعه .

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا .

أى : فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أى الفريقين ، شرّ منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصارًا ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا فى مقابلة قولهم :

أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا .

٧٦- وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا .

يزيد الله المؤمنين المهتدين هداية ، وإيمانا وبصيرة ؛ والأعمال الصالحة التى تبقى لصاحبها ذخرًا فى الآخرة ؛ خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض ، من حيث الأجر والثواب ، وَخَيْرٌ مَّرَدًّا . وخير رجوعًا وعاقبة ، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باق دائم .

وقال الشيخ الشنقيطى فى تفسير أضواء البيان :

ويظهر لى أن الكافر يجازى بعمله الصالح فى الدنيا ، مثل : صلة الرحم وبر الوالدين ؛ أما المؤمن فإن ثوابه فى الآخرة أكثر عاقبة ، وأفضل مردودًا ، وأبقى عاقبة .

وفى سنن ابن ماجة : عن أبى سلمة بن عبد الرحمان قال :

جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عودًا يابسًا فحط ورقه ثم قال : «إن قول : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله تحط الخطايا ، كما تحط ورق هذه الشجرة الريح ، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة» .

قال أبو سلمة :

فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث ، قال : لأهللن الله ، ولأكبرن الله ، ولأسبحن الله ، حتى إذا رآنى الجاهل حسب أنى مجنون [٤٠] .

★ ★ ★

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

المفردات :

أطلع الغيب : أظهر له علم الغيب ؟!

عهدا : وعدا من الله تعالى له بذلك .

كلا : كلمة زجر وتنبيه إلى الخطإ .

سنكتب ما يقول : سنسجل عليه قوله ونحاسبه عليه .

ونمد له من العذاب : سنطيله عليه ونضاعفه له .

ونرثه ما يقول : نسلبه منه فى الدنيا ، فيدخل القبر وحيدًا ، ويبعث منفردًا بدون مال أو ولد .

فردا : بدون مال أو ولد أو حشم أو خدم أو غير ذلك مما كان يفتخر به فى الدنيا .

التفسير :

٧٧- أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا .

فى صحيح البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والطبرانى وابن حبان : عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلا قينا (حدادًا) وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه ؛ فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنى إذا متّ ثم بعثت جئت ولى ثَمَّ مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا ... الآيات [٤١] .

وقال ابن عباس :

إن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل بدين ، فأتوه يتقاضونه ؛ فقال: ألستم تزعمون : أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالا وولدا ، ولأوتين مثل كتابكم الذى جئتم به ، فضرب الله مثله فى القرآن ، فنزلت الآيات [٤٢] .

ومعنى الآية :

أنظرت أيها العاقل فرأيت هذا الكافر الجاحد ؛ الذى كذب بالقرآن والبعث والرسالة ، ولم يكتف بهذا الكفر بل زعم أن : الله سيعطيه فى الآخرة المال والبنين .

٧٨- أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا .

هل اطلع على الغيب الذى تفرد به علام الغيوب ؛ أم أعطاه الله عهد بذلك فهو يتكلم عن ثقة ويقين .

٧٩- كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ...

كلا حرف ردع وزجر ، أى : ليرتدع هذا الكافر عن مقالته الشنعاء ؛ فسنسجل عليه قوله ، ونحاسبه عليه حسابا عسيرا ، ونزيده عذابا فوق عذاب فنضاعف عذابه ، ونطيل عليه جزاء طغيانه واستهزائه .

٨٠- وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا .

أى : نرثه ما جمع من الدنيا وما عمل فيها ، فيدخل القبر بالكفن فقط ، ويأتينا يوم القيامة وحيدا لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند ، ولا شىء مما كان يفتخر به فى الدنيا ، هو وأمثاله من المغرورين الجاحدين .

والآية وردت مورد الوعيد لإنسان غرّه ماله وولده ؛ فاستهزأ بالآخرة ، وادعى : أنه سيكون أكثر حظا فى الآخرة وسيؤتى المال والولد ؛ فهدده القرآن بأنه سيدخل القبر وحيدًا ، وسيبعث فريدًا بدون مال أو حشم أو خدم ، أو غير ذلك ، وسيلقى الحساب والجزاء .

★ ★ ★

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات :

العـــز : المنعة والقوة .

سيكفرون : سيجحدون .

ضـــدا : أعداء .

أزا : الأز والهز والاستفزاز : شده الإزعاج ، والمراد : الإغراء بالمعاصى ، وتحبيب الشهوات .

فلا تعجل عليهم: لا تطلب الاستعجال بهلاكهم .

إلى الرحمان : إلى دار كرامته وهى الجنة .

وفـــداً : الوفود والأوفاد ، واحدهم : وافد وهم القوم يقدمون مكرمين مبجلين راكبين .

وردا : مشاة مهانين باستخفاف واحتقار ؛ كأنهم نَعَمٌ تساق إلى الماء .

العهـــد : شهادة ألا إله إلا الله ، والتبرى من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله ؛ وقيل : العهد : المحافظة على الصلاة .

تمهيد :

تناقش الآيات شبهات المشركين ، وتبطل حجتهم ، وتعلن خسارتهم يوم القيامة ، وتذكر أن الشياطين تستدرجهم فيستجيبون لها ، ولهم أيام معدودة فى الدنيا ، ثم يأتى الجزاء فى الآخرة ، وهكذا تجمع الآيات بين الدنيا والآخرة فى أسطر معدودة ، فإذا الدنيا للعمل ؛ والآخرة للجزاء ، حيث يحشر المتقون إلى الجنة مكرَّمين مبجلين ، راكبين فى وفد الكرامة ، ويحشر الكافرون عطاشا مهانين راهبين ، لا شفيع لهم .

التفسير :

٨١- وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا .

واتخذ المشركون من قومك أيها الرسول آلهة يعبدونهم من دون الله ، ليعتزُّوا بهم ، ويجعلوهم شفعاء عند ربهم يقربونهم إليه .

فمنهم مَنْ عبد الأوثان والأصنام ، ومنهم من عبد الجن أو استجار بهم ، وطلب منهم النصرة .

٨٢- كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

ليس الأمر كما زعموا ، فإن الآلهة التى عبدوها ؛ ستتبرأ يوم القيامة ممن عبدها ، ويكونون أعداء لمن عبدهم ، ويُنطق الله من لم يكن ناطقا منهم ؛ ليتبرأ من عبادة المشركين . وتكون الآلهة المدعاة أعداء للعابدين وأعوانا عليهم .

قال تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ . (الأحقاف : ٥ ، ٦) .

وقال عز شأنه : إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر : ١٤) .

كما يتبرأ المسيح عليه السلام يوم القيامة ممَّن عبده ، أو جعله إلها ، ويقول الله تعالى : سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ... (المائدة : ١١٦ ، ١١٧).

٨٣- أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا .

كان المسلمون يتعجبون من إصرار الكافرين على الكفر ، أمام بيان القرآن ، وهداية الرسول وسماحة الإسلام . وهنا يقول للرسول ﷺ : لا تتعجب من تماديهم فى الغى ، وإنهماكهم فى الضلال ؛ فإن الشياطين تغريهم بالشر ؛ وتزين لهم العناد .

قال الإمام فخر الدين الرازى :

أى : تغريهم بالمعاصى ، وتحثهم وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات .

وقال العوفى : تحرضهم على محمد وأصحابه .

وقال قتادة : تزعجهم إزعاجا إلى معاصى الله .

وقال سفيان الثورى : تغريهم إغراء ، وتستعجلهم استعجالاً .

وقال السدى : تطغيهم طغيانًا [٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد : هذا كقوله تعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ . (الزخرف : ٣٦)

٨٤- فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا .

أى : لا تتعجل وقوع العذاب لهم ؛ فإنما نؤخرهم إلى أجل معدود .

قال السدى : إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا . السنين والشهور والأيام والساعات .

وقال ابن عباس : نعد أنفاسهم فى الدنيا ، وكان ابن عباس إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد : خروج نفسك ، آخر العدد : دخول قبرك .

وعن ابن السماك : أنه كان عند المأمون فقرأ هذه الآية ثم قال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد .

إن الحبيب من الأحباب مُختَلس	لا يمنع الموتَ بوابٌ ولا حرسُ
وكيف يفرح بالدنيا ولذتها	فتًى يُعَدّ عليه اللفظ والنَّفسُ

وقال شوقى :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانٍ

٨٥- يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا .

أى : واذكر أيها الرسول لقومك : تكريم الله للمتقين يوم القيامة ؛ حيث يحشرون فى وفد التكريم والإجلال ، يركبون مراكب العزّ والعظمة ؛ حتى يدخلون جنة الرحمان مكرمين معززين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مرزوق قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحا ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك ، وحسّن وجهك، فيقول : أنا عملك الصالح ، وهكذا كنت فى الدنيا حسن العمل ، طيبه ، فطالما ركبتك فى الدنيا ، فهلم اركبنى فيركبه ؛ فذلك قوله تعالى : يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا .

وقال قتادة : إلى الجنة .

وقال على فى هذه الآية : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة [٤٤] .

٨٦- وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا .

ونسوق الكافرين بالله إلى جهنم مشاة ، قد تقطعت أعناقهم من العطش ، فهم كالدواب التى ترد الماء، وأصل الورد : الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه ؛ بعد العطش الشديد ، وشتان بين تكريم وفد المؤمنين ، وإهانة ورد الكافرين .

٨٧- لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا .

أى : لا يشفعون ولا يشفع لهم غيرهم ، لكن من اتخذ عند الرحمان عهدًا ؛ وهم المؤمنون الصادقون ؛ فإنهم يملكونها بتمليك الله تعالى لهم إياها ، وإذنه لهم فيها ، كما قال تعالى :

مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وكما قال سبحانه : وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ . (النجم : ٢٦) .

وقال ابن كثير في تفسير الآية :

أي : ليس لهم من يشفع لهم ، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبرا عنهم :

فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . (الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١) .

وقوله : إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا . هذا استثناء منقطع بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمان عهدًا؛ وهو شهادة : أن لا إله إلا الله والقيام بحقها .

قال ابن عباس :

العهد : (شهادة أن لا إله إلا الله) ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل ، وقال ابن أبي حاتم : عن الأسود بن يزيد ، قال : قرأ عبد الله ابن مسعود هذه الآية : إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا . ثم قال : اتخذوا عند الله عهدًا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمان فعلمنا ، قال : قولوا : اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، أنك إن تكلني إلى عملي يُقربني من الشرِّ ، ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا تؤديه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد .

قال المسعودي : وكان يلحق بهن : خائفًا مستجيرًا مستغفرًا راهبًا راغبًا إليك [٤٥] .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «من جاء بالصوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها ، لم ينتقص منها شيئًا ؛ جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئا فليس له عند الله عهد إن شاء رحمه وإن شاء عذبه» [٤٦] .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

جئتم : فعلتم .

إدا : (بكسر الهمزة وفتحها) المنكر العظيم والإدّة : الشدة ، يقال : أدَّنى الأمر وآدنى : أثقلنى وعَظُم علىَّ.

التفطر: التشقق .

تخر: تسقط وتنهدم .

دعوا: نسبوا وأثبتوا .

عبدا: منقادا خاضعًا كا يفعل العبيد .

أحصاهم : عدّهم وأحاط بهم .

عدا: عد أشخاصهم .

فردا: منفردًا لا شيء معه من الأنصار والأتباع .

التفسير :

٨٨- وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا .

تأتى هذه الآيات فى الردّ على اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركين الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا .

لما قرر سبحانه وتعالى فى هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر: خلقه من مريم بلا أب ، شرع فى الإنكار على من زعم أن لله ولدًا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وتحدثت الآيات عن فظاعة هذا العدوان الذى يرتجف له ضمير الكون ، وتنشق من هوله السماء والأرض، وتميد الجبال ؛ فالكون كله خاضع لله تعالى خضوع القهر والغلبة ؛ يحس بهذا العدوان من بنى آدم؛ ويغضب ويرتجف ، كما يرتجف كل عضو فى الإنسان عندما يغضب .

٨٩- لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا .

لقد جئتم أيها القائلون بمقالتكم هذه أمرا منكرا فظيعًا . روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تبارك وتعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد» [٤٧] .

٩٠- تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا .

لقد فزعت من هول الشرك السماوات والأرض والجبال وغضب الكون كله ، فالكون كله خاضع لله خضوع القهر والغلبة ، وحين قال الله للسماوات والأرض : ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . (فصلت : ١١) ، أى : أظهرنا من الخضوع لأمر الله والطاعة والامتثال، بحيث لو نطق لسان حالهما لقال : أتينا طائعين ، أو تكلمنا بلسان التسبيح والحمد والطاعة كما قال سبحانه : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

فالكون خاضع لله تعالى مطيع لأمره ، وهو يغضب حين يتطاول الإنسان على ربه ؛ ويدَّعى : أن له ولدًا ؛ والله سبحانه غير مشابه للحوادث ، فالولد يقتضى الجسمية ومشابهة الحوادث ، والله منزه عن ذلك .

لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

وفى الصحيحين : عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، أن يشرك به ، ويجعل له ولد ، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم» [٤٨] .

وفى رواية أخرى : «إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم» .

ونقل ابن كثير عن ابن جرير : أن رسول الله ﷺ قال : «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله فمن قالها عند موته ؛ وجبت له الجنة» قالوا : يا رسول الله ، فمن قالها فى صحته ؟ قال : «تلك أوجب وأوجب» ، ثم قال: «والذى نفسى بيده لو جىء بالسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضِعْن فى كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى لرجحت بهن» [٤٩] .

٩١- أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا .

أى : من أجل أنهم نسبوا إلى الله : اتخاذ الولد .

٩٢- وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا .

أى : لا يصلح له ، ولا يليق به ؛ لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له.

٩٣- إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا .

أى : ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، ينقاد لحكمه ، ويلتجئ إليه حين الحاجة ويخضع له خضوع العبد لسيده .

٩٤- لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا .

أى : قد علم عددهم ، منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، ذكرهم وأنثاهم ، وصغيرهم وكبيرهم ، فهم جميعا تحت أمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ولا يفوته شىء منها .

٩٥- وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا .

وجميع الخلائق قد حشرت فى ذلك اليوم ، وكل فرد يقول : نفسى نفسى ! وقد أحاط الجبار بهم علما فما يستطيع أحد الفكاك من قبضته ، أو الهروب من الحساب ؛ بل يحشر كل إنسان وحيدا بلا مال ولا أتباع؛ ولا حشم ولا خدم ، ولا ناصر ولا مجير ؛ إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم فى خلقه بما شاء ، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم ربك أحدا .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

المفردات :

الـــــود : المودة والمحبة .

بلسانك : بلغتك .

الــلــد : واحدهم : ألدّ ، وهو الشديد الخصومة .

ركــــزا : صوتا خفيا .

تمهيد :

تختم السورة ببيان : منزلة المؤمنين ، ومودة الرحمان لهم ، وبيان : أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله ، يبشر المتقين ، وينذر الكافرين ، وأن الله قد أهلك العديد من القرون المكذبة ؛ فهلكت وبادت ، لا تسمع لها صوتا ولا ترى لها أثرا .

التفسير :

٩٦- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا .

تبشر هذه الآية المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة : أن الله تعالى ينشر محبتهم فى قلوب

العباد ، وينزل الله رحمته على عبده الصالح ، ويزرع الحب والمودة والألفة فى قلوب الناس له ، فترى العبد محبوبا عند الناس ، مرضيا عنه فى الملإ الأعلى .

روى الشيخان والإمام أحمد : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «إن الله إذا أحب عبدًا؛ دعا جبريل فقال : يا جبريل ، إنى أحب فلانا فأحبه – قال :– فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء ، إن الله يحب فلانا فأحبوه – قال :– فيحبه أهل السماء ؛ ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبدا؛ دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه – قال :– فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه – قال :– فيبغضه أهل السماء ؛ ثم يوضع له البغضاء فى الأرض» [٥٠] .

وروى مسلم والترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح وابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «إذا أحب الله عبدًا ؛ نادى جبريل : إنى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم يُنزل له المحبة فى أهل الأرض ، فذلك قوله الله عز وجل : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا».

قال مجاهد : وُدًّا : محبة فى الناس فى الدنيا .

وقال سعيد بن جبير : يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه المؤمنين .

وعن ابن عباس : الودُّ من المسلمين فى الدنيا ، والرزق الحسن واللسان الصادق .

وقال هرم بن حيان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله ، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وكان عثمان رضى الله عنه يقول : ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًّا ؛ إلا كساه الله عز وجل رداء عمله [٥١].

٩٧– فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا .

لقد يسرنا نزول القرآن بلسان عربى مبين ، ويسرنا حفظه وتلاوته وفهمه ، وقربناه إلى المؤمنين؛ لتبشِّر به المتقين بالجنة ، فتسدد خطاهم ، وتشد أزرهم ، وتعلمهم بمكانتهم عند الله فى الدنيا ، وبمنزلتهم فى الجنة فى الآخرة .

وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا . عتاة ظالمين، أشداء فى الخصومة، يجادلون بالباطل ويصمُّون آذانهم عن سماع الحق.

قال تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ . (البقرة : ٢٠٤).

أى : أشد الناس خصومة وجدالا بالباطل . وقد أنزل الله القرآن الكريم بلسان عربى مبين ، وقد جمع الله به شتات العرب ، وأحيا ذكرهم ، ورفع شأنهم .

قال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وقال عز شأنه : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . (القمر : ١٧) .

وقال تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (الدخان : ٥٨) .

فالقرآن وحى السماء ، والرسول مبلغ يقرأ القرآن بلسانه العربى المبين ، ويبلغه لقومه ويؤدبهم بآدابه فيخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ فما أعظم أن ييسر الله وحيه ، ويختار له الرسول والأمّة والمؤمنين، وبذلك يحق القول على الكافرين .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا .

وقد مدح الله الوحى ، ومدح الرسول ، ومدح الأمة ، التى استجابت لهذا الوحى ، وسيظل هذا الوحى روح الأمة ، وباب سعادتها ، وسبيل عزتها ، وباعث نهضتها قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا... (الشورى : ٥٢) .

٩٨- وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا .

لقد أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة ، التى كذبت رسلى ؛ فأغرقنا قوم نوح وقوم فرعون ، وأهلكنا عادًا وثمودَ وقوم لوط . وهذه الأمم التى بادت وهلكت بغضب لها ؛ كانت ملء السمع والبصر ، لها تحرك وقوة وقدرة فوق الأرض ، والآن بادت وأصبحت رميما تحت التراب ؛ لا ترى العين أحدًا من أهلها ، ولا تسمع لأحدهم صوتا خافتًا . إنهم فى صمت القبور .

وبهذا الختام يشخص القرآن الكريم أمام العين أممًا أقوى من كفار مكة كانوا يتحركون وينبضون بالحياة والأمانى والمشاعر ، ثم إذا الصمت يُخيّم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار ، لا حسّ ، لا حركة ، لا صوت .

هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ . انظر وتلفت .

أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا . تسمع وأنصت .

ألا إنه السكون العميق ، والصمت الرهيب ، وما من أحد إلا الواحد الحى الذى لا يموت [٥٢] .

★ ★ ★

خلاصة لما اشتملت عليه سورة مريم

١ – دعاء زكريا لله : أن يرزقه ولدًا .

٢ – استجابة الله لدعائه ، وبشارته لزكريا بولد اسمه : يحيى .

٣ – صفات يحيى وهى القوة فى الدين ، والحكمة فى الصبا ، والحنان والتقى ، وبر الوالدين والبعد عن التجبر والمعصية .

٤ – قصة مريم وحملها بعيسى ، ونطق عيسى فى المهد ، والرد على من اتخذ عيسى إلها .

٥ – معجزات عيسى ، واختلاف النصارى بشأنه .

٦ – قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ، واعتزاله لقومه ، ثم هبة الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب .

٧ – جانب من قصة موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام .

٨ – جبريل لا ينزل إلى الأنبياء إلا بإذن ربه .

٩ – الإخبار : بأن جميع الخلائق ترد على النار يوم القيامة ، ثم ينجى الله المؤمنين إلى الجنة ، ويترك الكافرين فى جهنم .

١٠– النّعى على المشركين باتخاذ الشركاء ، وفى يوم القيامة سيكون الشركاء أعداء لمن عبدوهم من دون الله .

١١– التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة ، وسوق المجرمين إلى دار الخزى والهوان .

١٢– النعي الشديد على من ادعى : أن لله ولدًا .

١٣– أنزل الله القرآن بلسان عربى مبين ؛ ليبشر المتقين ، وينذر العتاة الظالمين .

★ ★ ★



تفسير سورة طه

أهداف سورة طه

نزلت سورة طه بعد سورة مريم ، وقد نزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء ، فيكون نزول سورة طه فى ذلك التاريخ أيضًا . أى : بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة من البعثة .

وفى المصاحف المطبوعة بالقاهرة : سورة طه مكية إلا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان ، وآياتها ١٣٥ آية ، نزلت بعد مريم .

وقال الفيروزبادى : السورة مكية إجماعًا ، وكلماتها ١٣٤١ كلمة ولها اسمان : طه ؛ لافتتاح السورة بها ، وسورة موسى ؛ لاشتمالها على قصته مفصلة .(٥٣) .

معنى طه :

قيل : معناها : يا رجل ، وقيل : معناها : يا إنسان ، وقال آخرون : هى اسم من أسماء الله وقد أقسم الله به ، وقال آخرون : هى حروف مقطعة مكونة من الطاء والهاء يدل كل حرف منها على معنى واختلفوا فى ذلك المعنى اختلافهم فى آلمص وقد ذكرنا ذلك فى التعريف بسورة الأعراف ، قال ابن جرير الطبرى: والذى هو أولى بالصواب عندى من الأقوال فيه قول من قال : معناها : يا رجل ؛ لأنها كلمة معروفة فى عك فيما بلغنى وأن معناها : يا رجل .(٥٤) .

وقيل : أصله طأها على أنه أمر لرسول الله بأن يطأ الأرض بقدميه فإنه كان يقوم الليل حتى ورمت قدماه من طول القيام . وقد أبدلت الألف من الهمزة، والهاء كناية عن الأرض .(٥٥) .

والمعنى : طإ الأرض بقدميك يا محمد ، وهون على نفسك فى القيام وارأف بنفسك ؛ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به تعبا ، بل لتسعد به وتذكر به الناس .

أهداف السورة

من أهداف سورة طه :

تيسير الأمر على رسول الله ﷺ وبيان : فضل الله الواسع على رسله وأصفيائه وبيان وظيفة الرسول وحصرها فى الدعوة والتذكرة والتبشير والإنذار ، ثم ترك أمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذى لا إله غيره ، المهيمن على ظاهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها ، الذى تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم .. فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ، ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

ثم تعرض السورة قصة موسى من حلقة الرِّسالة إلى حلقة اتخاذ بنى إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر مفصلة مطولة ، وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى ، وموقف الجدل بين موسى وفرعون وموقف المباراة بين موسى والسحرة .. وتتجلى فى غضون القصة رعاية الله لموسى الذى صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ، وقال له ولأخيه : لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . (طه : ٤٦) .

ثم تعرض السورة قصة آدم سريعة قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته ، وهدايته له ، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بقصة آدم مشاهد القيامة ، وكأنما هى تكملة لما كان أول الأمر فى الملإ الأعلى من خلق آدم ؛ حيث يعود الطائعون من ذريته إلى الجنة ، ويذهب العصاة من ذريته إلى النار ؛ تصديقا لما قيل لأبيهم آدم وهو يهبط إلى الأرض بعد خروجه من الجنة .

ونلحظ أن السياق يمضى فى هذه السورة فى شوطين اثنين :

الشوط الأول : يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول ﷺ : مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ . (طه : ٢ ، ٣) .

ثم تتبعه قصة موسى نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم فى رعايته .

والشوط الثانى : يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران فى اتجاه مطلع السورة وقصة موسى. ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله .. ظل علوى جليل تخشع له القلوب ، وتسكن له النفوس ، وتعنو له الجباه .. إنه الظل الذى يخلعه تجلى الرحمان على عبده موسى بالوادى المقدس . فى تلك المناجاة الطويلة ، والليل ساكن وموسى وحيد ، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل .. وهو الظل الذى يخلعه تجلى القيوم فى موقف الحشر العظيم : وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٨) .

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا . (طه : ١١١) .

والإيقاع الموسيقى للسورة كلها يستطرد فى مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة فى القافية كلها تقريبًا .[٥٦]

قصة موسى فى القرآن

بدأت سورة طه بمقدمة مؤثرة عن القرآن وعن صفات الله وأسمائه الحسنى ، ثم قص الله على رسوله حديث موسى . نموذجا لرعايته للمختارين ؛ لحمل دعوته وقصة موسى هى أكثر القصص ورودا فى القرآن . وهى تعرض فى حلقات تناسب السورة التى تعرض فيها وجوها وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن فى سورة البقرة وسورة المائدة وسورة الأعراف وسورة يونس وسورة الإسراء . وسورة الكهف وذلك غير الإشارات إليها فى سور أخرى .

وما جاء منها فى المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بنى إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون فيها ؛ لأن فيها قوما جبارين .

وفى سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة ، حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة وقد سبق الحديث عنها فى دروس من سورة الكهف بعنوان : قصة موسى والخضر .

فأما فى البقرة والأعراف ويونس وفى هذه السورة – طه – فقد وردت منها حلقات كثيرة ولكن هذه الحلقات تختلف فى سورة عنها فى الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة . كما يختلف الجانب الذى تعرض منه تنسيقا له مع اتجاه السورة التى يعرض فيها .

فى البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه فى الملإ الأعلى ... فجاءت قصة موسى وبنى إسرائيل ؛ تذكيرا لبنى إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه ، واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم، وإطعامهم المن والسلوى . وذكرت عدوانهم فى السبت وقصة البقرة ، وفى الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة . وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل ، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين ، وفى يونس سبقها عرض مصارع المكذبين ، ثم عرض منها حلقات ثلاث : حلقة الرسالة ، وحلقة السحرة ، وحلقة غرق فرعون .

أما هنا فى سورة طه فقد كان مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة ، وتتضمن نماذج من رعاية الله لموسى فى طفولته وشبابه ورجولته ، وتثبيته وتأييده وحراسته وتعهده .

قصة موسى فى سورة طه

ولد موسى فى مصر ونما وترعرع فى بيت فرعون ثم قتل قتيلا خطأ فخرج هاربا إلى أرض مدين وهناك تزوج بنت نبى الله شعيب ومكث فى أرض مدين عشر سنين . ثم عاد بأهله إلى مصر .

وفى الطريق أدركته عناية الله ومن الله عليه بالرسالة والعناية .. وناداه . إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ . (طه : ١٢ ، ١٣) .

وهذا الوحى يتعلق بثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالواحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة وهى أسس رسالة الله الواحدة . ومن نداء الله لموسى . إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ . (طه : ١٤ ، ١٥) .

وخص الله موسى بمعجزات ظاهرة ، وآيات باهرة ؛ أمره الله أن يلقى عصاه فألقاها فإذا هى حية تسعى ، نمت وعظمت حتى غدأت فى جلادة الثعبان ، وضخامة الجان[٥٧] . لمحها موسى فاشتد خوفه فناداه الله : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ . (طه : ٢١) .

ثم أدخل موسى يده تحت إبطه فخرجت بيضاء بياضا يغلب نور الشمس ليس فيها بهاق أو برص أو مرض وتمت لموسى معجزتان هما اليد والعصا ، فرأى آيات الله الكبرى ، واطمأن للنهوض بالتبعة العظمى.

أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون رسولا وداعيا إلى الهدى ومبشرا بالجنة لمن أطاع الله وبالنار لمن عصاه .

فطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره وأن ييسر له أمره وأن يحل حبسة لسانه ؛ ليفقه الناس قوله وأن يمن الله عليه بمعين من أهله هو أخوه هارون .

واستجاب الله دعاء موسى وحباه بفضل زائد وذكره بأفضاله عليه صغيرا وناشئا حيث نجاه عندما قتل قتيلا خطأ وألقى عليه المحبة ورباه برعايته وصنعه بعين عنايته .. قال سبحانه : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ . (طه : ٣٩) .

وكانت عناية الله معه فى شبابه حين نجاه من كيد أتباع فرعون ، وكانت عناية الله معه فى رحلته إلى أرض مدين ثم فى عودته إلى أرض مصر على موعد وتدبير إلهى .. قال تعالى : وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ * وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى . (طه : ٤٠ ، ٤١) .

وكلف الله موسى أن يذهب مع أخيه هارون إلى فرعون بعد أن طغى فرعون وتجبر ؛ ليقولا له قولا لينا لا يهيج الكبرياء الزائف ولا يثير العزة بالإثم ، لعل قلبه أن يتعظ أو يتذكر .

أدلة موسى على وجود الله

توجه موسى وهارون إلى فرعون ؛ ليبلغاه رسالة الله رب العالمين .

فقال فرعون : فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ . (طه : ٤٩) .

فأجاب موسى : رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . (طه : ٥٠) .

وهى إجابة تلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها ، وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها .

وثنى فرعون بسؤال آخر : قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ . (طه : ٥١) .

ما شأن القرون التى مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا ؟

وأجاب موسى : إن علمها عند الله الذى لا تخفى عليه خافية وقد سجل عملها فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وقد تفضل الله على الناس بالنعم المتعددة ؛ فمهد لهم الأرض وذلل سبلها، وأنزل الماء من السماء؛ فأجرى به نهر النيل وغيره من الأنهار؛ ليخرج بالماء أزواجا متعددة من النباتات يستفيد منها الإنسان والحيوان ، وقد خلق الإنسان من الأرض ، ثم رزق من نباتها ومائها ، ثم يعود إليها ، ثم يبعث منها يوم القيامة .

عرض موسى هذه الآيات الكونية أمام فرعون وأراه المعجزات الظاهرة الملموسة من اليد والعصا .

ولكن فرعون قابل هذه المعجزات الواضحة ، والحجج البالغة ، بالجحود والكنود وأخذ فرعون يكيل التهم لموسى ، ويسفه دعوته ويصفه بالطمع فى الملك ، ويصف معجزاته بأنها سحر ظاهر مبين .

موسى والسحرة

توعد فرعون موسى بأن يجمع له السحرة من كل مكان ؛ ليبطلوا سحره ويظهروا عجزه . وقبل موسى التحدى، وحدد يوم العيد واجتماع الناس فى زينتها الجديدة موعدا للمبارزة ؛ حتى يشيع الحق ويظهر ظهور الشمس .

وجمعت السحرة فى يوم العيد، ولم يتخلف واحد منهم، فإذا بهم آلاف مع كل واحد منهم حبل وعصا وخيروا موسى قائلين : إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . (طه : ٦٥) .

فترك لهم موسى فرصة البدء واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة .

فتقدم السحرة وألقوا ما فى أيديهم من حبال فتحركت الحبال وماجت بها الساحة وسحرت عيون المشاهدين وملأتهم بالرهبة والإجلال لهذا العمل العظيم .

وخشى موسى أن يخدع الناس عن الحق وأدركه خوف الداعية على دعوته ؛ فذكره الله بأن معه قوة كبرى، وبأنه على الحق وعدوه على الباطل، وبأنه رسول مؤيد بالمعجزة، وعدوه ساحر مضلل مخادع .

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ . (طه : ٦٨، ٦٩) .

وألقى موسى عصاه فابتلعت أعمال السحرة فى سرعة مذهلة وأدرك السحرة أن عمل موسى ليس سحرا ولكنه معجزة وبرهان من الله على صدق رسالته، فإذا بهم يخرون لله ساجدين ؛ توبة عما صنعوا، وخشوعا لهيبة الحق، وإكبارا لذلك الأمر الخطير، وإيمانا بالله رب العالمين .

وعندئذ غلت مراجل الحقد والحفيظة فى صدر فرعون، ولام السحرة على إيمانهم بموسى، قبل أن يأذن لهم، وقال : إنه أستاذكم وكبيركم الذى علمكم السحر، فاتفقتم معه على فعلكم ومؤامرتكم : فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ . (طه : ٧١) .

ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان، كان نور الإيمان قد تخلل صدورهم فوصلهم بخالقهم فزهدوا فى عرض الدنيا وسلطانها، وتطلعت قلوبهم إلى مرضاة الله، وفضلوا ثواب الآخرة على كل ما عداه وقالوا : إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (طه : ٧٣) .

غرق فرعون ونجاة موسى

استمر موسى فى أداء رسالته وقيامه بواجب دعوته، وقد اشتد إيذاء فرعون وأتباعه للمؤمنين فاستغاثوا بموسى، فخرج موسى بهم ليلا إلى الأرض المقدسة وقد سهل الله إليها طريقهم، واعترض البحر سبيلهم فاستغاثوا بموسى قائلين : البحر أمامنا وفرعون وراءنا ! فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فضربه بعصاه فتولت قدرة الله أن تيسر لهم فى البحر اثنى عشر طريقا يابسا ممهدا للسير فسار كل

فريق فى طريق وحفظتهم عناية الله من فرعون ، وحين حاول فرعون اللحاق بهم أطبقت عليه وعلى جنوده مياه البحر وأدركهم الغرق والهلاك . ونجى الله المؤمنين ، وأذل الكافرين . وجعل من ذلك عظة وعبرة لمن اعتبر ، فمن آمن بالله وجاهد فى سبيله ؛ كان فى كنف الله ورعايته ، ومن كفر بآيات الله وخرج عن طريق هدايته ؛ أعد الله له العذاب والنكال . ونظر بنو إسرائيل فى دهشة إلى مصرع الجبابرة العتاة ، ثم نجى الله فرعون ببدنه ؛ ليكون آية لمن خلفه ، ودليلا على أن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

موسى والسامرى

ترك موسى قومه وذهب لميعاد ربه عاجلا مشتاقا لمناجاة ربه وانتهز السامرى الفرصة فصنع لبنى إسرائيل عجلا من الذهب بطريقة فنية تجعل الريح تمر فيه فتحدث صوتا وخوارا .

وقال لهم : إن موسى لن يعود إليكم ؛ لقد ذهب لمقابلة ربه فضل الطريق إليه ، وهذا هو إلهكم وإله موسى ؛ وفتن بنو إسرائيل بعبادة العجل ، فقد ألفوا الذل وطاعة فرعون .

وعاد موسى غضبان أسفا يلوم هارون على تباطئه عن إخماد هذه الفتنة فاعتذر هارون بأنه صبر حتى يعود موسى فيلتئم الشمل وتعود الوحدة إلى الجماعة .

وتوعد موسى السامرى بالعذاب والنكال وأمر بطرده من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا هو وأهله إلى البرارى ثم أتى موسى بالعجل فحرقه بالنار ، ونسف رماده فى اليم ؛ ليبين لقومه أن مثل هذا لا يصح أن يتخذ إلها : إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا . (طه : ٩٨) .

مشاهد القيامة وختام السورة

بدأت سورة طه بمقدمة فى بيان : جلال الله وقدرته وعلمه الواسع فى الآيات من ١ – ٨ .

ثم تحدثت عن رسالة موسى وجهاده فى مصر ، وجهوده مع بنى إسرائيل فى الآيات من ٩ – ٩٨ .

وبعد قصة موسى تجىء الآيات ٩٩ – ١١٤ تعقيب على هذه القصة ببيان : فضل القرآن ، وعاقبة من يعرض عنه ، وترسم الآيات هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة ، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ، وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخشع الأصوات للرحمان ، وتعنو الوجوه للحى القيوم ، لعل هذا المشهد وما فى القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى فى النفوس ، ويذكرها بالله ويصلها به . وينتهى هذا المقطع بإراحة بال الرسول ﷺ من القلق من ناحية القرآن الذى ينزل عليه ، فلا يعجل فى ترديده ؛ خوف أن ينساه ، ولا يشقى بذلك فالله ميسره وحافظه إنما يطلب من ربه أن يزيده علما .

وبمناسبة حرص الرسول ﷺ على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحى خشية النسيان ، تعرض الآيات ١١٥ – ١٢٣ نسيان آدم لعهد الله وتنتهى بإعلان العداوة بينه وبين إبليس وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . وترسم الآيات هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التى بدأت فى الملإ الأعلى، ثم تنتهى إلى هناك مرة أخرى ... وفى ختام السورة تسلية للرسول ﷺ عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع فى الحياة الدنيا فهو فتنة لهم ، وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن ولقد هلكت القرون من قبلهم ، وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير ، فلينفض يده من أمرهم ، وليعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير فليتربصوا هم كيف يشاءون : ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ * قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾
(طه : ١٣٤ ، ١٣٥)

وبذلك تختم السورة التى حددت وظيفة القرآن فى بدايتها : ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ .

وأكدت هذه الوظيفة فى نهايتها فهى التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة والعاقبة بيد الله .

وقد كانت قصة موسى ونهاية فرعون فى خلال السورة تحقيقا لهذا المعنى وتأكيدا لفوز المؤمنين ومصرع المكذبين ، وبذلك يتناسق المطلع والختام وتكون السورة أشبه بموضوع له مقدمة ، ثم قصة تؤيد المقدمة ، ثم خاتمة تؤكد الموضوع . وظهر أن بين أجزاء السورة وحدة فكرية خلاصتها : شمول فضل الله ورحمته وعطفه لأحبابه المؤمنين ، وإيقاع نقمته وعذابه بالكافرين والمكذبين .

★ ★ ★

سورة طه

سورة طه سورة مكية إلا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فمدينتان وآياتها ١٣٥ آية نزلت بعد سورة مريم .

وغرض السورة : تركيز العقيدة ، والدعوة إلى التوحيد ، والإيمان بالنبوة وبالبعث ، وفى بدايتها بيان: فضل الله على محمد ﷺ ، ثم قصة موسى من حلقة الرسالة ، وحلقة إيمان السحرة ، ومناقشة فرعون ، وحيل السامرى وضلاله ، ثم حلقة من قصة آدم عليه السلام ، ثم عرض مشاهد القيامة .

وأسلوب السورة سهل رضى رخى ، وتنتهى الآيات بالألف اللينة فى انسياب وفضل من الله على أنبيائه ورسله .



﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

لتشقى : لتتعب وتنصب .

تذكرة : تذكيرا وعظة .

يخشى : يخاف الله .

العلى : واحدها : العليا مؤنثة الأعلى ، مثل : الكبرى مؤنثة الأكبر .

العرش : سرير الملك ، ويراد به فى لسان الشرع : مركز تدبير العالم .

استوى : استولى عليه .

قال الشاعر :

استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

الــــــــثرى: التراب النديّ ، والمراد به هنا : مطلق التراب .

أخـــــفـــــى: يعلم الله ما هو أخفى من السر ، وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوه به بحال .

الأســــمــــاء: الصفات .

الحســــنــــى: مؤنثة الأحسن .

التفسير :

١ – طـه .

هذه الحروف المقطعة فى فواتح السور للعلماء فيها رأيان رئيسان :

الأول : أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه .

الثاني : أن لها معان وتعددت آراء العلماء فى معانيها :

(أ) قيل : هى أدوات للتنبيه كالجرس الذى يُقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة فهى مثل ألا الاستفتاحية .

(ب) قيل : حروف للتحدّى والإعجاز ، وبيان : أن القرآن مركب من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله .

(جـ) وقيل : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

(د) وقيل : هى علامة على انتهاء سورة وابتداء أخرى .

وقال ابن عباس : طه . معناها : يا رجل .

وقال آخرون : هى اسم للرسول محمد ﷺ .

وقيل : معناها : طإ الأرض بقدميك .

٢ – مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ .

القرآن رحمة ونعمة ، وتذكرة وروح وحياة ، وصلة بالملإ الأعلى .

وكان الرسول ﷺ حريصا على هداية قومه ، ودعوتهم إلى الإيمان ، وكلما أعرضوا عن الإسلام حزن وتألم ؛ فناداه الله ، وبيّن أنه أنزل القرآن للتبليغ والتذكير . أمَّا الهدى فبيد الله تعالى ؛ فلا تحزن عليهم ، ولا تفرط فى الأسى على كفرهم وعنادهم ؛ قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

وروى: أن رسول ﷺ، لما نزل عليه القرآن صلَّى هو وأصحابه فأطال القيام، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى؛ فنزلت هذه الآية.

والشقاء يأتي في اللغة بمعنى: التعب، والعناء، ومنه المثل العربي (أشقى من رائض مهر) أي: أتعب من مروض المهر ومعلمه حتى يذلل للركوب.

ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقصارى معنى الآية:

إنا أنزلنا عليك القرآن لتذكِّر به، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك كفره، إن عليك إلا البلاغ، ولست عليهم بمسيطر. وفي الآية إيناس وتسليه وحنان للرسول ﷺ مما كان يعانيه، من جحود قومه وعنادهم؛ وقريب من معناها قوله تعالى: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ... (البقرة: ٢٧٢). إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ... (الشورى: ٤٨). فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ...(الغاشية: ٢١، ٢٢).

٣ - إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ.

أي: ما أنزلنا القرآن إلا عظة لمن رق قلبه، وأضاءت بصيرته بنور القرآن فاستجاب له.

قال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح» قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: «نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» ثم تلا قوله تعالى: أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ. [٥٨] (الزمر: ٢٢).

٤ - تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى.

نُزِّل القرآن تنزيلا من إله عظيم خلق الأرض وما عليها، والسماوات العلى، المرتفعة العلياء. وما يستطيع خلق هذه السماوات العلى، وحفظها ملايين السنين سوى الإله الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

والعُلَى جمع العُليا؛ مثل: كبرى وكُبَر، وصُغرى وصُغَر، وعُلْيا وعُلَى.

٥ - ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ.

الله سبحانه هو المهيمن على الكون كله، والمبدع لنظامه. والاستواء على العرش كفاية عن غاية السيطرة والاستعلاء، والإمساك بنظام الكون. وقد ذكر العرش في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية، وقد

ذهب سلف الأمة ، ومنهم الأئمة الأربعة ، إلى أن هذه الآية صفة لله تعالى بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ؛ لاستحالة اتصافه تعالى بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه تعالى عما لا يليق به ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . (الشورى : ١١) . وأنه يجب الإيمان بهذه الآيات كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إليه تعالى .

أما الخلف فقد أوّلوا هذه الآيات بمعان تليق بذات الله تعالى . فقالوا : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ . أي: استولى وسيطر وهيمن وأبدع ونظّم مُلْك هذا الكون بلا خلل ولا اضطراب .

٦ - ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ .

الله تعالى له ما في الوجود كله ، والمشاهد الكونية في القرآن تستخدم لإبراز معنى الملك والإحاطة والتدبير ؛ في صورة يدركها التصور البشرى والأمر أكبر من ذلك جدًّا ، فللَّه ما في الوجود كله ، وهو الملكُ والمالك لكل شيء .

فجميع ما في الكون ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ومشيئته ، وإرادته وحكمه ، وهو خالق ذلك ومالكه ، وإلهه لا إله سواه[٥٩] .

وهذا الكون أكبر مما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وقال المفسرون :

له سبحانه ما في الوجود كله ، السماوات السبع ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات ، وما تحت التراب من معادن ومكنونات ، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه .

٧ - ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ .

فملكه لجميع ما في الكون ، وعلمه شامل للجهر والسرّ ، وما هو أخفى من السرّ كخطرات النفس ، وأسرار الغد وما بعده الذي لا يعلمها العبد في يومه . سبحان من أحاط بكل شيء علما !

٨ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ .

ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية ، لا معبود بحق سواه ؛ فيجب أن يخلص الخلق له العبادة والطاعة ، ولا أحد غيره يستحق ذلك ، وهو صاحب الأسماء الحسنة ، الفضلى والعظمى ؛ لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم ، والنهاية في السمو والكمال ، والحكمة والسداد . وفي صحيح البخاري ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسمًا ، من أحصاها ؛ دخل الجنة»[٦٠] .

★ ★ ★

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

الحديث : كل كلام يبلغ الإنسان ، من جهة السمع أو الوحى ، فى يقظته أو فى منامه .

المكث : الإقامة .

آنست : أبصرت .

آتيكم : أجيئكم .

بقبس : بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه .

هدى : هاديًا يدُلنى على الطريق .

طوًى (بالضم) منونًا : اسم لذلك الوادى .

اخترتك : اصطفيتك .

لذكرى : لتكون ذاكرًا لى .

أكاد أخفيها : أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها .

هواه : ما تهواه نفسُه .

فتردى : فتهلك .

تمهيد :

تأتى قصة موسى ، بعد مطلع سورة طه ، وفى هذا المطلع بيان : لعظمة الحق سبحانه ، وعظيم ملكه وسلطانه ، وفى قصة موسى جانب من هذا الفضل والحنان ، والاصطفاء لموسى ، وتسجيل لجهاده وصبره أمام عناد فرعون ، وفى هذا القصص تثبيت لقلب الرسول ﷺ ، وإيناس له ، ودعوة له إلى الصبر كما صبر

المرسلون قبله ، قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) ، وقال عز شأنه : وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ . (هود : ١٢٠) .

التفسير :

٩ - وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ .

وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحى إلى موسى ، وتكليم الله إياه ؟

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر ، وتقرير الجواب فى نفس المخاطب ، أن يلقى إليه بطريق الاستفهام ؛ فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ، ويصغى إليه أتم الإصغاء.

ذكر المفسرون : أن موسى أتمّ المدة التى تعاقد عليها مع صهره شعيب ، فإذا بالحنين والشوق يتجدد فى قلبه للعودة إلى مصر .

وهنا يتساءل الإنسان ، رجل مستقر فى موضع فيه الزوجة والأهل والأمن والأمان .

وله فى مصر عداوة وتهديد ، فقد قتل قبطيا كان يتشاجر مع إسرائيلى ، ثم استغفر الله ، وقد خرج من مصر خائفا يترقب ، قال : رب نجنى من القوم الظالمين ، لكن الحنين يتجدد فى العودة إلى مصر . فما سبب ذلك ؟!

إنه الحنين الذى يودعه الله فى القلوب ؛ لتتحرك فى ستر خفى ، بيد القدرة الغالبة المحركة لهذا الكون؛ والمهيمنة عليه .

قال العلماء : إذا كانت منيّة الإنسان بأرض ؛ حرّك الله همة العبد للذهاب إليها .

قدم موسى من أرض مدين إلى مصر ، ومر بطور سيناء ، فى ليلة باردة شاتية مظلمة وضل الطريق ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، وجعل يَقْدَح بزَنْد كان معه ليُورى نارًا ، فلم تور المقدحة شيئا ، وبينما هو يزاول ذلك ويعالجه ، إذ رأى نارًا من بُعد عن يسار الطريق .[٦١] .

١٠ - إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى .

أبصر موسى نارًا ؛ فقال لامرأته وولدها وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم ؛ إنى أبصرت نارًا ، وسأذهب إليها ؛ لعلنى أجيئكم بشعلة مقتبسة ، على رأس عود أو نحوه ، أو أجد هاديا يرشدنى إلى الطريق. وكانت الليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦ

ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . (القصص : ٢٩) . ومعنى تَصْطَلُونَ . تستدفئون بها من البرد .

١١، ١٢ – فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى .

لما وصل موسى إلى النار وجدها نارًا بيضاء تتقد كأضوإ ما يكون ، فى شجرة خضراء ، فلا ضوء النار يغيرّ خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار ؛ وهناك سمع موسى النداء : يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ .

إنسان فى هذا الكون ، مخلوق من البشر ، يصطفيه الله من خلقه ؛ ليحمّله رسالة ربّه ، ويناديه ويكلّمه تكليما ! ولك أن تتأمل هذا الفضل الإلهى : موسى فريد فى تلك الفلاة ، والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت مخيمّ ، وهو ذاهب يلتمس النار التى آنسها فى جانب الطور ، ثم إذا به يسمع صوتا يتردد من السماء والأرض وكل ما فى الكون : يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى . أى : إنى أنا ربك الذى أكلمك ، فاخلع النعلين من قدميك ؛ رعاية للأدب وأقبل ؛ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى . أى : لأنك بالوادى المطهر المسمى : طوى ؛ فاخلع نعليك ؛ ليحصل للقدمين بركته .

لقد أراد الله لموسى أن يستجمع نفسه ، وطهارة قدمه ، وتركيز عقله وحواسه فقال سبحانه .

١٣ – وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ .

أى : اصطفيتك للرسالة والنبوة وتبليغ الدعوة ؛ فتأهب لهذا الأمر العظيم ، واستمع لما أوحيه إليك ، ونحو الآية قوله تعالى : قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ... (الأعراف : ١٤٤) .

قال العلماء :

إن من أدب الاستماع ، سكون الجوارح والأعضاء ، وغض البصر ، والإصغاء بالسمع ، وحضور القلب، والعزم على العمل .

١٤ – إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ .

إنه نداء علوى إلهى من رب كريم تفضل على أحد خلقه فكلمه تكليما ، وعلمه تعليمًا ؛ فالكبرياء له وحده ، والعظمة له وحده ، فالعبد يحسن به التواضع ، وإذا فعل كلّ شىء كان كأنه لم يفعل شيئا ، أما الربّ فهو وحده الذى يحق له الحمد والشكر ، والعظمة والكبرياء ؛ فهو وحده الواحد الأحد ، الخالق الرازق المهيمن المبدئ المعيد ، الواجد الماجد .

إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ . أنا المستحق للعبادة لا إله غيرى ، أنا الله خالق الكون والحياة والإنسان وسائر الموجودات ، لا إله سواى ، لا يقدر على الخلق غيرى .

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ . لإثبات الألوهية لله وحده ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ . لنفى الألوهية عن كل ما سواه ، والمقصود : إثبات عقيدة التوحيد ، واليقين الجازم بأن التصرف فى هذا الكون كلّه بيد الله وحده .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى ﷺ على بغلته فقال لى : «يا غلام ، هل أعلمك كلمات ينفعك الله بهنّ فى الدنيا والآخرة ؟» قلت : بلى يا رسول الله علمنى ، فقال : «يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ؛ ما نفعوك إلا بشىءٍ قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرُّوك بشىء ؛ لم يضروك إلى بشىءٍ قد كتبه الله عليك ، جفّت الأقلام وطويت الصحف» [٦٢] .

فَٱعْبُدْنِى .

أى : وإذْ كنت أنا الإله وحدى ولا معبود سواى ؛ فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ .

ادخل فى الصلاة بالخشوع والخضوع ، وحضور القلب وذكر الله ودعائه ، والتوجه إليه دون سواه .

وخصَّ القرآن الصلاة هنا ؛ لأنها صلةٌ بين العبد وربه ، ووسيلة للطهارة الحسية والمعنوية ، وباب من أبواب الرفعة ؛ حين يتطهر الإنسان الفانى ، ويكبِّر ويدخل فى الصلاة فيناجى الإله الباقى ، ويكبِّر ويسبِّح ويحمد خالقه ، ومن له الحمد فى الأولى والآخرة ؛ ولذا فإن الصلاة أفضل أركان الدين بعد التوحيد.

قال تعالى : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ .

وقال سبحانه : ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ . (العنكبوت : ٤٥) .

١٥ - إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ .

إن الساعة قادمة لا محالة ، والموت قادم ما فى ذلك شك ؛ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... (آل عمران : ١٨٥).

وقد أخفى الله الساعة ومعرفة الأجل ؛ حتى يجتهد الإنسان ، ويعمل الأعمال الصالحة ؛ وهو مطلق السراح فى هذه الدنيا فيكون الجزاء عادلا ، ولو علم الناس وقت موتهم ، فربما أسرفوا فى الشهوات فى حياتهم ، ثم تابوا واستقاموا قبل موتهم ؛ لذلك أخفى الله علم الساعة ، وميعاد الموت ؛ وإن كانت هناك النذر مثل الشيب ، وكبر السنّ ، والمرض ، وموت الأقران ، وقد يأتى الموت فجأة ، قال تعالى : وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ . (لقمان: ٣٤) .

وقال بعض المفسرين :

إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسى ، فكيف أطلعكم عليها .

قال المبرّد :

وهذا على عادة العرب ، فإنهم يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشىء : كتمته حتى من نفسى ، أى : لم أطلع عليه أحدا .

قال الطبرى فى تفسير الآية :

والذى هو أولى بتأويل الآية من القول ، قول من قال : معناه : أكاد أخفيها من نفسى ؛ لأن المعروف من معنى الإخفاء فى كلام العرب الستر ، يقال : أخفيت الشىء ؛ إذا سترته ، وإنما اخترنا هذا القول على غيره؛ لموافقته أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين .

وجاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال ابن عباس :

أَكَادُ أُخْفِيهَا . أى : لا أطلع عليها أحدًا غيرى ، وقال السدى : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهى فى قراءة ابن مسعود (إنى أكاد أخفيها من نفسى) يقول : كتمتها من الخلائق ، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسى فعلت .

قال قتادة : لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين ، قلت : وهذا كقوله تعالى: قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ... (النمل : ٦٥) . وقال تعالى : ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ... (الأعراف : ١٨٧) . أى : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض .

لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ؛ لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

١٦ - فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ .

قال ابن كثير :

الخطاب لموسى والمراد به : آحاد المكلَّفين ، أى : لا تتبعوا من كذَّب بالساعة ، وأقبل على ملاذه فى دنياه ، وعصى مولاه واتبع هواه ؛ فمن وافقهم فى ذلك ؛ فقد خاب وخسر. فَتَرْدَىٰ . أى : تهلك وتعطب ، قال الله تعالى : وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ . (الليل : ١١) .

والآيات السابقة من منن الله على عبده ، وهى دعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ، وإقامة الصلاة كاملة الأركان ، عامرة بالخشوع وحضور القلب ، فالساعة قادمة ، والموت حق ، وسيجزى كل إنسان جزاء عمله، ولا ريب أن موسى قد نسى نفسه ، واستغرق فى سماع النداء الإلهى ، ثم أفاق على سؤال لا يحتاج إلى جواب .

★ ★ ★

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

أتوكأ عليها : أعتمد عليها فى المشى ، والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك .

وأهش بها : أخبط بها ورق الشجر اليابس ؛ ليسقط ، فترعاه أغنامى .

مآرب : منافع ، واحدها : مأربة (مثلثة الراء) .

الحية : تطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى من هذا النوع ، **الثعبان:** العظيم من الحيات، **الجان :** الصغير من الحيات .

سيرتها الأولى : حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه ثم عاد إليه : عاد فلان سيرته الأولى .

التفسير :

١٧ - وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ .

إنه سؤال تمهيدى من الحق سبحانه وتعالى ؛ يسأله عما يحمله فى يمينه أليست عصا عادية ، أبعد ما

تكون عن الحياة . إن قدرة الله تعالى قادرة على أن تدبّ فيها الحياة ، وأن يضرب بها البحر عند الحاجة إلى الطرق اليابسة للمشى فيه ، وأن يضرب بها الحجر عند الحاجة إلى نبع المياه منه .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ .

قال بعض المفسرين :

إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له ، فى هذا الموقف الرهيب ، وقيل : إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أى : أمّا هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها ؛ فسترى ما نصنع بها الآن . وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ. استفهام تقرير .

١٨ - قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ .

أى : الذى بيمناى هو عصاى أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا . أى : أعتمد عليها ؛ لتساعدنى فى حال السير ، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى . وأضرب بها الشجر اليابس ؛ ليسقط فترعاه أغنامى .

قال الإمام مالك : الهش : أن يضع الرجل المحجن فى الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يخبط .

وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ . أى : مصالح ومنافع أخرى غير ذلك . وقد أجمل عليه السلام فى المآرب ، رجاء أن يسأله ربه عنها ؛ فيسمع كلامه مرة أخرى ، ويطول الحديث ، والنجاء والمناجاة ، فما أجمل فى أن يناجى عبد ربه ، وأن يتفضل الرب باستماع عبده .

١٩، ٢٠ - قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ .

أى : قال الله لموسى : ألقها وارم بها على الأرض ؛ لترى من شأنها ما ترى ، فلما ألقاها ؛ صارت فى الحال حية عظيمة تسعى وتضطرب ، تبتلع الصخرة ، وتأكل الشجرة ، وتلتهم ما يقابلها فى سرعة وقوة .

قال المفسرون :

لما رأى موسى هذا الأمر العجيب الهائل ، لحقه ما يلحق البشر ؛ عند رؤية الأهوال والمخاوف ؛ لاسيما هذا الأمر الذى يذهب بالعقول ، وإنما أظهر الله له هذه الآية وقت المناجاة ؛ حتى يأنس بهذه المعجزة ، وحتى لا يفزع إذا شاهدها أمام فرعون ؛ لأنه يكون قد تدرّب وتعود عليها .

٢١ - قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ .

والسياق هنا لا يذكر ما ذكر فى سورة أخرى من أن موسى عندما رأى الحية هائلة كبيرة ولّى مدبرا قال تعالى : وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ . (القصص : ٣١) ؛ لأن سياق السورة سياق أمن ورحمة وطمأنينه فقال الحق هنا : قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ . وفى سورة أخرى : إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ . (النمل : ١٠) . أى: أنت رسول كريم ، ستحمل رسالة كلها أمن وأمان وتحمل تبعات .

ومعنى خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . أى: خذ عصاك ولا تخف منها ؛ فهى معجزة لك ، تخيف غيرك ، ولا تخف منها ؛ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ . سنرجعها إلى الحالة التى كانت عليها من قبل ؛ عصا تمسكها ؛ فأقدم على ذلك برباطة جأش دون تردد ولا ذعر .

فائدة

ذكر الله هنا عن العصا : أنها تحولت إلى حَيَّةٌ تَسْعَىٰ . وذكر فى سورة الشعراء : أنها تحولت إلى ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. (الشعراء : ٣٢)

وقال فى سورة أخرى : تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ . (القصص : ٣١) والجان هو الحية الصغيرة الجسم ، وهى أقدر على سرعة الحركة ولا تنافى بين هذه الصفات ؛ لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والثعبان : هو العظيم منها ، والجان : هو الحية الصغيرة الجسم ، السريعة الحركة ؛ فالحية كبيرة الجسم ، لكنها فى سرعة الحركة شبّهت بالجان فى هذه الخاصية وهى سرعة التحرك ، فاجتمع لها ضخامة الجسم مع سرعة الحركة التى يُمتَّع بها الصغير .

★ ★ ★

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

الضم : الجمع .

يدك إلى جناحك : كفك تحت عضدك ، وأصل الجناح للطائر ، ثم أطلق على اليد والعضد والجنب ، وهو المراد هنا .

السوء : المرض أو البرص .

آية أخرى : معجزة ثانية غير العصا .

طغى : تجاوز الحدّ فى عتوّه وتجبّره .

اشرح لى صدرى : وسّعه لتحمّل أعباء الرسالة .

ويسر لى أمرى : سهل لى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة .

واحلل عقدة من لسانى : أزل ذلك التعقد والحبسة التى فى لسانى ؛ لئلا يستخف بى الناس ، ولا يستمعوا لكلامى.

يفقهوا قولى : يفهموه .

وزيرًا : معينا .

الأزر : القوة ، يقال : آزره ، أى : قوّاه وأعانه .

أشركه فى أمرى : اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة .

بصيرًا : عليما بأحوالنا ، لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن معجزة موسى الثانية ، وهى اليد إذا وضعها فى جيبه وأخرجها ؛ خرجت كأنها ضوء القمر ؛ ثم دعاء موسى ربه أن يشرح صدره ، وأن ييسر أمره .

التفسير :

٢٢ - وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ .

أى : أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج بيضاء بياضا مضيئا كضوء الشمس والقمر ، من غير عيب ولا برص .

ءَايَةً أُخْرَىٰ . معجزة ثانية بعد معجزة العصا .

٢٣ - لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى .

كى تشاهد عظيم سلطاننا ، وكامل قدرتنا ، وبديع تصرفنا فى ملكوت السماوات والأرض .

٢٤ - ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ .

أى : اذهب إلى فرعون رسولا ، وادعه إلى عبادتى ، وحذره نقمتى ؛ فإنه قد تجاوز قدره ، وتمرّد على ربّه حتى تجاسر على دعوى الربوبية ؛ وقال : أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٤) .

أخرج ابن أبى حاتم : عن وهب بن منبه : أن الله قال لموسى : «انطلق برسالتى ، فإنك بسمعى وعينى، وقد ألبستك جُنَّة من سلطانى ؛ لتستكمل بها القوة فى أمرى ، فأنت جند عظيم من جندى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خَلْقى ، بَطَر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا عنّى ، فبلغه رسالتى ، وادعه إلى عبادتى ، وتوحيدى وإخلاصى ، وذكره أيامى . وحذِّره من نقمتى وبأسى ، وقل له فيما بين ذلك قولا لينا ؛ لعله يتذكر أو يخشى» [١٣] .

٢٥ ، ٢٦ - قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى .

أى : دعا موسى ربّه ، حين علم بالمهمّة العظيمة التى سيتوجَّه إليها ؛ فإنه كان فى مصر وقد شاهد جبروت فرعون وظلمه وبطشه ؛ فطلب من الله العون فقال : رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى . اجعلنى رابط الجأش ؛ حتى لا أخاف سواك ، ولا أرهب غيرك ، فأعطنى الهمَّة والعزيمة ، وألهمنى التوفيق والقبول ، واجعلنى محبًّا لتبليغ الرسالة ، وهوِّن علىّ الصَّعب ، وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى . اجعل بركتك معى ، وعونك لى ، وسهل على القيام بما تكلفنى به من تبليغ الرسالة ؛ فإن لم تكن أنت عونى ونصيرى ، وعضدى وظهيرى وإلا فلا طاقة لى بذلك .

٢٧ ، ٢٨ - وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى .

يسر لى القول والبيان ، واجعل لسانى فصيحا ، وقولى واضحا ؛ حتى يفهمه الآخرون ويستوضحوا معناه ومبناه .

روى : أنه كانت بلسانه حبسة تمنعه من الاسترسال فى الكلام ؛ وكان هارون عليه السلام هادئ الطبع ، فصيح اللسان ، ثابت الجنان ، هادئ الأعصاب ، وكان موسى عليه السلام انفعاليا ، حادّ الطبع سريع الانفعال .

٢٩ ، ٣٠ - وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى .

أى : واجعل لى معينا من أهل بيتى ، هارون أخى ؛ ليحمل معى أعباء الرسالة ، ويكون ظهيرا لى عند الشدائد ، وحلول المكاره .

٣١ ، ٣٢ - ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى .

أى : أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، حتى نتعاون على أدائها ، على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، ويوصل إلى الغرض على أجمل السُّبُل .

٣٣ ، ٣٤ - كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا .

أى : إنى طلبت أن يكون أخى هارون رسولا معى ؛ ليعاوننى فى أداء الرسالة ، وليكون عونا لى فى تسبيحك تسبيحا كثيرا ، وذكرك ذكرا كثيرا ؛ فالتسبيح والذكر لله اتصال بالملإ الأعلى ، واستعانة بمن بيده الخلق والأمر . وذكر الله دواء وشفاء ، وهو سبحانه جليس من ذكره ، ومعين من استعان به ؛ قال تعالى : وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب : ٣٥) .

٣٥ - إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا .

إنك مطلع وشاهد ، عليم بأحوالنا ، وشدة حاجتنا إلى ما طلبناه منك .

★ ★ ★

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

السـؤل : بمعنى المسئول ، كالخبز بمعنى المخبوز .

مننا : أنعمنا .

مرة أخرى : فى وقت آخر غير هذا الوقت .

أوحينا إلى أمك : ألهمناها ما يُلهم مثل : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ . (النحل : ٦٨) .

اقذفيه : ألقيه واطرحيه .

اليم : البحر والمراد به هنا : نهر النيل .

الساحل : الشاطئ .

ولتصنع على عينى : تربّى وتغذّى بحفظى ورعايتى .

يكفله : يضمه إلى نفسه .

تقر عينها : تسرُّ .

الغم : الكدر الناشئ من خوف شىء أو فوات مقصود .

الفتون : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ، ثم تخليصه منها .

لبثت : أقمت .

مدين : بلد بالشام .

جئت على قدر : موعد وقت مقدر للرسالة .

تمهيد :

أجاب الله دعاء موسى ، وذكره بنعم الله السابقة عليه فى : نجاته من الذبح ، وإلقاء المحبة عليه صغيرا فكل من رآه أحبَّه ، والتقاط آل فرعون له ، ورجوعه إلى أمّه ، وتربيته فى بيت فرعون ، وقتله للقبطىّ خطأ ، وذهابه إلى أرض مدين عشر سنين ثم عودته ؛ على تقدير من الله لتلقى الرسالة .

التفسير :

٣٦ - قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ .

فى جملة واحدة أجاب الله دعاءه فى جميع ما طلب متفضلا ، متحننا ، كريما ، مجيبا . أى : قال الله لموسى : قد أعطيتك جميع ما سألتنى عنه من : شرح صدرك ، وتيسير أمرك ، وحلّ عقدة لسانك ، وجعل أخيك هارون وزيرا لك ، وشدّ أزرك به ، وإشراكه فى الرسالة معك .

٣٧ - وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ .

تفضلنا عليك بالنعم والمنن والرعاية والعناية ؛ بدون سؤال . ومن يُعطى بدون سؤال ، ويكلمك كفاحًا بدون حجاب ، ويرعاك صغيرا ، وينجيك من المهالك ، وييسر لك الرعاية والزواج والدفء ؛ أيضن عليك بإجابة ما تطلبه من أجل نجاح الرسالة والدعوة ؟!

٣٨ - إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ .

ألهمنا أمك إلهامًا ، وأوقعنا فى قلبها عزيمة صادقة ، أن أمثل طريقة لنجاتك من فرعون وجنوده ؛ أن تضعك فى صندوق .

٣٩ - أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ .

إن عناية الله ومعونته إذا شملت إنسانًا ؛ تهيأ له كل خير .

عناية الله إن تولت ضعيفا تعبت فى مراسه الأقوياء

ومن هذه العناية إلهام الأم فى وقت الشدّة والمحنة ، والخوف العظيم ، أن تلقيه فى صندوق ، وتلقى الصندوق فى نهر النيل ، ويحمله النيل إلى شاطئ البحر ؛ حيث يجلس فرعون وزوجته ، ويطلب فرعون إحضار الصندوق وفتحه ، فإذا طفل رضيع عليه المحبّة من الله ؛ فكل من رآه أحبه ، حتى هذا الطاغية الجبار

صاحب الجند والطغيان ؛ يقهره الله بحب الصبى والولوع به ، والبحث له عن مرضعه ؛ وهكذا تجمع يد القدرة خيوط الرعاية لهذا الصبى ، وتجمع بينه وبين أمّه .

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نـم فالمخاوف كلهنّ أمـان

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .

ألقى الله محبته على موسى فكل من رآه أحبه ، حتى أحبَّه فرعون ، وأحبته امرأة فرعون ، وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (القصص : ٩) .

وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ .

أى : لتربّى برعايتى وحفظى وحنانى فى قصر فرعون وأمام بصره ، وأنت عدوه ، ولكن ألقيت عليك المحبة ؛ فسلبت من فرعون كل عداوة ، ووفر لك كل رعاية .

• ٤٠ - إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ .

امتن الله على موسى بالعديد من المنن من بينها ما يأتى :

١ - إلهام أمّه أن تضعه فى صندوق وأن تضع الصندوق فى البحر .

٢ - إلقاء المحبة عليه فكل من رآه أحبَّه .

٣ - توفيق أخته حين تتبعت الصندوق وأرشدت آل فرعون إلى من يرضعه ويرعاه .

٤ - عودته إلى أمّه ؛ ليكون قرة عين لها ، وليذهب عنها الحزن .

٥ - قتل قبطيا خطأ ثم تاب إلى الله فتاب الله عليه ، ونجاه الله من القتل .

٦ - تعرُّض موسى للمحن والشدائد ، وبعد أن كان فى قصر الملك ونعمته يخرج من مصر خائفا يترقب ؛ ويؤجِّر نفسه عشر سنين ، ويعيش غريبا .

٧ - عودته وحنينه إلى مصر ؛ ليكون على موعد مع القدر الإلهى ؛ حيث يتحمل الرسالة والنبوة .

٤١ - وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي .

اخترتك لرسالتي ونبوتي وتبليغ دعوتي ، وجعلتك خالصا مخلصا لهذه الرسالة ، وجعلتك واسطة بيني وبين خلقي في تبليغ الدِّين ، وهدايتهم إلى التوحيد والشرع القويم ، وجعلتك من خواصِّي ، واصطفيتك برسالاتي وبكلامي ، وصرفت عنك الدنيا ، فلم يعد لك فيها شيء ، وإنما صارت همتك في هذه الرسالة ، وتحمل تبعاتها ، والصبر على الكفاح من أجلها . حتى صرت من أولي العزم من الرسل ، قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

★ ★ ★

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

المفردات :

الآيـــــــات : هي المعجزات ، والمراد بها : العصا ، واليد البيضاء .

ولا تـــنـــيـــا : لا تفترا ولا تقصرا .

فـــي ذكـــري : في تبليغ رسالتي ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها .

طـــغـــى : تجاوز الحدّ .

قـــولا لـــيـــنـــا : لا عنف فيه ولا غلظة .

يـــتـــذكـــر : يتأمل فيذعن للحق ويؤمن .

يـــخشـــى : يخاف من بطش الله وعذابه .

يـــفـــرط : يعجل في العقوبة ، من قولهم : فرس فارط ؛ إذا كان سباقا للخيل .

يـــطـــغـــى : يزداد طغيانا .

أسمع وأرى : أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل .

فأتياه : قابلاه وجها لوجه .

فأرسل معنا بنى إسرائيل : فأطْلقهم من الأسر .

ولا تعذبهم : لا تبقهم على ما هم عليه من العذاب والتسخير .

والسلام على من اتبع الهدى : السلامة من العذاب لمن صدق بآيات الله ، الهادية إلى الحق .

تولى : أعرض .

التفسير :

٤٢ - ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى .

يفيد السياق السابق : أن المناجاة قد انتهت ، وأن الله قد استجاب لموسى دعاءه ، وأنزل الرسالة على هارون ، وأمره أن ينضم إلى موسى فى رسالتهما إلى فرعون ، وهذا من بلاغة القرآن ، أن يترك مساحة فى القصة يفهمها السامع .

وخلاصة هذه المساحة : تمت المناجاة ، واتجه موسى إلى مصر ، وأوحى الله إلى هارون أن يلتقى به ، ثم أوحى إليهما ما يأتى : ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى . اذهب يا موسى أنت وأخوك هارون بالرسالة والمعجزة ، واستعينا بذكرى وطاعتى ؛ فإن ذكر الله عون للعبد ، فى قضاء مهمته والانتصار على خصمه . ويمكن أن يطلق الذكر على تبليغ الرسالة ؛ لأنها من أعظم الذكر ، أى : لا تقصرا فى تبليغ دعوتى إلى فرعون وقومه .

٤٣ - ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ .

أى : اتَّجها بالرسالة إلى فرعون فإنه قد طغى وبغى وتجاوز الحدَّ وقال : أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٤).

٤٤ - فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ .

استعملا معه أسلوب الأدب والملاينة ؛ فإن ذلك أدعى أن يهدهد من كبريائه ، ويحمله على النظر فى الدعوة الموجهة إليه لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ . ربَّه وخالقه فيكفّ عن الكفر والتكذيب ، أَوْ يَخْشَىٰ . من وقوع عذاب الله له فيؤمن بالرسالة .

وقد شرح القرآن الكريم أسلوب الدعوة إلى الله ، وحث على أن تكون بالحكمة والهدوء واللين ، والموعظة الحسنة التى ترقق القلب وتقوده إلى الحق ، قال تعالى : ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ... (النحل : ١٢٥) . وقال سبحانه فى آيات أخرى : ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ . (النازعات : ١٧ - ١٩) . أى : هل لك يا فرعون إلى طريق يزكّيك ، ويطهرك ويعلى شأنك ؟ وأنا أقدم لك الهداية إلى الله ؛ رجاء أن تخشى عقابه وتطمع فى رحمته .

٤٥ - قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ .

أى : قال موسى وهارون : ربنا وخالقنا ، إننا نخاف من فرعون ، أن يعجل بعقوبتنا قبل أن يشاهد الآيات . يقال فرط فلان يفرط ؛ إذا عاجل الآخر بالعقوبة ، وأذاه بدون تمهل . ومنه قولهم : فرس فارط ، أى: سابق لغيره من الخيل .

أَوْ أَن يَطْغَىٰ . يعتدى ويتجاوز الحد ، فيقول فى حقك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه ويقول فى حقنا ما نحن براء منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا .

٤٦ - قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

أى : لا تخافا من فرعون ، فإن ناصيته بيدى ، وأنا معكما بمعونتى وعونى ، أسمع كلامكما ، وأرى حواركما ، وسأمنحكما معونتى وحفظى ، ونصرى ومهابتى وتأييدى .

والخلاصة : لست بغافل عنكما ، وإنى سأفعل ما يؤدى إلى حفظكما ونصركما عليه ، فلا تأبها به ، ولا تهتما بأمره .

٤٧ - فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ .

أى : اذهبا إلى فرعون وقابلاه وجها لوجه ، وقولا له : إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ . أرسلنا الله إليك بالرسالة وهو ربنا وربّك ، ولا رب سواه ، فدعواك الربوبية دعوى باطلة .

فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ . أى : أطلق سراح بنى إسرائيل ، وأوقف عذابهم ؛ حيث كان يقتل الذكور منهم ويستحيى الإناث ، ويسخرهم الأقباط فى الأعمال الشاقة كالحفر والبناء .

قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ . والمراد بالآية : الجنس فيشمل اليد والعصا وغير ذلك من الآيات .

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ . والسلامة والأمن من العذاب فى الدنيا والآخرة ؛ على من اتبع رسل ربه وآمن بآياته ، واهتدى بها إلى الحق .

قال الزجاج : أى : من اتبع الهدى ؛ سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب . ا هـ .

وبمثل هذا كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم ، قال : «بسم الله الرحمان الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم ، تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين»[٦٤] .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ؛ بأسلوب حكيم ليِّن فيه الموعظة الحسنة ، والتبشير والدعوة إلى الله بالتى هى أحسن ، وما أجمل طريقة القرآن ، فى دعوة الطغاة بالقول الليّن ؛ تأليفا للقلوب ، وتيسيرا للاستجابة .

٤٨ – إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

تأتى هذه الآية تحذيرا وإنذارًا لفرعون ومعناها : أن الله قد أوحى إلينا فى الرسالة التى أرسلنا بها: أن العذاب الدنيوى والأخروى لمن كذب بالرسل وأعرض عن هدايات السماء . وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : **فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ** . (النازعات : ٣٧ – ٤١) . وقال تعالى : **فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لا يَصْلَـٰهَآ إِلَّا ٱلأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** . (الليل : ١٤ – ١٦) .

قال ابن كثير :

ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أى : كذب بقلبه ، وتولّى بفعله .

★ ★ ★

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات :

أعطى كل شىء خلقه : أى : وجوده والصورة التى تناسبه ، والشكل الذى يشاكل ما نيط به من الخواص والمنافع ، مثل العين والأذن واليد والرجل للإنسان .

ثم هدى : ثم عرفه كيف يرتفق ويستفيد بما أعطى له .

فما بال : فما حال ؟

فى كتاب : فى دفتر مقيدٌ فيه ، والمراد بذلك : كمال علمه ، الذى لا يضيع منه شىء .

ضل الشىء : أخطأه ولم يهتد إليه .

ونسيه : ذهب عنه ولم يخطر بباله .

المهد : ما يمهد للصبى ويفرش له ، أى : جعل الأرض كالمهد .

وسلك : سهّل .

السُّبل : واحدها : سبيل أى : طريق .

أزواجا : أصنافا .

شتى : واحدها : شتيت ، كمريض ومرضى ، أى : مختلفة النفع والطعم واللون والشكل .

لآيات : لدلالات .

النهى : واحدها : نُهية (بالضم) وهى العقل ، سمّى بها ؛ لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح.

تمهيد :

تحكى الآيات القادمة : الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام هو وهارون من جهة ، وفرعون من جهة أخرى .

التفسير :

٤٩ - قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ .

أى : قال فرعون لموسى وهارون : من ربكما يا موسى ؟

ولم تذكر السورة كيف وصلا إليه ؛ لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التى لا تتوقف عليها العبر والعظات ؛ إنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث .

فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ . أى : فمن هذا الرب الذى أرسلكما يا موسى . وقد جعل الخطاب هنا لموسى ؛ لظنه أن موسى هو الأصل ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه .

٥٠ - قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ .

أى : أعطى كل شىء فى الكون خَلْقَهُۥ . أى : شكله وصورته التى تناسب الانتفاع به ؛ فالسماء والأرض والبحار والجبال ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسحاب والرمال ، والنجوم والشجر ، والإنسان والدواب ، والنبات وسائر المخلوقات ؛ خلقها الله على صورة تناسب الانتفاع بها .

ثُمَّ هَدَىٰ . ثم ألهم الله المخلوقات للانتفاع بما أعطاها الله ؛ فالإنسان مثلا هداه الله إلى الانتفاع بالعين والأذن والعقل ...

وخلاصة هذا : ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق ؛ بما قدر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

٥١ - قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ .

أى : فما حال القرون الماضية كعاد وثمود ، والذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟

فأجاب موسى :

٥٢ - قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى .

أى : إن هذه الأمم أفضت إلى ربها ، وهو سبحانه علاّم الغيوب سجّل كل شىء وكتبه ، كما قال سبحانه : هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٩) .

لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى .

لا يخطئ ربى فى علمه ولا تخفى عليه خافيه فإنه سبحانه أحاط بكل شىء علما .

وَلَا يَنسَى .

أى : لا ينسى شيئا ولا يفوته ولا يزول علمه عن أى شىء.

لقد حاول فرعون أن يصرف موسى ، إلى الحديث عن القرون الماضية ، التى هلكت ولم تعبد ربها ، وهل لله معرفة بهذا الماضى السحيق ، الضارب فى القدم ، وكان جواب موسى مختصرا وواضحا : إن علم ذلك إلى الله .

لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى .

أى : لا يخطئ ربى ، ولا يغيب عن علمه شىء منها .

٥٣ - ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ .

تشتمل هذه الآية على أربع نعم يشاهدها الناس في كل مكان ، خصوصا في أرض مصر حيث يمتد النيل ، وحوله الأرض الزراعية ، وكان الأولى بفرعون أن يشكر ربه ، ويعرف فضله ، بدلا من الجحود والكفران .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا .

جعل الأرض كالمهد للطفل يحوطه ويحافظ عليه ، وكذلك الكبار يمتهدون الأرض ويستقرون عليها ، وينامون ويسافرون على ظهرها .

وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا .

أى : جعل لكم فى الأرض طرقا بين الجبال والأودية ؛ تسلكونها من قطر إلى قطر ، لقضاء مآربكم ، ونحو الآية قوله تعالى : وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . (الأنبياء : ٣١) .

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ .

فى هذه الآية تحوُّل من الغيبة إلى التكلم ، تنويعا للكلام وتفخيما لفضل الرحمان ؛ فقد أنزل الله سبحانه المطر حيث ساق السحاب وأنزل المطر .

فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ .

أى : أخرج الله بالمطر ألوانا وأنواعا من النبات ؛ متعددة الألوان والأشكال والطعوم ، فهذا حلو وهذا حامض وهذا مُرٌّ . وهذا النبات أزواج ؛ منه الذكر والأنثى . قال تعالى : سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . (يس : ٣٦) .

وهذا التكامل فى الخلق آية تدل على كمال القدرة ، فالإنسان والنبات والحيوان ، والكون كله أزواج ؛ فالسماء والأرض ، والسحاب سالب وموجب ، والشمس والقمر ، والأرض والجبال ، والكواكب والأفلاك والأبراج ، حتى نجم الشعرى الكبير الهائل العظيم السرعة ؛ يسير بجواره نجم قزم يلازمه فى مداره . قال تعالى : وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ . (النجم : ٤٩) .

وكان العرب يعبدونها من دون الله ؛ فبين القرآن أن الله هو المستحق للعبادة ؛ دون سواه .

وقد ورد مثل هذه المعانى فى أوائل سورة الرعد ، قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَاتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الرعد : ٣ ، ٤) .

٥٤ – كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ .

أى : كلوا من هذه النباتات ، ومن خيرات الأرض المختلفة ، واتركوا أنعامكم ترعى أيضًا لتستفيد ؛ وتستفيدون بها ، إن فى ذلك – أى : النِّعم المذكورة السابقة – تمهيد الأرض ، ووجود الطرق ، ونزول المطر ، وإنبات النبات أزواجا ؛ يستفيد منها الإنسان والحيوان .

فى هذه النعم آيات ودلائل على عظيم قدرة الإله الخالق ، لأصحاب العقول .

وقريب من هذه الآيات قوله تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ . (عبس : ٢٤ – ٣٢).

٥٥ – مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ .

من هذه الأرض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له وفرع عنه ، وإلى الأرض تعودون عند موتكم ؛ فتدفنون

فيها ، وتستقر فيها أجسامكم ، ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للحساب والجزاء . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ . (الأعراف : ٢٥) .

أخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : لما وضعت أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ : «منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله» .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾

المفردات :

أبى : امتنع .

موعدا : ميعادًا معينا .

سوى : مستويا لا جبال فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة .

يوم الزينة : يوم عيد لهم .

يحشر الناس : يجتمعون .

الضحى : وقت ارتفاع النهار .

التفسير :

٥٦ - وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ .

أرينا فرعون سائر الآيات والدلالات ؛ على قدرة الله تعالى ، منها الآيات الكونية فى خلق هذا الكون ؛ بما فيه من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وإنسان وحيوان ونبات ، رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (طه : ٥٠). أى : أعطى كل كائن فى الكون خلقه ووجوده ثم هداه إلى أداء وظيفته ، وأراه موسى اليد والعصا ؛ لكن فرعون كذب بهذه الآيات ، ولم يصدق بها ، وأبى وأعرض عن الإيمان ؛ عتوا وعنادًا . قال تعالى : وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . (النمل : ١٤) .

٥٧ - قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ .

أى : قال فرعون ساخرا من موسى ، مستنكرا عليه دعوته : أجئتنا بعد ما غبت عنا عشر سنين ، ثم ظهرت بيننا مدعيا : أنك رسول ليتبعك الناس ، فتكاثرنا بهم ، وتستولى على الأرض والملك ؛ بسبب أنك قدَّمت لنا أعمالا من أعمال السحر هما : اليد والعصا !

٥٨ - فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى .

سنقابل سحرك بسحر مماثل ، فحدد يومًا محددًا ؛ لا نتخلف عنه نحن ولا أنت ، وحدد مكانا مستويا لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ؛ حتى لا يحرم أحد الجالسين من المشاهدة . وهنا نلاحظ أن فرعون يظهر رباطة الجأش ، والاطمئنان إلى أن نتيجة المبارزة ستكون لصالحه .

٥٩ - قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى .

قال موسى : هذا الميعاد هو يوم العيد حيث كان الناس يتزينون ويلبسون أحسن الثياب ، وأن يجتمع الناس لمشاهدة المبارزة ضُحًى . وقت ارتفاع النهار ، وقبل الظهر واشتداد الحرارة .

قيل : يوم الزينة هو عيد النيروز ، وقيل : هو يوم عاشوراء .

★ ★ ★

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات :

فتولى فرعون : انصرف عن المجلس .

كيده : ما يكيد به من السحرة وأدواتهم .

أتى : أتى الموعد ومعه ما جمعه من الأعوان والسحرة .

ويلكم : هلاك لكم .

الافتراء : الاختلاق والكذب .

يسحتكم بعذاب : يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد .

فتنازعوا : فتفاوضوا وتشاوروا .

وأسروا النجوى : بالغوا فى إخفاء كلامهم .

بطريقتكم المثلى : بمذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها .

فأجمعوا كيدكم : اجعلوا كيدكم مجمعا عليه .

صفا : مصطفين ؛ لأنه أهيب للصدور .

أفلح : فاز بالمطلوب .

استعلى : غلب .

تمهيد :

تفيد الآيات : جهد فرعون فى جمع السحرة مع آلاتها ؛ وأن موسى وجَّه نصيحته للسحرة داعيًا لهم إلى الإيمان بالله ؛ وحذرهم عقاب الله الشديد للمفترين ، بيد أن السحرة قاوموا هذه النصيحة ، واتفقوا سرًا بينهم قائلين : إن لنا منزلة ونظامًا ينبغى أن نحافظ عليه ، وأن نقف فى وجه موسى وهارون ؛ صفًا واحدًا.

التفسير :

٦٠ - فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ .

أى انصرف فرعون من المجلس ليعد خطة منظمة ؛ يجمع بها السحرة من سائر المملكة ؛ ومعهم آلاتهم ومعه العُدَّة المعنوية ؛ والحماس ليوم اللقاء .

وفى سورة الشعراء : قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . (الشعراء : ٣٦ - ٤٢) .

٦١ - قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ .

قال موسى للسحرة : إنى رسول من عند الله ، وما أيدنى الله به معجزة ، وليس سحرًا ؛ فلا تكذبوا

وتختلقوا الكذب ؛ وتزعموا أن ما أفعله سحرًا ؛ فيستأصلكم الله بعذاب شديد ؛ فى الدنيا والآخرة ، وقد خاب وخسر دينه ودنياه من افترى ؛ وبدّل الحقيقة ولم يجهر بالصدق .

٦٢ – فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ .

بعد أن سمع السحرة نصيحة موسى لهم ، تركت أثرها فى بعضهم . روى عن قتادة : أن بعض السحرة قال : إن كان ما جاءنا به موسى سحرًا ؛ فسنغلبه ، وإن كان من عند الله ؛ فسيكون له أمر . وبعض السحرة سمع كلام موسى ثم قال : ما هذا بقول ساحر . وبعض السحرة أخذ يحثُّ زملاءه المترددين ، على منازلة موسى ، ومغالبته ؛ لاكتساب الجاه والسلطان . ويبدو أن هذا الفريق الأخير كانت له الغلبة .

والخلاصة : أن نصيحة موسى كانت لها أثرها فى نفوس بعض السحرة ، ولم يظهر هذا الأثر عمليا ، وإنما مهّد للإيمان فيما بعد .

ومجمل معنى الآية : اختلف السحرة فى أمر موسى ، فقال بعضهم : ما هذا بقول ساحر ، وأخفوا ذلك عن الناس ، وأخذوا يتناجون سرًّا .

٦٣ – قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ .

أى : قال السحرة بعضهم لبعض : إن موسى وهارون ساحران ، يريدان أن يحتلا منزلة عالية ، ومكانًا ممتازًا فى أرض مصر ، وينشران دينهما بدعوى الرسالة ، ويضيع دين المصريين الحالى ، وهو أمثل الأديان وأفضلها .

قال الزمخشرى :

فكانت نجواهم فى تلفيق هذا الكلام وتزويره ؛ خوفًا من غلبة موسى وهارون لهما ، وتثبيطا للناس من اتباعهما .

وقرأ المدنيون والكوفيون : إِنَّ هٰذٰن لسٰحرٰن . بتشديد حرف النون .

قال القرطبى :

وللعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال منها : الأول : أنها لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم ، يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه الألف (أو يلزمون المثنى الألف) وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية . ا هـ .ومن أراد المزيد فليرجع إلى تفسير القرطبى .

٦٤ - فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ .

فأحكموا سحركم وترابطوا وتعاونوا، ثم ائتوا مصطفين مجتمعين، وألقوا ما في أيديكم دفعة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتعظم هيبتكم لدى النظارة في هذا المشهد الحافل.

وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ .

وقد فاز في هذا اليوم من غلب؛ فالسحرة يتناجون لتأكيد عزمهم على النصر؛ خصوصا أن فرعون قد وعدهم بالأجر والهدايا؛ والمنن والعطايا.

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات:

إيجاس الخوف: الإحساس بشيء منه.

ما في يمينك: هي العصا، وأبهمها؛ تفخيما لشأنها.

تلقف : تبتلع بقوة وسرعة .

صنعوا : زوروا وافتعلوا .

كيد ساحر : كيد سحرى لا حقيقة له ولا ثبات .

حيث أتى : أينما كان .

كبيركم : زعيمكم ومعلمكم .

من خلاف : من حال مختلفة ، فتقطع الأيدى اليمنى ، والأرجل اليسرى .

أشد عذابا : أدوم .

نؤثرك : نفضلك ونختارك .

فطرنا : ابتدعنا وأوجدنا من العدم .

فاقض : فاحكم .

جنات عدن : جنات أعدت للإقامة .

من تحتها : من تحت غرفها .

تزكى : تطهر من أدناس الكفر ، وأرجاس المعاصى .

تمهيد :

تبين الآيات : موقف السحرة ، حين خيَّروا موسى بين أن يلقى بسحره ، وبين أن يبدءوا هم ، فطلب منهم البدء فألقوا حبالا وعصيا ، صارت تتحرك وتثير الرهبة والإكبار فى عين من رآها ، حتى موسى عليه السلام توجس خيفة من هول ما رأى ، لكن الله جلَّت قدرته سدد خطاه وثبته ، وأمره أن يلقى عصاه ، فألقى موسى العصا فابتعلت حبال السحرة ، وهنا أيقن السحرةُ أن عمل موسى ليس سحرًا ، بل هو معجزة من عند الله ، فخروا ساجدين ، قائلين : ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ وتهددهم فرعون بالعذاب الشديد ، فلم يترددوا فى إيمانهم ؛ بل أصروا عليه مختارين الإيمان والنجاة فى الآخرة على كل متع الدنيا .

التفسير :

٦٥ - قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ .

قال السحرة لموسى : لك أن تختار : إما أن تلقى أعمالك أولاً ، أو أن نلقى نحن أعمالنا أوَّلا ، وهذا من باب الإنصاف معه ، أو من باب الثقة فى أنفسهم ، لكن موسى طلب منهم أن يبدءوا هم بإلقاء ما معهم ؛ حتى يسمح لهم بإظهار سحرهم وكيدهم وفنّهم ، وكل ما يملكون من عمل ، ثم يأتى بعد ذلك دور المعجزة بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

٦٦ - قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ .

سمح لهم موسى أن يبدءوا هم بإلقاء عملهم ؛ فألقى كل ساحر عصًا وحبلاً ، وكانوا جمعا غفيرا ، وكانوا قد أودعوا الزئبق داخل الحبال والعصىّ ، فكانت تتحرك ويركب بعضها بعضًا ؛ وأثر هذا المنظر فى عيون الناس بالرهبة والإكبار ؛ وخاف موسى عليه السلام من هول ما رأى ؛ لكنه حبس خوفه داخل نفسه؛ ولم يظهره أمام الناس . وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم : فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . (الأعراف : ١١٦) .

وتفيد : أن السحرة قدموا عملا هائلا ، وسحرا ممتازا ، بمقياس أهل السحر ، لكن شتان ما بين السحر والمعجزة .

٦٧ - فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ .

أى : أوجس بشيء من الخوف داخل نفسه ؛ حين فوجيء بذلك على مقتضى الطبيعة البشرية .

٦٨ - قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ .

قلنا له : هدئ روعك ؛ فإن النصر سيكون لك فى النهاية .

٦٩ - وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ .

أى : ألق عصاك تبتلع حبال السحرة ، فهذه أفعال سحرة ؛ تدربوا طويلا ، ومارسوا أعمال السحرة كثيرا ؛ حتى صاروا مهرة فى السحر ، والساحر لا يفلح ولا يفوز ، أينما كان وحيثما أقبل وأنى اتجه .

قال ابن كثير :

لما ألقى موسى العصا صارت ثعبانًا عظيمًا هائلاً ، ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتَّبع تلك الحبال والعصى ، حتى لم تبق شيئا إلا ابتلعته ، والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا نهارًا ، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ؛ علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، فعند ذلك وقعوا سجدًا لله ، فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر .

قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة ، وآخر النهار شهداء بررة .

٧٠ - فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ .

أى : ألقى موسى عصاه فابتلعت أعمال السحرة ؛ فخر السحرة حينئذ سجدًا لله رب العالمين ، لما رأوا من الآية الباهرة .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

سبحان الله ، ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . ا هـ .

روى : أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا ؛ فأين الذى ألقيناه ، فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام ؛ على وجود الصانع القادر ، وبظهورها على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله .

إنهم أعرف الناس بالسحر ، وقد أدركوا أن ما فعله موسى ليس سحرًا ، ولكنّه معجزة ، لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يؤيِّد بها إلا رسول مرسل من عند الله ، من أجل ذلك خروا ساجدين لله ، وقالوا : ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ .

٧١ – قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ...

كان فرعون قد ادعى الربوبية فقال : أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٤) . وادعى الألوهية وقال : مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى . (القصص : ٣٨) . وفوجئ فرعون بإيمان السحرة ، وسجودهم لله رب العالمين ؛ وخشى أن يمتد الإيمان إلى سائر الشعب ؛ فادعى : أنها مؤامرة ، وادعى : أن موسى هو المعلم الذى تعلموا على يديه السحر ، وأنهم بيتوا هذا الأمر ؛ ليتظاهروا أمام الناس بأنهم غُلبوا ، وهدد السحرة بالغضب والانتقام ، والعذاب الأليم .

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ .

أى : قال آمنتم بموسى قبل أن أعطيكم الإذن بذلك ؛ فلأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى مِّنْ خِلَـٰفٍ. أى : لا يكون القطع لليد والرجل عن وفاق ؛ فيقطع اليد اليمنى والرجل اليمنى ؛ فيكون للإنسان نصف كامل، بل يريد أن ينتشر النقص فى الجسم كله .

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ .

أى : لأصلبنكم على جذوع النخل من باب التشهير والتنكيل .

قال ابن عباس : فكان أوّل من عذب بهذا العذاب .

وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ .

أى : لتعلمن أيها السحرة أيُّنا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى فى إنزال الهلاك بكم ؛ أنا أم موسى وربّه ؟

وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب ؛ سوى عذابه لهم .

وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ . (الأعراف : ١٢٣ ، ١٢٤).

لكن الإيمان كان قد خالط قلوب السحرة ، فاستهانوا بكل تهديد ووعيد ، واستعدوا لكل تضحية فى سبيل الإيمان الجديد .

٧٢ - قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ .

كان السحرة قد آمنوا بالله تعالى ربا ، وبموسى رسولا ، واستقر الإيمان فى قلوبهم ، وصار يقينا لا يتزلزل ؛ فهددهم فرعون ، وطلب منهم العدول عن هذا الإيمان ؛ وإلا أوقع بهم التعذيب والصلب ؛ فاستهانوا بوعيد فرعون ، وقالوا :

لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا .

لن نفضلك على ما وصل إلينا وشاهدناه من المعجزات ، ومن الذى خلقنا وأوجدنا ، أو نقسم بالذى فطرنا وخلقنا .

فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ .

أى : احكم بما تشاء ، ونفذ ما تريد من وعيد ؛ فإن ذلك لن يصيب إلا أجسامنا هذه الفانية .

إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ .

أى : إنك تتسلط فى هذه الدنيا وحدها ، أما الآخرة فلا سلطان لك عليها ؛ لأن الملك فيها لله وحده .

٧٣ - إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ .

جمع فرعون السحرة بالقوة والإكراه ، وبالترغيب والترهيب .

روى الحسن : أن السحرة الذين حشدوا من المدائن ليعارضوا موسى ؛ أحضروا مكرهين ، وأكرهوا على إظهار السحر ، وروى : أن رؤساء السحرة كانوا (٧٢) اثنان منهم من القبط ، والباقون من بنى إسرائيل ، وردت هذه الرواية فى تفسير المراغى ، لكنها لا تثبت أمام النقد العلمى .

والأرجح منها ما ورد فى مختصر تفسير ابن كثير ، وهو ما رواه ابن أبى حاتم : عن ابن عباس فى قوله تعالى : وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ . قال : أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء ،[٦٥] وقال : علموهم تعليما لا يعلمه أحد فى الأرض ، قال ابن عباس فهم الذين آمنوا بموسى وهم الذين قالوا : ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ .

ولعل الإيمان الحقيقى بدأ فى قلوب مجموعة من السحرة ؛ ثم انضم إليهم الباقون ؛ خصوصا بعد مشاهدة المعجزات الباهرة لموسى وهارون .

وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ .

أى : إن الله خير لنا منك وأفضل ، وعذابه ونعيمه أبقى وأدوم .

وقد اختلف المفسرون : هل فعل فرعون بهم ما توعدهم به أو لم يفعله بهم .

رجح ابن كثير أن فرعون فعل ذلك ، ونفَّذه بالسحرة ؛ ليكونوا نماذج فى التضحية ؛ كما قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة .

وقال الشيخ الشنقيطى فى تفسير أضواء البيان ما يأتى :

قال قوم : قتلهم وصلبهم ، وقوم أنكروا ذلك ، وأظهرهما عندى أنه لم يقتلهم ، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله تعالى ؛ لأن الله قال لموسى وهارون : أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ . (القصص : ٣٥)

٧٤ - إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ .

استرسل السحرة فى موعظة فرعون ، وتقدير الحقائق أمام عينيه ، فذكروا له : أن الناس فى القيامة فريقان :

فريق المجرمين : ولهم عذاب فى جهنم طويل ، شاق يتمنون فيه الموت ، فلا يجابون إلى طلبهم ، فهم فى حياة بائسة يائسة .

قال تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر : ٣٦) .

وقال سبحانه وتعالى : وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ . (٧٧ ، ٨٧) .

وقريب من ذلك ، ما قالته زوجة صخر ، حين سئلت عنه وهو مريض ، فقالت : لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فينعى .

أما الفريق الثانى : فهو فريق المؤمنين ، وهؤلاء لهم منازل سامقة فى عليا الجنان .

٧٥ - وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ .

ومن لقى ربّه مؤمنًا بالله ورسله ، وبالبعث والحساب ، وعمل الأعمال الصالحة فى دنياه ، فهؤلاء لهم الدرجات العالية فى الجنة ، والجنة منازل ودرجات ، ما بين كل درجة وأخرى كما بين السماء والأرض .

أخرج الإمام أحمد والترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : «الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة والعرش فوقها فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى»[٦٦] .

وفى الصحيحين : «إن أهل عليين ليرون مَنْ فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء ؛ لتفاضل ما بينهم» . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء ؟ قال : «بلى والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين»[٦٧] .

وفى السنن : أن أبا بكر وعمر لمنهم ونعمًا .

٧٦ - جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ .

هذه الآية تفسير للدرجات العلى ، بأنها جنات إقامة تجرى من تحت غرفها الأنهار ، ماكثين فيها وخالدين فى نعيمها خلودًا أبديًّا . وذلك العطاء الجزيل جزاء من تطهر من الشرك وتخلص من دنس الكفر والمعاصى ، وآمن بالله ورسله ، وهكذا انتهت تلك المحاورة بين فرعون والسحرة بصمود السحرة ، وانتقالهم من التلقى إلى المبادرة ؛ بالموعظة الحسنة وبيان : عقوبة المكذبين وجزاء المؤمنين .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

السرى والإسراء : السير ليلاً .

اضرب لهم : اجعل لهم .

يبسا : طريقًا يابسًا لا ماء فيه .

الدرك : الإدراك واللحوق .

تخشى : تخاف غرقا .

أتبعهم : تبعهم .

فغشيهم من اليم ما غشيهم : فغمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم ، من الأمر الهائل الذى لا يعلم كنهه إلا الله .

أضل فرعون قومه : سلك بهم مسلكا من الضلال والخسران .

وما هدى : ما أرشدهم إلى طريق السعادة والهدى .

الأيمن : الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام .

المن : نوع من الحلوى يسمى : الترنجبين .

السلوى : طائر شبيه بالسمانى .

لا تطغوا فيه : لا تأخذوه من غير حاجة إليه .

فيحل عليكم غضبى : ينزل بكم .

هوى : سقط وهلك .

غـــــفـــــار: كثير المغفرة والستر للذنوب.

اهـــــتـــــدى: لزم الهداية واستقام.

تمهيد:

فى الآيات السابقة تحدث القرآن الكريم عن منازلة السحرة أمام موسى، وانتهت هذه المنازلة بإيمان السحرة، وقد استمر موسى بعد ذلك قرابة عشرين سنة، يعرض دعوته ورسالته، ويشتد فرعون فى التكذيب؛ فأرسل الله عليه ألوانا من العذاب؛ فصَّلها فى سورة الأعراف، وطوى ذكرها هنا؛ لينتقل إلى تعديد نعم الله على بنى إسرائيل، حيث نجى الله موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، وعدد نعمه على بنى إسرائيل؛ حيث نجاهم من عذاب فرعون، وأنزل عليهم التوراة، وأنزل عليهم المن والسلوى، ودعاهم إلى التوبة والإنابة.

التفسير:

٧٧ - وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ.

عندما ضاق الأمر على بنى إسرائيل، واشتد العذاب من فرعون، وقالوا: أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. (الأعراف: ١٢٩). عندئذ أمر الله موسى أن يسير مع بنى إسرائيل ليلا.

ومعنى الآية ما يأتى:

أوحينا إلى نبينا موسى: أن اخرج مع عبادى المؤمنين ليلا، واتجه إلى البحر الأحمر؛ وسيحاول فرعون أن يجمع جيشا كبيرًا ليدركك؛ فلا تخف من فرعون؛ فلن يدركك، ولا تخشى البحر فسوف يكون به اثنا عشر طريقا يابسًا، فى قلب البحر، بقدرة الله؛ حتى تسير كل قبيلة فى طريق.

وفى الآية جميل عناية الله بالمؤمنين، بعد أن آمن السحرة، وأعلنوا إيمانهم، واستعدادهم للاستشهاد؛ وبعد أن صبر المؤمنون طويلا، تدخلت عناية الله، فالقوة غير متكافئة؛ فرعون يملك المال والجند ووسائل التعذيب، وموسى والمؤمنون يتعرضون للبلاء؛ عندئذ تدخلت عناية الله فقال: أَسْرِ بِعِبَادِى. وسماهم: عباد الله؛ تعطفا وتحننا عليهم؛ لما أصابهم من ظلم فرعون وعدوانه، وبشرت الآية موسى بالنصر، وولوج الماء على طرق يابسة.

فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا.

مع اطمئنان موسى أن فرعون لن يدركه.

لَا تَخَـٰفُ دَرَكًا . وهى جملة حالية أى لا تخف من إدراك فرعون لك من الخلف .

وَلَا تَخْشَىٰ . من أن تغرق أنت ومن معك فى البحر من الأمام .

٧٨ – فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ .

عندما علم فرعون أن موسى جمع بنى إسرائيل ، وسار ليلاً ، جمع فرعون جيشا كبيرا وسار خلفهم فأدركهم ؛ عند شروق الشمس ، وأحس قوم موسى بالخطر ، فالعدوّ خلفهم ، والبحر أمامهم ، لكن موسى كان على ثقة من وعد الله له ، فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه ، فانفلق البحر وكان به طَرِيقًا . أى : جنس الطريق ؛ لأنه كان به اثنا عشر طريقًا يابسًا ، سار فيها موسى وقومه ، وأمره الله أن يترك البحر مفتوحًا ، ولما وصل فرعون وجنوده ، اشتد الحنق والغيظ بفرعون ، وسار وراء بنى إسرائيل ؛ بغيا وعدوانا ، فنجى الله موسى وقومه إلى الشاطئ الآخر ، ثم أطبق البحر على فرعون وقومه ، وغشيتهم الأهوال والموت وسكرات الغرق والاختناق قال تعالى :

فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ .

أى : أهوال لا يعلمها إلا الله ، وفى قراءة فغشيهم من اليم ما غشّاهم . أى : أمواج وهلاك وموت .

٧٩ – وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ .

وقد سلك فرعون بقومه سبيل الهلاك والدمار ؛ فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والهلاك ، وكان فرعون يدّعى : أنه على الرشاد ، كما ورد فى سورة غافر : قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . (غافر : ٢٩) .

وقد أجمل القرآن هنا فى هاتين الآيتين ما فصله فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، ففى سورة الشعراء قال تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ . (الشعراء : ٥٢ – ٦٨) .

وفى سورة الدخان يقول الله تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ . (الدخان : ١٧ - ٢٩) .

وقال تعالى : وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ . (يونس : ٩٠ - ٩٢) .

٨٠ - يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ .

شرع الله سبحانه وتعالى يعدد نعمه على بنى إسرائيل ومن هذه النعم ما يأتى :

١ - أنجاهم الله من العذاب على يد فرعون ، حيث كان يقتّل الذكور ويستحيى الإناث ، فيسر الله لهم الخروج مع موسى ، ويسَّر الله لهم طريقا يابسًا فى البحر ، وأغرق فرعون وهم ينظرون إليه .

٢ - بعد النجاة من فرعون واعد الله موسى بعد أربعين ليلة قضاها صائما قائما ، وطلب منه أن يأتى إلى الطور ؛ حيث يكون الطور عن يمينه وهو فى طريقه من مصر إلى الشام [٦٨] ؛ فأنزل الله عليه التوراة وفيها الهداية والنور لكم .

٣ - وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ . وهو مادة حلوة تشبه العسل ، كانت تنزل لهم على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وَٱلسَّلْوَىٰ . طائر يشبه السمانى حلو لذيذ تحمله ريح الجنوب. فيأخذ كل فرد ما يكفيه من هذا الطير.

٨١ - كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ .

أى : قلنا لهم : كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات ، التى رزقناكم إياها مثل المن والسلوى وغيرهما، ولا تتجاوزوا الحدود بالإسراف ، أو استخدام النعم فى المعاصى ، أو الخروج عن الحدود التى رسمها الله لكم، فإنكم إذا خالفتم أمر الله ، وتجاوزتم حدود الله ، أنزل بكم غضبه ونقمته ، ومن نزل به غضب الله وانتقامه؛ فقد هلك وعُذِّب .

٨٢ – وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ .

إن الله سبحانه كثير المغفرة لمن تاب إلى الله ، ورجع إليه ، وداوم عمل الأعمال الصالحة ، واستمر على الهداية إلى الموت ؛ فما أسعد الإنسان الذى يتوب إلى الرحمان ، ويداوم على الأعمال الصالحة والعبادة والصلاة والزكاة ، وغيرها من الطاعات ، حال كونه على هداية وطاعة ومحبة لله تعالى .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

جاء على أثره : إذا جاء لاحقا بلا تأخير .

فتنا قومك : اختبرناهم .

أضلهم : أوقعهم فى الضلال والخسران .

السامرى : من شعب إسرائيل ، من بطن يقال له : السامرة ، واسمه موسى .

الأسف : الحزين .

الوعد الحسن : إعطاء التوراة التى فيها هدى ونور .

العهد : زمان الإنجاز .

موعدى : وعدكم إياى بالثبات على الإيمان ، وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف .

بملكنا : بقدرتنا واختيارنا .

الأوزار : الأثقال والأحمال .

القوم : القبط .

قذفناها : طرحناها فى النار .

جسدا : جثة لا روح فيها .

الخوار : صوت العجل .

فنسى : غفل عنه موسى ، وذهب يطلبه عند الطور .

لا يرجع إليهم قولا : لا يرد عليهم جوابا .

لا يملك لهم ضرا ولا نفعا : لا يملك أن يجلب لهم نفعا ، أو يدفع عنهم ضرا .

تمهيد :

هذه الآيات تذكر موقفًا مؤلمًا من مواقف بنى إسرائيل ؛ حيث ذهب موسى لميعاد ربّه ، ومكث أربعين يومًا صائمًا قائمًا ، واستخلف أخاه هارون على قومه ؛ بيد أن الله أخبره بأن السامرى ارتكب ضلالا وفتنة لقومه ، حين صاغ من الحلى بعد أن وضعت فى النار ؛ عجلا من الذهب ، مجوفًا إذا دخل الهواء فيه ، صار له صوت وخوار كصوت العجل ، وكان المصريون قد عبدوا عجل أبيس ، فحنَّ اليهود إلى مثل تلك الوثنية ، ولامهم القرآن ووبخهم ؛ وذكر أن هذا العجل لا يسمع ولا يجيب ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

التفسير :

٨٣- وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ .

أى شىء عجَّل بقدومك بدون قومك يا موسى ؟

كان موسى قد استخلف هارون على قومه ، ووصاهم أن يلتزموا بهدى السماء ، ولا ينحرفوا عن الصراط المستقيم ، وظن موسى أنهم ساروا على نفس الطريق ، فقال لِلّه تعالى : هم يسيرون على طريقى ، وقد أسرعت فى التقدم ؛ شوقا إلى مناجاة ربِّى .

وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ .

أسرعت إليك ؛ لتزداد عنِّى رضا .

وقال الزمخشرى :

كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ، ثم تقدمهم؛ شوقا إلى كلام ربّه .

٨٤ - قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ .

قال المراغى :

هم أولاء بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتدّ بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة ، يتقدم بها بعض الرفقة على بعض ، ... والموعودُ بما يسرُّ ، يودّ لو ركب أجنحة الطير ؛ ليحظى بما يبتغى ويريد .

٨٥ - قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ...

أى : ابتليناهم واختبرناهم ، بعد فراقك إياهم .

قال ابن الأنبارى :

صيرناهم مفتونين ، أشقياء بعبادة العجل ؛ من بعد انطلاقك من بينهم .

وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ .

أوقعهم السامرى فى الضلالة ، بسبب تزيينه لهم عبادة العجل .

قال المفسرون :

كان موسى حين جاء لمناجاة ربه ؛ قد استخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون ، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله ، وفى أثناء غيبة موسى ، جمع السامرى الحلىَّ ثم صنع منها عجلا ودعاهم إلى عبادته ، فعكفوا عليه ، وكانت تلك الفتنة قد وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما ، اعتبروا النهار يومًا ، والليلة بمقدار يوم فكأنها أربعين يومًا .

٨٦ - فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى .

أى : رجع موسى من الطور ، بعد ما استوفى الأربعين ، وأخذ التوراة ، واصطحب معه سبعين رجلاً من النقباء ؛ كانوا أسفل الجبل ، وعادوا جميعا إلى قومه ، وكان موسى شديد الغضب والأسف والحزن ؛ بسبب عبادة قومه للعجل ، وأخذ يلومهم ويقول لهم: أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ؛ بإنزال التوراة فيها الهدى والنور؟! والاستفهام هنا للتوبيخ ، ثم قال لهم : هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد ؟! أم أردتم بصنيعكم هذا : أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم موعدى ؟! وكانوا قد واعدوا موسى ، أن يتمسكوا بالدين ولا يحيدوا عنه ، ثم خالفوا .

فقال موسى لهم : أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ . فنسيتم ؟! أم تعمدتم المعصية فَأَخْلَفْتُم ؟!

٨٧ – قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ .

أى : قال قوم موسى له : ما أخلفنا العهد والوعد ، الذى أعطيناه لك بالثبات على طاعة الله ، بإرادتنا واختيارنا ، ولكن غُلبنا على أمرنا ، وزيَّن لنا السامرى عملنا ، وكانوا قد حملوا أكْدَاسًا من حلى المصريات ، استعاروها من المصريات ؛ بحجة أن لهم عيدًا يتزينون فيه بها ، ثم حملوها معهم ، وأحسُّوا بالإثم والذنب ؛ لوجودها معهم ، فتخلصوا منها ، وألقوا بها فى حفرة واستغل السامرى الفرصة ، وأخذ هذه الحلىّ فصاغ منها عجلا ، وجعل له منافذ ، إذا دارت فيها الريح ؛ أخرجت صوتا ، كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد – ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه – فما كادوا يرون عجلاً من ذهب يخور ؛ حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من أرض الذلّ ، وعكفوا على عجل الذهب يعبدونه .

٨٨ – فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ .

أى : صاغ السامرى من هذه الحلى ، صورة عجل تدخل فيه الريح بطريقة فنِّية ؛ فيصبح له خوار كصوت العجل الحقيقى ، فقال القوم فى بلادة وبلاهة : هذا العجل هو إلهكم ، ومعبودكم الذى تعبدونه ، وهو إله موسى أيضًا ؛ ولكنه غفل عنه وذهب إلى الطور ؛ لمناجاة ربّه ، ونسى أن هذا هو الإله .

٨٩ – أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .

أفلا يفكرون بعقولهم ، فى أن هذا العجل لا يملك لهم خطابا ؛ فهو لا يتكلم ولا يردّ جوابا ، ولا يملك لهم جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، فكيف يكون إلها ؟ وهنا احتكام إلى العقل واللب والفكر ، فى أن المعبود جسد أصم ، لا يملك الكلام ولا الحركة ؛ فهو لا يرفث ولايتحرك ، ولا يسمع ولا يجيب ، ولا ينفع ولا يضرُّ ، فكيف يعبد من دون الله الحق ؟!

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

المفردات :

فتنتم به : وقعتم فى الفتنة والضلال .

فاتبعونى : فى الثبات على الحق .

لن نبرح : لا نزال .

عاكفين : مقيمين .

بلحيتى ولا برأسى : بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .

خشيت : خفت .

ولم ترقب قولى : ولم تراع .

فما خطبك : ما شأنك ؟ وما الأمر العظيم الذى صدر منك ؟

بصرت بما لم يبصروا به : (بضم الصاد فيهما) أى : علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له .

من أثر الرسول : قبضت شيئا من أثر فرس جبريل ؛ فطرحتها على العجل فكان له خوار.

سولت لى نفسى : زينت وحسنت .

لا مســـــــاس : لا مخالطة ، فلا يخالط أحدًا ، ولا يخالطه أحدًا ، فعاش وحيدًا فريدًا .

لـن تـخـلـفـه : لن يتخلف .

لـنـحـرقـنـه : لنحرقنه بالنار أو لنبردنّه بالمبرد .

لـنـنسـفـنـه : لنذرينّه رمادًا .

فـى الـيـم نسـفـا : فى البحر نذريه فلا يبقى منه عين ولا أثر .

وسع كل شىء علما : وسع علمه كل شىء وأحاط به .

تمهيد :

تحكى هذه الآيات جهود هارون وموسى عليهما السلام ؛ فقد نصح هارون قومه بالثبات على الحق، فلم ينتصحوا ؛ فهم قوم جاوروا الوثنية وعبادة عجل أبيس ؛ فما إن رأوا عجلا جسدًا له خوار ؛ حتى عادوا إلى الوثنية ، وتحكى لوم موسى لهارون ، وتلطف هارون فى الاعتذار له ، ومناقشة موسى للسامرى ، وشرح السامرى لموقفه ؛ ثم دعاء موسى على السامرىّ أن يعيش وحيدًا طريدًا ، ثم تحريق العجل وإلقاء الرماد فى اليمّ ؛ ليقتلع عبادته وحبّه من قلوب بنى إسرائيل ، الذين ألفوا الوثنية ، حتى إنهم بعد أن فرق الله بهم البحر، ونجاهم من البحر ، ومن فرعون وإذلاله لهم ، وجدوا قومًا يعبدون أصناما ، فاقترحوا على موسى أن يجعل لهم صنما مثلهم ليعبدوه ، فاستنكر موسى قولهم ، وذكرهم بالله ، الذى فضلهم على عالمى زمانهم ، وذلك لإيمانهم بالله واتباعهم التوراة ، فلمّا ضلُّوا وأضلوا ؛ فقدوا هذا التفضيل .

التفسير :

٩٠ - وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ...

إن هارون رسول الله لم يقصر فى نصيحتهم ، حيث بين لهم : أن هذا العجل الذى صنعه السامرى من الذهب ، وأودع فيه الأنابيب لتحدث هذا الخوار ؛ اختبار وامتحان لكم ؛ ليظهر مدى ثبات إيمانكم ، ومدى طاعتكم لربكم .

وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى .

وإن ربكم المستحق للعبادة ، هو الرحمان الخالق الرازق ، الذى نجاكم من الذّل ، وأسبغ عليكم نعمه فاتبعونى فى طاعتى لله ، وأطيعوا أمرى فى الثبات على عبادة الله ، وترك عبادة العجل .

٩١- قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ .

قالوا : لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى ، فينظر فى الأمر ، وليس غرضهم إلا التعلل والتسويف ، والبلادة الحسية والمعنوية ، فبدلاً من شكر الله وعبادته ، والتقرب إليه واتباع هارون فى نصيحته ، نَسُوا كلّ النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وعادوا إلى الوثنية ، وعبادة العجل .

٩٢،٩٣- قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى .

يفيد السياق : أن موسى عاد من مناجاته لله ، غاضبا أسفًا حزينا وكان قد استخلف هارون على قومه، فاتجه موسى إلى هارون ولامه وأنَّبه ، حيث إنه لم يتخذ موقفا حاسمًا من الذين عبدوا العجل ، فلم يقاتلهم مثلا ، ولم يعتزلهم ؛ بل استمرّ مقيمًا معهم ، وأمسك موسى بشعر لحية هارون ، وبشعر رأسه ، فى حدة وصرامة وانفعال ، يريد أن يلومه ويؤنبه وينكر عليه ، ويقول له : ما منعك حين رأيت كفرهم وضلالهم ، أن لا تتبعنى فى الغضب لله ، والإنكار عليهم ، والزجر لهم عن الضلال .

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى .

أخالفتنى وتركت أمرى ووصيتى ؟! يشير إلى نصيحته السابقة له التى حكاها القرآن الكريم :

وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ . (الأعراف : ١٤٢) .

٩٤- قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى .

قال هارون مستعطفًا أخاه موسى : يَبْنَؤُمَّ . أى : يا أخى : لا تأخذ بشعر رأسى ، ولا بشعر لحيتى ، غاضبا منى محتدًا على ، فإنى رأيت من الحكمة الصبر والانتظار والتريث ؛ حتى تحضر أنت ، فتتدراك الموقف ، وقد خشيت أن أقاتل الكافرين ، عُبَّاد العجل ؛ فيتفرق الناس إلى فريقين ، ويترك ذلك من الإحن والبغضاء فى النفوس ما يترك ، وربما صعب تدارك الموقف ، إذ يترسخ النفور والبغض بين الفريقين .

وخلاصة ذلك : إنى رأيت من صواب الأمر أن أحفظ العامة ، وأداريهم على وجه لا يختل به نظامهم ؛ ولا يكون سببا للومك ، حتى ترجع فتتدارك الأمر بحسب ما ترى ؛ لاسيما أن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

كان موسى عليه السلام رجلا حديدًا مجبولاً على الحدّة والخشونة ، والتصلب فى كل شىء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله ، من بعد ما رأوا الآيات العظام؛ أن ألقى ألواح التوراة ؛ لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة ؛ غضبًا لله واستنكافا وحميَّةً ، وعنف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدوّ المكاشف قابضا على شعر رأسه – وكان أفْرعًا – وعلى شعر وجهه يجره إليه . ا هـ .

وقد تحدث القرآن عن هذه المعانى فى سورة الأعراف ، وأضاف هناك إحساس بعض عبُّاد العجل بالندم والخجل ، وأن من أصر على عبادة العجل واتخاذه إلها ؛ فله غضب وذلة فى الدنيا وعقوبة فى الآخرة، وأن من تاب ؛ تاب الله عليه .

قال تعالى : وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ولاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ * وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (الأعراف : ١٤٨ – ١٥٣) .

٩٥– قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ .

أى : ما شأنك وما قصتك ، وما هو الخطب الجليل الذى اقترفته يا سامرى ، وما الذى حملك عليه ؟

٩٦– قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى .

تفيد كتب التفسير : أن السامرى شاهد أثر فرس جبريل عليه السلام ، ودبَّ فى نفسه أن أثر الفرس لا يخالط شيئا إلا دبت فيه الحياة ؛ فأخذ قبضة من أثر فرس جبريل ، وألقاها على العجل الذى صوّره من زينة القوم ؛ فدبت فيه الحياة ، وكان له خوار كصوت العجل .

وأنكر أبو مسلم الأصفهانى مثل هذه الروايات ؛ لأنها لا سند لها ؛ بل هى من الإسرائيليات التى أمرنا بالتوقف نحوها ، فلا نصدقها ولا نكذبها ، وأيده فى ذلك الإمام فخر الدين الرازى وقال : إنه أقرب إلى التحقيق ، وقد ردّ الإمام الآلوسى على الإمام فخر الدين الرازى ، وذكر : أن رؤية السامرى دون غيره لجبريل كان ابتلاء من الله تعالى ؛ ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

والأستاذ سيد قطب يورد كلام المفسرين ، الذى يفيد : أن السامرى رأى جبريل فأخذ قبضة من تحت قدميه ؛ أو من تحت حافر فرسه ... إلخ ثم يقول : والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث ، إنما هو يحكى قول السامرى مجرد حكاية .. ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرًا من السامرى وتملصا من تبعة ما حدث ، وأنه هو الذى صنع العجل بطريقة فنية أدت إلى هذه الفتنة .

أما تفسير المراغى فقد رجح أن المراد بالآية ما يأتى :

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ .

أى : قال السامرى : إنى عرفت ما لم يعرفه القوم ، ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق.

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا .

أى : كنت قد قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى : شيئا من أثرك ودينك ؛ فطرحته ورائى ظهريا، وسرت على النهج الذى اخترته وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى . أى : حسنت وزينت لى نفسى أن أعمل هذا العمل .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ما يأتى :

قال السامرى لموسى : عرفت من حذق الصناعة وحيلها ما لم يعلمه بنو إسرائيل ، وصنعت لهم صورة عجل له هذا الصوت ، وقبضت قبضة من التوراة فألقيتها فى جوف العجل تمويها على الناس .

٩٧- قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا .

اذهب مطرودًا معزولا لا يمسك أحدٌ لا بسوء ولا بخير ولا تمسُّ أحدًا ، وكانت هذه إحدى العقوبات فى ديانة موسى ، عقوبة العزل وإعلان دنس المدنّس ، فلا يقربه أحدٌ ، ولا يقرب أحدًا .

وقال : هام السامرى على وجهه فى البادية ، لا يخالط الناس ، ولا يخالطونه ، منبوذا مطرودًا .

قالوا : وهذه الآية الكريمة أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وعدم مخالطتهم .

وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ .

وإن لك موعدًا للحساب والعقاب لن يتخلف ، وهذه قراءة الجمهور ، بضم التاء وفتح اللام ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو لَّن تُخلِفه، بضم التاء وكسر اللام ، بمعنى : لن تستطيع التخلف عنه أو الإفلات منه بل ستأتيه وأنت صاغر .

وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا .

وانظر إلى هذا العجل الذى اتخذته إلها ؛ لنحرقنه بالنار ، ونبرده بردًا ؛ ليكون رمادًا ، ثم نذروه فى ٱلْيَمِّ وهو البحر نَسْفًا تذرية حتى لا يبقى منه عين ولا أثر ؛ ليتعظ الأغبياء ؛ أن مثل ذلك العاجز لا يمكن أن يكون إلها ، فلو كان إلها ؛ لدافع عن نفسه ، ومنع نفسه من الإحراق والتذرية .

٩٨- إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا .

أى : هذا العجل ليس إلها إنما إلهكم حقا ، هو الله سبحانه وتعالى ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ليس هناك إله سواه.

وقد اشتملت الآية على جملة إيجابية تثبت الألوهية لله سبحانه وتعالى ، وعلى جملة منفية تنفى الألوهية عن غيره وهى تذكرنا بما ورد من قوله تعالى فى بدايات سورة طه : إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ . (طه : ١٤) .

وقد اتجه موسى بهذا الكلام إلى بنى إسرائيل توبيخا لعبدة العجل ، وتوجيها لهم إلى الدين الحق .

وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا .

وسع علمه السماوات والأرض ، وكل شيء فى الكون ؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

وتنتهى مع هذه الآيات ، قصة موسى مع بنى إسرائيل فى سورة طه ؛ لأن ما تبع ذلك ، هو صورٌ من العدوان والرذائل التى ارتكبوها ، والعقوبات التى عاقبهم الله بها ، وسورة طه لمسة حنان ، ومنن من الله تعالى على رسوله محمد ﷺ ، وعلى أخيه سيدنا موسى عليه السلام .

★ ★ ★

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

المفردات :

ذكــــــرا : قرآنا ، وسمى بذلك ؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .

الـــــوزر : الحمل الثقيل ، والمراد به : العقوبة التى تثقل على حاملها .

الصـــــور : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يُدعى الناس إلى المحشر ، كما ينفخ فيه فى الدنيا حين الأسفار وفى المعسكرات .

زرقــــــا : زرق الأبدان ، سود الوجوه ؛ لما هم فيه من الشدائد والأهوال .

يتخافتون بينهم : يخفضون أصواتهم ويخفونها ؛ لشدة ما يرون من الهول .

إلا عشـــرا : عشرة أيام .

أمثلهم طريقة : أعدلهم رأيا ، وأرجحهم عقلا .

التفسير :

٩٩- كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ...

انتهت قصة موسى ، وقد بدأها الله تعالى مخاطبا رسوله بقوله : وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ... وعندما انتهت القصة ؛ أخبر الله رسوله : أنه يخبره بقصة موسى وغيرها من قصص الأمم السابقة ؛ كقصة عاد وثمود ، وقارون وأصحاب الكهف ، وأصحاب الجنة وقوم نوح وقصة زكريا ؛ ويحيى وعيسى وغيرها ، أى: نقص عليك قصص الأمم السابقة ؛ تثبيتا لفؤادك ، وتذكيرا لك وللآخرين بما أصاب المكذبين من الهلاك ، وما أصاب المتقين من النصر ؛ وليكون فى ذلك عظة وعبرة .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا .

أعطيناك ذكرًا هو القرآن الكريم ؛ تفضلاً ورحمة من عندنا ، والقرآن الكريم ذكر ؛ لأنه يذكر الناس بما ينفعهم فى شئون دينهم ودنياهم ، وهو شرف للرسول ولأمته ، ولكل من آمن به .

قال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

والقرآن يذكر الناس : بآلاء الله ونعمائه ، ويلفتهم إلى ما خلق الله فى السماوات وفى الأرض ، وفى أنفسهم ؛ ففيه التذكير والوعظ .

١٠٠- مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا .

من أعرض عن القرآن الكريم وصدّ عنه ؛ فإنه آثم مذنب ، مرتكب للوزر والذنب ، وسيحمل يوم القيامة أحمالا ثقيلة ينوء بها كاهله ؛ عقوبة على الأوزار والآثام التى ارتكبها فى الدنيا .

قال الزمخشرى :

والمراد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سمَّاها : وزرًا ؛ تشبيهًا فى ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل ، وينقض ظهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم .

وقد ذكر القرآن الكريم : أن الكافرين يحملون يوم القيامة أوزارهم وذنوبهم على ظهورهم ، ويحملون أيضا ذنوب الذين أضلّوهم .

قال تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ . (النحل : ٢٤ ، ٢٥) .

١٠١- خَـٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلاً .

أى : مقيمين فى ذلك الوزر ، أى : فى عقوبته التى لا يجدون عنها محيصا ولا انفكاكا . وبئس الحمل الذى حملوه فى الأوزار والآثام جزاء إعراضهم وتكذيبهم وكفرهم !

١٠٢- يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا .

أى : هذا اليوم هو يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية ؛ إيذانا بالقيام للحشر والحساب .

وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا .

وفى هذا اليوم يساق المجرمون إلى المحشر ، شاحبى الألوان ، زرق الوجوه ؛ دلالة على انحباس الدم وتجمده فى كيان الإنسان ؛ مما يعانى من ضيق وبلاء ، وقد عبر القرآن عن الكآبة والحزن الذى يظهر على وجوه الكافرين ، وفى مقابل ذلك نرى السرور والبشر على وجوه المؤمنين، فالوجه هو المرآة التى تظهر عليها الحالة النفسية والمعنوية للإنسان .

قال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ . (القيامة : ٢٢-٢٥) .

وقال عز شأنه : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ - ٤٢) .

١٠٣ - يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا .

يخفضون أصواتهم ، ويهمس بعضهم فى أذن بعض ؛ لِمَا امتلأت به قلوبهم من الرعب والذعر ؛ وبمعنى الآية قوله تعالى : فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٨) .

إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا .

يقول بعضهم لبعض : ما لبثتم فى قبوركم إلا عشرة أيام ، استقصارًا للمدة ، وتعبيرًا عن سرعة انقضائها ، وعن الندم على ما كانوا يزعمونه : من أنه لا بعث ولا حساب .

وقال بعض المفسرين :

المعنى : ما لبثتم فى الدنيا إلا عشرة أيام ؛ وذلك أنهم حين شاهدوا أهوال الآخرة ، وشدة العذاب ؛ استقصروا أعمارهم فى الدنيا ، ورأوا أنها قليلة قصيرة فى جانب أيام الآخرة .

قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

١٠٤ - نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا .

إن عِلمَنا شامل لكل شىء ، وليس تهامسهم خافيا علينا ؛ فنحن أعلم بالذى يقولونه فى مدة لبثهم ؛ حين يقول أعدلهم رأيا ، وأكملهم عقلا : ما لبثتم إلا يوما واحدًا .

ذلك أن الدنيا مهما تكررت أيامها ؛ فهى قصيرة الأجل ، بالنسبة إلى الحياة الحقيقية ، والخلود الأبدى فى الآخرة .

وقريب من ذلك قوله تعالى :

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ... (الروم : ٥٥) .

وقال سبحانه : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا . (النازعات : ٤٦) .

وقال تعالى : كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ . (المؤمنون: ١١٢، ١١٣) .

★ ★ ★

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

المفردات :

ينسفها : يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا .

يذرها : يتركها .

القاع : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات .

الصفصف : الأرض الملساء .

العوج : الانخفاض .

الأمت : النتوء اليسير .

الداعى : هو داعى الله إلى المحشر .

لا عـوج لـه : لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع .

خشـعت : ذلّت .

الـهـمس : الصوت الخفى .

عـنت : خضعت وانقادت ، ومن ذلك العانى وهو الأسير .

الـقـيـوم : القائم بتدبير أمور عباده .

خـاب : خسر .

من حمل ظلما : شركا .

فلا يخاف ظلما : منع الثواب عن المستحق .

الـهـضـم : النقص .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن مشاهد القيامة ؛ فالجبال تنسف نسفًا وتصبح رمادًا ، والأرض كلها تصبح ملساء مستوية ليس فيها منخفضات أو مرتفعات ، وينادى المنادى حين ينفخ فى الصور ، فيقوم الناس من قبورهم لا يتكلمون إلا همسا .

والشفاعة عندئذ لله وحده ولمن أذن له بذلك ، والله عليم بالخلق أجمعين ، ولا يحيطون بما علمه ، وقد ذلّت الوجوه واستجابت لأمر الله ، وخاب الظالمون والمشركون ، أما المؤمنون فلهم جزاءٌ كامل ؛ لا نقص فيه ولا حيف .

التفسير :

١٠٥ - وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش: يا محمد، كيف يفعل ربّك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت الآية : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ...

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم ، واستهزاء ، وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق ، وقيل: كان السؤال من بعض المؤمنين ؛ للتعلم .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ... أى : يسألك الناس يا محمد عن الجبال : كيف تكون يوم القيامة ؟

فقل لهم : يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا . أى : قل لهم : ستدك دكا وتصبح هباء تذروه الرياح .

١٠٦- فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا .

إن الأرض كلها تصبح مستوية ؛ لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، والله يترك مكان الجبال قَاعًا صَفْصَفًا. والقاع : هو المنكشف من الأرض ، دون أن يكون عليه نبات أو بناء ، والصفصف : الأرض المستوية الملساء حتى لكأن أجزاءها صف واحد من كل جهة .

١٠٧- لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا .

أى : لا ترى فى الأرض بعد اقتلاع الجبال عنها ؛ عِوَجًا مكانا منخفضا ؛ وَلَآ أَمْتًا مكانا مرتفعا ؛ فالأرض كلها فى ذلك اليوم مستوية ملساء ؛ لا انخفاض فيها ولا ارتفاع ، ينكشف الناس جميعا عليها ؛ فلا يحجبهم منخفض أو مرتفع .

١٠٨- يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ...

فى ذلك اليوم يتبع الناس جميعا داعى الله ، إلى أرض المحشر ، لا ينحرفون عنه ولا يميلون عن دعوته ، وقد كانوا في الدنيا ينصرفون عن دعوة الحق ، وينصرفون عن الإسلام ، لكنهم اليوم يحشرون خاشعين خاضعين ، وقد ظهرت على وجوه الكافرين المذلة والانكسار ؛ من هول الحشر وويلات الحساب .

قال تعالى : مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ . (القمر : ٨) .

أى : مسرعين إلى إجابة الداعى ، الذى يدعو الجميع إلى الحشر والنشر والحساب .

قيل : يناديهم بقوله : «أيتها العظام البالية ، والجلود المنخرقة ، واللحوم المتفرقة .. قومى إلى ربك للحساب والجزاء» ، فيسمعون الصوت ، ويقولون : لبيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك .

والخلاصة : أظهروا الاستجابة والخشوع والطاعة .

وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا .

ذلت الأصوات فى ذلك اليوم من هيبة الجبار ، فلا تسمع فى ذلك اليوم إلا صوتا خافتا لا يكاد أن يسمع.

قال ابن عباس : هو همس الأقدام فى مشيها نحو المحشر ، كما ورد فى تفسير الطبرى .

١٠٩- يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا .

فى ذلك اليوم ، لا تنفع الشفاعة أحدًا من الناس ، إلا لمن أذن له الرحمان فى الشفاعة ، ورضى سبحانه قول الشافع فيمن يشفع له .

إن الشفاعة فى ذلك اليوم لا تتم إلا على أساس مقبول ؛ إذ يجب أن يكون المشفوع له من أهل لا إله إلا الله ، كما قال ابن عباس .

أى : يجب أن يكون من أهل التوحيد ، وأن تكون الشفاعة بالعدل والقسطاس المستقيم ، وهذا كقوله تعالى : مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وكقوله سبحانه : وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ... (الأنبياء : ٢٨) .

وكقوله عز وجل : وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ . (النجم : ٢٦) .

وخلاصة القول : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمان فى أن يشفع ، وكان له قول يُرضى .

قال عز شأنه : يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا . (النبأ : ٣٨).

إنه يوم الدِّين أى : الجزاء العادل ، فلا ظلم فى ذلك اليوم ، ولا مخالفة ، ولا حيف ؛ لأن الأمور كلها بيد الله سريع الحساب .

قال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

وقد ورد فى الصحيحين : أن الموقف إذا اشتدّ ، واشتد الزحام ، ألهم الناس أن الشفاعة للأنبياء ، فيذهبون إلى آدم ، ثم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول كل واحد منهم : نفسى ، نفسى ؛ إن الجبار غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب مثله ، ثم يذهبون إلى النبى محمد ﷺ ، فيقول : «أنا لها ، أنا لها» ثم يذهب تحت العرش فيخر ساجدًا لله تعالى ، ثم يلهمه الله من الثناء على الله والحمد لله بما هو له أهل ، ثم يقول سبحانه : «يا محمد ، ارفع رأسك وقل يُسمع قولك ، واشفع تشفع» فذلك قوله تعالى : عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء : ٧٩) .

١١٠ – يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا .

يعلم الله تعالى ما بين أيدى عباده من شئون الآخرة وَمَا خَلْفَهُمْ من شئون الدنيا ، ولا تحيط علومهم بمعلوماته عز وجل ، فالخلائق جميعا لا يحيط علمهم لا بذاته تعالى ولا بصفاته ولا بمعلوماته .

قال تعالى : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وقيل : المراد : لا يحيطون بمعرفة ذاته ؛ إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله ، واختاره فى التسهيل .

١١١- وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا .

إنه الجلال والهيبة والخشوع ، والخضوع لأمر الله فى ذلك اليوم ، وقد جاء الجميع فى خشوع وخضوع ، لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، القائم على كل نفس بما كسبت .

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ . ذلّت وانقادت واستسلمت لأمر الله ، وخص الوجوه ؛ لأنها أشرف شىء فى الإنسان ، ولأن آثار المذلة أو السرور تظهر كأوفى ما تكون فى الوجه .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

المراد بالوجوه : وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة : الخيبة ، والشقوة ، وسوء الحساب ؛ صارت وجوههم عانية ، أى : ذليلة خاضعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى ؛ كقوله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... (الملك : ٢٧) .

وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا . خسر من أشرك بالله ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه .

١١٢- وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا .

ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته ، وهو مؤمن بربه وملائكته وكتبه ورسله ؛ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا بزيادة سيئاته ، وَلَا هَضْمًا ولا بخسًا ونقصًا لحسناته ؛ فالإنسان يوفى جزاء عمله ، ولا يُظلم مثقال ذرة ، وإن فعل حسنة ضاعف الله ثوابها .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

والخلاصة : أن العبد لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ، ولا تبطل له حسنة قد عملها .

قال تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... (الأنعام : ١٦٤) . أى : لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

المفردات :

صرفنا : كررنا وفصلنا .

ذكرا : عظة وعبرة .

فتعالى الله : تنزه وتقدّس .

الحق : الثابت فى ذاته وصفاته .

يقضى إليك وحيه : يُتم جبريل تبليغه لك .

تمهيد :

نزل القرآن بأسلوب عربى مبين ، واشتمل على صنوف البلاغة والبيان ولوّن الله فيه ألوان الوعيد لعل ذلك يهدهد كبرياء العصاة ، أو يذكّرهم بعظمة الله . والله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى .

التفسير :

١١٣– وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا .

أى : مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة ، وعلى هذا النسق أنزلنا عليك يا محمد هذا الكتاب بلغة العرب ؛ ليعرفوا أنه آية فى الفصاحة والبلاغة ، ونوّعنا فى هذا القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده ؛ لعله يستجيش فى نفوس المكذبين شعور التقوى أو يذكرهم بما سيلقون فى الآخرة ؛ لينزجروا، ويمتثلوا ، ويفعلوا ما أمروا به ، ويتركوا ما نهوا عنه .

١١٤– فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ...

تنزه الله وجلّ فى علاه ، وتقدّس الملك الحق ؛ الذى قهر سلطانه كل جبار ؛ عما يصفه به المشركون من خلقه .

وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ...

ولا تعجل بقراءة القرآن فى نفسك ، من قبل أن يتم جبريل تبليغه لك ؛ بل استمع وانصت وتفرغ تماما لتلقى الوحى . فإذا انتهى جبريل من تبليغه لك ، فاقرأه أنت .

قال ابن عباس :

كان النبى ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى ؛ حرصا على حفظ القرآن ومخافة النسيان ؛ فنهاه الله عن ذلك .

قال القرطبى :

وهذا كقوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ . (القيامة : ١٦ – ١٩) . ا هـ .

أى : إن علينا جمعه فى صدره ، وقراءته على لسانه ؛ فإذا قرأه جبريل وانتهى من قراءته ؛ فاقرأ أنت، ثم إنّا تكلفنا ببيان معانيه لك ، وإلهامك المعنى .

قال تعالى : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (النحل : ٤٤) .

وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا .

أى : سل الله : زيادة فى العلم ، دون استعجال الوحى ، وأنت مطمئن إلى ما يعطيك ، ولا تخشى عليه الذهاب ؛ فإن ما أوحى إليك يبقى لا محالة .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقول : «اللهم ، انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار» [٦٩] .

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم ، زدنى إيمانا وفقها ، ويقينا وعلما .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

المفردات :

العهد : الوصية يقال : عهد إليه الملك بكذا ، وتقدم إليه بكذا : إذا أمره وأوصاه به .

من قبل : من قبل وجود هؤلاء المخالفين .

نسى : ترك .

ولم نجد له : ولم نعلم له .

العزم على الشيء : تصميم الرأى والثبات عليه .

أبى : امتنع .

تشقى : تتعب بمتاعب الدنيا وهى لا تكاد تحصى .

تظمأ : تعطش .

تضحى : تصيبك الشمس ، يقال : ضحا ؛ إذا أصابته الشمس بحرها اللافح .

شجرة الخلد : الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت .

لا يبلى : لا يفنى .

طفقا يخصفان : شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها .

غوى : ضل عن الرشد ، حيث اغتر بقول عدوّه .

اجتباه : اصطفاه وقربه إليه .

وهدى : إلى الثبات على التوبة .

عن ذكرى : عن الهداية بكتبى السماوية .

الضنك : الضيق الشديد .

أعمى : عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية .

آياتنا : أدلتنا .

فنسيتها : تركتها .

تنسى : تترك .

أسرف : انهمك فى الشهوات واسترسل فيها .

تمهيد :

تتناول الآية قصة آدم ، وقصة إبليس وامتناعه عن السجود لآدم ، ووسوسة إبليس لآدم وحواء بالأكل من الشجرة ، ثم خروج آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا .

التفسير :

١١٥ - وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا .

أى : أمرنا آدم بالأكل من ثمار الجنة ، وعدم الأكل من شجرة معينة ؛ تدريبا له على الإرادة والعزيمة، واتباع المأمورات ، واجتناب المنهيات . والإنسان مخلوق من طين ، وقد نفخ الله فيه من روحه ، وبقدر تساميه وعنايته بروحه وطهارته ؛ تعلو منزلته وتشرُّف آدميته ، وبقدر اتباع شهوات النفس وحظوظها ؛ تهبط منزلته .

وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا .

أى : نسى آدم عهدنا ، ولم نجد له ثبات قدم فى الأمور ؛ يجعله يصبر على عدم الأكل من الشجرة ؛ بل لانت عريكته ، وفترت همته بسبب خديعة الشيطان له .

من كلام المفسرين

قال فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

المعنى : ولقد وصينا آدم ، من أول أمره ، ألا يخالف لنا أمرًا ، فنسى العهد وخالف ، ولم نجد له أول أمره عزما وثيقا ، وتصميما قويا ، يمنع من أن يتسلل الشيطان إلى نفسه بوسوسته .

وجاء فى : أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ما يأتى :

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا .

كم قال فى تنزيه الأنبياء عن الذى لايليق بمنزلتهم ، مما ينسبُ الجهله إليهم ، من وقوعهم فى الذنوب عمدًا منهم إليها ، واقتحاما لها مع العلم بها ، وحاشى لله ، فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك ، فكيف بالنبيين ، ولكن البارى سبحانه وتعالى بحكمه النافذ ، وقضائه السابق ، أسلم آدم إلى المخالفة ؛ فوقع فيها متعمدًا ناسيا ، فقيل فى تعمده : **وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** . (طه : ١٢١) .

وقيل فى بيان عذره : **وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ** .

ونظيره من التمثيلات أن يحلف الرجل : لا يدخل دارًا أبدًا ، فيدخلها متعمدا ، ناسيًا ليمينه ، أو مخطئا فى تأويله ، فهو عامد ناس ، ومتعلق العمد ، غير متعلق النسيان ، وجاز للمولى أن يقول فى عبده : **وَعَصَىٰ**. تحقيرًا وتعذيبا ، ويعود عليه بفضله فيقول : **فَنَسِىَ** . تنزيها . ولا يجوز لأحدٍ منّا أن يخبر بذلك عن آدم إلا ما ذكرناه فى أثناء قول الله عنه ، أو قول نبيه ، وأمَّا أن نبتدئ فى ذلك من قبل أنفسنا ؛ فليس بجائز لنا فى آبائنا الأَدْنَين إلينا ، المماثلين لنا ، فكيف بأبينا الأقدم الأعظم ، النبى المقدم، الذى عذره الله، وتاب عليه ، وغفر له [٧٠] .

١١٦– وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ .

تقدم الكلام على قصة سجود الملائكة لآدم فى سورة البقرة ، وفى الأعراف وفى الحجر والكهف وسيأتى فى آخر سورة صٓ .

وقد ذكر الموضوع مجملا ، فالسورة لبيان ألطاف الله وفضله .

ومعنى الآية :

واذكر أيها المخاطب ، وقت أن قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ؛ سجود تكريم لا سجود عبادة ؛ فامتثلوا لأمرنا ؛ إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم ، تكبرا وغرورًا وحسدًا على هذا التكريم لآدم .

وكان إبليس مقيما مع الملائكة فَحُسِبَ منهم ، مع أنه غير داخل فيهم بل هو جنى بدليل قوله تعالى: إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ... (الكهف : ٥٠) .

قال الزمخشرى :

فإن قلتَ : كيف صح استثناؤه وهو جنى من الملائكة ؛ قلتُ : عمل على حكم التغليب ، فى إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه ، فأخرج الاستثناء على ذلك ، كقولك : خرجوا إلا فُلانة لامرأة بين الرجال [٧١] .

ومعنى : إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ . أى : امتنع واستكبر .

١١٧ – فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ .

أخبر الله آدم تنبيها له ، وتحذيرا له من عدوّه ، الذى امتنع عن السجود له .

والمعنى : قلنا : يا آدم ، إن إبليس عدو لك ولزوجك حواء ؛ يحاول أن يوسوس لك بالإغراء والتزيين، ومحاولة زحزحتك عن طريق الجادة ؛ فاحذر من طاعته ؛ لأنك إن أطعته ؛ أغضبت ربك ؛ فأخرجك من الجنة، التى تضمن فيها حياة هانئة ؛ لا جوع فيها ولا عرى ، ولا تعانى من شدة الحرارة أو شدة البرودة .

فإذا خرجت إلى الدنيا ؛ وجب عليك أن تشقى وتتعب فى زراعة الأرض والحصاد وإنضاج الطعام ، وسائر النفقات على نفسك وعلى زوجتك .

قال القرطبى :

وفى ذلك نعلم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم ، كانت كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية .

١١٨، ١١٩ – إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ .

إن الجنة نعيم دائم، وسعادة، وعز بلا ذل؛ فالجوع يذل الإنسان فى الباطن، والعرى يذله فى الظاهر، والظمأ حرارة الباطن ، وشدة الشمس وقوتها حرارة الظاهر .

فالجنة اجتمعت لها أسباب الأمن والسكن ، وراحة البال تمتعا بأنواع المعاش ، وأصناف النعم : من المآكل الشهية ، والملابس البهية .

ومعنى الآية :

احذر يا آدم أن تطيع إبليس ؛ فيحل بك الشقاء ؛ بحثا عن الطعام والرىّ والكسوة والمسكن . وهذه الأمور الأربعة ، هى الأسس التى يدور عليها كفاف الإنسان فى الحياة الدنيا .

أما أهل الجنة فهم آمنون مطمئنون ؛ يصل إليهم الطعام والماء والملبس والمسكن ، مع النعيم الدائم، والتمتع بكل مطالب الحياة الهنيئة الناعمة الدائمة .

١٢٠ – فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ .

الوسوسة : الخطرة الرديئة ، وأصلها من الوسواس وهو صوت الحلى، والهمس الخفى ، والوسواس من أسماء الشيطان كما قال تعالى فى سورة الناس : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ. (الناس : ١ – ٦) .

ومعنى الآية :

حدّث الشيطان آدم خِفية بطريقة الوسوسة ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة من أكل منها ؛ خلُد ولم يمت أصلا ، ونال الملك الدائم الذى لا يزول أبدا ؟!

وهى مكيدة لمس فيها الشيطان الموضع الحساس فى نفسه ؛ فالعمر البشرى محدود ، والقوة البشرية محدودة ، من هنا يتطلع الإنسان إلى الحياة الطويلة ، وإلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، وآدم مخلوق بفطرة البشر ، وضعف البشر ، ولأمر مقدور ، وحكمة مخبوءة ، ومن ثم نسى العهد وأقدم على المحظور .

١٢١ – فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ .

أى : أكل آدم وحواء من الشجرة ، فانحسر عنهما نور الله الذى ألبسهما إياه ؛ كما قال ابن عباس [٧٢].

وظهرت لهما عوراتهما ، وسميت سوءة ؛ لأنها تسوء من تنكشف عنه .

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ .

جمهور المفسرين : أنَّهما أخذا ورق التين ؛ ذلك أنه أكثر عَرْضًا من غيره ، وأخذا يلزقان عليهما ورق الجنة ، ويشبكانه حتى يستر العورة .

وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ .

أى : خالف أمر ربه بالأكل من الشجرة ؛ فأخطأ طريق الصواب ، وضلّ عن المطلوب ؛ الذى هو الخلود فى الجنة ؛ حيث اغتر بقول العدوّ.

قالوا : وقد سماه الله عصيانا وغواية مع صغير زلته ؛ تعظيما لها ، وتحذيرا ، وزجرًا بليغًا لأولاده عن أمثالها [٧٣] .

فإذا كان آدم قد خرج من الجنة بسبب ذنب واحد ؛ فكيف نطمع فيها مع كثير من الذنوب نرتكبها ، ولا نتوب منها .

قالوا : ولكن آدم فى عصيانه كان متأولا ؛ لأنه اعتقد أن النهى عن شجرة معينة ؛ إلا عن النوع كله ، وقالوا : وتسمية ذلك عصيانا لعلوّ منصبه ، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، كما قالوا : إن من الأسباب التى حملت آدم على الأكل من الشجرة ؛ أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصح ، فصدَّقه آدم عليه السلام ؛ لاعتقاده أنه لا يمكن لأحد أن يقسم بالله كاذبا ، والمؤمن غر كريم ، والفاجر خبٌّ لئيم ، كما جاء فى الحديث الشريف .

واختار بعض المفسرين أن الأكل من الشجرة كان قبل النبوة ، ثم تاب الله عليه وهدى بالنبوة والرسالة.

١٢٢ – ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ .

أى : ندم آدم هو وزوجته ، واعترفا لله بخطئهما ، وألهمهما التوبة ، وكلمات ودعوات كانت السبب فى قبول توبتهما قال تعالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . (البقرة : ٣٧) .

١٢٣ – قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ.

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآية : اهبطا يا آدم وحواء ، من الجنة إلى الأرض ؛ حال كون بعض ذريتكم عدو للبعض الآخر ؛ بسبب التنافس فى المعايش والتجارة والحياة الدنيا .

وقال ابن كثير :

قال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس : اهبطوا منها جميعا ، أى من الجنة كلكم .

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .

أى : آدم وذريته وإبليس وذريته ، وهذا الرأى أقرب إلى ما ذكر فى القرآن كثيرا مثل قوله تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (فاطر : ٦) .

فقد أعلن الله فى الملإ الأعلى للإنس والجن : أن الشيطان عدوٌّ للإنسان ؛ فليس لأحد أن يقول : إنما أخذت على غرة من حيث لا أدرى ؛ فقد درى وعلم بما أعلنه الله فى الوجود كلِّه .

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .

ومع هذا الإعلان الذى دوّن به السماوات والأرضون ، وشهده الملائكة أجمعون ؛ شاءت إرادة الله ، ورحمته بعباده ، أن يرسل إليهم الرسل ، وأن ينزل إليهم الكتب ؛ دعوة إلى الهداية وإرشادًا إلى الاستقامة .

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى .

فإن جاءكم من جهتى الكتب والرسل لهدايتكم .

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ .

من اتبع الهدى وآمن بالله ، وعمل بكتابه وأوامر رسوله ﷺ ؛ فلا يضلّ فى الدنيا ، ولا يخرج عن الهدى إلى الضلالة ، ولا يشقى فى الآخرة .

جاء فى تفسير القرطبى :

قال ابن عباس : ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ؛ ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، وتلا هذه الآية .

أخرج ابن أبى شيبة والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال: أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا ، أو يشقى فى الآخرة ؛ ثم قرأ الآية : ... فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ .

وروى عن ابن عباس مرفوعا إلى النبى ﷺ : «من اتبع كتاب الله ؛ هداه الله تعالى من الضلالة فى الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة» .

١٢٤– وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ...

من اتبع هدى الله ودينه وكتابه وشرعه ؛ فلا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة ، ومن أعرض عن شرع الله ودينه وكتابه ، وآثر العاجلة ، فإن له معيشة ضنكا ، ضيقة مؤلمة ، وقد يوجد المال أو الجاه أو السلطان أو مظاهر الدنيا ، وهذا الإنسان الغنى أو الوجيه فى ضنك الداخل ؛ ضنك بعده عن الله ، ضنك الخوف على المال أو الوجاهة ، ضنك الإحباط والحيرة والشقوة ؛ حيث لم ينشرح صدره لوحى الله ودينه ، فصار قاسيا بعيدا عن الأنس بالله ، والرضى بالقضاء والقدر ، والسرور بمحبة الله ، قال تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ . (الزمر : ٢٢) .

وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ .

قال بعض المفسرين : نحشره أعمى عمًى حسيا ، وهو عمى البصر ؛ عقوبة حسية على إعراضهم عن أدلة الحق ، وعن عدم النظر إليها ، واعترض آخرون عليهم بقوله تعالى : أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ... (مريم : ٣٨) .

وأجابوا : بأن هناك منازل ومواقف متعددة يوم القيامة .

فالكافر فى أول أمره يحشر أعمى لا يرى شيئا إلا جهنم ، وهى المصير الذى ينتظره ، وبعد فترة يبصر ليرى سوء منزلته ، وألوان العذاب الذى ينتظره .

وقال بعض المفسرين :

العمى هنا عمى البصيرة لا عمى البصر ، فهو أعمى عن كل حجة يدافع بها عن نفسه ؛ ذلك أن الله أعطاهم البصر والأذُن والعقل فى الدنيا ، فلمَّا لم ينظروا إلى الحق ، ولم يسمعوا إلى القرآن سماع تأمل وإنصات ، ولم يتفكروا فى هذا الدين ويتأملوا فيما اشتمل عليه ؛ صاروا كأنهم محرومين من هذه النعم فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة .

قال تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ . (الأعراف : ١٧٩) .

قال ابن كثير فى التفسير :

ويحتمل أن يكون المراد : أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا كما قال تعالى : وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا . (الإسراء : ٩٧) . ويؤيد ذلك الآية التى تليها .

١٢٥، ١٢٦ – قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ .

أى : قال الكافر : يا رب ، لم حشرتنى أعمى عن حجتى ، وأعمى البصر وقد كنت فى الدنيا بصيرا ؛ قال الله تعالى له : «كما أتتك آياتى ورسلى وشريعتى فى الدنيا ؛ فتناسيتها وأعرضت عنها ، وعاملتها معاملة الأعمى الذى لا بصر له ، كذلك ننساك فى الآخرة كما نسيتنا فى الدنيا» ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: فَٱلْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ... (الأعراف : ٥١) .

قال النيسابورى فى غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٦ /١٦٨ :

كَذَٰلِكَ . أى : مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسَّر ذلك بقوله : أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا . أى : دلائلنا واضحة مستنيرة فَنَسِيتَهَا . أى : تركت العمل بها ؛ والقيام بموجبها ، وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ . تترك بلا فائدة النظر والاعتبار.

١٢٧ – وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ...

أى : بمثل هذا الجزاء نجزى من أسرف على نفسه ، ودفع بها فى متاهات الضلال .

وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ. التى عرضت عليه ؛ إنه يحشر يوم القيامة أعمى ، ثم إن وراء هذا عذابا هو أشد من هذا العمى ، وأبقى أثرا .

وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ .

أى : ولعذاب الآخرة فى النار ، أشد مما نعذبهم به فى الدنيا وأكثر بقاء ؛ لأنه لا أمد له ولا نهاية .

★ ★ ★

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

المفردات :

أفلم يهد لهم : أفلم يتبين لهم العبر ؟!

لأولى النهى : لذوى العقول الراجحة .

لزامًا : لازمًا لهم لا يتأخر عنهم .

فسبح بحمد ربك : اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه .

آناء الليل : ساعاته .

ولا تمدن عينيك : لا تطيلن النظر ؛ رغبة واستحسانا .

متعنا : جعلناهم يتلذذون بما يدركون به المناظر الحسنة ، ويشمّون من الروائح الطيبة .

أزواجا : أشكالاً وأشباها .

زهرة الحياة الدنيا : زينتها وبهجتها .

لنفتنهم : لنبتليهم ونختبرهم .

ورزق ربك : ما ادَّخره لك .

واصطبر عليها : دم عليها .

تمهيد :

تشتمل الآيات ١٣٠ – ١٣٢ على منهج إلهى يأمر بالآتى :

١ – تسبيح الله وتنزيهه والمداومة على ذكره ، أو الصلاة المفروضة والنافلة ؛ فهذه وسيلة الرضا والرضوان .

٢ – عدم الالتفات إلى ما متع الله به الكافرين أو العصاة ؛ من زهرة الدنيا ؛ لتكون ابتلاء واختبارًا ، وما عند الله خير وأبقى .

٣ – أن يأمر أهله وعشيرته وأمته بالصلاة ، ويصطبر عليها ، وهو لايكلفه رزقًا لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله ، وعظيم عطائه ، والعاقبة للتقوى .

التفسير :

١٢٨ – أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ .

أرسل الله رسلا كثيرين إلى كثير من الأمم ، ولما كذّبت هذه الأمم رسلها واستكبرت وأصمت آذانها عن سماع الحق ، ولم يبق فيها أمل للإيمان ؛ أهلك الله هذه الأمم ، فغرق قوم نوح بالطوفان ، وهلكت ثمود فى شمال الجزيرة ، وهلكت عاد فى جنوب الجزيرة ، وأُغرق فرعون فى ماء النيل ؛ هؤلاء المكذبون كثيرون ، كانوا ينعمون ويتمتعون ، ثم يكفرون بالله ، فأهلكهم الله ، وليس هذا الهلاك بعيدًا عن أى كافر ، فكيف لا يهتدون ولا يفكرون ؛ فى مصير هذه الأمم السابقة ، وأن الله سبحانه يمكن أن ينزل بأهل مكة ، ما أنزله بالأمم ، والآية مبدوءة بالاستفهام الإنكارى .

والمعنى : أجهلوا فلم يهتدوا ويعرفوا حال الأمم السابقة المكذبة ؛ كيف أهلك الله هؤلاء حال كونهم مطمئنين يمشون فى مساكنهم ، فباغتهم العذاب .

ويمكن أن يكون المعنى : أن هؤلاء المشركين من أهل مكة يمرون على قرى ثمود وعاد وأصحاب الأيكة، وغيرهم من الأمم البائدة ، ويشاهدون آثارهم ودورهم كيف هلكت وبادت ولم يبق بها أثر ؛ أفلا يهتدون بحال هذه الأمم الهالكة ، وهم يمشون فى مساكنهم ؛ ويمرُّون عليهم فى أسفارهم إلى الشمال وإلى الجنوب.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ .

فى هذه الأمور عظة وعبرة لأصحاب العقول حتى ينتهوا عن غيهم ، ويهتدوا إلى رشدهم .

١٢٩ - وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى .

لقد قضى الله أن يؤخر جزاء المشركين إلى الآخرة ، ومن سنة الله أن يمهل العصاة ولا يعاجلهم فى الدنيا ؛ رجاء توبتهم قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا . (فاطر : ٤٥) .

كما أن الحق سبحانه أرجأ العذاب عن أهل مكة ؛ إكرامًا لوجود محمد ﷺ بينهم .

قال تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

أى : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين ، إلى مدة معينة ؛ لجاءهم العذاب بغتة . اهـ .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ما يأتى :

ولولا حكم سبق من ربك بتأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ؛ لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا ، كما لزم كفار القرون الماضية .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن ٨٣٩/١٦ :

وقوله تعالى : وَأَجَلٌ مُّسَمًّى . معطوف على قوله تعالى : كَلِمَةٌ سَبَقَتْ .

أى : لولا كلمة سبقت من ربك ، وأجل مسمى ؛ لكان لزامًا ، وقدّم جواب لولا على بقية الشرط للاهتمام به والالتفات إليه .

وأن كلمة الله هى الرحمة التى رحمهم بها ؛ بفضل مقام النبى الكريم فيهم .. فلعل هؤلاء المشركين يعرفون نعمة الله فيهم ، ومقام النبىّ بينهم .

والأجل المسمَّى هو ما قدر لهم من آجال فى هذه الدنيا . ا هـ .

وذهب الكشاف فى تفسير الآية إلى أن المعنى :

لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم ، كما كانا لازمين لعاد وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى ، دون الأخذ العاجل .

١٣٠ - فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .

أى : إذا كان إمهال الله للمشركين ليس إهمالاً ؛ بل يؤجلهم إلى أجل مسمى ، فاصبر أيها الرسول الكريم على ما يقولون ، من كفر وتشكيك فى رسالتك ، وانشغل بذكر الله وتسبيحه وتحميده فى أوقات متعددة ، خصوصًا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفى أوقات وآناء من الليل ، وفى أطراف النهار ، لعل الذكر والتسبيح يعمّق الإيمان ، ويمنحك الرضا واليقين والسعادة ، وهذه أعلى وأغلى من كلّ ما فى الدنيا .

ونلاحظ أن بعض المفسرين فسَّر كلمة وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . على ظاهرها وهى التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى ، وبعضهم فسّرها بأن المراد بها : الصلاة .

فالمراد بذكر الله قبل طلوع الشمس : صلاة الصبح ، وقبل غروبها : صلاة العصر ، وآناء الليل هى : صلاة المغرب والعشاء ، وأطراف النهار : صلاة الظهر ؛ لأنه يجب عند نهاية الطرف الأول من النهار ، وابتداء الطرف الثانى عند الزوال .

وفى صحيح البخارى ومسلم ، عن جرير بن عبدالله البجلى قال : كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ؛ فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[٧٤] . ثم قرأ هذه الآية : فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .

وروى مسلم وأحمد : أن رسول الله ﷺ قال : «لن يلج النار أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها».[٧٥]

١٣١ - وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .

أعطاك الله الرسالة والنبوة ونجاح الدعوة ، وأعطاك فى الآخرة الشفاعة ، وقال سبحانه : وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ . (الضحى : ٥) . وقال عز شأنه : عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء : ٧٩) . وهو تفسير لقوله تعالى : لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ . (طه : ١٣٠) .

وهذه الآية تنهى الرسول والمراد : أمَّته ، عن النظر إلى ما أعطى الكفار من زهرة الدنيا ومُتعها ؛ نظر إعجاب وإكبار . أمَّا النظرة العاجلة غير الممدودة التى تستكشف الطريق ، وتنظر نظرًا غير ممدود ولا مستعظم فلا بأس بها .

وقال ابن كثير :

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما فيه هؤلاء المترفون ، وأشباههم ونظراؤهم من النعيم ؛ فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة ؛ لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادى الشكور .

وقال مجاهد : أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ . يعنى : الأغنياء فقد آتاك الله خيرًا مما آتاهم ، كما قال فى الآية الأخرى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . (الحجر : ٨٧ ، ٨٨) .

وقال فى ظلال القرآن :

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ . من عرض الحياة الدنيا ، من زينة ومتاع ، ومال وأولاد ، وجاه وسلطان .

زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . التى تطلعها كما يطلع النبات زهرته لامعة جذابة ، والزهرة سريعة الذبول ؛ على ما بها من رواء وزواق ، فإنما نمتعهم بها ابتلاءً ؛ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . فنكشف عن معادنهم ، بسلوكهم مع هذه النعمة ، وذلك المتاع ، وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل .

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . وهو رزق للنعمة لا للفتنة ، رزق طيب خيِّرٌ باق ، لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن ، وما هى دعوة للزهد فى طيبات الحياة ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية ، وبالصلة بالله والرضى به ، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائما تحسُّ حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التى تبهر الأنظار[٧٦] .

وخلاصة هذا : التنفير من الانهماك فى التمتع بزهرة الدنيا لسوء عاقبتها .

١٣٢ – وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ .

والخطاب للرسول ﷺ ، ولكل من يتأتى منه الخطاب من أمته ، أى : وأمر عائلتك وأسرتك وأمَّتك ، وليأمر كل مسلم أهله بالصلاة ، فما أحسن أن يتجه البيت المسلم إلى الله فى الصلاة ، إلى قبلة واحدة ورب واحد ؛ فهذا يملأ القلب بالتقوى والطهارة ، وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا . واصبر على أداء الصلاة والمداومة عليها فى خشوع وخضوع ؛ فإن ذلك سبيل العزة والكرامة ، والسعادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة .

لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ .

لا تظنن أن الصلاة تشغلك عن أرزاق الدنيا ؛ فإن الرزق قد تكفَّل به الله تعالى . وطاعة الله وتقواه سبيل من سُبل الرزق ؛ فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .

قال ابن كثير :

وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ . أى : وحسن العاقبة فى الدنيا ، وفى الآخرة وهى الجنة لمن اتقى الله .

وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت الليلة كأنا فى دار (عقبة بن رافع) وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأوّلت ذلك أن العاقبة لنا فى الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب»[٧٧] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ثابت قال : كان النبى ﷺ إذا أصابته خصاصة نادى أهله : «يا أهلاه ، صلُّوا صلُّوا» ، قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة[٧٨] .

وأخرج الترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتى ؛ أملأ صدرك غنى وأسدّ فقرك ، وإن لم تفعل ؛ ملأت صدرك شغلا ، ولم أَسدّ فقرك»[٧٩] .

إننا نتوجه بهذه الآية الكريمة إلى شباب المسلمين ، ورجالهم وفتياتهم ونسائهم ، وإلى كل مسلم ومسلمة ، نقول لهم : أقيموا الصلاة وأمروا بها أهلكم ، واصطبروا على أدائها فى خشوعها وآدابها . وهذا هو سبيل الاستقامة والنجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة والله تعالى يقول : وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا . (الطلاق : ٢ ، ٣) .

أخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب يصلّى من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلى، حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ، ويقول لهم : الصلاة الصلاة ، ويتلو هذه الآية : وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ .

★ ★ ★

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

المفردات :

لـولا : هلا ، وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها .

آيـة : معجزة تدل على صدقه .

البينة : القرآن .

الصحف الأولى : التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية .

نذل : نهان .

نخزى : نفتضح .

متربص : منتظر .

الصراط : الطريق .

السوى : المستقيم .

تمهيد :

تحكى الآيات الأخيرة من سورة طه : بعض الأقاويل الباطلة للمشركين ، ومنها : إدعاؤهم : أن القرآن ليس بحجّة ولا معجزة تدل على نبوة محمد ﷺ ، ثم بين الحكمة من إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وهى أن تكون حجة على العباد ، وإعذارًا من الله لعباده ؛ حتى تنقطع معذرتهم ، ثم ختم السورة بضرب من الوعيد خلاصته : كل منا ومنكم منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتبيَّن المحق من المبطل .

التفسير :

١٣٣ - وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ .

أى : قال المشركون : هلا جاء محمد بمعجزة مادية ملموسة ، مثل ناقة صالح ، وعصا موسى . وشفاء المرضى لعيسى ؛ فهم يقترحون على النبى ﷺ أن يأتى بمعجزة ملموسة ، مثل تحويل الصفا ذهبا ، أو زحزحة جبال مكة ، وتفجير الينابيع والأنهار فى أرضها ؛ حتى تنبت الزروع والثمار فى مكة مثل زروع الشام .

وقد رد عليهم الحق سبحانه ؛ بأن في القرآن ما يكفي ويشفي ؛ فهذا الكتاب بيَّن ما أنزله الله في التوراة والإنجيل والزبور ، والصحف التي أنزلت على إبراهيم وموسى. ويكفي نزول هذا القرآن المعجزة على نبي أمي ؛ لم يقرأ كتابا ، فنزول القرآن مشتملا على أخبار القرون الأولى ، والصحف السماوية السابقة؛ دليل على صدق محمد ﷺ ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (العنكبوت : ٥٠ ، ٥١) .

وقد أخرج البخاري ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٨٠] .

وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه السلام وهو القرآن ، وإلا فله من المعجزات ما لا يحدّ ولا يحصر[٨١] .

١٣٤ - وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ .

شاء الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل عليهم الكتب ؛ قطعا لأعذار البشر يوم القيامة ؛ حتى لا يقولوا إذا أهلكهم الله بعذاب الاستئصال جزاء كفرهم وشركهم ؛ يا ربنا ، هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبعه وننجوا باتباعه من ذلّ الدنيا ، وخزي الآخرة !

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

وخلاصة المعنى : إنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نُرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم الكتاب العظيم ؛ لقالوا : ربنا ، هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن تهلكنا ؛ حتى نؤمن به ونتبعه ! لكنّ لم نهلكهم قبله ؛ فانقطعت معذرتهم[٨٢] .

١٣٥ - قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ .

تأتي هذه الآية في ختام سورة طه المكية ، تتوجه إلى المشركين الكافرين ؛ بهذا الإنذار الذي يقرع الآذان ، وهذا التهديد والوعيد .

ومعنى الآية : قل يا محمد لمن كذبك ، وخالفك ، واستمر على الكفر والعناد : أنتم تتربصون بنا ، ونحن نتربص بكم ، كلانا ينتظر ما ينزل بالآخر ، ولمن يكون الفلاح ، وإلام يئول أمرى وأمركم ، فتربصوا وارتقبوا ، فستعلمون غدا ، إذا قامت القيامة ؛ من هو صاحب الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، أنحن أم أنتم ؟

وستعلمون من هم الذين تجنبوا الضلالة ، واهتدوا إلى ما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم ، وكأن الآية تقول لهم : القيامة موعدنا ، وسنرى نحن وأنتم : من هو المستقيم منا والمعوج ، ومن هو المهتدى والضالّ ، كما قال سبحانه : وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ . (سبأ : ٢٤) .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ . (القمر : ٢٦) .

وقوله سبحانه : وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً . (الفرقان : ٤٢) .

قال فى ظلال القرآن :

وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذى ينتظرهم ؛ يؤمر الرسول ﷺ أن ينفض يده منهم ، فلا يشقى بهم ، ولا يكربه عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم : أنه متربص بهم ذلك المصير ، فليتربصوا هم كيف يشاءون .

قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ .

وفى ختام تفسير سورة طه ندعو الله تعالى : أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهاب همنا وحزننا . اللهم ، أكرمنا بالقرآن العظيم ، واجعله لنا هاديًا ومرشدًا وإمامًا ، وأكرمنا بالقرآن فى الدنيا والآخرة . اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

خلاصة لما اشتملت عليه سورة طه

١ – إن القرآن أنزله الله على نبيه محمد ﷺ تذكرة لمن يخشى ، أنزله من خلق الأرض والسماوات العلى .

٢ – قصص موسى عليه السلام فى موقف المناجاة ، والإنعام بالرسالة ، وإعطاء موسى معجزتين ، ودعاء موسى لله ، واستجابة الله دعاءه ، والتفضل عليه بنعم سابقة وتذكيره بها ؛ فقد حفظه صغيرا من القتل ، ورده إلى أمّه ، وجاء من أرض مدين على قدر وميعاد .

٣ – مناقشة موسى وهارون مع فرعون ، وتقديم موسى أدلة الألوهية لله تعالى ؛ فهو سبحانه خالق الأكوان، والذكر والأنثى ، وهو العليم بأحوال القرون الأولى .

٤ – قصة إيمان السحرة ، وتهديد فرعون لهم بالعذاب الشديد ، لكنهم صمدوا وأخلصوا لله فى إيمانهم .

٥ – قصة السامرى ، وصياغة عجل من الذهب له خوار ، وقوله : إن هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسى .

٦ – حياة السامرى منفيا منبوذًا فى البرارى والقفار .

٧ – صور من مشاهد القيامة حيث تنسف الجبال ، وتصبح الأرض مستوية تمامًا ؛ لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وتخشع الأصوات ، وتعنو الجباه لله وحده ، فهو المالك لهذا اليوم .

٨ – قصة آدم عليه السلام ، وإسكانه الجنة ، ونهيه عن الأكل من الشجرة ، ثم وسوسة الشيطان له . واستدراجه حتى أكل آدم وحواء من الشجرة ثم خروجهما من الجنة ، ثم توبة آدم وقبولها .

٩ – بعض مشاهد القيامة .

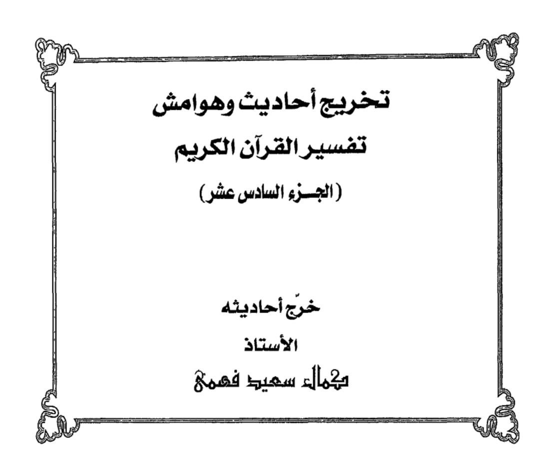
١٠ – دعوة الرسول محمد ﷺ إلى المحافظة على الصلاة ، وعدم الاغترار بما أوتى الكفار والأغنياء من الأموال ؛ امتحانًا لهم واختبارًا ، والدعوة إلى المحافظة على الصلاة ، وأمر الأسرة بالصلاة .

١١ – ختام السورة ، وفيه تهديد ووعيد لأهل مكة .

★ ★ ★

تمّ بحمد الله تفسير الجزء السادس عشر ويليه تفسير الجزء السابع عشر

إن شاء الله



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجـــزء السادس عشر)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

جمال سعيد فهمي

(١) رحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا :

رواه البخارى فى العلم (١٢٢) وأحاديث الأنبياء (٣٤٠١) والتفسير (٤٧٢٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٨٠) من حديث أبى ابن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام ببنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟.. الحديث» وفيه : قال رسول الله ﷺ : «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما» قال : قال رسول الله ﷺ : «كانت الأولى من موسى نسيانا» قال : «وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر البحر فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر» قال سعيد بن جبير : وكان يقرأ: وكان إمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، وكان يقرأ : وأما الغلام فكان كافرا .

(٢) إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا :

رواه مسلم فى القدر (٢٦٦١) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٥ ، ٤٧٠٦) والترمذى فى التفسير (٣١٥٠) وأحمد فى مسنده (٢٠٦١٨) من حديث أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش؛ لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا» .

(٣) لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له :

رواه أحمد فى مسنده (١٢٤٩٥) من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبت للمؤمن إن الله لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له» . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه إلا أنه قال : تبسم رسول الله ﷺ ثم قال ، فذكره ورجال أحمد ثقات وأحد أسانيد أبى يعلى رجاله رجال الصحيح غير أبى بحر ثعلبة وهو ثقة .

(٤) الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، وتفسير القرآن ح ٤٧٧٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨ ، ٩ والترمذى فى الإيمان ح ٢٦١٠ ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٩٥ ، وابن ماجة فى المقدمة ح ٦٣ ، ٦٤ ، وأحمد ح ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١ من حديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يومًا بارزًا للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال : يارسول الله ، ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر» قال : يارسول الله ، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» قال: يارسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: يارسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس، فذاك من أشراطها خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام...﴾ ثم انصرف الرجل فقال: «ردوا على» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا فقال: «هذا جبريل جاء؛ ليعلم الناس دينهم» وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٥) اللهم ، أجرنى فى مصيبتى :

رواه مسلم فى الجنائز (٩١٨) ومالك فى الموطإ كتاب الجنائز (٥٥٨) وأحمد فى مسنده (١٥٩٠٩) من حديث أم سلمة أنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم، أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها ؛ إلا أخلف الله له خيرا منها» قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله ﷺ قالت: أرسل إلى رسول الله ﷺ

حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له فقلت: إن لى بنتا وأنا غيور فقال: أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة .

(٦) إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته :

رواه الترمذى فى الجنائز (١٠٢١) وأحمد فى مسنده (١٩٢٢٦) من حديث أبى سنان قال: دفنت ابنى سنانا، وأبو طلحة الخولانى جالس على شفير القبر فلما أردت الخروج أخذ بيدى فقال: ألا أبشرك يا أبا سنان قلت: بلى فقال حدثنى الضحاك بن عبدالرحمن بن عرزب عن أبى موسى الأشعرى: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدى! فيقولون: نعم فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده! فيقولون: نعم فيقول: ماذا قال عبدى! فيقولون: حمدك واسترجع فيقول الله : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه : بيت الحمد» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٧) ما يصيب المسلم ، من نصب ولا وصب :

رواه البخارى فى المرضى باب : ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى ، وعن أبى هريرة عن النبى؟ قال : «ما يصيب المسلم ، من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حَزَن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يُشاكها ؛ إلا كفَّر الله بها من خطاياه» . رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب : ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال : لما نزلت: ﴿من يعمل سوءا يجز به...﴾ ، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ؟ فقال : «قاربوا وسددوا» . وكل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها» . هذا حديث حسن غريب . ورواه البخارى فى المرضى باب : ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢)عن عائشة قالت : قال رسول الله : «ما من مصيبة تصيب المسلم ؛ إلا كفَّر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها» .

(٨) أشد الناس بلاء الأنبياء :

بوّب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٩) إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٥٣) وأحمد فى مسنده (١٢٠٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن الله قال إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر؛ عوضته منهما الجنة» يريد عينيه .

(١٠) التفسير الكبير لفخر الدين الرازى .

(١١) تفسير المراغى ١٦ / ١٣ .

(١٢) زبدة التفسير من فتح القدير ١ / ٣٩٣ .

(١٣) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى ٢ / ٤٣٥ .

(١٤) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .

(١٥) انظر فى ظلال القرآن .

(١٦) تفسير المراغى ١٦ / ١٩ .

(١٧) فى ظلال القرآن ١٦ / ١٥ طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(١٨) فإن بما ورد فى تفسير أضواء البيان للشنقيطى ، حيث رجح أن خروجهم سيكون قرب قيام الساعة وذكر عدة أدلة .

(١٩) ويل للعرب من شر قد اقترب ؛ فتح اليوم من ردم يأجوج :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٣٤٦ ، ٣٣٤٧) ومسلم فى الفتن (٢٨٨٠) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٣) .

(٢٠) يؤتى بالرجل العظيم لا يزن عند الله :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٢٩) ومسلم فى صفة القيامة (٢٧٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: اقرءوا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾» .

(٢١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٢ / ٤٣٩ .

(٢٢) إن الجنة مائة درجة :

جزء من حديث ، رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ٢٧٩٠ ، والتوحيد ح ٧٤٣٢ ، وأحمد ح ٧٨٦٣ ، ٨٢١٤ ، ٨٢٦٩ ، من حديث أبى هريرة مرفوعًا : من آمن بالله وبرسوله ..... الحديث . ورواه الترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٢٩ ، وأحمد ح ٢١٥٨٢ ، من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا : من صام رمضان وصلى الصلوات ..... الحديث . ورواه الترمذى أيضًا فى صفة الجنة ح ٢٥٣٠ وأحمد ح ٢٢١٨٧ ، ٢٢٢٣٢ ، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا : الجنة مائة درجة .... الحديث . وأشار الترمذى إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما .

(٢٣) إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين :

رواه البخارى فى المناقب ح ٣٧١٤ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ح ٢٤٤٩ ، وأبو داود فى النكاح ح ٢٠٦٩ ، ٢٠٧١ ، وابن ماجة فى النكاح ح ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، وأحمد ح ١٨٤٢٨ ، ١٨٤٣٢ ، ١٨٤٤٧ ، ١٨٤١٥ .

(٢٤) فى ظلال القرآن ١٦ / ٢٤ ط ١ .

(٢٥) تفسير الطبرى ١٦ - ١٠٢ ط ١ بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٨ .

(٢٦) لا نورث ما تركنا صدقة :

رواه البخارى فى فرض الخمس ح ٣٠٩٣ ، ٣٠٤٩ ، والمغازى ح ٤٠٣٤ ، ٤٠٦٣ ، ٤٢٤١ ، والنفقات ح ٥٣٥٨ ، والفرائض ح ٦٧٢٥ ، ٦٧٢٨ ، ٦٧٣٠ ، والاعتصام ح ٧٣٠٥ ، ١٧٥٧ ، ومسلم فى الجهاد ١٧٥٩ ، ١٧٦١ ، والترمذى فى السير ١٦١٠ ، والنسائى فى قسم الفيء ح ٤١٤٨ ، وأبو داود فى الخراج ح ٢٩٦٣ ، ٢٩٦٨ ، وأحمد ح ١٠ ، ٢٦ ، ٥٩ ، ١٧٣ .

(٢٧) تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح :

رواه البخارى فى الأذان ح ٦٤٩، وتفسير القرآن ح ٤٧١٧ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٤٩ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٣٥، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٦ ، وابن ماجة فى الصلاة ح ٦٧٠ ، وأحمد ح ٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣ من حديث أبى هريرة أيضًا بلفظ : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ . ورواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح ٥٥٥ ، والتوحيد ح ٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٣٢ ، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٥ ، وأحمد ح ٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦ ، مالك فى النداء للصلاة ح ٤١٣ ، من حديث أبى هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...» الحديث .

(٢٨) لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧١) والدعوات (٦٣٥١) ومسلم فى الذكر (٢٦٨٠) وأبو داود فى الجنائز (٣١٠٨) وأحمد فى مسنده (١١٥٦٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال النبى ﷺ : «لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه فإن كان لابد فاعلا ؛ فليقل : اللهم ، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى» .

(٢٩) إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم :

رواه مسلم فى الآداب (٢١٣٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٥) وأحمد فى مسنده (١٧٧٣٦) من حديث المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألونى فقالوا : إنكم تقرءون ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال : «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم» .

(٣٠) يشتمنى ابن آدم :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣١٩٣ ، والنسائى فى الجنائز ح ٢٠٧٨ ، وأحمد ح ٨٨٧٠ .

(٣١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٢ / ٤٥١ .

(٣٢) محاضرات فى التاريخ الإسلامى لطلبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة . أ . د حلمى ... سنة ١٩٥٤ م (مخطوط) .

(٣٣) يؤتى بالموت على صورة كبش :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٣٠) والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٥٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآوه فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة﴾ وهؤلاء غفلة أهل الدنيا ﴿وهم لا يؤمنون﴾». ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٧) والدارمى فى الرقاق (٢٨١١) وأحمد فى مسنده (٧٤٩٣ ، ٨٦٨٩ ، ٩١٨٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «يؤتى بالموت بكبش أغبر فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج فيذبح ويقال: خلود لا موت» .

(٣٤) انظر تفسير الآلوسي والمراغي .

(٣٥) في ظلال القرآن ١٦ / ٤٤ ، ٤٥ طبعة عيس البابي الحلبي وشركاه ، وانظر تفسير المراغي ١٦ / ٦٤ ، حيث أفاد : أن الباحثين في الآثار المصرية ، يعتقدون أن أوزوريس صعد إلى السماء ، وله فيها عرش عظيم .

(٣٦) التائب من الذنب كمن لا ذنب له :

رواه ابن ماجة في الزهد (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

(٣٧) ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» . قلت : تفرد به البخاري وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح؛ لعدوه من منكرات خالد بن مخلد .

(٣٨) وعزتى وجلالى لو أتانى عبدى ليلا لقبلته :

لم أقف عليه .

(٣٩) ألا تزورنا أكثر مما تزورنا :

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٨) والتفسير (٤٧٣١) والتوحيد (٧٤٥٥) والترمذي في التفسير (٣١٥٨) وأحمد في مسنده (٢٠٤٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا» قال: فنزلت: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا...﴾ الآية .

(٤٠) عليك بسبحان الله والحمد لله :

رواه ابن ماجة في الأدب (٣٨١٣) من حديث أبي الدرداء قال : قال لى رسول الله ﷺ : عليك بسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ فإنه يعنى يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها .

(٤١) انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ، وفي بعض الروايات : أن خباب بن الأرت صنع سيفا ، للعاص بن وائل ، فلما تقاضاه ثمنه ، تهكم به .

(٤٢) تفسير ابن كثير ، والآلوسي .

(٤٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٢ / ٤٦٥ .

(٤٤) رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وأن جرير ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٢ / ٤٦٦ .

(٤٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٢ / ٤٦٦ .

(٤٦) من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة ، قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئا ؛ جاء له عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهن شيئا ؛ فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه» .

(٤٧) يشتمنى ابن آدم :

تقدم تخريجه ص (٣٠٩٤) .

(٤٨) لا أحد أصبر على أذى :

رواه البخارى فى الأدب ح ٦٠٩٩ ، والتوحيد ح ٧٣٧٨ ، ومسلم فى صفة القيامة ح ٢٨٠٤ ، وأحمد ح ١٩٠٩٢ ، ١٩١٣٦ . من حديث أبى موسى مرفوعًا : «ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله ...... الحديث» .

(٤٩) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابونى حيث قال فى التعليق عليه ، ويشهد له حديث البطاقة ، والله أعلم . اهـ . وقد ورد فى السنّة النبوية ما يفيد : أن النار لا يبقى فيها من قال : (لا إله إلا الله) .

(٥٠) إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٧) .

(٥١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد الصابونى ٢ / ٤٦٨ .

(٥٢) فى ظلال القرآن ١٦ / ٥٧ مطبعة عيسى البابى الحلبى .

(٥٣) بصائر : ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى ص ٣٠ .

(٥٤) تفسير الطبرى ٦ / ٣٠ . بولاق .

(٥٥) المصحف المفسر : محمد فريد وجدى ص ٤٠٦ .

(٥٦) فى ظلال القرآن ١٦ - ٦٢ ، ٦٣ ط ١ .

(٥٧) نوع من الحيات .

(٥٨) إن النور إذا قذف به القلب اتسع له الصدر والشرح :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا : يا رسول الله ، كيف انشراح صدره ؟ قال : «إذا دخل النور القلب؛ انشرح وانفسح» . قلنا : يا رسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه الحاكم فى المستدرك من حديث ابن مسعود .

(٥٩) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابونى ٢ / ٤٧٠ .

(٦٠) إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها :

رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣٦) والتوحيد (٧٣٩٢) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٨) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال: إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها ؛ دخل الجنة» . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها ؛ دخل الجنة : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الحديث». وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ولا نعلم كبير شىء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا هذا الحديث وقد روى آدم بن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه: الأسماء وليس له إسناد صحيح .

(٦١) انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى .

(٦٢) احفظ الله يحفظك :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «يا غلام، إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله، لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلونى فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى ، فقال : «يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله ... الحديث» وفيه : «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» وفيه: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسرا» ، وأورده الضياء فى المختارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ: «يا ابن عباس ، احفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» ، وذكره مطولا بسند ضعيف ، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال فى المقاصد وقد بسطت الكلام عليه تخريج الأربعين .

(٦٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٢ / ٤٧٣ .

(٦٤) من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم :

رواه البخارى فى بدء الوحى (٧) والجهاد (٢٩٤١) والتفسير (٤٥٥٣) والاستئذان (٦٢٦١) ومسلم فى الجهاد (١٧٧٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٣٦) والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٧) وأحمد (٢٣٦٦) من حديث ابن عباس .

(٦٥) الفرما : هى العريش الآن ، وقد تم الفتح الإسلامى عن طريق الفرما ، ثم وصلوا إلى مصر . أى : طريق سيناء والعريش .

(٦٦) تقدم تخريجه ص (٣٠٦٦) ، وخروج الأنهار من الجنة كناية عن طيب مياهها كأنها من الجنة ؛ لأن هذه الأنهار منابعها معروفة فى الدنيا ، لكن ماءها طيب كماء الجنة والله أعلم .

(٦٧) إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم» قالوا يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ! قال : «بلى والذى نفسى بيده ؛ رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» .

(٦٨) ﴿جانب﴾ مفعول ثان لقوله : ﴿واعدنا﴾ و﴿الطور﴾ مضاف إليه ، ﴿الأيمن﴾ منصوب ؛ لأنه صفة لجانب .

(٦٩) اللهم انفعنى بما علمتنى :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٩٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «اللهم، انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علما، الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار» . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٧٠) أحكام القرآن : لأبى بكر محمد بن عبدالله المعروف : بابن العربى – تحقيق على محمد البجاوى ٣ / ١٢٦١ .

(٧١) تفسير الكشاف للزمخشرى ٢ / ٥٥٥ مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٧٢ م .

(٧٢) تفسير أبى السعود ٣ / ٣٢٧ .

(٧٣) تفسير أبى السعود .

(٧٤) إنكم سترون ربكم :

رواه البخارى فى التفسير ح ٤٥٨١ ، والتوحيد ح ٧٤٤٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ١٨٣ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٧٥) لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس :

رواه مسلم فى المساجد (٦٣٤) وأبو داود فى الصلاة (٤٢٧) والنسائى فى الصلاة (٤٧١) من حديث عمارة بن رؤيبة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعنى: الفجر والعصر، فقال له رجل من أهل البصرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟! قال : نعم قال الرجل : وأنا أشهد أنى سمعته من رسول الله ﷺ سمعته أذناى ووعاه قلبى !.

(٧٦) فى ظلال القرآن ١٦ / ٢٣٥٧ دار الشروق .

(٧٧) رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا :

رواه مسلم فى الرؤيا (٢٢٧٠) وأبو داود فى الأدب (٥٠٢٥) وأحمد فى مسنده (١٣٦٣٨) من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا فى دار عقبة بن رافع فأتينا برطب من رطب ابن طاب فأولت الرفعة لنا فى الدنيا والعاقبة فى الآخرة وأن ديننا قد طاب» .

(٧٨) إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله بالصلاة :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن ثابت قال : «كان النبى ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة ؛ نادى أهله بالصلاة : صلوا .. صلوا ..» قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر؛ فزعوا إلى الصلاة .

(٧٩) تفرغ لعبادتى ؛ أملأ قلبك غنى :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٦٦) وابن ماجة فى الزهد (٤١٠٧) وأحمد فى مسنده (٨٤٨١) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتى؛ أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك وإلا تفعل؛ ملأت يديك شغلا، ولم أسد فقرك» . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب وأبو خالد الوالبى اسمه : هرمز . قال السيوطى فى الدر : وأخرج الحاكم وصححه عن معقل بن يسار قال : «قال رسول الله ﷺ : يقول ربكم : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتى ؛ أملأ قلبك غنى ، وأملأ يديك رزقا . يا ابن آدم ، لا تباعد منى ؛ فأملأ قلبك فقرا ، وأملأ يديك شغلا» . قال الهيثمى فى المجمع: رواه الطبرانى وفيه سلام الطويل وهى متروك . وقال السيوطى فى الدر أيضًا : وأخرج أحمد وأبو نعيم عن خيثمة قال : مكتوب التوراة : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى ؛ أملأ قلبك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ؛ أملأ قلبك شغلا ، ولا أسد فقرك» وقال فى موضع آخر : وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : تلا رسول الله ﷺ ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه... الآية﴾ ثم قال : يقول الله : «ابن آدم، تفرغ لعبادتى ؛ أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ؛ ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك» .

قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : صحيح ، وأقره الذهبى فى التلخيص لكنه كتاب الزهد نقله عن التوراة بهذا اللفظ ثم قال: وروى مرفوعًا ولا يصح . انتهى وفيه عند الترمذى أبو خالد الوالبى عن أبيه . وأبوه لا يعرف كما فى المنار وزائد بن نشيط لا يعرف أيضًا .

(٨٠) ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٤٩٨١) والاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم فى الإيمان (١٥٢) وأحمد فى مسنده (٨٢٨٦) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» .

(٨١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٢ / ٥٠٠ .

(٨٢) تفسير المراغى ١٦ / ١٧٠ .

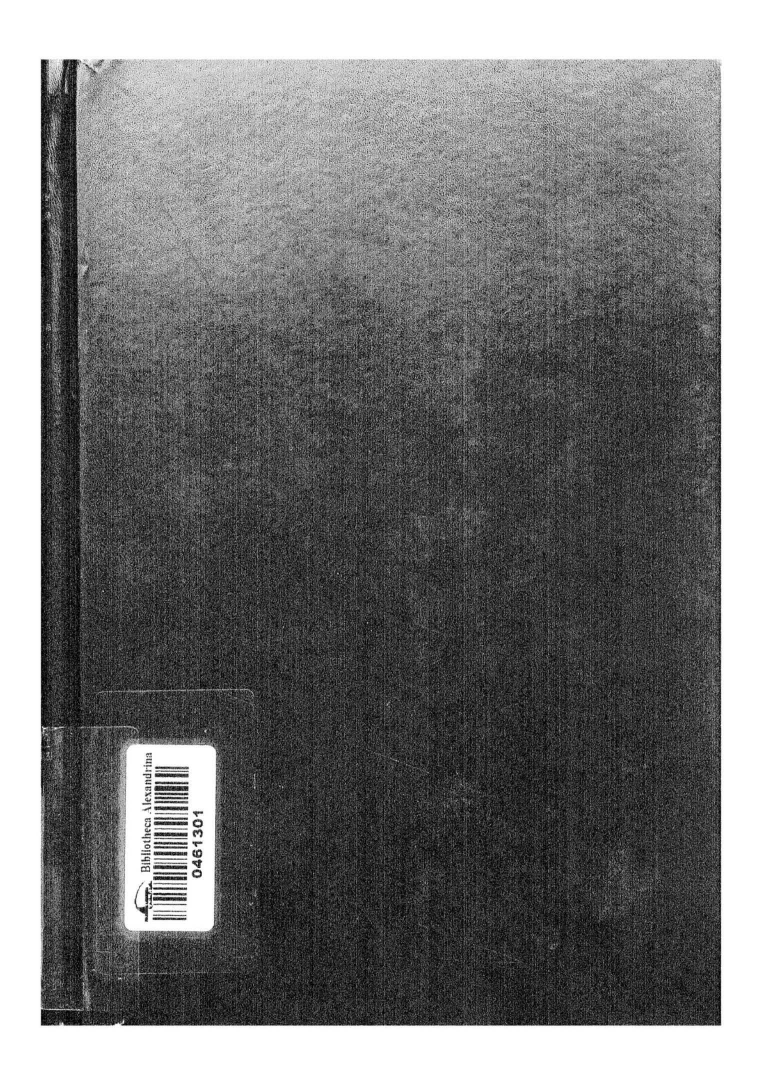


تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (السادس عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله تفسير الجزء (السادس عشر)

ويليه تفسير الجزء (السابع عشر) إن شاء الله


Bibliotheca Alexandrina
0461301